دور المرأة الرسالية في دولة النبوة

تأليف
الدكتور سعيد هاشم

مؤسسة الفجر
لندن

دَوْرُ المرأة الرسالية

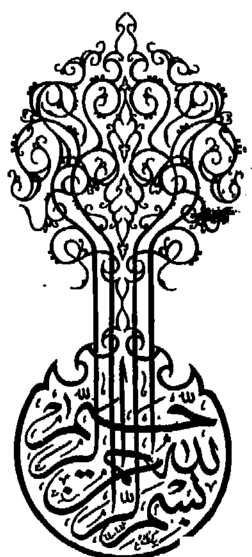
في

دولة النبوّة

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

مؤسسة الفجر
لندن

AL-FAJR
B.M. BOX 1505 LONDON WC1N 3XX ENGLAND U.K.


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل سيدة وكل فتاة في جميع أنحاء المعمورة، إلى الأمّهات الحريصات على تربية أولادهنّ وفقاً لقيم الدِّين المحمّدي والقيم الإنسانية، لإعدادهم الإعداد الأمثل لخدمة مجتمعاتهم.

إلى الأمّهات اللّواتي ينتظرن بصبرٍ وإيمان راسخ إطلالة أبنائهن من خلف قضبان السجون في صراع الحق مع الباطل، من أجل غد أفضل.

إلى الفتيات الحريصات، على انتهاج النهج القويم، والتطلّع لخدمة مجتمعاتهن، وفقاً للقيم الإنسانية الأصيلة.

إليهن جميعاً، أقدِّم هذه الدراسة عرفاناً بدورهنَّ العظيم في خدمة البشرية وتطوّرها، عبر التاريخ الإنساني.

التمهيد

الأمّ مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيّب الأعراق

المرأة نصف المجتمع، ولا يمكن أن تقوم حياة المجتمعات بدونها. فإذا كان الأطفال، قناديل الحياة الزوجية فإنّ المرأة هي عطر الحياة بل ملحها. ولا يمكن لأي مجتمع أن يحقّق تقدّماً، أو رقياً حقيقياً، دون مشاركة المرأة عن طريق إعدادها الإعداد الأمثل. إنّ رقيّ المجتمع، يبدأ من إعداد المرأة إعداداً سليماً صحياً ونفسياً وعقلياً. وهذه الدراسة محاولة متواضعة لبحث أحوال المرأة التي كانت عليها في العصر الجاهلي ومعرفة كيف كانت مكانتها في ظل الدين الجديد الذي كان بمثابة ثورةٍ ليس على حياة مجتمع شبه الجزيرة العربية فحسب، وإنما على حياة المجتمع البشري بشكل عام، وتقديم تعاليم ومبادىء جديدة تشمل حياة الإنسان الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية[1]. ثمّ دراسة نماذج للمرأة الرسالية التي قدمتها دولة النبوّة للمجتمع البشري.

وعلى الرغم من التغيير الجذري الذي أحدثه الإسلام، فيما يتعلّق بمكانة المرأة إلاّ أن الضيم الذي لحقها والذي لا يزال يصيبها يعتبر ظاهرة شنيعة. سواء كان ذلك في العالم الإسلامي أم في باقي دول العالم، فبالنسبة للعالم الإسلامي هناك الكثير من الانتهاكات لحقوق المرأة التي لا تتّسع هذه الدراسة لبحثها ولا تهدف لمناقشتها، ونادراً ما تمتعت المرأة بحقوقها السياسية مثلها مثل الرجل. فغياب الحريات العامّة سمة من سمات غالبية أنظمة الحكم في العالم الإسلامي منذ وفاة الرسول (ص) وحتى الآن، عدا استثناءات قد يغمرها التاريخ. فإذا كانت وسيلة القمع والإرهاب، هي أهم وسائل أنظمة الحكم في العالم الإسلامي في جميع العهود، فلا

شك في أنّ المرأة هي في مقدمة الضحايا. ولم تكن المرأة في العالم الغربي أحسن حالاً من أختها في العالم الإسلامي، إلا من الناحية الشكلية، أما النتيجة فهي واحدة في نهاية المطاف، على الرغم من توفر الحقوق السياسية مؤخراً للمرأة في العالم الغربي وبعض دول العالم الثالث.

ونتيجةً لسوء ممارسات الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي وابتعادها عن النهج النبوي في تطبيق المبادىء التي قامت عليها دولة النبوّة، وهي: الحق، العدل، المساواة والحرية. فقد أدى ذلك إلى تشويه صورة الدين الإسلامي وسمعة مجتمعاته بحيث سوّغوا للمجتمعات خارج العالم الإسلامي أن تعتقد أن الإسلام سجن المرأة في دارها وجعلها أسيرة جدران البيت، وأنّ رسالتها في الحياة تقتصر على تربية الأطفال وخدمة الزوج، وهذا في حد ذاته تشنيع على الإسلام، وإساءة لصاحب الرسالة ومؤسس دولة النبوّة النبي محمد (ص).

إنّ الكتّاب المستشرقين الذين يقومون بنقل تراث العالم الإسلامي وتاريخه إلى شعوبهم، يأخذون نماذجهم من حياة الحكّام المسلمين. إنّهم مخطئون في اعتبارهم الحكّام ممثّلين للمجتمعات الإسلامية، علماً بأنّ أغلبهم يمثّلون حكومات سياسية بحتة، ربما لا تمت إلى الدين بصلة، وقد فرضت نفسها بقوة السلاح. فمثلاً الحكّام الأمويون، عدا عمر بن عبد العزيز، والعباسيون، والعثمانيون عدا سليمان القانوني وغيرهم يعتبرون سُبّة في تاريخ الأمة الإسلامية[٢]. وعلى أي حال فإنّ المرأة في العالم الإسلامي في الوقت الحاضر، لا تزال متأرجحة بين التطرّف في الانفتاح باتباع دعوات دينية تناشدها التقوقع وبين التحرر المطلق وتقليد المرأة الغربية في ملابسها وحياتها الاجتماعية؛ دون معرفة الحقيقة المؤلمة التي تعيشها هذه المرأة.

لذا، فإنّ هذه الدراسة ستقدم بإيجاز صورة واضحة للمرأة في العصر الجاهلي وتبيّن كيف كانت مكانتها ودورها، وماذا قدّم لها الإسلام.

المحور الأساسي الذي يقوم عليه هذا البحث، هو مناقشة الدور الذي قامت به بعض النماذج النسائية للمرأة الرسالية والتي آمنت بدينها عن وعي وإدراك كاملين على أنّه عقيدة ومنهج للحياة ـ من داخل البيت النبوي وخارجه ـ وأن ذلك الدور

الذي لعبته هذه النماذج هو نتاج لتعاليم دولة النبوَّة ومفخرة للمجتمع النسائي الإسلامي والعالمي، من حيث التضحية والبذل والجهاد في سبيل الله انطلاقاً من المبادىء التي قامت عليها دولة النبوَّة، وهي: الحق والعدل والمساواة والحرية التي تهدف إلى تحقيق السعادة للإنسان، مهما كان لونه أو عرقه أو دينه، وفي أي مكان وفي أي زمان.

وتتكوّن هذه الدراسة من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة:

١ ـ مقدمة: تناقش وضع المرأة في العصر الجاهلي، ثمّ تلقي الضوء على حقوقها وواجباتها في ظل الدين الجديد الذي جاء به النبي محمد (ص)، ونبذة عن الدور الذي قامت به المرأة، خلال العهد النبوي، كنموذج لما يجب أن تكون عليه المرأة، من حيث رسالتها في الحياة والدور الذي يجب أن تضطلع به.

٢ ـ الفصل الأول: يناقش حياة السيدة خديجة بنت خويلد، بوصفها رائدة النضال الأولى للمرأة الرسالية في دولة النبوَّة.

٣ ـ الفصل الثاني: يناقش حياة السيدة فاطمة الزهراء بنت محمد (ص)، بوصفها رائدة النضال الثانية للمرأة الرسالية في دولة النبوَّة، ويوضح مبرّرات تلك الرّيادة.

٤ ـ الفصل الثالث: يناقش ظروف نشأة السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب، بوصفها رائدة النضال الثالثة للمرأة الرسالية في دولة النبوَّة ومهامِّها في الملحمة الاستشهادية، ويوضح مبرّرات ريادتها النضالية.

٥ ـ الفصل الرابع: يناقش مجموعة من النماذج النسائية لنضال المرأة الرسالية في دولة النبوَّة في فترات مختلفة، وهي عشرة نماذج.

٦ ـ الخاتمة العامة: تتضمّن الاستنتاج العام لما تمت مناقشته، بالإضافة إلى تقديم المقترحات التي تبلورت من خلال هذه الدراسة فيما يتعلّق بدور المرأة.

٧ ـ الملاحق التوثيقية للخطب، وتشتمل على مجموعة من خطب آل

الرسول(ص)، إضافةً إلى قصيدةٍ انتظمت فيها تواريخ ولادة زعماء دولة النبوّة ووفاتهم وأماكن ذلك.

وتهتمّ الدراسة، بالتركيز على الجانب السياسي لنضال المرأة، من خلال النماذج المقدمة.

كما اتبعت الدراسة المنهج التحليلي، واعتمدت على مجموعة من المصادر الأولية والثانوية الهامّة.

أما المصادر الأولية فتشمل:

أ ـ المخطوطات وأهمها:

١ ـ بيان في خلافة النبي (ص)، للأصفهاني.

٢ ـ التتمة في تواريخ الأئمة، لتاج الدين بن علي العاملي.

٣ ـ زبدة الأصول، لبهاء الدين محمد العاملي.

٤ ـ اللهوف على قتلى الطفوف، لابن طاووس.

٥ ـ مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية للصَّفاني.

٦ ـ مشكاة المصابيح للكبداتي.

٧ ـ المستطرف من كل شيء مستظرف، للأبشيهي.

٨ ـ الجامع الصحيح للبخاري، إضافة إلى عدد آخر من المخطوطات ستكون مدوّنة جميعها ضمن مصادر الدراسة.

ب ـ مجموعة من الدراسات الأولية أهمها:

ابن حجر في صواعقه، الطبري في ذخائره، الردة للواقدي، خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للنسائي، الإمامة والسياسة لابن قتيبة، الأئمة الاثنا عشر لابن طولون.

جـ ـ المصادر الأولية الموسوعية، وتشمل: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، بحار الأنوار للمجلسي، وأعيان الشيعة للأمين.

إضافة إلى مجموعة هامّة من الدراسات الثانوية، التي اعتمدت على مصادر أولية منها: معالم المدرستين للعسكري؛ علي إمام المتّقين للشرقاوي؛ الصراط المستقيم للبياضي؛ الأنوار النعمانية للجزائري؛ الإنصاف في النص على الأئمة الاثنى عشر من آل محمد (ص) للبحراني؛ أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ للقرُماني.

وستكون ملاحظات القرّاء الموضوعية والبنّاءة، من الجنسين، موضع تقدير المؤلف واهتمامه.

ويسرُّ المؤلف، أن يوجّه شكره وتقديره، إلى كل مَن سهّل مهمّته لإعداد هذه الدراسة، خصوصاً العاملين في المكتبات الآتية بجامعة (ماكجيل) في (مونتريال) (بكندا):

أ ـ مكتبة معهد الدراسات الإسلامية، ويخصّ المؤلف بالشكر، من بين العاملين فيها، الدكتور (آدم جاسك) مدير المكتبة.

ب ـ دائرة الكتب النادرة والمجموعات الخاصّة، ويخصّ بالشكر الدكتور (ريجود فير) أمين المخطوطات.

جـ ـ مكتبة (بلاكر وود) للأحياء، ويخص بالشكر السيدة (آن هابك) مشرفة المكتبة.

د ـ مكتبة (أوسلر) لتاريخ الطب، ويخص بالشكر السيد (وين لبل)، مساعد أمين المكتبة.

كما، ويسعد المؤلف أن يوجه عظيم شكره وفائق امتنانه للأخ الوفي الدكتور علي أحمد العريبي على تكرّمه بقراءة الدراسة، وملاحظاته القيّمة. والأخ العزيز الدكتور عبد الحسين عوّاد الذي بذل جهداً كبيراً في المراجعة النهائية لهذه الدراسة، وتحمَّل عناء متابعة النَّشر.

إليهم جميعاً إكبارٌ وتقدير.

سعيد هاشم

مونتريال، في ٢ ربيع الأول ١٤١٣هـ

الموافق ٣١ آب/ أغسطس ١٩٩٢م

المقدمـة

أولاً: المرأة في العصر الجاهلـي:

نبذة تاريخية عن حياة المرأة ونظرة المجتمع إليها، في العصر الجاهلي.

ثانياً: المـرأة في ظـل الإسلام:

الحقوق والواجبات.

أولاً: المرأة في العصر الجاهلي:

نبذةٌ تاريخية عن حياة المرأة، ونظرة المجتمع إليها، في العصر الجاهلي:

على الرغم من الدور الإنساني والتاريخي الذي كانت تقوم به المرأة في العصر الجاهلي، وهو رعاية الأسرة والقيام بأعباء المنزل، إلاّ أن بيئة المجتمع في شبه الجزيرة العربية، على الأقل، لم تكن ترى للبنت وزناً ولا للمرأة قدراً مهما بلغ شأنها.

وبلغ إسراف الجاهليين في كراهية الأنثى أن فريقاً من العرب كانوا يدفنون الوليدة حيةً لأنهم كانوا يعتبرونها عاراً عليهم في حياتهم أما الأسباب التي تدعوهم إلى ارتكاب هذه الجريمة فهي:

أ ـ الفقر؛ حيث أنَّهم كانوا يعتبرون البنت عالة على الأسرة تحتاج لمن ينفق عليها.

ب ـ خوف العار والفضيحة فيما لو شذّت البنت في سلوكها وخرجت على عادة الأسرة وتقاليدها.

جـ ـ احتمال تعرّض القبيلة للغزو والنهب وسبي النساء، على عكس الولد، الذي يمكن أن يتعلّم فنون القتال والدفاع عن القبيلة.

ويرى بعض، المؤرخين أنّ أوّل مَن ارتكب الوأد هو لقمان بن عاد، من العرب البائدة، بعد أن رُوِّع بخيانة نسائه، فقتلهن انتقاماً وتشفياً كما قتل بناته(٣).

ويرى القرطبي والنيسابوري أن النعمان بن المنذر أغار على تميم حينما امتنعت عن دفع الضريبة التي كان قد فرضها عليها، فكانت نتيجة تلك الغارة أن قتل عدداً من

رجالهم وسبى نساءهم. ولما ذهب قيس بن عاصم، شيخ القبيلة، ليسترد نساءه المسبيات تمنّعت إحدى بناته من الرجوع معه مفضّلة البقاء مع النعمان بن المنذر الذي ألحق الذل والهوان بقبيلتها. فعاد قيس والدها وكأنما أُصيب بحالة هستيرية فوأد كل بناته. ومضى على ذلك، لا تولد له بنت إلا وأدها، فغدا ذلك النمط السلوكي لشيخ تميم قدوة لرجال هذه القبيلة وغيرها من القبائل[٤].

ويرى فريق آخرَ من المؤرخين أن وأد البنات انتقل إلى العرب فيما انتقل إليهم من الأمم السابقة الذين كانوا يقدمون البنات قرابين إلى الآلهة، كما كان يفعل المصريون القدماء الذين يقدمون كل عام عروساً من أجمل فتياتهم قرباناً إلى النيل لتخفيف حدة فيضانه. كما أن بعضهم كان يقتل البنت أو يحرقها هبة لله، كما جاء في قوله تعالى: **﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون[٥]، أم له البنات ولكم البنون[٦]، ألكم الذكر وله الأنثى﴾**[٧].

وكان وأد البنات شائعاً قبيل نزول الوحي على النبي (ص) عند بعض القبائل العربية كتميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل ونظراً لبشاعة تلك المأساة وعنف صداها حاول بعض الكتّاب تطويقها في مناطق محدودة وظروف خاصة[٨]. وعلى أي حال، ليس باستطاعة أحد أن ينفي هذه الظاهرة من تاريخ العرب بعد أن تناولتها كتب التاريخ وندد بها القرآن الكريم في عدد من الآيات لتعريف المجتمعات عبر العصور بالمستوى المتدني الذي كانت عليه حياة المجتمع الذي بُعِثَ فيه النبي محمد (ص) من حيث القوة والعنف حتى مع فلذات أكبادهم. قال تعالى: **﴿وإذا الموءودة سُئلت بأي ذنب قتلت﴾**[٩].

وقال، أيضاً، واصفاً ردود فعل الأب، حينما يُبشّر بالأنثى، بقوله تعالى: **﴿وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيُمسكه على هونٍ أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾**[١٠].

ويصف أحد الشعراء العرب بعض دوافع الوأد بقوله[١١]:

وزادني رغبة في العيش معرفتي ذلَّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحمِ

أخشى فظاظـة عمّ أو جفاء أخٍ وكنتُ أبكي عليها من أذى الكلمِ

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرمُ نزال على الحرمِ

إذا تذكرتُ بنتي حين تندبُني فاضت لعبرة بنتي عبرتي بدمِ

في البيت الأخير، يصف الشاعر مدى قسوته ومقاومته لعاطفته الأبوية، وهو ينفذ جريمته، بينما ابنته تتوسّل إليه أن يخلِّصها فلا يرحم ضعفها ولا دموعها، فأصبح الآن يبكيها بعبراتٍ من دم.

ثم يصف حالته بعد وأدها، بقوله(١٢):

فالآن، نمت فلا همٌّ يؤرّقني بعد الهدوء بلا وجد ولا حُلُمِ

فيقول أنّه بدفنها هدأ باله، وزال ما يعكّر صفو عيشه.

وقد جاء، في القرآن الكريم، أن بعض دوافع الوأد، الفاقة أو الحاجة، وقد نَهى الله عن اللجوء إلى مثل تلك الجريمة بقوله:

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾(١٣).

وكانت قريش تئد بناتها في جبل بمكة يقال له: «أبو دلامة». وجاء في أخبار العرب أن صعصعة بن ناجية (جد الفرزدق) وعمرو بن زيد بن نفيل قد استنقذا عشرات البنات من آبائهن وتعهّدا لهم بتربيتهن. وكان أول عمل من هذا النوع قام به صعصعة بن ناجية أنه مرّ برجل من تميم يحفر حفرة، وإلى جواره امرأة تبكي وهي متعلّقة بوليدة لها. ولما سألها عمّا بها قالت: «إنّ زوجي هذا يريد أن يئد ابنتي»، فانثنى صعصعة على الرجل يسأله عن السبب، فأجابه: إن الفقر قد دعاني إلى ذلك فافتداها منه بناقتين معهما أولادهما. وظلّ لا يسمع بعمل من هذا النوع، إلا وأقبل عليه. وفي ذلك يقول بعض مَن ينتسبُ إليه، وربما الفرزدق:

ومنّا الذي منع الوائدات وحيّا الوئيد فلم يُوأدِ(١٤)

وفاخر الفرزدق، حفيد صعصعة، رجلاً عند بعض خلفاء بني أمية، فقال:

«أنـا ابنُ محيي الموتى» فأنكر ذلك. فقـال: إن الله عز وجل يقـول: **﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾**[١٥].

وعلى الرغم من انتشار هذه العادة، في مجتمع شبه الجزيرة العربية، إلا أن وجود شخصيات أمثال صعصعة بن ناجية وعمرو بن زيد بن نفيل لإنقاذ أرواح الكثيرات من الإناث وتخليصهـن من الوأد بدافـع إنساني يعكس النزعـات الخيّرة التي لم يكن يخلو منها المجتمع العربي في العصر الجاهلي. وقد روى البخاري في صحيحه قال: قال الليث: كتب إليَّ هشام عن أبيه عن أسماء بنـت أبي بكر قالت: «رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبـة يقول: «يا معشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري». وكان يحيي الموءودة، يقـول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتُها إليك وإن شئت كفيتُك مؤونتها»[١٦].

وقد حـارب الإسلام الوأد، ونـدد به كما جاء في الآيـات المذكورة حتى اختفى إلى الأبد.

وقـد عرف العـرب، في العصر الجاهلي، أنـواعـاً متعددة مـن الزواج. ويـروي البخاري، في صحيحـه، عن عائشـة زوج النبي (ص) أن النكـاح في الجاهلية على أربعة أنحاء:

«١ ـ فنكاح منها، نكاح الناس اليوم؛ يخطُبُ الرجل إلى الرجل وليَّته، فيصدِّقُها ثم ينكحها.

٢ ـ ونكاح آخر، كان الزوج يقـول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعـي منه ويعتزلها زوجُهـا لا يمسُّها أبـداً حتى يتبيّن حملُها من ذلك الـرجل الذي تستبضِعُ منه. فإذا تبيّن حملُها أصـابها زوجُها إذا أحبَّ وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد. فكان هذا النكاح، نكاح الاستبضاع.

٣ ـ ونكـاح آخر، يجتمـع الرهط ما دون العشـرة، ويدخلـون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرت ليـالٍ بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، ولا يستطيع رجلٌ منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عنـدها، تقول لهم قد عـرفتم الذي كان

من أمركم، وقد ولدت فهو ابنُك يا فلان، تسمي مَن أحبّت باسمه فيُلحَق به ولدُها ولا يستطيعُ أن يمتنع عن ذلك الرجل.

٤ ــ والنكاحُ الرابع، يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممّن جاءها . . . وهُنَّ السبايا، كنَّ ينصبن على أبوابهن راياتٍ تكون علماً، فمن أرادهنَّ دخل عليهنَّ، فإذا حملت إحداهنَّ ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة [كذا . .]، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط [كذا . .] به ودُعيَ ابنه لا يمتنع من ذلك، فلما بُعِثَ محمد(ص) بالحق، هدم نكاح الجاهلية، كله، إلا نكاح الناس اليوم»(١٧).

ثانياً: المرأة في ظل الإسلام:

حقوقها وواجباتها.

تمتّعت المرأة في ظل الإسلام، بمكانة مرموقة فقد انتشلها من الهوان والإبادة، فأوّل حق صانه الإسلام للمرأة هو تحريم وأدها كما خصص الله في كتابه العزيز سورة كاملة تشتمل على معظم شؤون المرأة وما تحتاج إليه من أمور دينها ودنياها.

وكانت المرأة أول مَن آمن وصدق بالدعوة إلى الإسلام وتلك هي السيدة خديجة بنت خويلد، كما سيأتي تفصيل ذلك لاحقاً في الفصل الأول.

وقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في كثير من شؤون الحياة ـ عدا الميراث والشهادة ـ رفعاً لشأنها وقال الرسول (ص) موصياً بها: «إنّ أحسن الناس عند الله مَن أحسن صحبة أزواجه وبناته»(١٨).

وروى البخاري عن أبي هريرة في وصية الرسول (ص) أيضاً بالمرأة قال: قال رسول الله (ص): «استوصوا بالنساء خيراً فإنّ المرأة خُلقت من ضلع وإن اعوجَّ شيءٌ في الضلع أعلاهُ قال فإن ذهبت تقيمه أو كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء»(١٩).

وكانت المرأة تؤدي الصلاة في عهد الرسول بالمسجد وخصوصاً في الأعياد، وروى أبو داود، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله (ص): «لا تمنعوا نساءكم المساجد فهو خير لهنَّ»(٢٠).

وروى البخاري عن ابن عباس قال: شهدتُ الصلاة يوم عيد الفطر مع رسول الله (ص) وأبي بكر وعمر وعثمان فكلّهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بعد فنزل نبي الله (ص) فكأني أنظر إليه حين يجلّس الرجال بيده ثم أقبل يشقُّهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿يا أيها النبيُّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنَّ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهنَّ﴾ حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: «أنتنَّ على ذلك».

وقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها: «نعم يا رسول الله» لا يدري الحسن مَن هي قال: فتصدَّقن. قال: وبسط بلالٌ ثوبه فجعلن يلقين الفتح والخواتيم في ثوب بلال»[٢١].

وكانت المرأة تبايع الرسول على الولاء لله ورسوله واتباع سنته. وفي ذلك روى البخاري عن عائشة قالت: كان النبي (ص) يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: ﴿لا تشركوا بالله شيئاً﴾. قالت: «وما مسَّت يدُ رسول الله (ص) يد امرأة إلا امرأة يملكها»[٢٢] ومن اهتمام الإسلام بالمرأة واحترامها وتقديرها أن الرسول (ص) كان يشجّعهن على الاستفسار عمّا يجول بخاطرهن فيما يتعلّق بشؤون الدين والدنيا دون أن يكون بينه وبينهن قيود.

فقد روى البخاري عن أبي سعيد، قال: جاءت امرأة إلى رسول الله (ص) فقالت: «يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلّمنا ممّا علّمك الله». فقال: «اجتمعن في يوم كذا وكذا، مكان كذا وكذا»، فاجتمعن. فأتاهنَّ رسول الله (ص) فعلمهنَّ ممّا علمه الله ثمّ قال: «ما منكُنَّ امرأة تقوم بين يديها من ولدها ثلاثة إلا كان لها حجاباً من النار» فقالت امرأة منهن يا رسول الله اثنين قال: فأعادتها مرتين ثم قال: «واثنين واثنين واثنين»[٢٣].

وهناك مشاهد ومواقف كثيرة دلّل الرسول (ص) من خلال سنته الكريمة المشتملة على أقواله وأفعاله وتقريراته على حث الأمة الإسلامية بل والبشرية على احترام المرأة وعدم انتقاصها لأنها لا تقلّ عن الرجل في شيء. روى أحمد بن حنبل عن جرير أنّ النبي (ص) مرّ على نِسوةٍ فسلَّم عليهن[٢٤].

وممّا يـؤكد حـرص الرسول على تـوجيه الأمـة ولفت انتباهها للعنـاية بـالمرأة كونها صـانعـة الأجيال وصـاحبـة التضحيـات الكبرى في كل زمان ومكـان، فقـد حثّ الأجيال على إيثار الأم بالطـاعة والرعاية وتقديم طاعتهـا على طاعة الأب اعترافاً من النبي (ص) بتضحيـاتها الجليلة فعن أبي هُـريرة قال: قـال رجل: يا رسـول الله مَن أحقُّ بحسن صحـابتي؟ قال: أمُّك. قـال: ثمّ مَن؟ قال: أمُّك. قـال: ثمّ مَن؟ قال: أمُّك، قال: ثمّ أباك ثم أدناك أدناك»[٢٥].

إنّ تأكيد الـرسول (ص) على الامتثـال والإحسان لـلأم دليل قاطع على الاعتراف بـدورها المقـدس في التربية والإعـداد للحياة. فـالإسـلام يقدّس المهمـة الإنسانيـة للمرأة، ولذا حثَّ الأولاد على العناية بها وبرِّها أكثر من الأب.

وروى أحمد وابن ماجة عن أبي أمـامة أنّ رجلاً قال يا رسول الله مـا حقُّ الوالدين على ولدهما؟ قال: «هما جنّتُك ونارُك»[٢٦].

ولتعزيـز وصايا الرسـول بالوالدين فإنّ القـرآن الكريم أيضاً قد حثّ على طـاعة الوالـدين والعناية بهما خصوصـاً حينما يبلغان سن الشيخوخة قـال تعالى: ﴿**وقضى ربك ألاّ تعبـدوا إلاّ إياه وبـالوالـدين إحسـاناً. إمـا يبلغن عندك الكبر أحـدُهما أو كِلاهما فـلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جنـاح الذُّل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً**﴾[٢٧]. بهذه النصائح يؤدب الرسول (ص) بأقواله وأقوال كتاب الله أجيال الأمة المتعـاقبة ليغرس في نفوسهم قيماً جليلة كالحب والـوفـاء ويلـزمهم بالطـاعـة ويحذّرهم من نكـران الجميل لمن وهبـوهم حيـاتهم. فالـوالدان كالشمعتين تحترقان من أجل إعطـاء الضوء للأولاد، ويـذبل شبابهما من أجل أن يتبرعم الأبناء.

وحيـاة الرسـول (ص) كلهـا عظـات وعبر ودروس للأمـة، فيـواصل تعليمهم وتربيتهم على الوفاء لمن يحسن إليهم، فتكون الأم، وكذلك المرضعة، صاحبة القدر المعلّى. روى أبو داود عن أبي الطفيل قال: رأيتُ النبي (ص) يقسمُ لحماً بالجعرّانة؛ إذ أقبلت امرأةٌ حتى دنت إلى النبـي (ص)، فبسط لها رداءه فجلست عليه فقلتُ:

مَن هي؟ فقالوا؛ هي أُمُّه التي أرضعته[٢٨]. هكذا يعلم الرسول (ص) الأمة ليقتدوا بسيرته.

وفي حجة الوداع لم ينسَ الرسول (ص) المرأة، فقد حظيت باهتمامه وهو يؤدي فريضة الحج. فقد أبى إلا أن يسجل للأمة الإسلامية وللعالم عبر الأجيال إلى نهاية الحياة مكانة المرأة التي تحتلّها في رسالته ودعوته إلى الحق والهداية، لقد كان الرسول (ص) يخاطب الأجيال المتعاقبة من خلال الحجاج الذين حضروا حجة الوداع وأوصاهم بالنساء خيراً في بعض خطبته في حجة الوداع، ومما قاله كما روى جابر بن عبد الله الأنصاري:

«إنّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا أن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع. ودماءُ الجاهلية موضوعة وإن أول دم أضعُ من دمائنا دمُ ربيعة بن الحرث كان مسترضعاً في بني سعد فقتله هُذيل. وربا الجاهلية موضوع وأوّلُ ربى أضعُ ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوعٌ كلُّه. فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله. ولكم عليهنَّ أن لا يُوطِئن فراشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فإنه يوهنُ غير مبرّح ولهنَّ عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وقد تركتُ ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله أنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهدُ أنك قد بلَّغت وأدّيت ونصحت فقال بإصبعه السَّبَّابة يرفعها إلى السماء وينكبُها إلى الناس اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد»[٢٩].

وتبقى وصية الرسول (ص) بالنساء مصانةً عبر تعاقب الزمن، خصوصاً في ذاكرة المصلحين والغيورين على تراث الأمة من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. فيجدِّدون وصاياه لتبقى لزاماً وقبساً لأجيال الأمة المتعاقبة. فهذا أحمد الخوي، أحد المفكرين المسلمين، يحدث في كتابه: «أطباق الذهب» مقتفياً أثر سنة الرسول (ص) فيصف طبيعة المرأة وأهميتها للرجل فيوصي بكيفية التعامل معها كما يدعو إلى تعمير بيتي الدنيا والآخرة فيقول:

«النساء عوايق الحجال شقائق الرجال. الرجال قوّامون والنساء قواعد. وهم أعضاد الدين وهنَّ سواعد. ما هنَّ إلا مكاريب زروعهم وشراسيف ضلوعهم. ألا فارفقوا بهنَّ فإنهنَّ لحم على خوان واستوصوا بهنَّ خيراً فإنهنَّ عوان. ورجل بلا بعل

كرجل بـلا بغل. والعزوبـةُ مفتاح الزنـا. والنكاح ملـواح الغنى. ومن نكح صفد بعض شيـاطينـه. ومن تـزوّج فقد حصَّن نصـف دينه، ألا فـاتّقـوا الله في النصف الثاني، فإنَّ خـراب الدين بشهوتين، شهوة الفـرج وهي الكبرى وشهوة البطن وهي الصغرى. فـاعمر الـركنين واحكم الحصنين. وإذا فرغـت من الرّواق والصفـة فلا تهمل السقيفـة والأسكعـة. واعلم أن الدنيـا والآخـرة ضرّتان، لـك إليهما كرَّتـان، إحداهما حُـرَّة حريرة، والأخرى أمـة مريرة. فاجعل للحـرة يومين فإنّ لها قسمين، ولـلأمـة قسماً فإن لها في كتـابك اسماً وأضعف نصيـب العُقبى ولا تنسَ نصيبك من الدنيا؛ واحفظ القسمة العادلة ولا تكن ممّن يحبّـون العاجلة. فالويلُ كل الويلُ أن تميلوا كل الميل فـاتقِ الميل بالقلب، فكُلُّ أولئك كان عنه مسـؤولاً. وإن كان ولا بد فلـلآخـرةُ خيرة لك من الأولى، وإن اتقيت الـزيغ فطلق الـدنيـا، إنها زائدة. وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة»[٣٠].

الزواج في الإسلام:

سبق ذكر أنواع الـزواج، أو النكاح، الذي كان معـروفاً في العصر الجاهلي، وقد هدمه الإسلام وأبقى على نوع واحد فقط وهـو نكاح الناس اليوم، إجلالاً وإعظاماً لكرامة المرأة.

وقد رغَّب الرسول المسلمين في الزواج فقال: «الزواج سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وقال أيضاً: «أُحبُّ من دنياكم ثلاث: الطيبُ والنساء وقرَّةُ عيني الصلاة».

وعن أبي هريـرة قال: قال رسـول الله (ص): «تنكحُ المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين لا تربت يداك»[٣١]. يؤكد الإسلام على أنّ المرأة هي اللبنـة الأولى لبنـاء الأسرة، والأسرة هي أســاس المجتمع، والتنشئـة السليمـة للأجيـال مرهـونة بالمرأة المدركـة والواعية لأمـور دينها ودنيـاها. فإذا صلحت المرأة صلحت الأسرة. وإذا صلحت الأسرة صلح المجتمـع. فـالمرأة الصـالحة هي منبع الخير والعطاء وصمام الأمان للأسرة من عوادي الأيام.

وروى ابن ماجة، عن أبي أمامة، عن النبي (ص) أنه قال: «ما استفاد المؤمن،

بعد تقوى الله، خير له مـن زوجة صالحة إن أمرها أطاعتـه وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبـرَّته وإن غاب عنها نصحته في نفسها ومالها»[٣٢].

وقد وصف الله، سبحانه وتعالى، الزواج بالرحمة بالعباد لتحقيق الطمأنينة بينهم فقال: **﴿ومن آيـاته أن خلـق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنـوا إليهـا وجعل بينكم مودَّة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾**[٣٣].

وقد شرَّع الإسلام للحياة الزوجية قوانين تحمي الزوجة من جور الزوج وتجاوزاته في جميع الظروف، سـواء كان ذلك في الظروف العـادية أم في غيرها، كـالحمل والولادة والطلاق وغيرها.

وقد حارب الإسلام غلاء المهور منذ العهـد الأول لدولة النبوَّة، وخير مثال لذلك السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي محمد (ص)، زوجة الإمام علي بن أبي طالب؛ إذ لم يتجاوز مهـرها خمسمئـة درهم. وحكى ابن الجوزي، في كتـابه «المنتظر في منـاقب عمر (ر)» قال: لما ولي عمر (ر) الخلافـة بلغه أن صداق أزواج النبي (ص) خمسمئة درهم. وأن صـداق فاطمـة (ع) كـان على علي بن أبي طالب (ع) أربعمئـة درهم. فأدى اجتهاد عمر أن لا يزيد أحد على صـداق البضعة النبوية فاطمة (ع). فصعد المنبر فحمد الله تعـالى وقال: «أيها الناس، لا تـزيدوا في مهور النسـاء على أربعمئة درهم فمن زاد ألقيت زيـادته في بيت مـال المسلمين». فهاب النـاس أن يكلّموه. فقـامت امرأة في يـدهـا طول فقـالت لـه: كيف يحلُّ لك هذا والله يقـول: **﴿وآتيتم إحداهـن قنطاراً فلا تـأخذوا منـه شيئاً﴾**. فقال عمـر (ر): «امرأة أصـابت ورجلٌ أخطأ»[٣٤].

يتّضح، من الـرواية المذكـورة، أن السلطـة الإسلاميـة، وعلى أعلى المستويـات كانت تتصدى لظاهرة غلاء المهور بهدف جعل الزواج ميسوراً لكل طبقات المجتمع حتى لا يكون ارتفـاع المهور من السلبيـات التي تلحق بالمجتمع كتأخـر سن الزواج عند الجنسين أو اتجاه الرجـال للزواج من مجتمعات أجنبية. كما توضح هـذه الرواية أيضـاً غيـاب الحواجــز بين الحاكمين والمحكـومين، وحق المرأة في التعبير عن رأيها ومخاطبـة أعلى سلطة في المجتمع الإسـلامي آنـذاك، والتعبير عما يخالجها في نفسهـا بكل صراحة دون أن يلحقها أي ضرر.

وقيل أيضاً: جاءت امرأة إلى عمر فقالت: «يا عمر إنّ زوجي يصوم النهار ويقوم الليل». فقال لها: نعم الرجل زوجك. وكان في مجلسه رجل يسمى كعب، فقال: يا عمر: إنّ هذه تشكو زوجها في أمر مباعدته إياها عند الفراش. فقال له: كما فهمت كلامها احكم بينهما. فقال عليٌّ بزوجها فأُحضر. فقال له: «إنّ هذه المرأة تشكوك. قال: أفي أمر طعام أم شراب؟» قال: «بل في أمر مباعدتك إياها عند فراشك»، فأنشأت تقول شعراً:

يا أيها القاضي الحكيم أنشده	ألهى خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله لا يرقده	لستُ في أمر النساء أحمده

فأنشأ الزوج يقول شعراً:

زهّدني في فرشها وفي الحلل	إني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النحل وفي السبع الطول	وفي كتاب الله تخويف نحل

فأنشأ القاضي يقولُ شعراً:

إنَّ لها حقاً عليك لم يزل	في أربع نصيبها لمن عقل

تعاطها داع، ودع عنك العلل

ثمّ قال له: إنّ الله أحلَّ لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام بلياليهن. ولها يوم وليلة[٣٥].

هكذا حظيت المرأة، في ظل الدولة النبوية، وفي الصدر الأول لهذه الدولة بكل احترام وتقدير وفقاً لتشريعات سنَّها مؤسس هذه الدولة. فكانت شكاوى المرأة وتظلمها من زوجها، أو استفساراتها عن أمور الدين والدنيا، تلقى صدوراً رحبة لتشجيعها على الحوار دونما خجل أو خشية، لخلق الثقة بالنفس وإعطائها المكان اللائق بها كعضو فاعل في المجتمع.

وأتى رجل إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) فقال له: «إنّ لي امرأة كلما غشيتُها تقول: قتلتني قتلتني» فقال اقتلها بهذه القتلة وعلى أثمها[٣٦]. هكذا حرص

النبي(ص) والخلفاء من بعده على تربية رجال الأمّة ونسائها، وعلى الحوار المفتوح والبنّاء الذي كان يرمز إلى مجتمع الأسرة الواحدة. وتتكرّر دروس المربي العظيم للأمة رجالاً ونساءً.

وروى البخاري، في صحيحه عن أم سلمة (ر)، أنّ أم سليم قالت: «يا رسول الله، إنّ الله لا يستحي من الحق هل على المرأة غسل إذا احتلمت؟ قال: نعم. إذا رأت الماء فضحكت أم سلمة فقالت: أتحلمُ المرأة؟ فقال النبي (ص): فيم يشبه الولد»[٣٧]. بهذه الصراحة ربّى النبي (ص) أبناء الأمّة وبناتها. إنّ تلك الدروس هي رسالية موجهة إلى كل الأجيال، وإلى كل الأمم، وإلى كل القادة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لأنه بُعث إلى الناس عامة بصفته خاتم الأنبياء. فقد ورد في الحديث الشريف الذي يرويه البخاري عن جابر، قال: «قال رسول الله (ص) أُعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نُصرتُ بالرُّعب مسيرة شهر وجُعِلت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً، فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ. وأُحلت لي المغانم ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي. وأُعطيتُ الشفاعة. وكان النبيُّ يُبعثُ إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة»[٣٨].

ولم ينجب الرسول (ص) إلا من السيدة خديجة، ومنها استمر نسله عن طريق السيدة فاطمة الزهراء زوجة الإمام علي بن أبي طالب. ومارية هي الوحيدة بعد خديجة التي أنجبت ابنه إبراهيم، وتوفي قبل أن يبلغ الثانية من عمره[٣٩]، وكان زواجه بها في السنة السابعة للهجرة، وقد أهداها المقوقس ملك مصر إلى النبي، ومعها أختها سيرين وعبد خصي اسمه مابور وألفُ مثقال ذهباً وعشرون ثوباً من قباطي مصر، وبغلة سميت (دلدل) وحمار اسمه (يعفور)، فأهدى النبي (ص) أختها سيرين إلى شاعره حسّان بن ثابت[٤٠].

ومن الجدير بالذكر أنّ معظم زيجات الرسول (ص) كانت لأسباب إنسانية حيث أن غالبية نسائه أرامل، والزوجة البكر الوحيدة هي عائشة بنت أبي بكر. ومع ذلك فقد عدل بين الجميع. فمثلاً حينما وهبت زوجته سودة بنت زمعة ليلتها لعائشة وافقها رسول الله (ص) أول الأمر، وجعل ليلتها لعائشة حتى يشعرها أنه قبل

هبتها، ثـم قسم لها ليلتها مثل بقيـة أزواجه بعـد حين ليشعرهـا بأنه لا يجفـوها ولا يهملها[٤١].

وعاش الرسول (ص) مع زوجاته، عيشـة الكفاف، زاهداً قانعاً، ليشارك فقراء الأمة عيشتهم وليضرب المثل الأعلى للقيـادة الراشـدة عبر العصور. فقـد روى عروة عن عائشة أنها كانت تقول: «والله، يا ابن أخي، كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال ثلاث أهله في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله (ص) نار. قلت: يا خـالـة فما كان يعيشكم؟ قـالت: الأسـودان، التمـر والماء، إلاّ أنـه كان لـرسـول الله(ص) جيران من الأنصار وكانت لهم منـائح، وكانوا يرسلـون إلى الرسول (ص) من ألبانها فيسقينا». (متفق عليه).

وعن زهده (ص)، أيضاً، روى البخاري عـن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة: «أنه مـرَّ بقوم بين أيديهم شـاة مصلية، فدعـوهُ فأبى أن يأكل، وقال: خـرج رسول الله(ص) من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير»[٤٢].

ولم يكن تقشّفه عـن عُسر، فقد جاءتـه الغنائم من أقـاليم الدولـة وكثرت لـديه الأموال، وشبع أفقر الناس وفاضت يداه بالعطاء السخي. عن جابر (ر): «ما سُئل رسول الله (ص) شيئـاً قط فقال لا». (متفق عليـه). وعن أنس (ر) قال: مـا سُئل رسـول الله (ص) على الإسلام شيئـاً إلا أعطـاه، ولقد جـاءه رجل فأعطـاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: «يـا قوم أسلموا فإنّ محمداً يعطي عطاء مَن لا يخشى الفقـر، وإن كان الـرجل يسلم مـا يـريـد إلا الدنيـا فما يلبث إلا يسيراً حتى يكـون الإسلام أحبُّ إليه من الدنيا وما عليها»[٤٣].

لقد اختار النبي (ص) هذا النمط مـن العيش رغبة فيما أعدَّه الله لعباده المتّقين، وليكون قدوة حسنة لجميع طبقات المجتمـع في كل زمان ومكان. قال تعالى: ﴿**لقد كـان لكم في رسـول الله أسـوة حسنـة لمن كـان يـرجـو الله واليـوم الآخـر وذكـر الله كثيراً**﴾[٤٤]. ولقـد ضاقت بعض زوجـاتـه ذرعاً بهذه الحيـاة المتقشّفـة مثل عائشـة وحفصة حتى تدخّل أبواهما: أبو بكر وعمـر وزجراهما منعاً لتذمّرهما من نمط الحياة النبوية الزاهدة[٤٥]. حتى نزل قوله تعالى مخاطبـاً رسوله (ص) في تذمّرهن وتخييرهن بين الحياتين: ﴿**يا أيّها النبـيُّ، قل لأزواجك: إن كنتن تردن الحيـاة الدنيـا وزينتها**

فتعالين أمتّعكنَّ وأسرحكنَّ سراحاً جميلاً. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإنّ الله أعدَّ للمحسنات منكُنَّ أجراً عظيماً﴾(٤٦).

وعلى الرغم من علو منزلته عند الله وعند الناس، ومن هيبته، فإنّ حياته في بيته مع زوجاته تعتبر نموذجاً يحتذى به. عن عائشة (ر) قالت: كان رسول الله (ص) يخصِفُ نعله ويخيطُ ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدُكم في بيته. وقالت: «كان بشراً من البشر يفلي ثوبه ويحلبُ شاته ويخدمُ نفسه»(٤٧).

وكما كانت حياة الرسول (ص)، في بيوته مع نسائه، دروساً للمجتمعات البشرية: رجالاً ونساءً، كذلك كانت حياته مع مجتمع المدينة كلها عظات وعِبر. وعن أنس قال: «خدمتُ النبي (ص) عشر سنين فما قال لي: أفّ ولا لم صنعت ولا إلاّ صنعت» (متفق عليه).

وعن أنس أيضاً قال: «كان رسول الله (ص) إذا صلّى الغداة جاء خدمُ المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يأتون بإناء إلا غمس يدهُ فيها فربّما جاؤوه بالغداة الباردة فيغمس يدهُ فيها»(٤٨).

قبل أن ينزل القرآن بتحديد الأزواج بأربع، وكان ذلك في السنة السابعة من الهجرة. فقد كانت ميمونة بنت الحارث الهلالية هي آخر مَن تزوّج من النساء. وهي خالة عبد الله بن عباس وخالد بن الوليد، وأيضاً خالة أولاد جعفر بن أبي طالب الملقب بالطيار، وأخت أم المؤمنين زينب بنت خزيمة لأمها. وكان اسمُها بَرَّة فسمَّاها النبي (ص) ميمونة. وترمّلت ميمونة وهي شابة في السادسة والعشرين وكان زوجُها أبا رهم بن عبد العزى العامري من بني عمومتها(٤٩). ويروي الرواة أنه لما جاءها البشير بخطبة الرسول (ص) لها، كانت على بعير فألقت بنفسها فرحة وهي تقول: «البعير وما عليه لرسول الله (ص)»(٥٠). فلمّا نزل القرآن بتحديد الأزواج بأربع لم يُؤمر النبي (ص) بتطليق أيٍّ من زوجاته، بل نزل القرآن الكريم بالنص على حلهنّ بلا حرج لقوله تعالى: **﴿يا أيها النبي، إنّا أحللنا لك أزواجك اللاتي أتيت أجورهنَّ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما**

فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً﴾(٥١).

إنّ بقاء أزواج النبي (ص) التسع خصوصية من خصوصياته، وخصوصية لنسائه كخصوصية وجوب قيامه الليل وتحريم الصدقة على أهل بيته، وخصوصية نسائه في مضاعفة العذاب على الفاحشة، ومضاعفة الأجر على أعمالهن الصالحة. قال تعالى: **﴿يا نساء النبي، مَن يأتِ منكُنَّ بفاحشة مبيّنة يضاعف لها العذابُ ضعفين، وكان ذلك على الله يسيراً. ومَن يقنت منكُنَّ لله ورسوله، وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقاً كريماً﴾**(٥٢).

ثمّ نزل القرآن الكريم بتحريم زواجه بغيرهنَّ، لقوله تعالى: **﴿لا يحلُّ لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهنَّ من أزواجٍ ولو أعجبك حسنهن إلاّ ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً﴾**(٥٣). فالأمر الإلْهي لنبيه الكريم بالاحتفاظ بنسائه للحفاظ على المستوى العالي لخلقه الكريم، لأن الطلاق يتناقض مع سمو أخلاقه وسنته الكريمة، فقد قال حثّاً للمسلمين على الزواج: «تناكحوا وتناسلوا أُباهي بكم الأمم يوم القيامة» (متفق عليه). وقال أيضاً: «إنّ أبغض الحلال عند الله الطلاق». كما أنه لو كلّف بتطليق بعض نسائه لربما وقع هذا الطلاق على النسوة المهاجرات اللواتي ترمّلن وهن غير مشهورات بجمال مثل سودة بنت زمعة أول امرأة تزوجها بعد وفاة السيدة خديجة. ويكون ذلك خلاف ما كان قد قصد إليه (ص) حين تزوجهنَّ، كما يكون حطا لقدرهنَّ بعد أن تشرفن بالانتساب إلى أعظم شخصية عرفتها البشرية. وهو خاتم النبيين. وكرامة للنبي (ص) أصبحت نساؤه أمهات للمؤمنين لقوله تعالى: **﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾** ثمّ حرَّم زوجاته على المؤمنين من بعده وعدَّ ذلك إيذاءً للرسول (ص) لقوله: **﴿وما كان لكم أن تُؤذوا رسول الله، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً، إن ذْلكم كان عند الله عظيماً﴾**(٥٤).

وظلَّ الرسول (ص) محتفظاً بزوجاته جميعهن حتى فارق الحياة، دون أن يسيء إلى واحدة منهن، على الرغم من المتاعب التي واجهها من بعضهن، بسبب غيرتهن. وكن منقسمات إلى حزبين، فقد روى البخاري عن عائشة: «أن نساء رسول

الله(ص) كنَّ حزبين، فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله (ص)»[٥٥].



وقد تسبّب جناح عائشة، في خلق بعض المتاعب للرسول (ص)، منها اختلاق قصة المغافير، التي نسجتها عائشة، مع نصيراتها، حين رأته يتأخر في طوافه اليومي على بيوت نسائه؛ إذ يلبث عند السيدة زينب بنت جحش أطول مما يجلس عند غيرها، فعلمت أنها تستبقيه لتسقيه عسلاً، وكان يحب ذلك، فاتفقت مع قريناتها إذا دنا منهن الرسول (ص) أن يقلن له: أكلت مغافير[٥٦]؟، وكان النبيُّ (ص) يكره أن تصدر عنه رائحة كريهة، فلما أخبرهنَّ أنه إنما يشربُ عسلاً، قلن له أو قال بعضهنَّ: «لعل نحله جرس العرفط»، فحرم على نفسه ذلك العسل[٥٧].

وكذلك يوم أن جاءت حفصة، فوجدت مارية مع النبي (ص) في بيتها، فغضبت حتى استرضاها بأن حرَّم مارية على نفسه واستكتمها الأمر، فأبلغته إلى عائشة، فأنبأ الله نبيه (ص) بالأمر وفرض له تحلة يمينه كما في أول سورة التحريم، وزجرهنَّ الله على ذلك الفعل لما لهن من منزلة عند رسول الله (ص) وهدَّدهنَّ بالطلاق وأن يبدّله خيراً منهنَّ، وهجرهنَّ النبي (ص) جميعاً شهراً، وأنزل الله في شأنهن هذا قوله تعالى: **﴿يا أيها النبيُّ لم تحرِّم ما أحل الله لك؟ تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم، قد فرضَ الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم. وإذ أسرَّ النبيُّ إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعض، فلما نبأها به قالت: مَن أنبأك هذا؟ قال: نبأني العليم الخبير، إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبُكما. وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير، عسى ربه إن طلّقكنَّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنَّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً﴾**[٥٨].

وقد تُعذر عائشة على تلك المواقف والقصص التي تنم عن الغيرة الشديدة لجمالها وصغر سنها. فأمها أم رومان بنت عامر. وقد رُوي عن الرسول (ص) أنه قال: «مَن سرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان»[٥٩].

وعن عائشة أن النبي (ص) تزوَّجها وهي بنت سبع سنين وزُفَّت إليه وعمرها

تسع سنين ولُعبتها معها ومات عنها ولها ثماني عشرة سنة[٦٠].

تلك نبذة مختصرة جداً لحياة الرسول مع زوجاته الكريمات وهي حياةٌ يحقُّ لكل أسرة التأسّي بها، إذ أنّ الحياة الزوجية لا تخلو مطلقاً من خلافات شكلية ويمكن معالجتها بحكمة ورويَّة. كما عودهن على حياة الكفاف واستطعن أن يتكيّفن طمعاً في عشرة رسول الله، لأنه بسيرته الكريمة أراد أن يسنَّ للبشرية نظاماً للحياة، فبصفتهن زوجاته تحتم عليهنَّ أن يسرن على نهجه، فأصبحن القدوة للمرأة الوفية الصابرة المتمسكة بزوجها وبيتها في كل الظروف: في الشدة والرخاء.

وإلى جانب الزواج الدائم شرَّع الإسلام زواجاً آخر هو زواج المتعة منذ عهد النبي(ص). قال تعالى: **﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأُحِلَّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم مُحصنين غير مسافحين، فما استمتعتم به منهن فأتوهنَّ أجورهنَّ فريضةً ولا جُناح عليكم فيما تراضيتم به من بعدِ الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً﴾**[٦١].

وزواج المتعة، من المسائل المختَلف عليها بين مدرستي الإمامة والخلافة. فمع أنّ المدرستين تتّفقان على أن رسول الله (ص) قد شرَّع زواج المتعة، كما تصرُّ الآيات الكريمة إلا أنهما تختلفان في استمراريته. فبينما ترى مدرسة الإمامة أن التشريع دائم، ترى مدرسة الخلافة أن هذا التشريع قد نسخ. ومع أن البحث لا يتسع لمناقشة هذا الموضوع بشكل تفصيلي ولكن يمكن تناوله بشكل موجز.

إنّ تشريع زواج المتعة جاء لحل المشكلة الجنسية في العالم، وذلك لقصور الزواج الدائم عن معالجتها. وتبرز هذه المشكلة بشكل جدّي في حالات السفر أو حالات الحرب. إنّ حاجة الناس اليوم إلى زواج المتعة (الزواج المنقطع) هي أكثر من حاجة الناس أيام الرسول (ص). فتقدم وسائل النقل سهّلت عملية السفر والاتصال بين جميع أرجاء المعمورة، كما أن الحروب هي أكثر ضراوة مما كانت عليه أيام الرسول(ص). فالتشريعات الإسلامية لم تأتِ لمجتمع معين وزمان معين وإنما وضعت هذه التشريعات لخدمة البشرية منذ مبعث الرسول (ص) وحتى يرث الله الأرض ومَن عليها. إنّ المجتمع البشري اليوم هو أكبر حجماً بكثير مما كان عليه أيام

الرسول (ص)، ومن الطبيعي أن تكون جميع مشـاكله المختلفة قد تعددت وازدادت كماً وكيفاً، ومشاكل الجنس تأتي في مقدمتها.

إن تشريع زواج المتعـة جـاء لخدمـة المجتمع البشري؛ إذ كـان المجتمع المسلم العربي في مـرحلته الأولى نـواة لمجتمع دولة النبـوَّة التي كان من المفـروض أن تشمل المعمورة قاطبة. وكان زواج المتعة مباحاً عند جميع المسلمين في عهد رسول الله (ص) وأبي بكر وجانب من خلافة عمر[٦٢]. وقد حرمه عمر بـن الخطاب خلال خلافته بقوله: «متعتان كانتا على عهد رسول الله أنا أحرمهما وأُعاقب عليهما»[٦٣]. والمتعتان هما: متعة النساء ومتعة الحج.

والسـؤال الـذي يطـرح نفسـه هنـا: هل يحقُّ لأي إنسـان مهما بلغت سلطتـه السياسية أو العلمية أن يغيّر تشريعـاً إلٰهياً جاء به النبي (ص) عن الله؟ علماً بأنّ الله يقول في كتابه: ﴿**وما آتاكم الرسول فخـذوه وما نهاكم عنه فانتهوا...**﴾[٦٤] وقال أيضاً: ﴿**إن هو إلا وحي يوحى**﴾[٦٥].

وعلى كل حال، فالإجابة على هذا السؤال ومناقشته تخص الفقهاء ولا تخص هذه الدراسة المتواضعـة. وربما واجهت الخليفة عمر ظروف قاهرة دفعتـه للتحريم. أما الإمام علي بن أبي طالب، فكان موقفه واضحاً في إعلان رأيه عن الآثار السلبية التي تترتب على تحريم عمر بن الخطاب لزواج المتعة فقـد رُوي عنه أنه قال: «لولا ما نهى عنه عمر من أمر المتعة ما زنى إلا شقي»[٦٦].

وهناك أحـاديث منقولـة عن عبد الله بن عمـر، وعبد الله بن عبـاس، تدل على أنهما تمتعا على عهد أبي بكر وقسم من عهد عمر[٦٧].

روى البخـاري عن أبي حمزة قـال: «سمعتُ ابن عباس سُئل عـن متعة النسـاء فرخَّص فقال له مولى له إنما ذلك في الحال الشـديد وفي النساء قلة أو نحوه فقال ابن عباس: نعم»[٦٨].

وروى البخـاري أيضاً عن جـابر بن عبـد الله وسلمة بن الأكـوع قالا: «كُنّـا في جيش فأتانا رسول الله (ص) أنه قد أُذِن لكم أن تستمتعوا فاستمتعوا»[٦٩].

وأخرج البخاري عن عمران بن حصين قال: «نزلت آية المتعة في كتاب ففعلناها

مع رسـول الله (ص) ولم ينزل قرآن يحرمهـا ولم ينهِ عنهـا حتى مات (ص) قـال رجل برأيه مـا شاء». وحين يصل الرازي إلى تفسير هذه الآية، يقول معقبـاً قول عمران: «قال رجل برأيه ما شاء»[٧٠].

وفي صحيح مسلم جاء عن عطاء قـال: «قدم جابر بن عبـد الله معتمراً فجئناه في منزلـه، فسأله القـوم عن أشياء ثـم ذكروا المتعـة فقال: نعم استمتعنـا على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر»[٧١].

أما ابن رشد الأندلسي فقد نقل عن ابن عباس أنه قال: «ما كانت المتعة إلا رحمة من الله رحم بها أمة محمد (ص). ولولا نهي عمـر ما اضطر إلى الزنا إلا شقي»[٧٢]. وذكر ابنُ رشد في الموضع نفسه أيضاً قال: «سمعـتُ جابر بن عبد الله يقول: تمتعنا على عهد رسول الله وأبي بكـر ونصفاً من خلافة عمر. ثم نهى عنهـا عمرُ الناس». ويسأل رجل من أهل الشام عبـد الله بن عمر عن متعة النساء فيقـول له: «إنّ أباك نهى عنهـا». فقال ابن عمـر: «أرأيت إن كان أبي نهى عنهـا، وصنعها رسـول الله، أنترك السُّنَّة ونتبـع قول أبي»[٧٣]. هذه نبـذة من أقوال بعض الصحابـة الموثوق بهم الذين عاصروا النبي (ص) وفترة لاحقة ليست قصيرة من عمر دولة النبوّة.

أمـا عن حدود زواج المتعـة (المؤقت أو المنقطع) فيمكن الاستعـانة بـرد العلامـة السيد عز الدين بحر العلوم على مجلة العربي حول زواج المتعة[٧٤] وذكر نقط الافتراق والاشتراك بين الزواجين الدائم والمنقطع. فبالنسبة لنقاط الاشتراك فهي[٧٥]:

١ ــ العقـد: ولا يستغني كـلا الـزّواجين عنـه، ولا بـد فيهما من الاشتمال على الإيجاب والقبـول. فتقـول الـزوجـة: زوّجتك نفسي في الـدائم، ومتعتك نفسي في المنقطع، ويكون القبول في كلا الحالتين من الزوج.

٢ ــ المهـر: وتستحق كل من الـدائمـة والمنقطعـة جميع المهـر على الـزوج بعـد الدخول. أما قبل الدخـول فيثبت نصف المهر لو طلق في الدائم، أو وهبها المدة في المنقطع.

٣ ـ عـدم المانع: ولا بد لكلا النكـاحين: الدائم والمنقطع من عدم وجـود مانع شرعي من النكـاح من سبب أو نسب أو رضـاع أو إحصان أو غير هـذه من الموانع الشرعية.

٤ ـ العدة: وتشترك الزوجتان: الدائمة والمتمتع بها في الخضوع إلى العدة، وإن اختلفت المدة بينهما فهي في الدائمة التي تحيض ثلاثة أطهار إن كانت حرة وإن كانت أمة فطهران، وفي المنقطعة حيضتان أو خمسة وأربعون يوماً وعلى الزوجتين عدة الوفاة. وتسقط العدة عن كلتيهما فيما لو لم يحصل الدخول أو كانت صغيرة كأن يكون عمرها أقل من تسع سنين أو كانت آيساً ولو قدر أن اجتمع حمل ووفاة كان أبعد الأجلين هو المفروض في حق تلك الزوجة.

٥ ـ النسل: ولا فرق عند الإمامية بين أولاد الدائمة أو المتمتع بها فالكل يلحق بأبيه.

٦ ـ الحضانة: وهي الولاية على الطفل حيث تقوم الأم بتربيته وما يتعلق بها من مصلحته والمحافظة عليه ولكل من الدائمة والمتمتع بها ذلك الحق وإن اختلفت كلمتهم في أصل مدة الحضانة مع غض النظر عن كون الأم دائمة أو منقطعة.

٧ ـ الميراث: وحيث كان ما يتولد ملحقاً بالأب فلا بد من المساواة بينهما في الإرث فيقف ولد المتعة إلى جانب أخيه من الزوجة الدائمة ليأخذ نصيبه من الميراث على حد سواء.

٨ ـ نشر الحرمة: إذ تنطبق على الولدين من الدائمة والمنقطعة جميع الآيات والعمومات الشرعية الواردة في تحريم الآباء والأمهات والأبناء والإخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات بعضهم على بعضهم الآخر عملاً بما صرحت به الآية الكريمة:

﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله...﴾[٧٦].

أما موارد الافتراق فهي[٧٧]:

١ ـ ذكر الأجل، فلا أجل للدائم ولا بد منه في عقد المتعة.

٢ ـ العدد، فهو في الدائم أربعة وفي المنقطع إلى ما شاء.

٣ ـ الطلاق، فإن المستمتع بها لا طلاق لها بل لزوجها أن يهبها المدة المتبقية. وعند انتهاء المدة تنقطع العلاقة الزوجية بين الطرفين. أما الطلاق فهو من مختصات الزوجة الدائمة.

٤ ـ النفقة، وتكـون للزوجة الدائمة، أما المستمتع بها فـلا نفقة لها، مهما كانت المدة التي قدر لها الارتباط الزوجي فيها.

٥ ـ المواقعة والمضاجعة، فليس للمتمتّـع بها ليلة أي حق في المطالبة في المواقعة، بل يعود أمر ذلك إليه فهو إن شاء أقدم وإلا فليس لها إلا السكوت أما الدائمة فلها الحق في ليلة من أربع مضاجعة ومرة في المواقعة في ضمن كل أربعة أشهر.

٦ ـ ميراث الزوجة، فإن الزوجة الدائمة تشارك بقية الورثة في أخذ ما لها من الحق المفروض لها. أما المتمتع بها فلا ميراث لها. وقد عصفت بالعالم الإسلامي منذ ثلاث عشرة سنة وحتى الآن عدة حروب وما تزال هناك حروب أخرى حديثة. وقد خلفت هذه الحروب الكثير من الـويلات على المجتمعات الإسـلامية في هذه الـدول كانت النساء والأطفال في مقدمة الضحايا المتضررين. فهناك حرب أفغانستان التي انتهت في ربيع عام ١٩٩٢، وخلفت أكثـر من مليون قتيل ولا شك في أن هنـاك أكثر من نصف مليـون أرملة، هـذا إلى جـانب المطلقـات. وحرب الخليج الأولى بين إيـران والعراق والتي دامت ثماني سنوات أيضاً خلفت مـا يقارب من مليون قتيل وأكثر من نصف مليون أرملة في كلا البلدين إضافة إلى المطلقات. وحرب الخليج الثانية أيضاً طحنت الأخضر واليابـس في العراق والكويت وخلفـت أيضاً عشرات آلاف القتلى والمفقـودين، ونجم عن ذلك عشرات الآلاف من الأرامل وتشتيت عشرات الآلاف من الأُسر. أيضاً هنـاك الحرب الأهلية في جمهـورية أذربيجان وفي جمهـورية البـوسنة والهرسك التي يقطنها المسلمـون الأتراك والتي أعلنت استقـلالها عن يوغوسـلافيا. يتعرض المسلمون لحرب إبادة من قبل الصرب لمنعهم من تأسيس كيان مستقل لهم. كل هـذه الحروب خلّفت مـا لا يقل عن مليـون أرملـة، هذا إلى جـانب المطلقـات والعوانس والأرامـل قبل الحروب. فما هي الوسـائل الناجحة للمّ شمـل هذه الأسر المشتتة التي أصبحت تتكون من أطفـال ونساء ومسنين؟ وإذا كانت مشكلة الجنس من المشـاكل التي يـواجههـا كل إنسـان امـرأة أو رجل في السلم وفي الحرب فكيف يمكن حل المشاكل الجنسية الملحة لكل من الأرامل والمطلقات والعوانس؟

هناك أربعة خيارات، وهي:

أ ـ التبتل.

ب ـ الإباحة الجنسية.

جـ ـ الزواج الدائم.

د ـ زواج المتعة.

فبالنسبة للتبتل فإنه مرحلة إيمانية راقية لا يمكن لأي فرد مسلم بلوغها بسهولة، خصوصاً في المجتمعات الغربية التي تنتشر فيها الإباحة الجنسية، وقد حثّ الرسول(ص) على كبح غريزة الجنس بالصوم فقال (ص): «مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء» (متفق عليه).

وبالنسبة للإباحة الجنسية فلا يقرها الإسلام. ولذلك فإن المجتمع المسلم يأباها.

أما بالنسبة للزواج الدائم فمع توفر جميع الإمكانيات المادية فمن النادر أن يقبل شاب على الزواج من ثيِّب أرملة كانت أم مطلقة أم عانساً في حال توفر البكر. فإذا كان إقبال الشباب على الزواج من البكر فما هو مصير الثيبات والعوانس؟ إنهنَّ جزء من المجتمع ولا بد أن يحنو كل فرد فيه على الآخر. وهذا القرآن الكريم يخاطبُ المسلمين: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة. ألم يحتضن الرسول زوجات الشهداء وتزوجهن بغية لم شملهن مع أطفالهن؟ هل كان هدف الرسول الجنس من تعدد زوجاته؟ كلا بل كان لهدف إنساني تربوي. إنه يسنُّ نظاماً للحياة البشرية في ظل شريعة الله العادلة.

ويبقى زواج المتعة، أحد الخيارات المتاحة لحل المشاكل الجنسية عند الجنسين في المجتمعات الإسلامية، عبر أرجاء المعمورة، إذا التزم الزَّوجان بالحدود الشرعية لهذا النوع من الزواج، كما سبقت مناقشتها.

ومن الجدير بالذكر أن زواج المتعة (المنقطع) معمول به في نطاق محدود لدى المجتمعات الإسلامية في الوقت الحاضر بين أتباع مدرسة الإمامة وخصوصاً في إيران، والعراق، ودول الخليج، ولبنان، وأفغانستان وأذربيجان، ودول أوروبا

الغربية، والولايات المتحدة الأمريكية، وكندا.

وعلى كل حال، فليس هناك تفاضل بين مدرستيّ الإمامة والخلافة، فالجميع يستمدّون تشريعاتهم الدينية والاجتماعية من مصدرين أساسيين هما: القرآن والسنة، وإنما يتحتم على الجميع أن يتعاملوا مع العصر بروح مرنة بعيدةٍ عن التعصُّب والتشنُّج، وكل ما يسيء إلى وحدة الأمة الإسلامية.

دور المرأة المسلمة في الحرب:

لعبت المرأة المسلمة، خلال العهد النبوي وإبان تأسيس دولة النبوَّة، دوراً بارزاً في خدمة المقاتلين في ساحات القتال دفاعاً عن الدين والوطن والأمة الوليدة. لقد أثبتت المرأة المسلمة أنها جديرة بالمشاركة في تحمل المسؤولية خلال العقد الأول من عمر دولة النبوَّة، وهي الفترة التي صاغ فيها النبي شخصية مجتمع دولته من رجال ونساء وأراد أن يثبت لأجيال الأمة المتعاقبة، وهو يؤسس نواة دولته، أن الدفاع عن الدين والوطن والأمة واجب على كل مسلم ومسلمة في كل زمان ومكان، كل وفق قدراته. وهناك أحاديث كثيرة تثبت مشاركة المرأة المسلمة لإخوانها المدافعين عن حرمة الدين والدولة.

روى البخاري عن حفصة بنت سيرين قالت: «كنا نمنع جوارينا أن يخرجن يوم العيد فجاءت امرأةٌ فنزلت قصر بني خلف فأتيتها فحدَّثت أن زوج أختها غزا مع رسول الله (ص) اثنتي عشرة غزوة فكانت أختُها معه في غزوة بدر قالت: فكُنا نقوم على المرضى فنداوي الكلمى فقالت: يا رسول الله أعلى أحد منا بأسٌ إذا لم يكن لها جلباب أن لا تخرج فقال: لتلبسها صاحبتها من جلبابها فيشهدن الخير ودعوة المؤمنين قالت حفصة: فلما قدمت أم عطية أتيتُها فسألتها: أسمعتِ كذا وكذا قالت: نعم بأبي ـ وقلَّ ما ذكرت النبي (ص) إلا وقالت بأبي ـ قال: ليخرُج العوايق ذوات الخدور العوانق —وذوات الخدور شك أيوب والحيض ـ [كذا. .]، فيعتزل الحيض المصلى، وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين. قالت: فقلتُ لها الحيضُ؟

قالت: نعم. أليس الحائض تشهد عرفات وتشهد كذا وتشهد كذا»[٧٨].

يتّضح من الحديث الشريف دعوة المرأة المسلمة للوقوف جنباً إلى جنب مع المقاتل المسلم لرد المعتدين، إذ أنه في سبيل سلامة الدين والوطن يرخص كل شيء حتى الروح التي تعتبر أغلى ما يملكه الإنسان، إلا أن سلامة الدين والوطن أغلى من حياة الإنسان فمن هنا جاءت الدعوة النبوية لافتداء الدين والوطن بكل غال ونفيس. وقد شملت الدعوة النبوية جميع شرائح المجتمع من رجال ونساء دون استثناء، كما يتضح من الحديث الشريف المذكور.

وروى البخاري عن سهيل أنه سُئل عن جُرح النبي (ص) يوم أُحُد فقال: «جُرح وجهُ النبي (ص) وكُسِرَت رباعيتُه وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة (ع) تغسِلُ الدم وعلي (ع) يمسحُ. فلما رأت أن الدم لا يزيدُ إلا كثرةً، أخذت حصيراً فأحرقته حتى صار رماداً، ثم ألزقته فاستمسك الدم»[٧٩].

وروى الطبري عن ابن مسعود قال: «إنّ النساء كُنَّ يوم أُحُد خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين، فلو حلفت يومئذٍ لرجوت أن أبر إنه ليس أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله تعالى: ﴿منكم مَن يريد الدنيا ومنكم مَن يريدُ الآخرة...﴾[٨٠].

هكذا كان التسابق بين الرجال والنساء والاستماتة في سبيل الذود عن العقيدة والكرامة والأمة، فالجميع يشعرون بمسؤولياتهم الدينية التي تعلموها من صاحب الرسالة للدفاع عن دولتهم البكر ودينهم ونبيِّهم.

وروى البخاري عن الرُّبيع بنت مُعَوِّذ بن عفراء قالت: «كُنا نغزو مع رسول الله(ص) نسقي القوم ونخدمهم ونردُّ القتلى والجرحى إلى المدينة»[٨١].

وروى مسلم عن أنس قال: «كان رسول الله (ص) يخرج بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى»[٨٢].

وروى مسلم أيضاً عن أم عطية (ر) قالت: «غزوتُ مع رسول الله (ص) سبع غزوات أخلفُهم في رحالهم، فأصنعُ لهم الطعام وأُداوي الجرحى وأقومُ على المرضى»[٨٣].

كانت المرأة المسلمة، في هذه الغزوات خلال العهد النبوي، تقوم بدور الأم والممرضة وبعضهن يتزوجن زواجاً منقطعاً، فكان توفير راحة المقاتل المسلم الشغل الشاغل للمرأة المسلمة. ولذلك حفظ المسلمون للمرأة دورها العظيم الذي قامت به خلال حروب العزّة والكرامة التي تزامنت مع تأسيس صرح دولة الحق والعدالة والمساواة والحرية، إنها دولة النبوّة فلا غرابة أن يحفظ للمرأة حقها ويصان على أعلى المستويات.

هذا هو دور المرأة المسلمة الذي قامت به على أكمل وجه ودولةُ النُّبوَّة في طور التأسيس، وهذه معاملتها الكريمة من قادة الأمة بعد رسول الله (ص) الذين حفظوا لها حقها وحرمتها اعترافاً لها بدورها المشرف وتفانيها في خدمة الدين والأمة دون أن تعيقها أنوثتها. فهل يأتي اليوم الذي يستمد منه المسلمون: حكاماً ومحكومين قبساً من النظام المحمدي لبناء المجتمع وخلق الهوية الأصيلة لإنسان دولة النبوَّة التي تفخر بانتمائها العقائدي دون خجل؟ إن المرأة المسلمة اليوم ليست أقل حماساً لدينها ووطنها وأمتها من نساء صدر الإسلام. وإن توفير الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية السليمة كفيلة بخلق أجيال مماثلة من النساء لنساء الصدر الأول من دولة النبوَّة. عندها يمكن أن تقوم المرأة المسلمة بدورها الصحيح الذي صاغه لها صاحب الرسالة ومؤسس الدولة النبي محمد (ص)، وما نزول سورة النساء بالقرآن على الرسول إلا دليلٌ واضح على الدور العظيم الذي هيأه التشريع الإسلامي كي تلعبه المرأة وتمارس رسالتها الإنسانية وفقاً لحقوق وواجبات محددة. إنّ هذه السورة، بآياتها البالغة مئة وست وسبعين، تعتبر ركيزة التشريع الإسلامي الذي يشمل جميع القضايا الأساسية للمرأة لتبلغ مستوى يليق بتطلعاتها الإنسانية الراقية.

هوامش التمهيد والمقدمة

(١) ستصدر دراسة لاحقة للمؤلف يتناول فيها بشكل تفصيلي التحليل الأكاديمي لمصطلح دولة النبوّة التي كانت نتاج تشريع سماوي يعتبر ثورة على أوضاع المجتمع البشري بشكل عام، انطلاقاً من مجتمع قريش في مكة وحتى تأسيس نواة هذه الدولة في المدينة؛ حيث شملت جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتبريرات التاريخية والمنطقية لجدوى استمرارية استخدام هـذا المصطلح حتى نهاية عهد مهدي الأمة المحمدية الإمام محمد بن الحسن (ع).

(٢) سيتناول المؤلف، في الدراسـة اللاحقة المشار إليها، صوراً من حياة بعض الحكام الذين تعـاقبوا على حكم دولة النبوّة والذين أساءوا إلى الدين والأمة.

(٣) الحسني: سيرة الأئمة الاثنى عشر (القسم الأول، ص٦٥).

(٤) نفسه.

(٥) سورة النحل: ٥٧.

(٦) سورة الطور: ٣٩.

(٧) سورة النجم: ٢١.

(٨) الحسني: المرجع نفسه، ص٥٥.

(٩) سورة التكوير: ٩.

(١٠) سورة النحل: ٥٨، ٥٩.

(١١) الحسني: المرجع نفس، ص٥٥.

(١٢) نفسه، ص٥٦.

(١٣) سورة الإسراء: ٣١.

(١٤) الحسني: المرجع نفسه، ص٥٧؛ أيضاً الأبشيهي: المستطرف من كل فنّ مستظرف، ص٢٢٢.

(١٥) نفسه، سورة المائدة: ٣٢.

(١٦) البخاري: الجامع الصحيح، مجلد ١، جـ١٥، ص٢٩٩.

(١٧) نفسه، مجلد ٢، جـ٢١، ص٤٢٥ ـ ٤٢٦.

(١٨) الحسني: المرجع نفسه، ص٥٧.

(١٩) البخاري: مجلد ١، جـ١١، ص٢١٩، جـ١٦، ص٣١٩؛ أيضاً، الصَّغاني: مشـارق الأنوار النَّبـوية من صحاح الأخبار المصطفوية، ص٢٢٤.

(٢٠) الكبداني: مشكاة المصابيح، ص٥٦.

(٢١) البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ٢٠، ص٤٠٣؛ أيضاً، الكبداني: نفس المرجع، ص٧٥.

(٢٢) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ٢، جـ٢٩، ص٥٧٩.

(٢٣) نفسه، ص٥٨٧.

(٢٤) الكبداني: المرجع نفسه، ص٢٣٨.

(٢٥) نفسه، ص٢٥٠، متفق عليه.

(٢٦) نفسه، ص٢٥٢.

(٢٧) سورة الإسراء: ٢٣، ٢٤.

(٢٨) الكبداني: المرجع نفسه، ص٢٥١؛ أيضاً، الطبري: ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص٢٥٩.

(٢٩) الصَّغاني: المرجع نفسه، ص٤٧ ـ ٤٨؛ أيضاً الكبداني: المرجع نفسه، ص١٣٥.

(٣٠) الخوي، أحمد بن محمد بن علي: أطباق الذهب، ص٣٨ ـ ٣٩.

(٣١) الكبداني: المرجع نفسه، ص١٥٨.

(٣٢) نفسه.

(٣٣) سورة الروم: ٢١.

(٣٤) الأبشيهي: المرجع نفسه، ص٤٠.

(٣٥) نفسه.

(٣٦) نفسه، ص٣١٩.

(٣٧) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ٢، جـ٢٥، ص٤٩٣، ٤٩٥.

(٣٨) الكبداني: المرجع نفسه، ص٣٠٧، متفق عليه.

(٣٩) يماني: علموا أولادكم محبة آل البيت (ص) ص١٧٩ ـ ١٨١.

(٤٠) نفسه، ص٢٣٢.

(٤١) الكبداني: المرجع نفسه، ص١٦٤.

(٤٢) يماني، المرجع نفسه، ص٢٣٠.

(٤٣) نفسه، ص٢٢٨. رواه مسلم.

(٤٤) سورة الأحزاب: ٢١.

(٤٥) يماني: المرجع نفسه، ص٢٢٩.

(٤٦) سورة الأحزاب: ٢٨، ٢٩.

(٤٧) الكبداني: المرجع نفسه، ص٣١١، رواه الترمذي.

(٤٨) نفسه، ص٣١٠، رواه مسلم.

(٤٩) الأمين: أعيان الشيعة، مجلد ٣، جـ١١، ص٣٠٦، مجلد ١٠، جـ٤٧، ص١٩٩؛ أيضاً، يماني: المرجع نفسه، ص٢١٦.

(٥٠) يماني: المرجع نفسه، ص٢١٧.

(٥١) سورة الأحزاب: ٥٠.

(٥٢) سورة الأحزاب: ٣٠، ٣١.

(٥٣) سورة الأحزاب: ٥٢.

(٥٤) سورة الأحزاب: ٥٣.

(٥٥) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ١٠، ص١٩٧، أيضاً، الكبداني: المرجع نفسه، ص٣٤٣.

(٥٦) يماني: المرجع نفسه، ص١٨٩. المغافير: ثمر كريه الرائحة.

(٥٧) نفسه، ص١٩٠، جرس العرفط: أي رعى زهر المغافير، وهذا الزهر يسمى العرفط.

(٥٨) سورة التحريم: ١ ــ ٥، تعددت الروايات في سبب نزول هذه الآيات، هل كان سبب النزول تحريم النبي (ص) العسل بعد تلك القصة التي حبكها حزب عائشة، كما جاء في رواية الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة، أو تحريم مارية واعتزالها، كما رواه النسائي بسند صحيح عن أنس والحاكم عنه، وصححه ووافقه الذهبي والدارقطني عن ابن عباس، وأخرج الطبري له شاهداً مرسلاً بسند صحيح عن زيد بن أسلم ـ التابعي الشهير، عن يماني، المرجع نفسه، ص١٩٠.

(٥٩) الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ٤٤٩)؛ «الإصابة» لابن حجر (٤/ ٤٥١)؛ طبقات ابن سعد (٨/ ٢٢٠)؛ كنز العمال (٨/ ٣٤٤)، عن يماني: المرجع نفسه، ص١٨٨.

(٦٠) الكبداني: المرجع نفسه، ص١٦٠.

(٦١) سورة النساء: ٢٤.

(٦٢) المتعة ومشروعيتها في الإسلام: تحقيق الشيخ عبد الله نعمة، ص٢٢٦.

(٦٣) نفسه، ص٢١١.

(٦٤) سورة الحشر: ٧.

(٦٥) سورة النجم: ٤.

(٦٦) المتعة ومشروعيتها في الإسلام: ص٢١٢، أيضاً، البخاري: المرجع نفسه مجلد ٢، جـ٢١، ص٤٢٤.

(٦٧) نفسه، ص٢١١ .

(٦٨) البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ٢١، ص٤٢٤ .

(٦٩) نفسه، أيضاً: ابن حنبل: المسند، جـ١، ص٣١٢ـ٣١٣.

(٧٠) الفكيكي: المتعة وأثرها في الإصلاح الاجتماعي، ص٤٢، يريد عمر بن الخطاب.

(٧١) نفسه، نقلاً عن صحيح مسلم، ص٥٣٥ .

(٧٢) نفسه، نقلاً عن كتاب ابن رشد الأندلسي، جـ٢، ص٤٧ .

(٧٣) نفسه.

(٧٤) نشر هـذا الرد في مجلـة الإيمان، العـدد ١، الخامس والسـادس من سنـة ١٩٦٤، وتمّ نقله مـن كتاب المتعـة ومشروعيتها في الإسلام، ص٢١٧ ـ ٢٤٤ .

(٧٥) نفسه، ص٢١٩ ـ ٢٢١.

(٧٦) سورة الأنفال: ٥٠ .

(٧٧) المتعة ومشروعيتها في الإسلام، ص٢٢١ ـ ٢٢٢ .

(٧٨) البخاري: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٤، ص٧٤.

(٧٩) نفسه، مجلد ١، جـ١١، ص٢٢٦، جـ١٢، ص٢٣٥.

(٨٠) سورة آل عمران: ١٥٢؛ الطبري: المرجع نفسه، ص١٨١ .

(٨١) البخاري: المرجع نفسه، مجلد١، جـ١١، ص٢٢٤؛ مجلد ٢، جـ٢٣، ص٤٦٧ .

(٨٢) الكبداني: المرجع نفسه، ص٢٠٢، رواه مسلم.

(٨٣) نفسه.

الفصل الأول

خديجة بنت خويلد رائدة النِّضال الأولى للمرأة الرِّسالية في دولة النبوَّة

١ ـ نسبها وبيئتها الأسرية .

٢ ـ زواجها قبل الرسول (ص) .

٣ ـ حياتها الزوجية مع الرسول (ص) وتضحياتها .

٤ ـ وفاء الرسول (ص) للسيدة خديجة .

٥ ـ الإسلام يقدِّم نموذجاً للحياة الزوجية .

تعتبر السيدة خديجة بنت خويلد رائدة النضال الأولى للمرأة الرسالية في دولة النبوَّة، لأنها أولى مَن ضحّت في سبيل العقيدة بلا حدود، وأعطت لنساء العالم بشكل عام، ولنساء دولة النبوَّة بشكل خاص، عبر تعاقب الأجيال، النموذج الأمثل للتضحية من أجل نصرة العقيدة والسمو بها على كل الماديات.

وتعتبر سيرتها، بعد زواجها من النبي (ص)، ترجمة عملية لإثبات هذا الدور. لقد رفضت حياة الترف والنعيم، واختارت الحياة الخشنة المليئة بالآلام مع رسول الله(ص) ومَن آمن به، لأنها فضلت الخلود في الدارين، فاستحقت أن تكون واحدة من سيدات نساء العالمين.

هي سيدة قريش، والمسلمة الأولى، وأم المؤمنين الأولى وإحدى سيدات نساء العالمين، وجدة الأئمة الاثني عشر (عليهم السلام). وقد شاء الله أن تكون رفيقة درب الرسول (ص) في حياته الزوجية والرسالية. فكانت الزوجة والأم والصديقة، ورفيقة النضال الرسالي من أجل إحقاق الحق وتثبيت حكم الله في الأرض.

١ ـ نسبها وبيئتها الأسريَّة:

إنها السيِّدة خديجة، ولدت من أبوين قرشيين، فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لُؤي بن غالب بن فهر. وأُمُّها فاطمة بنت زائدة بن الأصم (واسمه جندب) بن رواحة الهرم بن حجر بن عبد معيص بن عامر بن لُؤي بن غالب بن فهر. كما وأنَّ أم فاطمة هي هالة بنت عبد مُناف بن الحارث، وتنتهي أيضاً إلى فهر بن لؤي بن غالب. وبذلك تكون خديجة قد وُلِدت لأبوين كِلاهما من أعرق الأُسر في شبه الجزيرة العربية. وقد اجتمع لها، بالإضافة

إلى هذا النسب الرفيع، الخلق الكريم والصفات الحميدة كالكرم والعفة. وبلغ من علو شأنها قبل أن تتزوج النبي (ص) أنها كانت تُعرف بالطّاهرة وسيدة نساء قريش[1]. وتجتمع مع رسول الله (ص) في النّسب الشريف في قصي من جهة أبيها، وفي لُؤي من جهة أمها، فهي قرشية أباً وأماً[2].

وكانت خديجة من أثرياء قريش وأوسعهم جاهاً. كما كانت لها رُؤية خاصة في التعبد، تخالف ما كانت عليه قريش وقبائل العرب من عبادة الأصنام والأوثان. فقد نشأت توّاقة للتديّن، يرشحها لذلك عاملا: الوراثة والتربية. فأبوها خويلد هو الذي نازع تُبّعاً الآخر ملك اليمن، حين أراد أن ينقل الحجر الأسود معه إلى اليمن، فتصدى له، ولم تُرهبه قوته وكثرة جنوده حرصاً منه على هذا المنسك من مناسك دينه. وابن عمها، ورقة بن نوفل، كان يعكف على دراسة كتب النصارى واليهود ويعمل بما يستحسنه منها، لا لأنه كان يعاشر النصارى واليهود، ولا لأن مكة كانت مقراً لهما، بل لأنه ـ كما عرفت خديجة ـ كان يسخر من عبادة الأصنام والتماثيل، ويبحث عن دين يطمئن إليه. فقد رأى ورقة بن نوفل أن عبادة الأصنام والتماثيل التي لا تضر ولا تنفع تخالف ما في الحنيفية الأولى التي كان عليها إبراهيم وإسماعيل (ع)، كما تخالف ما ورد في الإنجيل والتوراة من التوحيد الخالص لله وحده. فكانت خديجة تراقب مع ابن عمها ورقة ظهور النبي الخاتم الذي بشّرت به التوراة والإنجيل.

٢ ـ زواجها قبل الرسول (ص):

تزوّجت السيدة خديجة، قبل الرسول (ص)، مرتين. فزواجها الأول، كان من أبي هالة هند بن زرارة بن نبّاش التميمي، فأولدت منه ولداً أسمته هنداً، أدرك الإسلام وكان من السابقين إليه، وروى عنه الحسن بن علي (ع) حديث وصف النبي، وتناقله عنه أكثر الرواة والمحدثين وشاع عنه أنه كان يقول: «أنا أكرم الناس أباً وأمّاً وأخاً وأُختاً».

وقد اشترك مع النبي (ص) في جميع حروبه وغزواته، وكان مخلصاً للدعوة

الإسلامية كأُمِّه متفانيـاً في سبيل عقيدته. لازم علياً (ع) بعد وفاة النبي (ص) وقتل في حرب الجمل بـالبصرة في خلافة الإمام علي سنة سـت وثلاثين للهجرة(٣). وبعد وفاة زوجها الأول أبي هالة تزوجت من عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومي، وولدت له بنتـاً أسمتها هنـد أيضاً، بقيت في أحضان أُمِّهـا وأسلمت منذ ظهـور الإسلام. وكانت من المسلمات اللواتي أخلصن للإسلام ونذرن أنفسهم لخدمته(٤).

وقد تألّمت السيدة خديجة بعد وفاة زوجها الثاني، وظلّت عقيلة القرشيين وأشرف امرأة في المجتمع النسائي المكي. ومع تطلّع نفوس سادة القبائل القرشية الذين كانوا يتطلعون إلى شرف الاقتران بها، إلاّ أنها أعرضت عن الزواج في إباءٍ سمح على الرغم من عروضهم المغرية، وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال في ريعان الشباب. وظلت تعيش بعيدة عن الحياة الزوجية راضية، مفضلة التفرغ لرعاية أسرتها واستثمار أموالها في التجـارة حتى بلغت سن الأربعين. وربما كـان غالبيـة الخاطبين لها يطمعـون في ثروتها الطائلة، إلا أن إرادة الله شاءت أن يدَّخـرها شريكاً ومؤازراً لنبيه (ص). وقد شاء الله أن يعوِّضها على صبرها وعزوفهـا عن الزواج وتفرّغها لأسرتها، بأن اصطفاها زوجة لخاتم أنبيـائه ورسله، فنالت بـذلك الاصطفاء، درجة عظيمة تغبطهـا عليها نساءُ قومها.

٣ ـ حياتها الزوجية مع الرسول (ص) وتضحياتها:

قد يكـون عزوف السيدة خـديجة عن الزواج، مع أنها كانت في ريعـان شبابها، ليس فقط للتفـرغ لاستثمار أمـوالها في التجـارة وتربيـة ولـديها أو الخوف من الأزواج الطامعين في ثروتها. ولكن قد يكون لكرم أخلاقها وفاءً لعشرتها مع زوجيها الراحلين أو ربما يكون لعـامل نفسي بسبب وفاتهما وهما شـابان أيضاً. وعلى كل حـال فهناك روايات مختلفة بشأن الظروف الذاتيـة والموضوعية التي هيأت لزواج النبي (ص) من السيدة خـديجة. فبعد وفـاة زوجها الثاني كـان استثمار أموالها يتم عن طـريق رجال محترفين تستأجرهم للعمل في مالها، ويرتحلون بعيرهـا وقوافلها مع القوافل التجارية العربية التي كانت تتعامل مع الشام صيفاً واليمن شتاءً تكيُّفاً مع الظروف المناخية.

فهناك مَن يرى أن استئجار السيدة خديجة للنبي محمد (ص) ليتاجر لها في مالها كان هو الوسيلة التي أدت إلى زواجها منه. ذلك لأنه كان حديث المجتمع القرشي: رجاله ونسائه، في أمانته وصدقه واستقامته، حيث كان يلقب بالصادق الأمين. فأرادت السيدة خديجة أن تتعامل معه عن كثب لتتأكد من مصداقية صيته الذائع بين الناس، فاستأجرته وبذلت له من المال ضعفي ما كانت تبذله لغيره، فوافق على طلبها بعد استشارة عمه أبي طالب، كفيله ومربيه بعد جدِّه عبد المطلب. ومن الجدير بالذكر أن النبي (ص) قد رافق عمه أبا طالب في طفولته في رحلة تجارية إلى الشام، وأرسلت خديجة مع النبي محمد (ص) غلامها ميسرة لخدمة القافلة ورعايتها. وحقّقت الرحلة التجارية نجاحاً باهراً. وحينما صارت القافلة على مشارف مكة، أسرع ميسرة إلى سيدته ـ قبل دخول القافلة مكة ـ يخبرها بأخبار القافلة وما حدث لمحمد في طريقه مع الراهب بحيرا، وغيره من الأحداث التي لم يتفق أن حدثت من قبل. ثم إن نفيسة بنت منبه، صديقة السيدة خديجة، لاحظت تعلُّق صديقتها بالصادق الأمين، فكانت مرسال الخير، فعرضت عليه الزواج من خديجة. وتمّ الزواج(٥).

يرى بعض المؤرِّخين أن زواج النبي (ص) من خديجة لم يكن من نتائج رحلته إلى الشام في تجارتها، ولم تكن الواسطة صديقتها نفيسة بل كان بواسطة أختها هالة، وبناءً على طلب خديجة. فقد جاء في تاريخ اليعقوبي عن عمار بن ياسر أنه قال:

«أنا أعلم الناس بزواج خديجة بنت خويلد من رسول الله، لقد كُنتُ صديقاً له وإنا لنمشي يوماً بين الصفا والمروة وإذا بخديجة وأختها هالة معها، فلما رأت رسول الله جاءتني أُختُها هالة وقالت: يا عمار ما لصاحبك رغبة في خديجة؟ فقلتُ لها: والله لا أدري. فرجعتُ إليه وذكرتُ ذلك له، فقال لي: ارجع فواضعها وعدها يوماً نأتيها فيه، فلما كان ذلك اليوم أرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ودهنت لحيته وألقت عليه حبراً، ثمّ حضر رسول الله في نفر من أعمامه يتقدّمهم أبو طالب فخطب في الحاضرين وتم الزواج بينهما».

وأضـاف عمار بن يـاسر إلى ذلك أنها لم تستأجـره في تجارتها ولم يكن أجيراً لأحـد أبداً، كما أورد حـديث زواجه منها على هـذا النحو ابن كثير في تـاريخه بعد أن أورد الصورة الشائعة بين المحدثين[٦].

أما بالنسبة لخطبتها فإن الرسول (ص) بعد أن أبدى استعداده لتلبية رغبتها أخبر أعمامـه فأسرعـوا لتحقيق رغبتـه والتقى أعمامـه حمزة والعباس وأبـو طـالب وذهبـوا خاطبين إلى بيت خديجة، فكان مما قال أبو طالب بعد أن قام خطيباً:

«الحمـد لله الـذي جعلنـا من ذريـة إبـراهيم وزرع إسماعيل وضئضيء[٧] معد وعنصر مُضر، وجعلنا حفظة بيته وسُـوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجـوباً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخي هـذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح بـه، فإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، محمـد مَن قد عـرفتم قرابته، وقـد خطب خديجة بنت خويلـد، وبذل لها الصداق ما آجله وعـاجله من مالي، وهو بعد هذا، والله، له نبأ عظيم وخطر جليل»[٨].

ومهما كان تعدد الروايات والملابسـات، التي اقترنت بهذا الزواج فالواضح أنه تمّ بناءً على طلب خديجة، ورغبتها بعد أن ردَّت العـديد من الخطَّاب من سادة قريش وأشراف مكـة. كما وأن الرصيـد الـذي امتلكـه محمد (ص)، من الشبـاب والجمال ومكارم الأخلاق والنسب الرفيع والصيت الذائع في مكة وما جاورها يمكنه من بلوغ أي فتـاة يريـدهـا. فقد كـان حلم عذارى مكـة وزهـرات الهاشميين. وكان عمـر الـرسول(ص) آنـذاك خمسـة وعشرين عـاماً وعمـر خـديجة أربعين عـاماً. فكـان محمد(ص) يصغرها بخمسـة عشر عاماً. وبعد مرور خمسة عشر عـاماً على حياتهما الزوجية السعيدة، بُعث النبي محمد (ص) برسالة الإسلام وهو في سن الأربعين[٩].

لقد كـان لهذه السيدة الجليلة أكبر الفضل وأعظم الأثـر في الترويح عن زوجها ومساندتـه على استقبال رسالة السماء. فلم تشغله بنفسها ولم تضـايقه بطلباتها، ولم تتذمـر من قلة إقـامته إلى جـوارها، وحملت عنـه مسؤولية البيت وأغنتـه عن طلب المعاش، حتى يكون مع ربه في خلوته ومحنته. كـانت كالواحة التي يستريح عندها

ليخفف من متاعبه وكالشجرة التي يتفيأ ظـلالها. وكانت تشجعه بالثبات والصبر. فكانت تغـدق عليه مشاعـرها الرقيقة وعـواطفها الصادقـة حتى في لحظات الخوف وهـو يتلقى أمر الله وكلماتـه، فكـانت مـواساتها ومـواقفهـا المخلصة مصـدر دعم ومسانـدة واعتزاز بهذه الـزوجة العظيمـة التي كان زواجـه بها من متطلبـات مهمته الرسالية والتمهيد لنجاحها[١٠].

بعد هذه الأعوام وبعد أن بلغ الزوج الأربعين، استقبل الـزوجان حدث الرسالة العظيم لا في حياة قريش والعرب بل في حياة الإنسـانية جمعاء. إنّ هذا الحدث ثورة على الأوضاع السيـاسية والاجتماعيـة والاقتصاديـة والثقافيـة بشكل عام فقـد تلقى الزوج العظيم رسالة السماء إيـذاناً بحياة جديدة شاقـة مليئة بشتى أنواع الاضطهاد والمتاعب والنضال المرير.

وظلّ النبي (ص) يتـابعُ تأمــلاتـه ومـواقفـه هـذه وألف الخلـوة في غـار حِـراء واستطابها. وما كـانت خديجة وقد قاربت الستين من عمـرها لتضيق بهذه الخلوات التي تحجبه عنها في أكثر الأحيان، فلم تعكـر عليه صفو تأملاته، بل على العكس من ذلك كانت تحوطه بالرعاية والطمأنينة ما دام في بيتها، فإذا انطلق إلى حِراء ظلّت عيناهـا تشخصان إليه، فـلا تفكر بشيء سوى سـلامته، بل وتـرسل إليه في أغلب الأحيان مَن يعمل على حراستـه ولو من بعيد، دون أن يقتحم عليه خلـوته أو يفسد عليه تأملاته. وهكذا كان حال محمد بن عبد الله (ص)، وهو يتهيأ لاستقبال رسالة السماء، فما إن فاجأه الوحي، في رمضان سنة ٦١١م، وهو معتكف في الغار، حتى انطلق يلتمس الـدفء والحنان والأمان في بيتـه مع ظلمة الفجـر مرتعـد الأوصال، حتى بلغ حجرة زوجته نموذج الوفـاء والصبر ورمز التضحية. فأحسَّ وكأنه قد بلغ مأمنـه. وجلس يحدثهـا بكل ما جـرى ومـا حدث معـه في الغـار، وقـد بدا عليـه الإجهاد. فأقبلت عليه بلهفة الأم الرؤوم وهتفت به في ثقة ويقين قائلة:

«أبشر يـا ابن العم وثق بأنّ الله لا يخذلك أبـداً، إنك لتصل الـرحم، وتصـدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعـدوم، وتُقـري الضيف، وتعين على نـوائب الدهر»[١١].

وما زالت به حتىٰ هـدأ روعه، وأحس بالطمأنينة، وهي تهيّىء له فـراشه وتأخذ بيده إليهـا، كما تفعل أم بطفلها الوحيـد، وما زالت بـه حتى استسلم لنوم عميق. فـانسلت من الحجـرة ثقيلـة الخطى، حـرصـاً على راحتـه حتى إذا بلغت الطـريق اندفعت تسرع نحو بيت ابن عمها ورقة بن نوفل، ومكة في ذلك الوقت لا تزال تغطّ في نوم عميق هادئة يلفها ظلام دامس، حتى بلغـت ابن عمها فأيقظته من فراشه، وقد بدت عليـه آثار الشيخوخة، فأخذت تحدثه وهـو يصغي إليها يستمع إلى أنباء محمد (ص) وما جرى له في الغار، فأشرقت أساريره لحديثها وانتفض يقول:

«قدُّوس، قدُّوس، والذي نفس ورقة بيده، لئـن صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي يأتي موسى وعيسى بن مريم، وإنه لنبي هذه الأمة. قولي له: فليثبت، وليكن على يقين من أمره»[١٢].

فانطلقت نحو بيتها بسرعة، من غير أن تنتظر من ابن عمها مزيداً من البيان، وانطلقت لتزفّ بشائر النبـوّة لحبيبها وقرّة عينها محمـد (ص) تلك النبوّة، التي كان يترقّب ظهورهـا في شبه الجزيرة العـربية، رجـال أمثال ابن عمها ورقـة، وعمرو بن نفيل وغيرهما من المتألّهين والكهنة والرهبـان، فإذا به لا يزال نائماً كما تـركته. فوقفت إلى جواره وهي مفعمة بالفرح، بعد القلق، الـذي عاشته نتيجة حالة الخوف، التي كان عليها الرسول (ص) بعد عودته من الغار.

لقد عزَّ عليها أن توقظه وهي مغمورة بأسارير الفرح وسابحة في الخيال والتفكير بمستقبله العظيم. وإذا بحالة غـريبة تنتابه لم ترها من قبل. فقـد انتفض في فراشه وثقل تنفسه وتقاطر العرقُ من جبينه، واستمر في تلك الحال فترة من الوقت قبل أن يعود إلى حالتـه الطبيعية فكان وكأنه يستمع إلى محدث كل ذلـك والصديقة الكبرى تنظر إليه وقد عاودها القلق مرة أخرى لحاله[١٣]. لقد نزل عليه الوحي بهذه الآية: ﴿يا أيها المدثـر، قم فأنذر، وربك فكبّر، وثيابك فطهـر، والرجز فـاهجُر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر﴾[١٤].

نظر الرسول (ص) إليهـا ملياً نظرةً تفيض بالامتنان، وقد بـدا عليها القلق لحاله فرغبت إليه أن يستمر في نومه، فقال لها: «لقد انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة،

هذا الأمين جبريل يأمرني أن أنذر الناس، وأدعـوهم إلى الله وعبادته، فمن ذا أدعوه ومَن يستجيب لدعائي؟»(١٥).

لم تكتفِ الزوجة البارّة بتأييد الرسول (ص) وتصديق ما رأى وما سمع بل مضت به من ساعته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل لتقص عليه ما جرى له، ولم يكد يراه حتى صـاح: «والـذي نفسي بيـده إنك لنبيّ هـذه الأمـة ولتُكـذّبنَّ ولتـؤذين ولتخـرجَنَّ وتقاتلنَّ، ولئن أدركتُ ذلك اليوم لأنصرنَّ الله فيك، ثم دنا منه وقبّل نافوخه، فقال له النبي (ص): «أو مخرجيَّ هم؟».

فقال له: «نعم. لم يأتِ رجل بمثل ما جئت بـه إلا عودي، ليتني كنتُ جذعاً. ليتني أكونُ فيها حيّاً»(١٦).

فطابت نفس النبي (ص) بما سمع وعاد إلى بيته ليبدأ دعوته الرسالية المباركة التي سينـاضل فيها في سبيـل الله لينقذ البشريـة من الغـواية ويهدي النـاس إلى الصراط المستقيم، وهـو يعلم أن قـريش لا تتنـازل عن كبريـائهـا وجبروتها وهي تـرى محمداً(ص) يسخر من الأصنام والأوثان التي وجدوا آباءهم لها عابدين منذ سنوات عديدة، ويدعـو إلى عبادة إله واحد لا شريك له. إن رسالـة محمد (ص) ثورة بكل المعايير إنها لا تقتصر على ما يعبد الناس وإنما تمتد لتشمل تغييراً جذرياً لجميع أنماط سلوكهم وحياتهم وبنائهم الاجتماعي والسياسي إنها ثـورة شاملة لخلق مجتمع جديد ودولة جديدة تقوم على الحق والعدل والمساواة والحرية.

ووقفت زوجته تشـدُّ أزره منذ اللحظات الأولى لمبعثه العظيم وتشاركـه كل أنواع الأذى والحرمان في جميع مراحل نضاله التي مرّ بها بإجماع المؤرخين.

تحدّث الـدكتـورة بنت الشـاطىء بشأن تفاني السيـدة خـديجة في سبيل زوجهـا ومساندته في دعوتـه قائلة: «هل كان لزوجة عداها أن تستقبل دعـوته التاريخية من غار حراء بمثل ما استقبلته هي بـه من حنان مستثار، وعطف فيّاض وإيمان قوي، دون أن يساورهـا في صدقـه أدنى ريب، أو يتخلّى عنها يقينهـا في أن الله غير مخزيه أبداً؟ وهل كان في طـاقة سيدة غير خديجة غنية مترفـة منعمة، أن تتخلّى راضية عن

كلّ ما أَلِفَت من راحة ورخاء وتقبل على أفـدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد، في سبيل ما تُؤمن بأنه الحق، كلا بل هي ـ وحدها ـ ولا امرأةغيرها التي أعدَّتها الأقدار لتملأ حياة الـرجل الموعود بالنُّبوَّة، وتكون لليتيم أُمّاً، وللبطل ملهمـة، وللمجاهد ملاذاً وسكناً، وللنبي المبعوث ثقة وطُمأنينة وسلاماً. . »[١٧].

تلك كـانت مواقف السيـدة خديجة، منـذ أن اختار الله زوجهـا للدَّعـوة لدينـه الحنيف. عطاء بـدون حدود، لقد أحبّت زوجها فتفـانت في حبه وآمنت بدعـوته، فضحّت بكل مـا تملك للثبـات على العقيـدة والـدفاع عنهـا. إن سيـدة قـريش، والطاهـرة، أصبحت الآن شريكة وسنداً للنبي في دعـوته، فنـالت من أذى قريش الكثير، فصبرت حتى آخر نَفَس لها في الحياة.

ولما اشتـدّ أذى الكفار للنبـي (ص) والمسلمين، أمرهم الـرسـول بـالتوجّـه إلى الحبشة. ومع أن زعماء قريش حاولوا تحريض النجاشي ملك الحبشة على المسلمين ـ وكانوا ثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة، بينهم جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عميس ـ إلا أن مساعيهم بـاءت بالفشل لتعـاطف ملك الحبشـة معهم واعتناقـه الإسلام فيما بعـد. وعاش المسلمـون المهاجـرون في الحبشة عيشـة راضية آمنين على أنفسهم وعقيدتهم[١٨].

لقد ضاق زعماء قريش ذرعاً بفشل مساعيهم للقضاء على محمد (ص) ودعوته، فقـد رأوا أتبـاعه في ازديـاد على الـرغم من ممـارستهم شتى أنـواع القمع والتعـذيب معهم. ففي الخارج وجـد محمـد (ص) وأتباعـه مَن ينـاصرهم ويسـاندهم، وهـو النجاشي، وفي الـداخل يقف أبو طالب كـالجبل الأشم يذود عن ابن أخيـه ويشدُّ أزره لتبليغ دعوته السماوية. لذلك اتفقت قريش على مقاطعة الهاشميين والتضييق عليهم وحـرمـانهم حتى من ضرورات العيش، وأخـرجتهم من مكـة إلى شعب أبي طالب وضيّقت عليهم الحصار حتى يموتوا جوعاً أو يسلموا إليهم رسول الله(ص). وكان نص الصحيفة التي كتبها منصور بن عكرمة الذي شلّت يده لاحقاً:

«إنّ على قريش أن تقـاطع بني هاشم فلا يبيعون لهم ولا يشترون، ولا يتـزوجون

منهم أو يزوّجونهم، ولا يتقدمون إليهم أبداً بعون ولا مساعدة، ولا يعرضون عليهم طعاماً ولا شراباً، حتى يموتوا جوعاً ويهلكوا ظمأ، أو يسلموا محمد للقتل والهلاك»[١٩].

ولم يتأخر أحدٌ من عظماء مكة عن الموافقة على هذه الصحيفة بل ختمها أربعون من سادتهم ورُؤسائهم، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة. فدخل بنو هاشم الشعب، مسلمهم وكافرهم عدا أبي لهب وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب لشدة عداوتهما للرسول (ص)، ثم أسلم أبو سفيان بعد ذلك وانحاز إلى بني هاشم بنو المطلب بن عبد مُناف فكانوا أربعين رجلاً. وحصَّن أبو طالب الشعب وكان يحرسه ليلاً ونهاراً، وأخافتهم قريش فكانوا لا يخرجون ولا يأمنون إلا من موسم إلى موسم، موسم العمرة في رجب وموسم الحج في ذي الحجة وقطعوا عنهم الطعام إلا ما كان يُحمل سراً، وهو شيء قليل لا يسد رمقهم حتى بلغ بهم الجهد وسُمِعَت أصوات صبيانهم من وراء الشعب يتضوّرون جوعاً، وذلك أشد ما لقي رسول الله (ص) وأهل بيته بمكة، وكان دخول بني هاشم وبني المطلب الشعب في أول محرم السنة السابعة لبعثة الرسول (ص) وبقوا فيه مدة تتراوح بين سنتين أو ثلاث سنوات[٢٠]. وحينها أراد الله الفرج لنبيه (ص) ومَن معه أرسل الله على الصحيفة الأرَضَة فلحستها إلا عبارة «باسمك اللهم»، فأخبر الله تعالى نبيه بذلك فذكره لعمه أبي طالب فنقل أبو طالب ذلك النبأ لقريش فقال لهم: «إن ابن أخي أخبرني أن الله قد سلَّط على صحيفتكم الأرَضَة فأكلتها غير اسم الله فإن كان صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعته إليكم» قالوا: «قد أنصفتنا» ففتحوها فإذا هي كما قال. فقالوا: «هذا سحر ابن أخيك». وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم، فمشى هشام بن عمرو، إلى زهير بن أبي أمية المخزومي، وزهير ختن أبي طالب على ابنته عاتكة، وقال: «أرضيت أن يكون أخوالك هكذا؟» قال: «فما أصنع وأنا رجل واحد؟» قال: «وجدت ثانياً». قال: «ابغنا ثالثاً». فما زالوا كذلك حتى صاروا خمسة، بينهم ـ إضافة لهشام وزهير ـ مطعم بن عدي وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود. فأقبلوا إلى أندية قريش، فقال زهير: «يا أهل مكة، أنأكل

الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب وبنـو هاشم هلكى؟ والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفـة القاطعـة الظالمة». فقـال أبو جهل: «كذبـت والله لا تشق»، فقال زمعـة: «أنت والله أكذب»، فقـال أبو البختري: صـدق والله زمعة. وقـال مطعم وهشام مثل ذلك. فقال أبو جهل: «هـذا أمر قضي بليل» وقام مطعم إلى الصحيفة فشقها، وخرج بنـو هاشم من حصار الشعب، في السنة التاسعـة أو العاشرة للنبوّة إلى مساكنهم[٢١]. وقال أبو طالب، في أمر الصحيفة وأكل الأرَضَة ما فيها من ظلم وقطيعة رحم أبياتاً منها[٢٢]:

وقد كـان في أمر الصحيفـة عبرة	وما نقموا من نـاطق الحق معرب
محا الله منهم كفـرهـم وعقـوقهم	متى ما بخير غائب القوم يعجب
فأصبح ما قالـوا من الأمر باطلاً	ومن يختلق ما ليس بالحق يكذب

كانت السيـدة خديجة شريكة زوجهـا في حصار الشعب وأهـوال الحصار، فلم تتردّد لحظـةً عن البـذل والتضحية فتخلّت عن دارهـا والتحقت بنسـاء بني هـاشم وبني المطلب مؤمنـة بأن النصر في النهايـة سيكون حليف المؤمنين والصـابرين على الأذى في سبيل الله. وأقامت معه طوال فترة الحصار وقاست مرارة الجوع والحرمان. تلك سيدة قريش الطاهرة، وقد أشرفـت على الشيخوخة تغالب الضعف الذي بدأ يعتري جسمها وقد تخطّت الستين عاماً. لقد صبرت على مرض الأطفال وصراخهم من الجوع والحرمان، وصمـدت تعزّز صمود محمد (ص) وأتبـاعه متحدّيـة وإياهم جبروت القرشيين وهمجيتهم.

لقـد تخلّت السيـدة خديجة عن كـلّ متاع الـدنيـا، وصبرت على شظف العيش وقسوة الحياة، وهي سليلة مجد وربيبة نعمة، من أجل إحقاق الحق، ونصرة أتباعه، وهزيمة الشرك والمشركين.

لقد دأبت قريش على إلحاق الأذى بالرسول (ص) بكل الوسائل، ومنها تحريض أزواج بناتـه على تطليق نسائهم. فقد كانت زينب من نصيب العـاص بن الربيع، وأمه هـالة شقيقة خـديجة، وكان زواجها نـاجحاً. فلم يتأثر بضغـوط قريش، ولا

بالمغريـات التي بذلتها لـه مقابل فراقها. أمـا رُقية وأم كلثوم فقد تـزوجهما أبناء عبد العـزى، المعروف بأبي لهب «عم النبي (ص)»: عتبـة وعتيبة وقـد استجابـا لطلب قـريش على الفور تنفيـذاً لرغبـة أمهما أم جميل التي كانت تكيـد لبني هاشم الـذين استأثـروا بالمجـد والجاه دون قـومهـا بني عبد شمس، وفي الـوقت نفسـه أرادت أن تشفي غليلها وحقدها من خديجة التي كانت السيدة الأولى بمكة بلا منازع.

ولذلك كان أشد ما صبرت عليه السيدة خديجة حصار الشعب، وتطليق ابنتيها رقية وأم كلثوم إمعاناً في إيذاء النبي (ص) والكيد له[٢٣]. ولذلك نزلت في أبي لهب وزوجتـه أم جميل سورة اللهب لشـدة إيـذائهما لرسـول الله (ص) كما هو معـروف: **﴿تبّت يـدا أبي لهب وتبّ، ما أغنـى عنه مـالـه وما كسب سيصلى نـاراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد﴾**.

أمـا السيدة خـديجة فقد جـاء جبريل لها بالبشرى بما أعـدَّ الله لها في الجنة جـزاء صبرهـا وجهـادهـا وثبـاتها على المبدأ. فقـد جـاء عن أبي هـريـرة أنـه قـال: «أتى جبريل(ع) إلى النبي (ص) فقال له: يا رسول الله هـذه خديجة قد أتت، ومعها إناء فيـه أدم أو طعـام أو شراب، فإذا هي أتتك فـاقـرأ عليهـا السـلام من ربها ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيـه ولا نصب». فأخبر الرسول (ص) السيدة خديجة بما قـال جبريل، فردَّت رداً حكيماً ينمّ عن كمال العقل فقالت: «الله هو السلام وعلى جبريل السلام»[٢٤].

مـرضت السيـدة خـديجة في الشّعب ثم غلـب عليهـا المرض والضعف بعـد خروجها، فلم تمكث سوى فترة قصيرة وودعت الدنيا راضيـة مرضية. فقام الرسول بدفنها في منطقة الحجون ونزل معها في قبرها، ثم عاد إلى البيت ليشارك بناته الثلاث زينب وأم كلثوم وفاطمة مرارة الحزن ولوعة الفراق. وكانت رقية آنذاك في الحبشة مع زوجها عثمان[٢٥]. وبكاهـا رسول الله (ص) كما لم يبـكِ أحداً أبداً، فقـد كانـت له الزوجة والحبيبة والصـديقة والأم. ومما ضاعف أحزان رسـول الله (ص) أنه فقد عمه أبـا طالب أيضـاً في العام نفسـه، فكان عـاماً حـزيناً سُمِّي عـام الحزن، لأنه فقـد برحيلهما أكبر نصيرين قلَّ أن يجود الزمان بمثلهما[٢٦].

لقد كان أبو طالب حامي حمى الرسالة وصاحبها رسول الله (ص)، بينما كانت السيدة خديجة حاضنة الرسول (ص) وملاذه لتفريج كروبه وهمومه. هذا يكشف الكرب عنه بالسيف وهذه تسر عنه همومه بالكلمة الحانية والعطف. تلك المواساة الصادقة من هذه الزوجة المؤمنة التي تجمعت فيها شمائل الأم وحنانها، وبرُّ الزوجة الصالحة وتفانيها وعطفها والحبيبة التي كانت تغدق عليه حباً ينبع من سويداء قلبها.

وجد الرسول (ص) مكة خاليةً من حامي حماه الذي كانت قريش تهابه ولا تجرُؤ على إيذائه في وجوده. ووجد البيت مقفراً من السراج الذي أظلم بعد رحيل رفيقة دربه في نضاله الرسالي. فكان وقع ذلك عظيماً عليه، إلا أن عزاء الرسول (ص) في ذلك أن الدعوة الإسلامية وصلت إلى مرحلة تمكنها من النهوض بأعبائها والاعتماد على رجالها المخلصين. فقد تخطت الدعوة مكة إلى ما جاورها من المدن، حيث شملت الحجاز، وأصبحت حديث الناس في رقعة واسعة، خصوصاً بعد الهجرتين الأولى والثانية إلى الحبشة، حيث بلغت قوة العقيدة في نفوس المسلمين درجة التضحية بأموالهم ونسائهم وديارهم من أجل سلامة العقيدة والمبدأ. لأنهم وجدوا أن سلامة عقيدتهم أثمن من كل متاع الدنيا. هكذا كان الرجال الذين اعتنقوا دين الله. إنه ثمرة حماية أبي طالب واحتضان خديجة وصبر التابعين وتضحياتهم.

٤ ـ وفاء الرسول (ص) للسيدة خديجة:

لقد رحلت السيدة خديجة (رض) وغابت عن دنيا الناس، ولكنها ظلت ماثلة بين عيني زوجها العظيم الوفي، ودخلت في حياته عديدات ولكن مكانها ظلّ في سويداء قلبه، وفاءً لعشرتها الطيبة الطاهرة. ولم تستطع أية امرأة من نسائه أن تصل إلى مكانة خديجة عنده، أو تزحزح مكانتها من قلبه. إنه نموذج الوفاء العظيم للحب العظيم. إن ذكريات خديجة وتضحياتها وعطاءها، ظلّ ماثلاً في ذهنه يردِّده على لسانه وبين زوجاته. فقد أعطاها عمره وزهرة شبابه ولم يتزوج بغيرها حتى فارقت الحياة وفاءً لتضحياتها الجليلة في سبيل الدين. وجاء في سيرة ابن إسحاق: «كان رسول الله (ص) لا يسمع شيئاً يكرهه، من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك

إلا فرّج عنه بخديجة (ر) إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عنه وتصدّقه. وتُهوّن عليه أمر الناس حتى ماتت رضي الله عنها»[٢٧]. وقال الكاتب كتاني، في كتابه الزهراء:

«لقد أعطتـه خديجة حباً وهي لا تشعـر بأنها تعطي، بل تأخذ منه حبـاً فيه كل السعادة، وأعطته ثـروة وهي لا تشعر بأنها تعطي، بل تأخذ منه هدايـة تفوق كنوز الأرض وهو بدوره أعطـاها حباً وتقديراً رفعـاها إلى أعلى مرتبة وهو لا يشعـر بأنه قد أعطاها»، بل قال: «ما قام الإسلام إلا بسيف علي ومال خديجة»[٢٨].

وكان وفاء الرسول (ص) لزوجته الأولى، الراحلة خديجة، موضع غيرة من بعض زوجاته ومنهن عائشـة، فقد شهد بيته عائشة بنت أبي بكـر، وهي في مطلع صباها ونضرة شبـابها، تستبد بها الغيرة من خـديجة، التي سبقتهـا إلى قلبـه لأنه ظل يـردد اسمها وفاءً لها كل صباح ومساء.

روى البخاري عن عائشـة قالت: «ما غِرت على امرأة مـا غِرتُ على خديجة من كثرة ذكر رسول الله (ص) إيَّاها». قالت: «وتـزوجني بعدها بثلاث سنين وأمرهُ ربُّه أو جبريل أن يبشّرها ببيت في الجنة من قصب»[٢٩].

ولقـد وفدت أخت السيـدة خديجة هـالة على المدينـة، فما أن سمع النبي (ص) صوتها حتى تذكر صوت أختها الراحلة، فخفق قلبه وصاح: مرحباً بكِ يا هالة فلم تملك عائشـة نفسها حتى هتفت بـه تقول: «مـا زلت تذكـر بحسرةٍ وألم عجوزاً من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت من عدة سنين وقد أبدلك الله خيراً منها».

وعلى الرغم من حلم رسول الله (ص)، إلا أن وفاءه وحبه الخالد لخديجة أدى إلى انفعاله وتغيّر لونه فقال: «لا والله، ما أبدلني الله خيراً منها، لقد آمنت بي حين كفر الناس، وصـدَّقتني حين كذَّبني الناس، وواستني بمالها إذ حـرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء».

فأمسكت عائشة عن الكلام، وهي تقول: «والله لا أذكرها بعد اليوم»[٣٠].

وعن عائشة أيضاً قالت: «كان رسول الله (ص) إذا ذكر خديجة لم يكن يسأم من ثناء عليها واستغفار. فذكرهـا ذات يوم فاحتملتني الغيرة، فقُلتُ: لقد عوضك الله

من كبيرة السن. قالت: فرأيت النبي (ص) تغيّرت معالم وجهه الكريم، وسقطتُ من جلدي، فقُلتُ: اللهم إنك إذا أذهبت غضب رسولك عني لم أعد لذكرها بسوء ما بقيت. قالت: فلما رأى رسول الله (ص) ما لقيتُ، قال: كيف قلت؟ والله لقد آمنت بي إذ كذّبني الناس، وآوتني إذ رفضني الناس، ورزقتُ منها الولد وحرمتموه مني. قالت: فغدا وراح عليَّ شهراً»(٣١).

وعن عائشة (ر): قالت: «ما غرتُ على أحد من نساء النبي (ص) ما غرتُ على خديجة وما رأيتُها ولكن كان يكثر ذِكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً ثم يبعثها في صدايق خديجة. وقلت له: كأنه لم تكن في الدنيا امرأة إلا خديجة! فيقول: إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد»(٣٢).

ويستمر الرسول (ص) في التعبير عن وفائه في مواقف متعددة، فحين أعز الله دينه وأذن للمسلمين بفتح مكة ودخلها مرفوع الرأس يحيط به ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل، فأراد أن يكون قريباً من قبر زوجته وحبه الكبير خديجة، بعد أن مضى على وفاتها أكثر من عشر سنين حافلة بالنضال في سبيل الله وثبات دولة النبوّة، فبنيت له قبة إلى جوار القبر لينزل فيها حتى يسهل عليه التردد لزيارة قبرها وليشرف على فتح مكة من تلك القبة(٣٣).

وعن مكانتها عند الله، نتيجة صبرها ومواساتها لرسول الله (ص) وإخلاصها له، روى البخاري عن عائشة قالت: «ما غرت على امرأةٍ ما غرت على خديجة، ولقد أمره ربُّه، تبارك وتعالى، أن الله يبشّرها ببيت في الجنة»(٣٤).

وروى الترمذي عن أنس أن النبي (ص) قال: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسيا امرأة فرعون»(٣٥).

٥ ـ الإسلام يقدم نموذجاً للحياة الزوجية:

لقد شاءت إرادة الله أن يكون زواج محمد (ص) من خديجة وسيلة فعالة من وسائل نجاح رسالته الإلٰهية من جانب أوّل وأن تكون تلك العشرة بكل حلاوتها ومرِّها نموذجاً يحتذى به لبناء الأسرة في الإسلام من جانب آخر.

لقد قدمت خديجة ومحمد (ص) نموذجاً للزوجين المثاليين فخديجة قدمت

نموذج الزوجـة التي شاركت النبي (ص) حلاوة الحيـاة ومرَّها دون أي تغيير لسيرتها مع زوجها في السراء والضراء، فكـان تطليق بنتيها وحيـاتها في الشعب أكبر امتحان لها تميز بالقسوة فواجهتـه بكل صلابة دون أن تستسلم أو تضعف، فقد شاء الله من خـلال هذه الـزوجة المؤمنـة أن تكـون حياتها مع رسـول الله (ص) نموذجـاً لجميع الزوجات عبر العصور التاريخية إلى قيام الساعة. وبالمثل فقد كان النبي (ص) أيضاً هـو الـزوج النمـوذج لـلإسـلام والبشرية جمعـاء عبر تعـاقب العصـور. لقـد قـدم الرسول(ص) من نفسه الزوج النموذج لكل الأزواج في العالم. ومهما تعاقبت الأزمنة سيكون الزوج النمـوذج، فقد عاش عيشة راضيـة معها وصان عهدهـا وودها ليس فقط في حياتها بل وبعد مماتها، وعلى الرغم من تعـدد زوجاته وسراريه، كما مر ذكره وعلى الرغم من هجرته إلى المدينة وابتعاده عن مكان ذكرياته الزوجية، إلا أن ذكراها وتضحياتها وعشرتها وحبها، كل ذلك ظلّ محفوراً في ذاكرته وقلبه. والأحاديث التي تُروى عنه وعن بعض زوجاته، لهي خير دليل على صيانته العهد وحفاظه على الود. إن تضحيات خـديجة ستبقى دروساً قيمـة للزوجـة الصالحة وحـافزاً لكل زوجـة أياً كـانت ديانتهـا للاقتـداء بها. وحريٌّ بكل زوج أيـاً كانت ديـانته أن يقتـدي بوفـاء محمـد(ص) لخديجة وحبـه الخالـد لها. ولا شك في أن نجـاح أي مجتمع واستقـراره مرهون بنجاح الأسرة واستقرارها، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال حياة زوجية سعيدة.

إن تضحيات السيدة خـديجة لزوجها، إنما كانت تضحيات لرسـالته السماوية، ولم تصل إلى ذلك المستوى السـامي من البذل المتـواصل، وإنكارها لـذاتها إلا لقوة إيمانها، فكان انتصار دين الله هدفها السامي، ولذلك تلاشت كل رغباتها الدنيوية في ذات الله، فأصبحت بحق رائدة المرأة الـرساليـة الأولى في الإسـلام، ودعامـة من الدعائم التي أدّت إلى قيـام دولة النبوَّة، كما شهد بـذلك النبي (ص) نفسه. فكان ثوابها، على أعمالها الجليلة الخلـود في الدارين: خلود الذكر، والقـدوة الحسنة لنساء العالم في دار الدنيـا والدرجات الرفيعة ونعيم جنات الله في دار الآخـرة. قال تعالى: **﴿فمن يعمل مثقـال ذرة خيراً يـره ومـن يعمل مثقـال ذرة شراً يـره﴾**[٣٦]. ولكل تضحياتها وما تمخض عنها مـن إنجازات، استحقت أن تكون رائدة النضال الأولى للمرأة الرسالية في دولة النبوَّة.

هوامش الفصل الأول

(١) ابن الجوزي: صفة الصفوة، مجلد ٢، ص٧.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام (السِّيرة النبوية)، جـ٢، ص٦٣.

(٣) دلائل النبوَّة للبيهقي (٧/ ٢٨٣)؛ السير والمغازي لابن إسحاق ص٢٤٥، عن الحسني: الأئمة الاثنى عشر، القسم الأول، ص٤٣.

(٤) الذهبي: المرجع نفسه، ص٦٥.

(٥) ابن حنبل: المسند (١/ ٣١٢)، دلائل النبوَّة للبيهقي (١/ ٩٠، ٢/ ٦٨)، عن يماني: المرجع السابق، ص٦١ـ ٦٦.

(٦) الحسني: المرجع نفسه، ص٤٥ـ ٤٦.

(٧) ضئضىء: المعدن الأصيل.

(٨) دلائل النبوَّة للبيهقي (١/ ٤٢٤، ٢/ ٦٨)؛ الطبقات لابن سعد (١/ ٨٤)، عن يماني: المرجع نفسه، ص٦٥.

(٩) الذهبي: المرجع السابق، ص٦٤.

(١٠) الذهبي: نفس المرجع، ص٦٣ـ ٦٤.

(١١) نفسه، ص١٢٨ ـ ١٢٩.

(١٢) نفسه، ص١٢٨.

(١٣) نفسه، ص١٢٨، ١٣٢.

(١٤) سورة المدثر: ١ ـ ٧.

(١٥) الحسني: المرجع نفسه، ص٤٩.

(١٦) العسقلاني: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، جـ١، ص٢٣ ـ ٢٤.

(١٧) بنت الشاطىء: تراجم سيدات بيت النبوَّة، عن يماني: المرجع السابق، ص٦٧.

(١٨) ابن هشام: السِّيرة النبوية، مجلد١، جـ١، ص٣٥٣ ـ ٣٥٤؛ أيضاً، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١، ص٥٩٨؛ أيضاً، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٢٢٢؛ أيضاً، الأمين: أعيان الشيعة، مجلد١، جـ٢، ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(١٩) الأمين: نفسه، ص٢٣٥.

(٢٠) نفسه.

(٢١) ابن هشام: المرجع نفسه، مجلد١، جـ١، ص٣٥٢ ـ ٣٥٣؛ أيضاً، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مجلد٣، جـ١٤، ص٣٠٧ـ ٣٠٨، أيضاً، الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص٢٣٥.

(٢٢) ابن الأثير: المرجع نفسه، مجلد١، ص٦٠٦.

(٢٣) الحسني: المرجع نفسه، ص٥٥ ـ ٥٨.

(٢٤) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ١٥، ص٢٩٨.

(٢٥) يماني: المرجع نفسه، ص٧٠.

(٢٦) دلائل النبوَّة للبيهقي (٢/ ٣٥٢)؛ السير والمغازي لابن إسحاق، ص٢٤٣؛ المستدرك للحاكم (٣/ ١٨٢) عن اليماني: المرجع نفسه، ص٧٠.

(٢٧) يماني: المرجع نفسه، ص٦٧.

(٢٨) الحسني: المرجع نفسه، ص٤٧.

(٢٩) البخاري: المرجع نفسه، مجلد١، جـ١٥، ص٢٩٨، مجلد٢، ج٣٠، ص٦٠٢.

(٣٠) الحسني: المرجع نفسه، ص٥٢.

(٣١) نفسه.

(٣٢) متفق عليه، انظر البخاري: المرجع نفسه، مجلد١، جـ١٥، ص٢٩٨؛ أيضاً، الكبداني: المرجع السابق، ص٣٤٣.

(٣٣) الحسني: المرجع نفسه، ص٥٣.

(٣٤) البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ٣٠، ص٦٠٢.

(٣٥) الطبري: ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص٤٣، خرجه أحمد والترمذي.

(٣٦) سورة الزلزلة: ٧، ٨.

الفصل الثاني

فاطمة الزهراء بنت محمد (ص)
رائدة النضال الثانية
للمرأة الرسالية في دولة النبوّة

١ ـ مولدها وتميزها عن سائر نسل النبي محمد (ص).

٢ ـ طفولة الزهراء وحياتها في مكة.

٣ ـ زواجها.

٤ ـ حياتها الزوجية وتضحياتها.

٥ ـ مكانة السيدة الزهراء عند الله ورسوله (ص).

٦ ـ فاطمة الزهراء والغزوات.

٧ ـ الزهراء المناضلة.

٨ ـ فاطمة الزهراء وحضور حجّة الوداع.

٩ ـ حضور الزهراء مرض أبيها (ص) ووفاته.

١٠ ـ فاطمة الزهراء وموت أبيها.

١١ ـ فاطمة الزهراء وسلطة الخلافة.

١٢ ـ سلطة الخلافة.

١٣ ـ سلطة الخلافة والعترة.

١٤ ـ علي يودِّع فاطمة.

السيدة فاطمة الزهراء هي رائدة النضال الثانية للمرأة الرسالية في دولة النبوّة، بعد أُمها خديجة؛ وذلك لسببين: الأول: معاناتها مع والدها إيذاء قريش ومطاردتهم، إلى جانب تضحياتها خلال حياتها الزوجية التي فاق تحملها طاقة البشر، علماً بأن الإمام علياً (ع) كان يمكنه أن يوفر لها جميع أسباب الترف والراحة التي كان يتمتع بها البيتان الكسروي والقيصري في كلتا الإمبراطوريتين آنذاك. والسبب الثاني أنها وقفت بكل شجاعة وشموخ ـ على الرغم من جميع المصائب التي تراكمت عليها كما سيتّضح ذلك من خلال مناقشة سيرتها ـ لنصرة إمامها ووصي والدها (ص) الإمام علي (ع) حينما خذلته الأمة وتخلّت عن الثقل الأصغر. فأوضحت في خطبها أبعاد المؤامرة والنتائج الخطيرة التي ستلحق بالدين والأمة نتيجة الانقلاب والتخاذل. ومن المعلوم أنها، في نضالها وتضحياتها، في سبيل نصرة الدين، فاقت أمها. إن المواقف النضالية التي وقفتها الزهراء (ع) في وجه سلطة الخلافة لم تكن دفاعاً عن مصالح شخصية بل كانت من وحي العقيدة التي تمكنت من نفسها وجعلتها تنسى كل مصائبها. إنه الدفاع عن مستقبل رسالة والدها وتضحيات السلف العظيمة.

اتفق رواة الحديث المسلمون، من مدرستيّ الإمامة والخلافة، في مجاميعهم وصحاحهم، أن السيدة فاطمة الزهراء قد فضلها الله على نساء العالمين، لا لأنها بنت الرسول (ص) وزوجة وصيه بل لأنها قد عملت بما أراد الله وأحبَّ وأخلصت في عملها كأمها الصدّيقة الكبرى، بما لم تعمله امرأة قبلها من الأولين والآخرين. واختارها الله لتكون أماً للذرية الطاهرة، تلك الذرية التي تعتبر امتداداً لحياة الرسول (ص) لتحمل عبء الكفاح لمواصلة نشر تعاليم الرسالة النبوية بنصوصها الحقيقية من أجل سعادة البشرية.

لقد كـانت الـزهراء أول ثمرة لأبـويها يقدمـانها للبشرية بشكل عـام وللمجتمع النسائي المسلم بشكل خاص، بعـد مرحلة النضال المشتركة التي مـرَّ بها الزوجان. لقد كانت السيدة الزهراء أول نموذج للبيت النبـوي، بل لدولة النبوَّة بعد أمها ورمزاً فـريداً للنضـال والتضحية ونكـران الذات. فقـد تجرعت مرارة الظلم والأذى منـذ طفـولتهـا في الشعب؛ حيث قـاسـت مـا قـاسـاه أطفـال الهاشميين من آلام الجوع والعطش نتيجة حصار قريش لهم. كما شاهدت بأم عينها ممارسات قريش الهمجية مع والـدهـا قبل الهجرة إلى المدينـة. كما تعـرضت لإيـذاء قريـش عند هجـرتها إلى المدينة. كذلك قدمـت السيدة الزهراء لنساء العالم، من خلال حيـاتها الزوجية مع ابن عمهـا علي بن أبي طـالب، نموذجـاً فـريداً من نـوعـه للـزهد والإيثـار والصبر والطاعة، فكـانت زوجة مثالية بكل المقـاييس تتباهى دولة النبوَّة بأن تقـدمها وأمها القدوة الحسنة كأفضل زوجتين عرفتهما البشرية. كما برزت السيدة الزهراء، بعد وفاة أبيها (ص)، امرأةً جريئة رفضت الإساءة إلى المبـادىء التي على أساسها قامت دولة النبوَّة. تلك الـدولة كـان يجب أن تكون نمـوذجاً للبشرية من خـلال العمل بتلك المبـادىء. وكما تجرعت السيـدة الزهـراء مـرارة الظلم وقسوة الأذى ولـوعـة اليتم في طفولتهـا فقد تجرعت أيضاً، في بـداية شبـابها، أيضاً، لوعـة فراق والدهـا وإنكار المسلمين وصيته واغتصـاب حقها، بـل وقسوة القـوم بضربها وإسقاطهـا جنينها. ولذلك لحقت بـوالدها بعـد وقت قصير نحيلة مهضومـة غاضبة على دولـة الخلافة لتخـاذل المسلمين عـن نصرة العترة. مخالفين بـذلك أمـر الله ورسـولـه بمـودتهم واتبـاعهم، ومتجاهلين أوامـر الله ورسولـه بعدم إيـذائهم وستتمّ دراسة ذلك كلـه بشكل تفصيلي.

١ ـ مولدها وتميُّزها عن سائر نسل رسول الله (ص):

أمها خديجة بنت خويلد أم المؤمنين الأولى، وكانت أصغر بنات رسول الله (ص) وأحبهنَّ إليـه، وانقطع نسلُ رسـول الله (ص) إلا من فـاطمـة، ولم يخلف من بنيـه غيرها. ومع أن السيـدة خديجة أنجبت لرسول الله (ص) القـاسم وعبد الله إلا أنهما توفيا في سن الطفولة ولم يبق سـوى البنات. في تلك البيئة التي كانت لا ترى للبنت وزناً، مهما بلغ شأنها، كان المجتمع العربي يعتبر مَن لا عقب له من الذكور مبتوراً.

فكانوا يستهزئون بالنبي (ص) حينما مات ولداه وقالوا: لقد أصبح يتيم عبد المطلب مبتور الذكر وسموه الأبتر، فأنزل الله عليه بهذه المناسبة سورة الكوثر: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر، فصلِّ لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتر**﴾[1] ولذلك اقتضت مشيئة الله أن يجعل عقب النبي محمد (ص) وذريته من صلب علي وفاطمة (عليهما السلام). وذكر ابن حجر أن الطبراني أخرج عن ابن عمر قول الرسول (ص): «كل بني آدم ينتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم، وأنا عصبتهم»[2].

كما ذكر ابن حجر ان الطبراني أخرج عن فاطمة الزهراء قول النبي (ص): «لكل بني أنثى عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم»[3].

كذلك أخرج الطبراني عن جابر والخطيب عن ابن عباس أن النبي (ص) قال: «إن الله جعل ذرية كل نبي في صلبه وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب»[4].

وليس من شك في أن انفراد السيدة فاطمة الزهراء بإنجاب نسل النبي (ص) هو مكرمة إلٰهية من مكارمها العظيمة التي لا يمكن أن تدانيها فيها امرأة على وجه الأرض. فهي أم الأئمة المعصومين (عليهم السلام).

أما بالنسبة لتاريخ مولدها، فهناك روايات مختلفة بعضها ينصُّ على مولدها قبل البعثة النبوية تروي ذلك وترجحه غالبية محدثي مدرسة الخلافة، بينما محدثو مدرسة الإمامة يرون أنّ مولدها كان بعد البعثة المباركة.

فقد روى الطبري عن أبي جعفر قال: «دخل العباس بن عبد المطلب على علي وفاطمة وأحدهما يقول للآخر: أيّنا أكبر؟ فقال العباس: وُلِدت، يا علي، قبل بناء قريش البيت بسنوات. وولدت ابنتي وقريش تبني البيت ورسول الله (ص) ابن خمس وثلاثين سنة قبل النبوّة بخمس سنين»[5]. وجاء في الكافي للكليني عن الحسن بن محبوب عن حبيب السجستاني أنه قال: «سمعت أبا جعفر يقول: وُلدت فاطمة بنت محمد بعد مبعثه بخمس سنين، وتوفيت ولها ثماني عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً»[6].

وفي رواية الشيخ الطوسي، في مصباح المتهجد وغيره، أن ولادتها بمكة كانت في

العشرين من جمادى الآخرة، بعد المبعث بسنتين، في يوم الجمعة. وقال في رواية أخرى: سنة خمس من المبعث(٧).

وقد تزامن مولدها يوم أن أتمّت قريش بناء البيت الحرام وأراد كل زعيم من زعمائها، أن يكون له شرف وضع الحجر الأسود في مكانه. . وقد نتج عن ذلك شجار وقع بينهم بسبب الاختلاف، وكادوا يقتتلون. ثم أجمعوا على تحكيم أول مَن يدخل عليهم المسجد، فكان الداخل محمداً فقالوا: هذا محمد الأمين قد رضينا به حكماً. وحين علم سبب اختلافهم، بسط رداءه وقال: ضعوا الحجر على هذا الثوب ففعلوا فقال: ليأخذ كل رئيس قبيلة بطرف الرداء ولترفعوه جميعاً، ففعلوا، فأخذه حين رفعوه فوضعه مكانه، ولم ينازعوه في ذلك، وتلاشت الفتنة(٨).

ولما عاد إلى بيته وجد خديجة قد ولدت فاطمة، وبُشِّر بها ففرح فرحاً عظيماً، وتفاءل بمولدها خيراً. إنهما حدثان عظيمان في يوم واحد(٩).

وتقول الدكتورة بنت الشاطىء في وصف هذين الحدثين: «لقد شاء الله أن يقترن مولدها بالحادث الجليل الذي ارتضت فيه قريش محمداً حكماً فيما شجر بينها من خلاف على وضع الحجر الأسود، عند تجديد بناء الكعبة المكرمة، فاستبشر أبواها بمولدها واحتفلا به احتفالاً لم تألفه مكة في مولد أنثى سبقتها ثلاث أخوات ليس بينهن ولد، وأمضت طفولتها سعيدة بحب أبويها وتدليل أخواتها لها وبخاصةٍ كبراهنَّ زينب، التي كانت لها بمثابة أم صغيرة»(١٠).

إن تميز فاطمة على بقية نسل رسول الله، في سلوكها، ربما يعود إلى أصل تكوينها ونطفتها. ولذلك كانت لها منزلة عند النبي (ص) لا يضاهيها أحد، وتعلق بها إلى درجة لفتت انتباه بعض زوجاته. روى الطبري عن عائشة (ر): «أن النبي (ص) قبل يوماً نحر فاطمة». أخرجه الحربي وأخرجه الملا في سيرته وزاد. . . فقلتُ له: «يا رسول الله فعلت شيئاً لم تفعله». فقال: «يا عائشة إني إذا اشتقت إلى الجنة قبلتُ نحر فاطمة»(١١).

وروى الطبري عن ابن عباس (ر) قال: «كان النبي (ص) يكثر القُبل لفاطمة، فقالت له عائشة: إنك تكثر تقبيل فاطمة. فقال (ص): إن جبريل، ليلة أُسري بي

أدخلني الجنة فأطعمني من جميع ثمارها، فصار ماءً في صلبي فحملت خديجة بفاطمة، فإذا اشتقت لتلك الثمار قبَّلتُ فاطمة فأصبتُ من رائحتها جميع تلك الثمار التي أكلتها»(١٢).

وممّا يدلُّ على أن مولد السيدة فاطمة الزهراء، بعد البعثة النبوية، ما رُوِيَ من أن نساء قريش قاطعن خديجة في ولادتها، ولا شك في أن تلك المقاطعة لم تحدث إلا بعد البعثة النبوية لممارسة الضغوط على رسول الله، كما حصل في أمر حصار الهاشميين في شعب أبي طالب. فقد روى الطبري عن الملا في سيرته: «أن النبي(ص) قال: أتاني جبريل بتفاحة من الجنة فأكلتها، وواقعتُ خديجة فحملت بفاطمة فقالت: إني حملتُ حملاً خفيفاً فإذا خرجت حدثني الذي في بطني. فلما أرادت أن تضع، بعثت إلى نساء قريش ليأتينها فيلين منها ما يلي النساء ممن تلد، فلم يفعلن، وقلن: لا نأتيكِ وقد صرتِ زوجة محمد (ص). فبينما هي كذلك إذ دخل عليها أربعُ نسوة، عليهن من الجمال والنور ما لا يوصف، فقالت لها إحداهن: أنا أُمُّكِ حواء، وقالت الأخرى: أنا آسية بنت مزاحم، وقالت الأخرى: أنا كلثم أخت موسى وقالت الأخرى: أنا مريم بنت عمران أم عيسى جئنا لنلي من أمركِ ما يلي النساء. قالت: فولدتُ فاطمة، فوقعت حين وقفت على الأرض ساجدة رافعة إصبعها»(١٣). وإذا صحَّت هذه الرواية فإنّ ولادة السيدة فاطمة الزهراء بعد البعثة وبعد الإسراء والمعراج، وأن الله أراد أن يخلق لذرية نبيه (ص) أمّاً طاهرة مطهرة.

وقد سمّاها رسول الله (ص) فاطمة، وعلّل تلك التسمية. روى الطبري عن علي(ع) قال: «قال رسول الله (ص) لفاطمة: يا فاطمة أتدرين لم سميت فاطمة؟. قال علي: يا رسول الله، لم سميت فاطمة؟ قال: إنّ الله عز وجل قد فطمها وذريتها عن النار يوم القيامة». أخرجه الحافظ الدمشقي، وقد رواه الإمام علي بن موسى الرضا (ع) في مسنده، ولفظه أن رسول الله (ص) قال: «إن الله عز وجل فطم ابنتي فاطمة وولدها، ومَن أحبّهم، من النار. فلذلك سميت فاطمة»(١٤).

هذا جانب يسير من تميُّز السيدة فاطمة الزهراء على باقي أخواتها. ولا شك في

أن هناك سراً ربّانياً لهذا التميّز وهذه الفضيلة كما سيتّضح ذلك فيما بعد من خلال مناقشة الدور الذي ستقوم به في بقية حياتها. وما تلك الطهارة إلا تأهيلٌ إلهيٌ لدورها العظيم الذي ستقدم من خلاله العظات والعِبر للمرأة عبر العصور.

لقبها الزهراء البتول والبضعة وعديلة مريم وسيدة النساء[١٥]. وروي عن الإمام الصادق (ع): «أن لفاطمة تسعة أسماء: فاطمة، الصدّيقة، المباركة، الطاهرة، الزّكية، الرّضيّة، المرضيّة، المحدّثة، والزهراء»[١٦]. أما نقش خاتمها فهو: أمن المتوكلون[١٧].

٢ ـ طفولة الزهراء (ع) وحياتها في مكة:

عاشت الزهراء حياة معذبة منذ نعومة أظفارها، فقد لمست عن قرب جميع صنوف اضطهاد قريش لوالدها وجميع المؤمنين به من المسلمين نساءً ورجالاً. وفي مقدمة تلك المعايشة تجربة المقاطعة التي فرضتها قريش على بني هاشم وحاصرتهم في شعب أبي طالب مدة ثلاث سنين تقريباً. كانت تجربة كلها حرمان شملت الرجال والنساء والأطفال. فشاركت أطفال الهاشميين آلام الجوع والحرمان والمرض لما تجرعته من آلام أيضاً لمرض أمها وتدهور صحتها إضافة إلى مرضها هي نفسها خلال الحصار. فكان حصار الشعب أول تجربة قاسية في حياة هذه الطفلة البريئة المعذّبة التي تجرّعت غصصاً منذ طفولتها[١٨].

أما التجربة المُرّة الثانية، فكانت وفاة أمها الرؤوم التي رُزئت بفقدها وقاست آلام اليتم ومحنته. فتحملت أعباء بيت والدها، وهي لم تتجاوز بعد مرحلة الطفولة المبكرة. والمصيبة الثالثة، التي قاستها موت أبي طالب عم أبيها، وحامي حمى النبوّة في مكة. فشاركت والدها أحزانه ولوعته لفقد أكبر نصيرين له وللإسلام. ويروى أن السيدة خديجة توفيت بعد ثلاثة أيام من وفاة أبي طالب[١٩].

وشاءت الأقدار، لهذه الطفلة أن تتصدى للحياة القاسية بصبر وجلد. لقد تولت دور أمها فكنيت بأم أبيها[٢٠]. نشأت في ظلال الدعوة، وآمنت بالله ورسوله، منذ اكتحال عينيها بنور الحياة. ووقفت إلى جانب والدها، تعاضده وتشدّ أزره، بعد رحيل أمها وعم أبيها أبي طالب.

وقـد شهدت مـواقف عـديـدة لإيذاء القـرشيين لأبيهـا كـان وقعها على نفسهـا شديداً. فقـد تسبّبوا في ترويعها بتلك المعاملـة القاسية مرات عديدة، شهـد جانباً منها بعض المسلمين. وكان عُقبة بن أبي معيط أشدهم إيذاءً للنبي (ص).

روى البخاري في صحيحـه، عن عبـد الله، قال: «بينما رسـول الله (ص) قائم يصلي عند الكعبة وجمع قريش في مجالسهم؛ إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي!؟ أيُّكم يقوم إلى جـزور آل فلان فيعمـدُ إلى فرثها ودمهـا وسلاهـا فيجيء به يمهله حتى إذا سجـد وضعه بين كتفيه. فـانبعث أشقاهم[٢١]، فلما سجد رسـول الله(ص) وضعه بين كتفيه وثبت النبي (ص) ساجـداً، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك، فـانطلق منطلق إلى فـاطمـة وهي جـويـريـة، فأقبلت تسعى. وثبت النبي (ص) سـاجـداً حتى ألقتـه عنـه وأقبلت عليهم مسرعـة. فلما قضى رسول الله (ص) الصلاة قـال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقـريش. ثم سمـى اللهم عليك بعمـرو بن هشـام وعُتبـة بن ربيعـة وشيبـة بن ربيعـة والوليـد بن عتبـة وأميـة بن خلف وعُقبـة بن أبي معيط وعُمارة بن الوليد. قال عبد الله: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب قليب بدرَ. ثم قال رسول الله (ص): «واتبع أصحاب القليب لعنة»[٢٢].

وكانت الزهراء بجوار والدها يوماً، حيث كان يصلي في المسجد الحرام، ويطوف البيت، فانتظر عدوُّ الله عقبة بن أبي معيـط حتى سجد رسول الله (ص). فقام هذا الخبيث فوطىء بقـدمه عنق النبي (ص) ورأى أبـو بكر بن أبي قحـافة ذلك فـدفعه عنه، وقال متمثلاً بقوله تعالى: ﴿. . . **أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله. . .**﴾[٢٣].

وروى الطبري، أن أحد سفهاء قريش مرّ بـالرسول في الطريق، فاغترف بكلتي يديه من التراب والأوساخ وألقاها على رأسه، فدخل الرسول (ص) بيته والتراب على رأسـه، فقامت إليـه ابنتـه فاطمـة وجعلت تغسل التراب عن رأسـه وتبكي، وهي حديثة عهد بفراق أمها خديجة. ومع أن بكاء طفلته كان مؤلماً لقلبه ومشاعره إلا أن صبر النبـوَّة يفـوق كل احتمال، فكـان صبره وتشجيعـه لها بـالثبـات، خير زادٍ لها لتجاوز تلك الصعاب، فالتفت إليها وعيناها تفيضان بالدموع، وقال:

«لا تبكي يا بنية، إن الله مانع أباك وناصره على أعداء دينه ورسالته»[٢٤].

هذه بعض الأمثلة، المقتضبة، التي شاهدتها طفلة النبوّة المعذّبة بالنسبة لما عانى والدها من صنوف إيذاء قريش وتعذيبهم له. فكانت تلك المواقف خير زاد لها لتستمد منها الصلابة والثبات على المبدأ وتعمق إيمانها برسالة أبيها وتزيدها إصراراً على مساندته وتحدي أعداء الحق مع صغر سنها. كما تجرّعت الآلام لما عاناه المسلمون الأوائل من اضطهاد مرير، فلقد شاهدت الصخور الملتهبة وهي تلقى على صدور المسلمين والمسلمات في حر الصيف وساعات اللهيب المحرقة، وألم السياط التي كان رجال قريش يلهبون بها ظهور المعذبين من أتباع والدها من مختلف الأعمار ذكوراً وإناثاً، وكانت ترى أباها عاجزاً عن نصرتهم خصوصاً بعد أن رحل عنه عمه أبو طالب وشريكة نضاله خديجة. ها هي طفلة رسول الله تشاهد جميع تلك المواقف المؤلمة، وتعيش فترة انفراد قريش بوالدها وتحسُّ بالفراغ الكبير الذي خلّفه رحيل الأم والعم، فتحسُّ بمسؤولية ضخمة تجاه والدها لمساندته والتفاني في سبيل إنجاح دعوته. وقد حفظ لها والدها هذا الموقف العظيم ووفى لها. كيف لا وهو نموذج الخلق الكريم الذي لم ينل غيره من الأنبياء والرسل هذه المرتبة حينما مدحه الله بقوله تعالى: **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**[٢٥]. وسيتّضح فيما بعد كيف تمّ تعويض فاطمة من الله ورسوله نتيجة معاناتها وتضحياتها والدرجات العالية التي نالتها في الدنيا والآخرة.

لم يكن رحيل الرسول (ص)، من داره، وهجرته إلى المدينة المنوَّرة مرغماً نهاية المطاف لإيذائه وأهله والمسلمين. فبعد أن شاءت إرادة الله لرسوله الهجرة إلى يثرب بقيت نساؤه في مكة، فاستخلف ابن عمه علياً ليقوم بثلاث مهام عظمى، وهي:

١ ـ النوم في فراش الرسول (ص) ليفتديه بنفسه ويوهم المشركين أنّه موجودٌ ويطمئنهم إلى ذلك حتى الصباح.

٢ ـ أن يكون نائباً للرسول (ص) في رد الأمانات والودائع التي كانت عند النبي(ص) إلى أصحابها.

٣ ـ أن يصحب الفواطم من مكة إلى المدينة.

إنّ المهام الثلاث، الآنفة الذكر، التي عهد بها رسول الله (ص) لابن عمه علي مهام خطيرة، وهو لم يبلغ العشرين آنذاك، فكانت أول امتحان حقيقي لعلي نتيجة العهد الذي قطعه على نفسه عندما اجتمع الرسول (ص) مع الهاشميين في أول تكليف إلهي له بالدعوة إلى دين الله ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[٢٦].

لقد تمّت هجرة أبيها إلى المدينة بسلام، وفشلت جميع مخططات قريش في ملاحقة الرسول (ص). وبعد أن أتمّ علي مهمتي النوم في الفراش ونجاهُ الله من شر كيد القرشيين، وأعاد الأمانات والودائع إلى أصحابها هيأ الرواحل للفواطم وهنَّ: فاطمة الزهراء (ع) وفاطمة بنت أسد ـ والدته ـ وفاطمة بنت الحمزة وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب. واتفق علي مع مَن بقي من المؤمنين في مكة ـ تنفيذاً لأوامر الرسول (ص) ـ أن يتسلّلوا ليلاً إلى ذي طوى حيث يسير الركب من ذلك المكان باتجاه المدينة[٢٧]. وخرج علي بالفواطم في وضح النهار، ومعه أيمن بن أم أيمن وأبو واقد الليثي ـ مبعوث رسول الله (ص) ـ متحدياً غطرسة قريش على الرغم من صغر سنه. فجعل أبو واقد يجدُّ السير مخافة أن تلحقهم قريش وتحول بينهم وبين اللحاق بمحمد (ص)، فقال له علي (ع): ارفق بالنسوة يا أبا واقد، وقد ارتجز يقول:

ليس إلا الله فارفع ظنكا ... يكفيك ربُّ الخلق ما أهمكا

فلما قارب ضجنان أدركت الركب عصابة لقريش تتكون من ثمانية فرسان معهم مولى لحرب بن أمية يدعى جناح، فقال علي لأيمن وأبي واقد: أنيخا الإبل واعقلاها. وتقدم هو فأنزل النسوة ناحية واستقبل القوم بسيفه فقال له القرشيون: أظننت أنك ناج بالنسوة؟ وناشدوه الرجوع بهن طوعاً قبل أن يضطروه للرجوع بهنَّ مكرهاً. ولكن علياً استقبل القوم بسيفه، وشدَّ عليهم حتى فرقهم عن الركب يميناً وشمالاً، ومضى في أثرهم الواحد تلو الآخر وضرب جناحاً مولى بني أمية على عاتقه فقده نصفين ودخل السيف إلى كتف فرسه ولاذ الباقون بالفرار. وعاد علي (ع) يتابع المسيرة بمن معه من النسوة حتى دخل المدينة بمن معه، وقد أجهده السير على قدميه فرقَّ النبيُّ لحاله[٢٨].

وجاء في رواية أن الحويرث بن نقير بن عبد قصي، كان أحد الفرسان الذين كانوا

ضمن عصابة قريش التي كلفت بمطاردة ركب علي والفواطم. وكان ذلك الرجل قد عُرف عنه أنه ممن يُؤذي النبي (ص) في مكة، فأقبل الحويرث على البعير الذي يحمل فاطمة ومعها إحدى الفواطم فرماها إلى الأرض فأضرَّ بها، وكانت نحيلة الجسم قد أنهكت جسمها الأحداث المتلاحقة المؤلمة التي سبقت هجرة أبيها وبخاصة بعد وفاة أمها(٢٩).

ويستمر إيذاء قريش للرسول (ص) دون توقف. فبعد هزيمتهم في معركة بدر الكبرى وقع ضمن الأسرى أبو العاص بن الربيع، زوج ابنة الرسول الكبرى زينب، وأطلقه النبي (ص) بدون فداء وشرط عليه أن يرسل ابنته زينب إلى المدينة عند رجوعه إلى مكة، فوفى للنبي بذلك فور وصوله. إلا أنّ قريشاً تعرّضت لها عند خروجها من مكة، يقود بعيرها كنانة بن الربيع أخو زوجها، وكان هبار بن الأسود ونافع بن عبد قيس أشدّهم وقاحة. فنخس هبَّار البعير وروَّع زينب بالرمح فسقطت من هودجها وكانت حاملاً فأجهضت، وتصدى كنانة لهبار ونثر سهامه بين يديه متحدّياً، فناداه أبو سفيان أن يكُف سهامه حتى يكلمه، ثم دنا منه، وحاوره قائلاً: «خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محن، فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا، وأن ذلك ضعف منا ووهن، وأشار عليه أن يرجع بها حتى إذا سكن الناس خرج بها سراً» ورأى كنانة زوجة أخيه تنزفُ دِماؤها، وقد ألقت جنينها، فرجع بها. وبقيت عند أبي العاص أياماً ثم رحلت إلى المدينة(٣٠). وقد أسلم زوجها في العام السادس للهجرة، وهاجر إلى المدينة ورد عليه الرسول (ص) زوجته، وظلّ وفياً لها إلا أن زينب توفيت في العام الثامن للهجرة متأثرة بعلتها التي نجمت عن سقوطها، عن البعير وإجهاضها الجنين(٣١).

بهذه الصور البشعة كانت تتعامل قريش مع رسول الله (ص). إنها محاولات لإضعافه والحيلولة بينه وبين تأدية رسالته الرَّبَّانية. وما علموا أن تلك الأعمال التي يندى لها جبين الإنسانية ستكون عاراً لتاريخ العرب بسبب محاولتهم الحيلولة بين الرسول وبلوغه أهدافاً سامية تحقق للبشرية كلها الخير في الدارين: الدنيا والآخرة.

٣ ـ زواجها :

استقر النبي (ص)، بعد وصوله المدينة حيث بركت ناقته على باب بيت أبي أيوب الأنصاري، ونزل ضيفاً عليه، وشرع في بناء مسجده. واشترك مع المسلمين في العمل حتى أتمّوا بناءه. وبعد ذلك بنى بيته المتواضع المؤلف من عدة حجرات بعضها بالأحجار وبعضها الآخر من جريد النخل والطين، وكلها مسقوفة بجريد النخل، أما ارتفاع الحجرات فقد وصفه الإمام الحسن سبط رسول الله (ص) حيث قال:

«كنتُ أدخل بيوت النبي (ص)، وأنا غلام، فأنال السقف بيدي»[٣٢].

أما الأثاث الذي هيأهُ النبي لبيته الجديد فكان في منتهى البساطة والخشونة؛ إذْ أعد لنفسه سريراً مؤلفاً من أخشاب مشدودة بالليف، كما جاء في بعض الروايات[٣٣].

كان بإمكان رسول الله (ص) أن يسكن في أفخم المباني ويقتني أفخر الأثاث، كما دعاه وجهاء الأنصار. ولكنه فضَّل أن يعيش عيشة بسيطة ليواسي أفقر أسرة في المجتمع. يريد الرسول (ص) أن يعطي الناس درساً بأن على قادة الأمم أن يبتعدوا عن التعالي والجبروت وأن متاع الدنيا مهما عظم فهو زائل. إنه نبي البشرية فلا بد وأن يواسي البائسين والضعفاء. لقد كان المضطهدون والمستضعفون من أبناء المجتمع المكي أول مَن آمن به لأنهم وجدوا في هذا الدين الخلاص من حياة العبودية، وجدوا فيه مبادىء لم يألفوها من قبل، فتمسكوا به وقدموا أرواحهم فداءً له. هاجر النبي إلى المدينة التي أصبحت المكان الجديد لنشر دين الله، والقاعدة التي أصبحت نواة لدولة النبوَّة التي خرجت منها جيوش الإسلام لا للجور ولا للنهب، ولكن للدفاع عن مجتمع هذه الدولة البكر وتحرير المجتمعات المجاورة من الظلم والجور والتسلط، وضمهم إلى مجتمع دولة النبوَّة التي قامت على مبادىء الحق والعدل والمساواة والحرية.

إلى هذا البيت المتواضع جاءت فاطمة بنت محمد (ص) من مكة لترى أباها بين أنصاره في يثرب مرفوع الرأس، يفدونه بأعز ما يملكون، ويتقاسمون مع المهاجرين كل ما يملكون من متاع الدنيا من مال وعقار، بل وحتى الزوجات. كان بعضهم

يتنازل عنهن لأخيه المسلم عن طيب خاطر[٣٤].

أراد النبي (ص) أن يثبت لمجتمع المدينـة، بشكل خاص، والمجتمع العـالمي في ذلك الوقـت وفي العصور المتعاقبـة، أن الدولـة التي كان بصـدد إنشائهـا هي دولة المحرومين والمستضعفين. وقد تـرجم مبادىء تلك الدولة التي أراد إنشـاءها بسيرته العظيمة التي تشتمل على أفعـاله وأقوالـه. فأول مبنى قام بإنشـائه، قبل أن يستقر بـالمدينة، هـو مسجد قبـا قـرب المدينة؛ حيث مكث فيهـا كما يروى أسبـوعين ولم يغادرهـا إلا بعد مقـدم علي والفواطم. وقـد تفطرت قـدماه، فـاعتنقه النبي (ص) وبكى رحمة لما بقدميه من الورم، فمسحهما من ريقه فلم يشكهما بعد ذلك[٣٥].

أما المسجد الثاني الذي بناه فهـو المسجد النبوي المعروف ولم يشرع ببناء سكنه إلا بعد أن أتمّ بناء المسجد الذي شارك (ص) في بنائه مع المهاجرين والأنصار. من هنا تأتي أهمية المسجد في حياة مجتمع دولة النبـوة، فهو مركز التجمّع العبادي والسياسي والاجتماعي والثقافي والعسكري، حيث تعلن منـه قرارات الحرب والسلم. فهو مقر للحكم ومقر لمجتمع الدولة النبويـة. إنه المقر الدائم للحاكمين والمحكومين. ومن هنا تأتي رسالة المسجد وأهميتها في دولة النبوة.

وحرصاً من النبي (ص) على وحدة مجتمع دولتـه الناشئة فقد آخى بين الأنصار ليـزيل أحقاد الجاهليـة والحروب التي نشأت بين الأوس والخزرج، كما آخى بين كل مهاجرٍ وأنصاري على الحق والمواساة. وكان الرسول (ص) قد آخى بين المسلمين في مكـة قبل الهجرة إلى المدينـة على الحق والمواسـاة بغيـة جمع كلمتهمْ ووحدتها، وقـد اختصّ النبي (ص) علياً في المؤاخاة الأولى في مكة والثانية في المدينة[٣٦].

أثبت النبي (ص)، أنه رجل دولـة، فها هـو يجعل الحب والمؤاخاة بين المسلمين أساسـاً قوياً لبنـاء مجتمع دولته، فتسابـق الأنصار يضحون بكل مـا ملكت أيديهم لتوفير الراحة وإزالة وحشة الغربة عن إخوانهم في الدين ودولة الإيمان من المهاجرين فعاشوا أخوة متحـابين؛ قال تعالى: **﴿.. واذكـروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعـداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانـاً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها..﴾**[٣٧] فـالأخوّة في الـدين كانت أهم الـدعائم التي قـام عليها مجتمع دولـة النبوّة.

ها هي زهرة البيت النبوي تغادر مسقط رأسها ومكان أحلام طفولتها مكة، بعد أن لوّعتها الأيام عـذاباً وألماً ومرارة، نتيجة قسوة قريش ووقـوف رجالاتها بكل قوة في وجه والدها ليمنعوه من نشر دين الله. عاشت حياة قاسية بعد فراق أمها ورحيل أبي طـالب حامي حمى النبـوّة. كيف سيكـون مصير هذه الـزهـرة؟ هل تنصفها الأيـام وتعوّضها مرارة اليتم وإذلال القرشيين لوالدها وللمسلمين؟

عاشت فترة من الـزمن مع والدها، وابن عمهـا علي بن أبي طالب، في بيت أبي أيوب الأنصاري، بعد استقرارهم بالمدينة وقبل الانتقال إلى منزل والدها. استقبلت فاطمة الزهراء الحياة في المدينة بتفـاؤل منذ وطأت قدماها أرض المدينة. فكم كانت بهجتها عظيمة، حين تحرّك والدها بناقته من قبا وهي ترى حشد المسلمين حوله عن يمينـه وشماله حـاملين أسلحتهم. واستمر يخترق أحيـاء المدينـة حيث كان يـلاقي الاستقبال الحار من الأنصار ودعوة كل حي يمر به للإقامة عندهم، فكان يشكرهم على دعوتهم وحسن استقبالهم، وكان يقول لهم عند مروره بكل حي: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»، يعني ناقته، حتى بركت على باب مسجده، وهو يومئذٍ مربد ليتيمين هما سهل وسهيل ابنـا عمـرو، فجعل النـاس يسألـون رسـول الله (ص) في النـزول عليهم، فاحتمل أبو أيوب الأنصاري رحله فوضعه في بيته، فقال رسول الله(ص): «المرء مع رحله»[٣٨].

ولما تم إنشاء بيت والدها انتقلت إليـه، مع ابن عمها علي بن أبي طالب للعيش في ذلك البيت المتواضع. وعاشوا عيشة بسيطة، ولكنها أحسّت بالعزة والطُّمأنينة. وقامت بأعبـاء بيت والدها خير قيـام قبل أن تلحق به زوجته سـودة بنت زمعة التي بقيت في مكة، وقبل زواجه بعائشة بنت أبي بكر.

أما بـالنسبة لـزواج فاطمـة الزهـراء (ع) فقد ورد أن أبـا بكر وعمـر خطباهـا إلى النبي(ص)، مرة بعد أخرى، فردهما. فمـرة يقول: إنها صغيرة، ومرة يقول: أنتظر بها أمر الله[٣٩].

روى ابن حجـر عن عبد الله بن بـريدة عن أبيـه قال: «خطب أبـو بكر وعمـر فـاطمـة، فقـال رسـول الله (ص): «إنها صغيرة»، فخطبهـا علي (ع) فـزوجهـا منه»[٤٠].

وورد في مناقب ابن شهر آشوب، عن ابـن عباس وعبد الله بن مسعود والبراء بن عازب وغيرهم، بصيغ مختلفة في تركيبها وألفاظها، وتتفق في مضامينها، أن أبا بكر وعمر بن الخطاب كـانا ممن خطب فاطمة من النبي بعـد أن استقر في المدينة، وألحّا عليه في الطلب فردهما بقوله: «إني أنتظر فيها أمر الله»(٤١). وكان علي بن أبي طالب قد بلغ سن الزواج فها هو قـد ذرف على العشرين حين وطأت قدماه المدينة. فلِمَ لم يتقدم لخطبة فاطمة الزهراء (ع)؟

يُروى، أن الأسباب، التي حالت دون خطبته لها الحياءُ والفقر. فشجعه نفر من الأنصار على خطبتها. فدخل على النبي (ص) يوماً فسلم عليه، وهو مطرق برأسه إلى الأرض من شدة الحيـاء. فسأله النبي (ص) بـرفق عن حاجته. فقـال: «ذكرتُ فاطمة يـا رسول الله»، ولم يزد على ذلك، فرد النبي بقوله: «مـرحباً وأهلاً». ثم ودّع رسول الله (ص) وخرج. وحين التقى بأصحابـه وأخبرهم برد رسول الله (ص) قالوا له: «لقد أجابك النبي إلى ما تريد»(٤٢).

وحينما التقى الرسول (ص) بـابنته، كما في رواية ابن سعد في طبقـاته، قال لها: «لقـد سألتُ ربي أن يـزوّجك خير خلقـه وأحبّهم إليـه، وقد عـرفت علياً وفضلـه ومـواقفـه، وجـاءني اليـوم خـاطبـاً فما تـرين؟ فأمسكت ولم تتكلم بشيء، فخـرج النبي(ص) وهو يقول: سكوتُها رضاها و إقرارها»(٤٣).

قبل تكملة مناقشـة زواج علي من فاطمة، هناك سؤالان يجدر طـرحهما والإجابة عليهما، وهما:

١ ـ ما مغزى استشارة النبي (ص) لابنته فاطمة في أمر زواجها؟

٢ ـ لماذا كان علي موضع موافقة لفاطمة؟

بـالنسبة للسـؤال الأول، فإن النبي (ص) يريـد أن يشرّع للناس، نهجـاً يسيرون عليه، ويقتـدون به من خلال سنتـه. فعليّ ليس شخصاً غـريباً عنه بل هـو خرِّيج حجره، فقد التحق بـه منذ أن كان في السادسة من عمـره، حين أخذه من عمه أبي طـالب لتخفيف مسؤوليـة الأسرة عن كـاهلـه، فشخصية علي قـد صـاغها رسـول الله(ص)، ولكن أراد الـرسـول أن يعلم الأمـة الإسلاميـة بشكل خـاص والبشريـة

بشكل عام أن الإسلام يحترم المرأة ويحافظ على كرامتها، وأنها هي صاحبة القرار في اختيار زوجها وليس لأي فرد من أسرتها قهرها كما كان عليه الحال في الجاهلية.

أما بالنسبة للجواب على السؤال الثاني فإن موافقة الزهراء على علي تعود لأسباب عديدة، وهي:

١ ـ عاش علي (ع) منذ سن السادسة من عمره في رعاية النبي (ص) وخديجة زوجته. ومنذ أن ولدت فاطمة الزهراء في مكة وحتى هجرتها إلى المدينة تعوّدت أن ترى علياً منذ طفولته حتى أصبح شاباً في مقتبل العمر فتعمقت وشائج القربى ومشاعر الود على مر الأيام، وها هي الآن تتوّج بالزواج.

٢ ـ إن فاطمة الزهراء عاشت مع علي تجربة أدائه للمهام الكبرى التي أناطها به الرسول (ص) بعد هجرته، وهي المبيت على الفراش ليلة الهجرة فادياً له بروحه ومعرضاً نفسه للخطر، ونائباً عنه (ص) في رد الودائع والأمانات إلى أصحابها، ثم إلحاقه الهزيمة بعصابة قريش التي لحقتهم وروعتهم خلال خروجهم من مكة. لقد شاهدت علياً وهو يبارز أفراد العصابة بنفسه ليس معه ظهير إلا إيمانه القوي بالله. وكان يحاربهم وهو راجل فكان يقول خلال حملته عليهم:

خلو سبيل الجاهد المجاهد آليت لا أعبُدُ غير الواحد

حتى تفرق القوم ووصل عليٌّ والفواطمُ إلى المدينة سالمين. ولا شك في أن فاطمة الزهراء لا تنسى تلك المواقف البطولية لابن عمها علي (ع).

٣ ـ وفي المدينة سمعت عن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وأن والدها اختص علياً بمؤاخاته فلا شك في أن ذلك زادها تعلقاً بعلي.

٤ ـ إضافة إلى هذا وذاك فإن علياً هو أول مَن آمن بأبيها بعد والدتها خديجة، ووقف لمناصرته هو ووالده للدفاع عن الرسول ودعوته الإلٰهية.

٥ ـ رابطة القربى التى تجمعها به تضيف حقاً لابن عمها عليها. أما بالنسبة للرسول (ص) فقد اختاره له أخاً ووصياً منذ تبليغه الدعوة لعشيرته تنفيذاً لأمر الله تعالى بقوله: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[٤٤] واتخذه أخاً له حينما آخى بين المسلمين

المؤاخاة الأولى في مكة قبل الهجرة، وفي المؤاخاة الثانية بعد الهجرة(٤٥).

فالتقت خيرة كل من الأب والزوج والزوجة لهذا الزواج. ولذلك قال النبي(ص): «لولا علي لم يكن لفاطمة كفؤ»(٤٦).

وجاء، في كشف الغمة، عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «لولا أن الله خلق أمير المؤمنين ما كان لفاطمة كفؤ على وجه الأرض»(٤٧).

وفي شأن زواج علي من فاطمة روى ابن حجر قال: «أخرج الطبراني عن ابن مسعود أن النبي (ص) قال: «إن الله تبارك وتعالى أمرني أن أزوِّج فاطمة من علي»(٤٨). فيأتي هذا الزواج بأمر إلٰهي لمكانة الزوجين عند الله وما لتضحياتهما من أثر كبير في سبيل نشر الدين وتوطيد أركانه».

ويبرر الرسول (ص) لابنته سبب اختياره لعلي (ع) زوجاً لها، كما ورد في الاستيعاب لابن عبد البر، بقوله لها: «لقد زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة. وإنه لأول أصحابي إسلاماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً»(٤٩).

فالرسول (ص) يعدِّد لابنته مزايا علي التي جعلته يختاره بعلاً لها وهو يتصرَّف، في هذا المقام، بمكانة الأب والصديق، فيوضح لها تاريخ حياته لتكون على بيِّنة. إنه درس للآباء عبر الزمان من خلال تعامله مع زهرة النبوَّة بل زهرة دولة النبوَّة وزهرة البشرية جمعاء.

وعلاوة على كفاءة علي وأهليته لزهرة النبوَّة: خلقاً وإيماناً وشجاعة فإنَّ رسول الله(ص) لم ينسَ بعد كفالة أبي طالب له منذ أن رحل جده عبد المطلب إلى الدار الآخرة، والنبي في سن الثامنة من عمره الشريف، وبقي في كفالته وحمايته حتى السنة العاشرة لبعثته المباركة مدة اثنتين وأربعين سنة تقريباً يخصه بحبّه العظيم دون أبنائه ويحيطه برعايته ويذود عنه ويفديه بكل ما يملك حتى فارق الحياة، فكان الأب والصديق وحامي حمى النبوَّة. وكان أبو طالب شديد الحرص على سلامته منذ طفولته لشدة حبّه له ولوالده عبد الله، فكان يضحّي بعلي في سبيل سلامته. حكى ابن أبي الحديد، في شرح النهج، عن أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب، أن أبا طالب كثيراً ما كان يخاف على رسول الله (ص) البيات فكان يقيمه ليلاً من منامه،

ويضجع ابنه علياً مكانه. فقال له علي ليلة: يا أبة، إني مقتول. فقال له أبو طالب[٥٠]:

اصبرن يا بني فالصبر أحجى كل حي مصيره لشعوب

قد بذلناك والبلاء شديد لفداء الحبيب وابن الحبيب

لفداء الأغر ذي الحسب الثا قب والباع والكريم النجيب

إن تصبك المنون فالنبل تبري فمصيب منها وغير مصيب

كل حي وإن تملي بعمر آخذ من مذاقها بنصيب

وكما كان أبو طالب حصناً منيعاً للنبي (ص)، كذلك كانت زوجته فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب، فقد تولّت دور الأم لرسول الله (ص) بعد وفاة أمه آمنة بنت وهب وهو في سن السادسة. فكانت تبرُّه على سائر بنيها. كان أولادها يصبحون شعثاً رمضاً ويصبح رسول الله (ص) كحيلاً دهيناً[٥١]. روى الحاكم، في المستدرك بسنده، «أنها كانت بمحل عظيم من الإيمان في عهد رسول الله (ص)»[٥٢]. وكانت من السابقات إلى الإسلام. ولذلك لم ينس الرسول (ص) فضلها في تربيته وسبقها إلى الإسلام. فقام بتكفينها، يوم وفاتها في المدينة، بقميصه وأمر مَن يحفر قبرها. فلما بلغوا لحدها حفره بيده واضطجع فيه وقال: «اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسِّع عليها مدخلها» فقيل: «يا رسول الله، رأيناك صنعت شيئاً لم تكن تصنعه بأحد قبلها». فقال: «ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة» أو قال هو أمان لها يوم القيامة أو قال ليدرأ عنها هوام الأرض واضطجعت في قبرها ليوسعه الله عليها وتأمن ضغطة القبر. إنها كانت من أحسن خلق الله صنعاً إليَّ بعد أبي طالب»[٥٣]. إذا كان أبو طالب وفاطمة بنت أسد بن هاشم قد أبليا بلاءً عظيماً في تربية رسول الله (ص) ورعايته وحمايته وتفضيله على أبنائهما: طالب وعقيل وجعفر وعلي وأختهما أمّ هاني (فاختة) فإنّ رسول الله (ص) هو رمز الوفاء، فها هو يعبر عن ذلك الحب وتلك التضحيات بالأقوال والأفعال لتعريف الأجيال المتعاقبة من المسلمين بدورهما العظيم في خدمة الرسالة وصاحبها. وها هو يوطِّد تلك الوشائج ويتوّجها بزواج زهرة البيت النبوي من علي الذي أصبح

آيـةً من آيـات النبوَّة كما أصبـح هو وأبنـاؤه الأئمـة ورثـة علمه وأوصيـاءَهُ في دولتـه العظيمة. لهذه الأسباب مجتمعة كانت موافقة كل من النبي (ص) والزهراء على هذا الزواج الميمون.

فـالزهـراء وعلي كلاهما صيغت شخصيتـه في بيت النبوَّة تحت ظل سقف واحـد ورعاية وحنو وعطف الزوجين العظيمين النبي (ص) وخديجة. إنه زواج الند للند. وستّضح نتـائج تلك التربية الـرسالية في حيـاتهما الزوجيـة التي أصبحت نمـوذجاً تفتخر دولة النبوَّة بـأن تقدِّمه رمزاً لأجيال البشرية المتعـاقبة لتضحيات الأسرة المؤمنة في سبيل الـدين ومـواسـاة المحـرومين بل وإيثـارهم على أنفسهم لقـولـه تعـالى: ﴿ . . . ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . . . ﴾[٥٤].

وبالنسبة لتاريخ زواج علي من فاطمة يروى أن النبي زوَّجه بها بعد مقدمه المدينة بخمسـة أشهر في دار أبي أيـوب الأنصاري إذ أن النبـي لم يكن يملك بيتاً وكـذلك علي، فاقتصر الزواج على العقد ودخل بها بعد خـروجه من دار أبي أيوب وانتقاله إلى سكنه الخاص، حيث أن الـدخول قـد تمّ بعد معركـة بدر كما يـذكر الطبري[٥٥]. وكان علي فقيراً لا يملك من حطـام الدنيا شيئاً حينما أقدم على الـزواج؛ حيث كان نموذجاً صـادقاً للنبي (ص) فلم يرث مالاً من والده الذي كـان على الرغم من علو منزلته في قومه إلا أنه كان يعيش عيشة تقشّف. لذا فلم يكن لعلي مال لا عن طريق تجارة ولا عن طـريق إرث. ولم يكن يملك غير فرسـه ودرعه. فباع درعـه لعثمان بن عفان بأربعمئة وسبعين درهماً فحملها جميعهـا ووضعها بين يدي رسول الله (ص)، فقبض النبي (ص) منها قبضة ودفعهـا إلى بلال وقال له: ابتع لفـاطمة طيباً وقبض قبضـة خصّصها لمتـاع البيت. ثم قبض منهـا مبلغـاً ودفعه لأبي بكـر وعمار وطلب منهما شراء ما يصلحها من ثياب وأثاث للبيت، والبـاقي من المهر دفعه إلى أم سلمة وقال أبقيه عندك[٥٦]. بهذه الروح الأسرية البسيطة كان يتعامل رسول الله (ص) مع أصحـابه يشركهم في خصـوصيـاته لخلق الأُلفـة والمحبـة بين قمة الـدولـة النبويـة وقاعدتها. وقـد حضر عقد النكاح كبار الصحـابة من المهاجريـن والأنصار. وقال النبي (ص) في خطبة النكاح:

«الحمـد لله المحمود بنعمتـه، المعبود بقـدرتـه، المطاع بسلطـانه، المرهـوب من

عذابـه، المرغوبُ إليـه فيما عنده، النـافذ أمـره في أرضه وسمائه، الـذي خلق الخلق بقدرته، وميَّـزهم بأحكامه، وأعزَّهم بدينه، وأكـرمهم بنبيه محمد (ص). ثم إن الله جعل المصاهرة نسبـاً لاحقاً وأمراً مفترضاً وشج بها الأرحام وألزمهـا الأنام فقال تبارك اسمه وتعالى جده: ﴿**وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعلـه نسباً وصهراً وكان ربك قديراً**﴾ ثم إن الله أمـرني أن أُزوِّج فـاطمة مـن علي وإني أشهد أني قـد زوّجتهـا على أربعمئة مثقـال فضة أرضيت قال: قد رضيت يـا رسول الله ثم خر ساجـداً. فقال رسول الله (ص): بـارك الله عليكما وبارك فيكما وأسعـد جدكما وجمع بينكما وأخـرج منكما الكثير الطيب»[٥٧].

قال أنس بن مالك: «والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب»[٥٨].

وبعد أن فرغ رسول الله (ص) من إلقاء خطبته ألقى علي الخطبة التالية:

«الحمد لله الذي قرب حامديه، ودنـا من سائليه، ووعد الجنة مَن يتّقيه، وأنذر بالنـار مَن يعصيه، نحمـده على قديم إحسانـه وأياديـه، حمد مَن يعلم أنه خـالقه وبـاريه، ومميتـه ومحييه، وسـائله عن مسـاويه، ونستعينـه ونستهديـه، ونُؤمن بـه ونستكفيه، وأشهـد أن لا إلٰه إلاّ الله، وحده لا شريك لـه، شهادة تبلغه وتـرضيه، وأن محمداً عبـده ورسولـه (ص)، تزلفه وتحظيـه، وترفعـه وتصطفيه، وهـذا رسول الله(ص) زوَّجني ابنته فاطمة على خمسمئة درهم، فاسألوه واشهدوا».

قال رسـول الله (ص): «قد زوَّجتك ابنتـي فاطمـة على ما زوَّجك الـرحمٰن، وقد رضيتُ بما رضي الله، فنعم الختن أنت، ونعم الصـاحب أنت، وكفـاك بـرضى الله رضىً».

ثم أمر النبي (ص) بطبق تمر وأمر بنهبه[٥٩].

أبرز الرسول (ص) لأصحابه، خلال عقـد القران مكانة الزوجين عنده وعند الله من ناحيـة والمهر المتواضع الـذي أراد للأمة الإسلاميـة أن تقتدي به ولا تبـالغ فيه. وبيَّن أن المبالغـة في المهور خـروج على سنة الـرسول (ص) وعقبة مـن العقبات التي يعـاني منها الشبـاب في المجتمعـات الإسـلامية في الـوقت الحاضر وتـؤدي لتأخير زواجهم.

وتكـوَّن جهاز الـزهـراء من قميص بسبعة دراهـم، وخمار بأربعة دراهم وقطيفـة سوداء خيبريـة (دثار له خمل)، وسريـر مزمل (ملفوف) بشريط (خـوص مفتول)، وفراشين من خيش مصر (وهو مشـاقة الكتان) حشو أحـدهما ليف، وحشو الآخر من صوف الغنم. وأربع مـرافق (متكآت) من أدم الطـائف (الجلد) حشوهـا أذخر (نبات طيب الرائحة)، وستر رقيق من صوف، وحصير هجري[٦٠]، ورحى لليد، ومخضب من نحاس (إنـاء لغسل الثياب)، وسقاء من أدم (قـربة صغيرة)، وقعب (قدح من خشب) للبن، وشن للماء (قربة صغيرة عتيقة لتبريد الماء)، ومطهرة (إناء يطهر به) مـرفقة، وجرَّة خضراء، وكيزان خـزف، ونطع من أدم (بساط من جلد)، وعباءة قطوانية[٦١]، وقربـة للماء. فلما وضع ذلك الجهاز بين يديه جعل يقلبـه بيده وبكى وقال: «اللهم بارك لقوم جُلَّ آنيتهم الخزف»[٦٢]. أما تجهيز علي لبيته وتأثيثه فقد اشتمل على: رمل لين ونصب خشبـة من حائط إلى حـائط وبسط أهاب كبش ومخدة ليف وقربة ومنخل ومنشفة وقدح[٦٣]. وهكذا كان جهاز الزوجة وأثاث بيت الزوجية.

روى الطبري عن أسماء بنت عميس قـالت: «لقد جهـزت فـاطمة بنت رسـول الله(ص) إلى علي بن أبي طالب وما كان حشو فرشهما ووسائدهما إلا ليفاً»[٦٤]. وقد أكّد علي على ذلك الجهـاز بقولـه: «جهز رسـول الله (ص) فاطمـة في خميلة وقـربة ووسادة من أدم حشوها ليف»[٦٥].

وقال علي أيضاً: «لقد تزوجتُ فاطمة وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلفُ عليه الناضح[٦٦] بالنهار وما لي ولها خادم غيرها»[٦٧].

وروى الطبري أيضـاً عن أبي بكر بن فـارس عن جـابر قـال: «كان فـراش علي وفاطمة ليلة عرسهما إهاب كبش»[٦٨].

بهذا البيت المتواضع بنى علي بـزوجته الزهراء بعـد معركة بدر التي هـزم الله فيها فلـول الشرك على يـد جيش دولـة النبـوَّة وكان عليٌّ في مقـدمـة أبطـال تلك الغـزوة الحاسمة. فكـانت معركة بدر في الشهـر التاسع عشر للهجرة يـوم السابع عشر من رمضان أما علي فبنـى بزوجته في ذي الحجة في الشهر الثـاني والعشرين من الهجرة،

وسنّه يومئذٍ إحدى وعشرون سنة وخمسة أو ستـة أشهر وعمر فاطمة خمس عشرة سنة وخمسة أو ستة أشهـر كما يذكر ذلك الطبري. كانت فرحـة البيت النبوي بزواج علي وفاطمـة في غمرة أفـراح المسلمين بالانتصار على قـريش الذين لحقت بهم هـزيمة منكرة واستجـاب الله لدعاء النبي (ص) حينما دعـا عليهم يوم أن وضع عليـه عقبة إبن أبي معيط سلا الجزور وهو يصلي ساجداً عند الكعبة كما مرّ ذكره. وألقى أولئك النفر الـذين سخروا بـرسول الله (ص) في بئـر بدر. وقـد رثاهم شـاعرهم بـالأبيات التالية(٦٩):

فماذا بـــالقليب قليب بــــدر — من الفتيـــان والقـــوم الكـــرام

ومـــاذا بـــالقليـب قليب بـــدر — من الشيـــزى تكلل بـــالسنـــام

أيخبرنـــا ابن كبشـــة أن سنحيـــاً — وكيف حيـــاة أصــــداء وهـــام

إذا مـــا الـــرأس زال بمنكبيـــه — فقـــد شبع الأنيسُ من الطعـــام

أيقتلني إذا مــــا كنـتُ حيــــاً — ويحييـني إذا رمت عظـــــامـي

الشـاعـر هنـا يـرثي قتلى المشركين الـذيـن ألقى بهم في بئـر بـدر كما يسخـر من الرسول(ص) والمسلمين وإيمانهم بالبعث والحساب بعد الموت.

ها هي فاطمة الزهراء التي شهدت يوم استهزاء قريش بأبيها تعيش فرحتين فرحة والدها ومجتمع الدولـة البكر وإعزاز الله لدينه وفرحـة زواجها بابن عمها علي أفضل رجل بعـد أبيها وهـو الـذي أثبت وفاءه لـرسـول الله (ص) وتفانيـه في سبيل الله في مواقف عـديدة: المبيت على الفـراش ليلة الهجـرة، وذوده عن الفواطم يـوم الهجرة وقتاله المريـر يوم بدر. إذا كان أبـو طالب حـامي حمى الإسلام قبل الهجـرة، فها هو بعلها اليـوم يثبت في أول مواجهة عسكريـة مع كفار قريش أنه حـامي حمى الإسلام بعد الهجرة. لقد تـزوجت فاطمة فخر الرجال: أخلاقاً وعلماً وشجـاعة فدونه يهون كل متاع.

وفي يوم زواج علي من فاطمة أقام المسلمون من المهاجرين والأنصار حفلاً كبيراً، فأقيمت وليمـة تبرع لها المهاجرون والأنصـار بالبر والسمن والبقـر والغنم فتمّ عمل

وجبة شهية من الخبز واللحم وهي الشريد، حضرها أربعة آلاف رجل وجميع نساء المدينة، وعمّت الأفراح بني هاشم وجميع المسلمين فكانت أفراح المدينة بأسرها(٧٠).

وليلة الزفاف أمر النبي ببغلته الشهباء وثنى عليها قطيفة وقال لفاطمة اركبي فأركبها وأمر سلمان الفارسي أن يقودها ومشى (ص) خلفها ومعه عمه الحمزة وبنو هاشم شاهرين سيوفهم. ونساءُ النبي (ص) وبنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار في صحبة فاطمة يرجزن ويكبرن ويحمدن كما أمرهن الرسول (ص). ثم إن النبي (ص) بعث إلى علي ثمّ هتف بفاطمة، فأخذ علياً بيمينه وفاطمة بشماله وضمهما إلى صدره فقبل بين أعينهما وأخذ بيد فاطمة فوضعها في يد علي وقال: «بارك الله لك في ابنة رسول الله». وقال: «يا علي، نعم الزوجة زوجتك، وقال: يا فاطمة نعم البعل بعلك» ثم قال لهما: «إذهبا إلى بيتكما جمع الله بينكما وأصلح بالكما». وقام يمشي بينهما حتى أدخلهما بيتهما. وقال: لا تهيّجا شيئاً حتى آتيكما وجلس علي في البيت وفيه أمهات المؤمنين يفصلهن حجاب عن علي. وجلست فاطمة مع النساء حتى قدم رسول الله (ص). ثم أتي له بإناء فيه ماء فملأ فاه ثم مجه فيه. ثم قال: «إنهما مني وأنا منهما اللهم كما أذهبت عني الرجس وطهرتني تطهيراً فطهرهما». ثم أمرها أن تشرب منه وتتمضمض وتستنشق وتتوضأ ثم دعا بإناء آخر وصنع كالأول. وقال: اللهم إنهما أحب الخلق إليَّ فأحبهما وبارك في ذريَّتهما واجعل عليهما منك حافظاً وإني أعيذهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم، ودعا لفاطمة فقال: «أذهب الله عنك الرجس وطهرك تطهيراً». وقال: «مرحباً ببحرين يلتقيان ونجمين يقترنان». وقال: «اللهم إن هذه ابنتي وأحبُّ الخلق إليَّ، وهذا أخي وأحب الخلق إليَّ اللهم اجعله لك ولياً وبك حفيّاً وبارك له في أهله»، ثم قال: «يا علي ادخل بأهلك بارك الله تعالى لك ورحمة الله وبركاته عليكم إنه حميد مجيد». ثم خرج من عندهما فأخذ بعضادتي الباب فقال: «طهركما الله وطهر نسلكما أنا سلم لمن سالمكما وحرب لمن حاربكما أستودعكما الله وأستخلفه عليكما». ثم أغلق عليهما الباب بيده ولم يزل يدعو حتى توارى في حجرته ولم يشرك معهما أحداً في الدعاء(٧١). إن علياً وفاطمة هما شآمتاه من نصيريه أبي طالب وخديجة، إن دعاءه

يترجم ويعبر عن حبه الكبير للزوجين والوفاء العظيم للنصيرين اللذين نذرا نفسيهما لخدمة الإسلام. ها هو رمز الخلق العظيم كما وصفه الله في محكم كتابه يسجل لله وللتاريخ حبه ووفاءه. إنه يضع للبشرية سنة في صيانة العهود وحفظ الجميل. وفي الوقت نفسه فإنه قد أوضح لمجتمع دولة النبوة في عهده وللأجيال المتعاقبة مكانة هذين الزوجين وذريتهما عنده وعند الله لما سيحملانه من مسؤولية تجاه الله وتجاه الأمة.

٤ ـ حياتها الزوجية وتضحياتها:

ها هي الطفلة النحيلة التي خلفتها خديجة يتيمة بيت النبوَّة تصبح زوجة بطل دولة النبوَّة، ذخيرتها الإيمان العميق بالله ورسوله، وبما جاء به من شريعة سمحاء لهداية البشرية، وكذلك أخلاقها الفاضلة وسلاحها الصبر لمواجهة مصاعب الحياة، حيث كان لتجربتها القصيرة في مكة أثر كبير في نفسها؛ إذ كانت كلها مليئة بالمتاعب والآلام. لم تجلب فاطمة الزهراء معها إلى بيت الزوجية الحقائب المليئة بالملابس الفاخرة، أو المجوهرات الثمينة، أو صكوك العقارات والأموال الكثيرة، وإنما جلبت معها خلاصة خبرتها القصيرة في حياة كلها غبن واضطهاد. جاءت وذهنها مليء بأحاديث والدها ونصائحه وتوجيهاته التي كانت نعم الزاد لها لتنوير طريقها وتمكينها من التعامل مع مختلف الظروف الحياتية. جاءت وهي تتذكر قول رسول الله (ص) لها: «يا فاطمة اصبري على مرارة الدنيا لتفوزي بنعيم الآخرة»[٧٢].

ولم تكن تستشرف بنظرها إلى ما ليس من حقها، أو تنزل إلى سؤال أحد غير ربها، بل كانت غنية بنفسها قانعة بما قسم الله لها، لأنها سمعت أباها يقول: «ليس الغنى كثرة المال إنما الغنى غنى النفس»[٧٣].

ولم تكن تحفل بزخارف الحياة وزينتها لأنها سمعت أباها يقول: «مَن أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يُؤته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله لهُ همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناهُ في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»[٧٤]. وقال يوماً لعلي وفاطمة تسمعه: «يا علي، مَن عُرضت له دنياه وآخرته فاختار الآخرة على الدنيا فله الجنة ومَن اختار الدنيا استخفافاً بآخرته

فله النار»[٧٥]. وسمعت أباها يقول ذات يوم: «إن ربي عز وجل عرض عليَّ أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلتُ: لا يا رب، ولكن أجوعُ يوماً وأشبعُ يوماً فأما اليوم الذي أجوعُ فيه فأتضرَّعُ إليك وأما اليوم الذي أشبعُ فيه فأحمدُ وأثني عليك»[٧٦].

وروت عن أبيها أنه قال: «إن الله إذا أحبَّ عبداً ابتلاه، فإن صبر احتباه وإن رضي اصطفاه»[٧٧]. وروت عنه أيضاً أنه قال: «إنّ الله أوحى إلى موسى بن عمران وقال له: أنا أعلم بما يُصلح عبدي المؤمن فليصبرن على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرضَ بقضائي أكتبه في الصدِّيقين عندي»[٧٨].

أحاديث والدها الشريفة وتجربتها القاسية جعلت الصبر من أبرز الصفات التي تحلّت بها، كما تعلمت من والدها السخاء لأنها سمعته (ص) يقول: «السخاء شجرة من أشجار الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة بعيداً عن النار. وإن الله جواد يحب الجواد»[٧٩].

وسمعت زوجها الإمام علياً (ع) يقول: «من يبسط يده بالمعروف، إذا وجده، يخلف الله له ما أنفق في دنياه ويضاعف له آخرته»[٨٠]. وروى الإمام الحسين (ع) عن أمه الزهراء عليها السلام أنها قالت: قال لي أبي رسول الله: إياك والبخل فإنه عاهة لا تكون في كريم، إياك والبخل فإنه شجرة في النار وأغصانها في الدنيا، فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخله النار»[٨١].

وتتأصّل فيها صفات البيت النبوي يوماً بعد يوم، فقد تعلمت الكثير خلال طفولتها حينما كانت تنعم بدفء الحياة مع الأبوين، ولكنها لا تزال تكتسب الكثير من العبرمن سيرة والدها العظيم وسداد رأي زوجها علي. روى الطبري عن أسماء بنت عميس أنها كانت عند فاطمة إذ دخل عليها النبي (ص) وفي عُنُقها قلادة من ذهب أتى بها علي بن أبي طالب(ع) من سهم صار إليه فقال لها: «يا بُنية لا تغترّي بقول الناس فاطمة بنت محمد وعليك لباس الجبابرة». فقطعتها لساعتها، وباعتها ليومها، واشترت بالثمن رقبة مؤمنة فأعتقتها، فبلغ ذلك رسول الله (ص) فسر بعتقها وبارك عليها» [٨٢].

هذه هي فاطمة بنت رسول الله الزوجة التي حملت أعباء الحياة الزوجية، وزيّنت بيتها وجملته بذكر الله وعبادته كما زينت نفسها بأجمل الصفات الحميدة بالتواضع والزهد والصبر والجود، إلى جانب إيمانها العظيم ومعرفتها الحقيقية العميقة بشرائع الدين والقرآن والحديث. بهذه الذخيرة تولّت إدارة بيتها وتولّت استقبال الأولاد وتربيتهم تربية صارت حديث الأجيال وفخراً لدولة النبوَّة. حيث كان أولادها مصدر فرح وسرور وافتخار للنبي محمد (ص) طوال حياته الميمونة، كما عبر عن ذلك في أحاديثه الشريفة في عدة مواقف. وتخرّج من حجر هذه المرأة العظيمة رجال فرض الله ورسوله محبتهم واتباع سيرتهم بل والتمسّك بهم لعمق إيمانهم وقوته وغزارة علمهم وسمو أخلاقهم وتضحياتهم في سبيل الله وصاروا أعلم المسلمين جميعاً بتفسير كتاب الله وسنة رسوله (ص). كما سيتضح لاحقاً من خلال تأكيدات رسول الله (ص) في مواقف وأحاديث عديدة. كما أن المكانة العظيمة التي نالها آل محمد لم تكن لصلتهم برسول الله (ص) فحسب ولكن لسيرتهم الطاهرة ونكران ذاتهم في سبيل الله.

كان الإمام علي (ع) يساعد الزهراء في قضاء أعمال البيت ما أمكنه ذلك مقتفياً سيرة رسول الله (ص) مع أم المؤمنين الأولى خديجة. وكان يتألم حينما يرى آثار الرحى في يدي فاطمة الزهراء الناعمتين لأنه لم يكن يملك المال ليستأجر لها من يخدمها ويخفّف عنها أعباء المنزل. روى الطبري عن علي أنه قال لابن أم عبد: «ألا أحدّثك عني وعن فاطمة بنت رسول الله (ص) وكانت أحب أهله إليه وكان عندي فجرَّت بالرحا حتى أثَّرت في يدها واستقت بالقربة حتى أثَّرت في نحرها وقمَّت البيت حتى اغبرت ثيابها وأصابها من ذلك ضرر فسمعنا أن رقيقاً أُتي بهم إلى النبي (ص) فقُلتُ لو أتيت أباكِ فسألته خادماً يكفيكِ فأتته فوجدت عنده حدَّاثاً (جماعة يتحدّثون) فاستحت فرجعت. فغدا علينا ونحن في لفاعنا (لحافنا) فجلس عند رأسها فأدخلت رأسها في اللفاع حياءً من أبيها، فقال: ما كان حاجتك إلى محمد فسكتت مرتين. فقُلتُ أنا والله أُحدِّثُك يا رسول الله، إنّ هذه جرَّت عندي بالرحا حتى أثرت في يدها واستقت بالقِربة حتى أثَّرت في نحرها وقمَّت البيت حتى اغبرَّت ثيابها وأوقدت القدر حتى دكنت (اتسخت واغبر لونها) ثيابها وبلغنا أنه أتاك رقيق وخدم فقُلتُ لها سليه خادماً، فقال: ألا أدلُّكما على خير مما سألتما إذا أخذتما مضاجعكما

فكبرا ثلاثـاً وثلاثين وسبحا ثـلاثاً وثـلاثين واحمدا ثلاثاً وثـلاثين فهو خير لكما من خادم يخدمكما» [٨٣].

وروى الطبري عن عطاء قـال: «إن كانت فـاطمة لتعجن وإن قصَّتهـا (خصلة من الشعر) تكـاد تضربُ الجفنة» [٨٤] (القـدر). وروي عن الإمام الصـادق (ع) أن علياً كـان يحطب ويستسقي ويكنس، وكانت الـزهراء تطحن وتعجن وتخبـز وترقع [٨٥]. وروى الطبري أيضاً عن أنس: «أن بلالاً أبطأ عن صلاةالصبح فقال له النبي (ص): ما حسبك؟ قال مـررت بفاطمة تطحن والصبيُّ يبكي فقُلتُ لها: إن شئت كفيتُكِ الرحـا وكفيتني الصبي وإن شئتِ كفيتُكِ الصبي وكفيتني الرحـا. فقالت: أنـا أرفق بابني منك فـذاك الذي حبسني. قـال: فرحمتهـا رحمك الله» [٨٦]. وروى الـذهبي عن أبي البختري قال: قـال علي لأمـة: «اكفي فاطمـة الخدمـة خارجـا وتكفيك هي العمل في البيت، والعجن والخبز والطحن» [٨٧].

هذا هو نمـوذج الحياة الذي اختارتـه فاطمة الزهـراء وعاشت قانعـة قريرة العين طالما أنها ضـمنـت سعادة زوجها وبنيهـا وكذلك رضـا الله ووالدهـا فمن أجل ذلك تهون كل آلامها ومعاناتها. ولم يقتصر الأمرفي معاناتها على التعب الجسمي إنما تعدّى ذلك إلى لقمـة العيش التـي لم تكن تتـوفّـر بشكل دائم، ومع ذلك فقـد عـاشت راضية. روى الطبري عن أسماء بنت عميس عن فاطمة بنت رسول الله (ص): «أن رسول الله (ص) أتـاها يـوماً فقال: أين ابنـاي يعني حسناً وحسينـاً؟ قالت: قلتُ أصبحنا وليس في بيتنا شيء يذوقـه ذائق فقال علي: أذهب بهما فإني أتخوَّف أن يبكيا عليك وليس عندكِ شيء. فذهب بهما إلى فلان اليهودي. فوجّه إليه رسول الله(ص) فوجدهما يلعبان في مشربة (غـرفة) بين أيديهما فضل من تمر فقال: يا علي ألا تقلب ابني (تراجعهما) قبل أن يشتد الحر عليهما؟ قال: فقال علي: أصبحنا وليس في بيتنا شيء فلو جلست يارسول الله حتى أجمع لفاطمة تمرات فجلس رسول الله (ص) وهو ينزع لليهودي كل دلو بتمرة حتى اجتمع له شيء من تمر فجعله في حجزته. ثم أقبل فحمل رسولُ الله (ص) أحدهما وحمل علي الآخر عليهم السلام» [٨٨].

هذا هو نبيُّ الأمة وقائدها ومبلّغ رسـالة السماء إلى البشرية يراقب عن كثب حياة الأسرة التي أعـرضت عن الدنيـا ومفاتنهـا لتكون أهـلاً للتربية النمـوذجية لـلأمة، ولتكون أهلاً للقيادة والنموذج لدولـةالنبوَّة بعد النبي (ص)، ولتكون نبراساً يقتدي بسيرتها المؤمنون والمحرومون والمستضعفون من أجيال البشرية وعبر تعاقب العصور.

كـانت هذه الأسرة كلهـا تضحيـات. فكأنّما الله ورسـوله أراد لهذه الأسرة أن تكـون نموذجاً لحيـاة الأسرة وبنائها في دولة النبوَّة. كأن الرسـول (ص) يخاطب نساء العالم من خلال حواره مع فاطمة بشأن تحمل أعباء الحيـاة والاستعاضة عن الخادمة بذكر الله، وكأنه (ص) يخاطب الزوجين، في كل زمان، بتربيـة أبنائهم على بساطة العيش والبعد عن الترف. وها هما الحسنان يتحمّلان حياة الكفاف برضا ويتعوّدان القناعة في العيش بأبسط الأشياء مقتفين سيرة جدهما ووالديهما.

روى الطبري عن أبي سعيـد قـال: «قـال [كذا] علي (ع) ذات يـوم فقـال: يـا فاطمـة، هل عندك من شيء تغذينه؟ قـالت: لا والذي أكرم أبي بالنُّبـوَّة ما أصبح عندي شيء أغذيكه ولا أكلنا بعدك شيئاً ولا كان لنا شيء بعدك منذ يومين إلا شيء أوثرك بـه على بطني وعلى ابني هذين. قـال: يا فاطمـة ألا أعلمتيني حتى أبغيكم شيئاً؟ قـالت: إني أستحي من الله أن أُكلّفك ما لا تقـدر عليه. فخرج من عنـدها واثقاً بالله، حسن الظن به، فاستقرض ديناراً. فبينما الدينار في يده أراد أن يبتاع لهم ما يصلحُ لهم إذ عرض له المقداد في يـوم شديد الحر قد لوَّحته(٨٩) الشمس من فوقه وآذته من تحته. فلما رآه أنكـره فقال: يا مقداد ما أزعجك من رحلك هـذه الساعة؟ قال: يـا أبا الحسن، خلّ سبيلي ولا تسألني عما ورائي. وقال: يـا ابن أخي، إنه لا يحلُّ لك أن تكتمني حـالك. قال: أمـا إذا أبيت فـوالذي أكـرم محمداً بـالنبوَّة مـا أزعجني من رحلي إلا الجهـد، ولقد تـركت أهلي يبكون جـوعاً. فلما سمعتُ بكـاء العيـال لم تحملني الأرض فخرجتُ مغمـوراً، راكبـاً رأسي، فهذه حـالتي وقصتي، فهملت عينا علي بالبكـاء حتى بلّت دموعه لحيته. ثم قـال: أحلف بالذي حلفت به ما أزعجني غير الذي أزعجك، ولقد اقترضتُ دينَاراً فهاك: وأؤثرك به على نفسي فدفع لـه الدينار ورجع حتى دخل على النبي (ص) فصلى الظهـر والعصر والمغرب فلما قضى النبي (ص) صـلاة المغرب مـر بعلي في الصف الأول فغمزه بـرجله فسـار خلف النبي (ص) حتى لحقـه عند بـاب المسجد ثم قـال يا أبا حسن، هـل عندك شيء تعشينا بـه؟ فأطرق عليٌّ ولم يحر جوابـاً حياءً من النبي (ص). قـد عرف الحال الـذي خرج عليهـا. فقال لـه النبي (ص): إما أن تقـول لا فننصرف عنك أو نعم فنجيء معك. فقـال له: حبـاً وتكريماً فاذهـب بنا، وكأن الله سبحـانه وتعـالى قد

أوحى إلى نبيه (ص) أن تعشّى عندهم، فأخذ النبي (ص) بيده فانطلقا حتى دخلا على فاطمة (ع) في مصلاّها وخلفها جفنة تفور دُخانا. فلما سمعت كلام النبي(ص) خرجت من المصلى فسلمت عليه وكانت أعزّ الناس عليه فردَّ عليها السلام، ومسح على رأسها، وقال: كيف أمسيت؟ عشيّنا غفر الله لك، وقد فعل. فأخذت الجفنة فوضعتها بين يديه. فلمّا نظر علي وشم ريحه رمى فاطمة ببصره رميا شحيحا[٩٠] فقالت: ما أشحَّ نظرك وأشده! سبحان الله هل أذنبت فيما بيني وبينك ما أستوجِبُ به السخطة؟ قال: وأيُّ ذنب أعظم من ذنب أصبته اليوم؟ أليس عهدي بكِ اليوم وأنتِ تحلفين بالله مجتهدة ما طعمتِ طعاما يومين؟ فنظرت إلى السماء فقالت: إلهي يعلمِ ما في سمائه ويعلم ما في أرضه، إني لم أقل إلاَّ حقاً. قال: أنّى لكِ هذا الذي لم أرَ مثله ولم أشم مثل رائحته ولم آكل أطيب منه؟ فوضع النبي(ص) كفّه المباركة بين كتفي علي ثم هزّها وقال: «يا علي هذا ثواب الدينار، وهذاجزاء الدينار. هذامن عند الله إن الله يرزق من يشاءُ بغير حساب».

ثم استعبر[٩١] النبي (ص) باكياً، وقال: الحمد لله كما لم يخرجكما من الدنيا حتى يجريك في المجرى الذي أجرى فيه زكريا، ويجريك يا فاطمة المجرى الذي أجرى فيه مريم كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال: يا مريم أنّى لَكِ هذا[٩٢]».

إن هذه الرواية توضح حالة التقشف التي كانت تحياها هذه الأسرة النبوية العظيمة، وتوضح أيضاً سمو الأخلاق عند الزوجين، فبالنسبة لعلي آثر المقداد وأسرته، وفرج عن ضائقته بإعطائه الدينار الذي كانت أسرته بأمس الحاجة إليه، وأوكل أمر أسرته إلى الله وذهب إلى المسجد لتأدية صلواته متوكلا على الله في تفريج ضيقه.

فكيف ينساه الله وينسى أسرته والرسول (ص) يقول: **﴿والله في عون العبد ما دام العبدُ في عون أخيه﴾**. كما أن علياً رحّب برسول الله لتناول العشاء مع علمه بخلو البيت من أي طعام. لذلك فإن المائدة التي نزلت عليهم هي مكرمة من الله لرسوله وللزوجين، فلم يُرد الله أن يخزيهما أو يخجلهما مع النبي (ص) وقد وكلا أمرهما إلى الخالق.

أما بالنسبة لفاطمة فكانت في منتهى الأدب والصراحة مع زوجها فكانت صادقة القول، وخاطبت زوجها باحترام وأدب وهو يستفسر باستغراب عن وجود المائدة.

هكذا كانت كرامة الزوجين وآل رسول الله عند الله. لقد كانت حياة هذين الزوجين العظيمين وسيرتهما دروساً وعبراً وتربية ليس للأسرة المسلمة فقط وإنما لكل أسر العالم على مدى العصور.

إذا كانت هذه الرواية تعطي نموذجاً لإيثار علي أسرة المقداد على آل رسول الله، فكذلك فعلت فاطمة الزهراء في مواقف عديدة منها أن جماعة رووا عن عاصم بن كليب عن أبيه ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة أنه[٩٣].

«جاء رجل إلى رسول الله (ص) فشكا إليه الجوع، فبعث رسول الله (ص) إلى أزواجه فقلن: ما عندهنّ إلا الماء، فقال (ص): من لهذاالرجل الليلة؟ فقال علي: أنا يارسول الله، فأتى فاطمة وسألها: ما عندك يا بنت رسول الله؟ فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية، لكنا نؤثر ضيفنا به، فقال علي: يا بنت محمد (ص) نوّمي الصبية وأطفئي المصباح، وجعلا يمضغان بألسنتهما. فلما فرغ من الأكل أتت فاطمة بسراج فوجدت الجفنة مملوءة من فضل الله. فلما أصبح صلى مع النبي(ص)، فلما سلّم النبي (ص) من صلاته نظر إلى علي وبكى شديداً، وقال: «يا أميرالمؤمنين لقد عجب الربّ من فعلكم البارحة، إقرأ **﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم[٩٤] خصاصة ومن يوق شح نفسه[٩٥] فأولئك هم المفلحون﴾**[٩٦]».

ليس غريباً أن يحرم أفراد العترة أنفسهم من سد الرمق حتى الأطفال فهم نتاج تربية النبوّة الذين يباهي الرسول (ص) بسيرتهم البشرية عبر تاريخها. إن سيرة آل رسول الله (ص) تعتبر ترجمة أصيلة لسيرة الرسول (ص) قولاً وفعلاً، ولم يبلغ أحد من المسلمين، بمن فيهم جميع الصحابة، أن يلتزم بمثل ما التزمت به العترة النبويةمن اتباع لخطى الرسول (ص). وما نزول آية التطهير[٩٧] وآية المباهلة[٩٨] إلا تأكيداً لدور العترة المميز الذي هيأهم الله كي يقوموا به لأنهم نموذج الرسالة النَّبويَّة الذي يجب أن يقتدي به المسلمون في حياتهم بعد رسول الله(ص).

روى أحدهم أن علياً أصابه وعائلته الجوع، يوما، فلم يجدوا في البيت شيئاً يأكلونه. فخرج علي ليعمل في سبيل كسب القوت، وأجّر نفسه ليلة يسقي نخلا

بشيء من شعير حتى أصبح واستلم الشعير، وطحنوا ثلثه فجعلوا منه شيئاً ليأكلوه ويقال له الحريرة. فلماتم نضجه أتى يتيما يرجو طعاماً فأطعموه، وطووا يومهم ذلك دون طعام[٩٩]. فنزلت هذه الآية[١٠٠]:

﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾.

هذه هي سيرة النماذج الرسالية التي أعدها الله ورسوله لقيادة دولة النبوّة.

وروت فاطمة الزهراء عما كانت تعانيه من متاعب جسدية نتيجة خدمة أسرتها فقالت: «لقد حجلت[١٠١] يداي من الرحى، أطحن مرة وأعجن مرة[١٠٢]».

هكذا كانت حياة فاطمة الزهراء الزوجية كلها تعب ونصب وزهد وتقشف. وكان دأبها الصبر، فلم يحدث أي من أرباب السير أنها تضايقت يوماً من تلك الحياة الخشنة القاسية. وإن ذهابها لوالدها لطلب الخادمة، لم يكن من وحي إرادتها وإنما تنفيذاً لرغبة زوجها علي لشفقته عليها ممّا حل بجسدها من أضرار بسبب خدمة البيت. وحينما نصحهاوالدها بالتسبيح وذكر الله اعتبرت ذلك خير معين لها عن اقتناع وطيب خاطر لتقدّم للبشرية درساً من دروس النبوّة للمرأة وكيفية صمودها لاستقبال الحياة، والتكيف معها مهما كانت قسوتها. هذه حياة بنت النبي وقائد الأمة وزوجة البطل وأم السبطين: الحسن والحسين.

لقد وجدت فاطمة الزهراء، بعد قدوم الأولاد عليها، سلوة ومتعة تخفف عنها شظف العيش وقسوة الحياة التي كانت تعيشها. ولم يكن أولادها مصدر سلوة ومتعة لها ولزوجها وحدهما إنما كان أولادها مصدر سرور وبهجة وراحة لوالدها محمد(ص) الذي حُرِم من الولد، فجعل نسله في ذريتها الطاهرة.

فقد ولد الحسن ليلة النصف من رمضان في السنة الثالثة للهجرة[١٠٣] كما ولد الحسين في الثالث من شعبان السنة الرابعة للهجرة، وتلتهما زينب الكبرى بطلة كربلاء، ثم زينب الصغرى المكنّاة بأم كلثوم[١٠٤]. وجاء في أسد الغابة أن النبي سمى المولود الأول لعلي وفاطمة الحسن. ولم يكن يعرف هذا الإسم في الجاهليّة[١٠٥]. وقال النبي (ص)، في أول استقباله لهذا المولود: «اللّهم إني أُعيذُهُ بك وولده من الشيطان الرجيم وأذَّن في أُذُنه اليمنى وأقام في اليسرى[١٠٦]. وعن

الزّبير بن بكـار في كتاب أنساب قريش، أن رسول الله (ص) سمـى حسنا وحسينا يـوم سـابعهما واشتق إسـم حسين من إسم حسن[١٠٧]. وفي اليـوم السابع لـولادة الحسن عق عنـه بكبش، وأمر فـاطمـة أن تحلق رأسه وتتصـدّق بـوزن شعره فضـة فامتثلت لما أمرهابه.

وكذلك فعلت بأخيه الحسين[١٠٨]. وصارت العقيقة والتصدق بوزن الشعر سنة مستمرة إلى اليوم عنـد بعض المسلمين. وعلى الرغم من حبِّ النبي (ص) المفرط لهما إلا أنه حـرص على أن يراعي في تـربيتهما البساطـة وإبعادهما عن أي نـوع من أنواع الترف والبذخ. فقد شاركا والديهما حيـاة الزهد والتقشف والحرمان أحياناً كثيرة، بل وآلام الجوع أحياناً أخرى، كما مر سابقاً في القصص المروية.

روى الطبري عن ثوبان قال: «قدم رسـول الله (ص) من غزوةٍ له، فأتى فاطمة فإذا هو يمسحُ على بابها ورأى على الحسن والحسين قلبين (سوارين) من فضة فرجع رسول الله (ص)، فلمارأت فـاطمة ذلك ظنت أنـه لم يدخل عليهـا من أجل ما رأى فهتكت الستر ونـزعت القلبين من الصبيين فقطعتهما، فبكى الصبيـان فقسمتـه بينهما، فـانطلقـا إلى رسول الله (ص) وهما يبكيـان، فأخـذه رسـول الله (ص) منهما فقال: يـاثوبان إذهب بهذا إلى بني فلان ــ من أهل بيت في المدينة ـ فاشتر لفـاطمة قـلادة من عصب وسـوارين من عاج، فـإن هؤلاء أهل بيتي ولا أُحِـبُّ أن يُذهبـوا طيباتهم في حياتهم الدنيا[١٠٩]».

هكذا كان الرسول (ص) الأب والمربي والمعلم، فكانت فاطمة الزهراء تشعر من خلال ملامح وجهه الكريم رضاه وغضبه، وتعمل مع أولادها ما يدخل السرورعلى نفسه فنشأ أولادها متخلقين بأخلاق النبوّة التي كانت منهلاً لكل من تخرج من هذا البيت ونشأ فيه. من هنا حـق لله ورسوله ودولة النبوّة إتخاذ العترة الطـاهرة الأنموذج وجعلهـم حبل الله وطريق هدايته.

٥ ـ منزلة فاطمة عند الله ورسوله:

كان لفـاطمة الـزهراء منزلـة عند رسول الله(ص) منـذ طفولتهـا لم تبلغها أي من بناته. واشتد تعلقه بها بعد رحيل أمها خديجة، ولزمت دور أمها وهي طفلة فكنيت بأم أبيها. وازداد حُبُّ النبي (ص) لها بعد زواجها من علي أقرب الناس إليه، وبعد إنجابها السبطين اللذين أحبهما وتعلق بهما، وكان لا يملُّ منهما ولا يودُّ فراقهما.

رُوى عن عـائشـة (ر) قالت: «مـا رأيتُ أحـداً أشبـه سُمْتـا وهديـا ودُلاّ ــ وفي رواية حديثـاً وكلاماً برسـول الله (ص) من فاطمة، كانت إذا دخلت عليـه قام إليها فأخذ بيـدها وأجلسها في مجلسـه، وكان إذا دخل عليهـا قامت إليه فأخـذت بيده فقبَّلته وأجلسته في مجلسها»(١١٠).

وعن جُميع بن عمير دخلت عائشـة (ر) فقُلتُ: مَن كان أحبُّ النـاس إلى رسول الله (ص)؟ قالت: فـاطمة. قلتُ: «إنما أسألك عن الرجال؟». قـالت: زوجُها. وما يمنعه، فوالله أن كان لصوَّاما قـوَّاما. ولقد سالت نفس رسول الله (ص) في يده فردَّهـا إلى فيه. قُلتُ: «ما حملك على مـا كان؟»(١١١) فأرسلت خمارهـا على وجهها وبكت وقالت: «أمرٌ قضي عليَّ»(١١٢).

لا غرابة إذن في حب الرسول (ص) لهذيـن الزوجين، فكلاهما تخرَّج من مدرسته وربَّاهما وصاغ شخصية كل منهما. إنهما مـرآة حقيقية للبيت النبوي. ومن الطبيعي أن تنتقل تلك المحبة إلى نسلهما الذي يعتبر نسله.

وذكر الكبـداني عن المستور بن مخرمة أن رسـول الله (ص) قال: «فاطمـة بضعة مني، فمن أغضبهـا أغضبنـي». وفي روايـة «يُـريبني مـا أرابها ويُـؤذيني مـا آذاها»(١١٣).

وقد قال الرسول (ص) هذا الحديث في مكانـة فاطمة ومنزلتها العظيمة عنده في مواقف عديدة ليبين للمسلمين مرتبتها العـالية عند الله لتضحياتها في سبيله. وليس من شك في أن مَن يغضب النبي فكـأنما يغضب الله ومَن يـؤذي النبي فكأنما يُـؤذي الله. ومَن يغضب الله ويُؤذيه فإن مصيره معروف عند جميع الخلق.

وأخرج الطبراني أن النبي (ص) قال: «كل بني أنثى يتتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة فإني أنا وليُّهم وأنا عصبتهم وأنا أبوهم»(١١٤).

وجـاء في منزلتهـا، أيضـاً، أخرج أحمد والحاكم عـن المستور بن مخرمـة أن النبي (ص) قـال: «فاطمـة بضعة مني يغضبنـي ما يغضبهـا ويبسطني ما يبسطهـا وأن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري»(١١٥).

وعن منزلـة كل من فاطمة وعلي، عند رسـول الله (ص) روىٰ ابن حجر عن أبي هريرة أنَّ النبي (ص) قال لعلي: «فاطمةُ أحبُّ إليَّ منك وأنت أعزُّ علي منها»(١١٦).
وروى الطبري عن ابن عباس (ر) قال: لما نزلت ﴿. . . قل لا أسألكم عليه أجراً إلا

المودة في القربى. . . ﴾[117]. قالوا: يا رسول الله من قرابتُك هؤلاء الذين وَجَبت علينا مودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناها»[118]. ورُوي أنه (ص) قال: «إن الله جعل أجري عليكم المودة في أهل بيتي، وإني سائلكم غداً عنهم»[119].

وروى الطبري، عن زيد بن أرقم، في منزلة أهل بيت رسول الله (ص) أيضاً أن رسول الله (ص) قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين: «أنا حربٌ لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم»[120].

إنّ الأحاديث المذكورة دلت بما لا يدعُ مجالاً للشك أن آل رسول الله (ص) هم علي وفاطمة وبنوهما وأن أجره على أمته نتيجة تحمله المصاعب في سبيل نشر رسالة الإسلام وهدايتهم حُبُّ آله والاقتداء بهم فهم نسله وثمرة نضاله والأحق بالاتباع لتخلُّقهم بأخلاقه ونهلهم من علمه، وهم الأعلم بدقائق الأمور بالشريعة التي جاء بها من عند الله، فهم المؤتمنون على وحي الله وشريعة السماء بعده. ولم يكتف النبي (ص) بهذه الأحاديث التي اقتبس المؤلف نموذجاً محدوداً منها للتوضيح، بل إن رسول الله (ص) واصل طوال فترة حياته استغلال كل مناسبة ليبين لمجتمع دولته البكر آنذاك منزلة آله عنده وعند الله، وأن أحاديث المنزلة هي بوحي من الله وليس باجتهاد ذاتي منه، كما توضح آية المودة التي ورد ذكرها سابقاً.

وهناك عشرات الأحاديث النبوية التي تحدث عن منزلة الزهراء ومكانتها العالية عند الله ورسوله ويمكن الاكتفاء ببعضها للتوضيح كما تتطلبه الدراسة.

عن حذيفة قال: قلتُ لأُمي: دعيني آتي النبي (ص) فأُصلي معه المغرب وأسأله أن يستغفر لي ولك. فأتيتُ النبي (ص) فصليتُ معه المغرب، فصلّى حتى صلى العشاء ثم انفتل فتبعته فسمع صوتي فقال: مَن هذا حذيفة؟ قلت: نعم. قال: «ما حاجتك غفر الله لك ولأمك؟ إن هذا ملك لم ينزل إلى الأرض قط قبل هذه الليلة استأذن ربه أن يسلم عليّ ويبشرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، وأن الحسن الحسين سيدا شباب أهل الجنة»[121].

وعن تعلّق الرسول بسبطيه: الحسن والحسين روى: عن أسامة بن زيد بن حارثة، قال: «طرقت رسول الله (ص) ليلة لبعض الحاجة، فخرج وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو، فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه؟ فكشفه، فإذا هو الحسن والحسين على وركيه، فقال: هذان ابناي وابنا

بنتي، اللهم إنك تعلم أني أحبهما فأحبهما»(١٢٢).

هكذا كـان تعلق الرسـول (ص) بابنته وريحانتيـه من الدنيـا الحسنين. فكان لا يصبر عن رؤيتهم ولا يطيق بعداً عنهم، وكان يطيل الجلـوس في بيت فاطمة يخفف عنها هموم الحيـاة بمواساته خـلال زياراته المتكررة، ويطمئن على أحـوالها. وكانت تجد في هذه الزيارات خير معين لها وخير سلوان.

روى الطبري عن ثوبان قـال: كان رسول الله (ص)، إذا سافر آخـر عهده إتيان فاطمـة وأول من يدخل عليـه إذا قدم فـاطمة «عليهـا السلام»(١٢٣) وروى الطبري أيضاً، عن ثعلبة قال: «كان رسول الله (ص) إذا قدم من غزوٍ أو سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم أتى فاطمة، ثم أتى أزواجه»(١٢٤).

دلل رسول الله (ص)، بهذا الوصـال المستمر لابنته وسبطيه أنـه لا يعادلهم أحد من الخلق عنده فهم في أعلى المراتب حباً وتقـديراً وعلو منزلة. وكان يتعـرض أحياناً لعتاب بعـض أزواجه لتفضيل ابنتـه وأبنائها عليهـن فكان يبّرر ذلك أن فـاطمة لا يعادل حبها أحد عنده بقوله: «أحبُّ أهلي إليّ فاطمة»(١٢٥).

وجاء عن علي بن أبي طالب (ع) أن رسول الله (ص) قال:

«يا فاطمة، ان الله عز وجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك»(١٢٦).

ان هـذه الدرجـة، التي بلغتها بنت رسـول الله، ليس لقـرابتها من رسـول الله، ولكن لتفانيهـا في ذات الله بأعمالها الصالحة بحرمـانها نفسها وبنيهـا حتى من لقمة العيش وتقديمهـا للبائسين، فعلو منـزلتها عند والـدها بسبب رضا الله عنهـا وعلو منزلتها عنـده، وكذلك لقناعتها وزهـدها ورضاها بحيـاة التقشف التي قبلتها عن طيب خـاطر في بيت الـزوجيـة، فالنبي (ص) يقـدمهـا للبشرية من خـلال مجتمع دولته البكر على أساس أنها البنت المثالية والزوجة المثالية والأم المثالية لدولة النبوّة بعد شريكته في النضال أم المؤمنين الاولى خديجة.

ومن علو منـزلة فاطمـة وولديها الحسن والحسين وبعلهـا علي ان الله اصطفاهـم دون خلقه، وطهَّـرهـم من الدّنس وعصمهم من الخطأ كرامـة على زهدهـم وصبرهـم وصدق إيمانهم وتضحيـاتهم، في سبيل الله كما توضح ذلك آيـة التطهير. أخرج ابن مردويـة والخطيب عن أبي سعيـد الخدري قال: كـان يوم أم سلمـة أم المؤمنين فنزل

جبريل على رسول الله (ص) بهذه الآية: ﴿... إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ (١٢٧) فدعا رسول الله (ص) بحسن وحسين وفاطمة وعلي فضمهم إليه ونشر عليه الثوب، والحجاب على أم سلمة مضروب، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا». قالت أم سلمة: فأنا معهم يا نبي الله؟ فقال: أنت على مكانك وانك على خير (١٢٨). وروى الطبري عن أنس بن مالك (ر) أن رسول الله (ص) كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول: الصلاة يا أهل البيت: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾(١٢٩).

وروى الطَّبري، أيضاً، عن أبي الحمراء قال: «صحبتُ رسول الله (ص) تسعة أشهر، فكان إذا أصبح أتى على باب علي وفاطمة، وهو يقول: يرحمكم الله: ﴿إنما يريد الله...﴾ الآية (١٣٠).

لقد أوضح الله ورسوله تعريف أهل البيت، وهم الذين خصَّهم بالطهارة في حديث الكساء وآية التطّهير، فالقرآن الكريم والسنة النبوية كلاهما أكد طهارة أهل البيت، وهم آل رسول الله الذين لم يشرك معهم أحدا. ومعنى ذلك أن درجتهم لم يصل إليها أحد لا من زوجات الرسول (ص) ولا من صحابته. لأن مرتبة جهادهم وإيمانهم لم يصل إليها أحد، فهم يلون رسول الله (ص) مباشرة في الامتثال لأوامر الله والابتعاد عن نواهيه، وأنهم خير من يمثل رسول الله (ص) في حياته وبعد مماته. وقد سمِّي الحديث الذي تزامن مع آية التطهير حديث الكساء لأن النبي (ص) وآله تغطوا بغطاء واحد وعددهم خمسة: النبي وفاطمة وعلي والسبطين، فأكد بأن الآل هم الأربعة الذين كانوا مع النبي تحت الكساء في بيت أم سلمة (ر) (١٣١).

وفي رواية لابن حجر أن رسول الله (ص) قال بعد تطهير (كذا) حينما كان الخمسة متغطين بالكساء في بيت زوجته أم سلمة (ر): «أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وعدو لمن عاداهم»(١٣٢) وفي رواية أخرى، القى عليهم كساء ووضع يده عليهم ثم قال: «اللهم ان هؤلاء آل محمد فاجعل صلاتك وبركاتك على آل محمد إنك حميد مجيد»(١٣٣) ودليل آخر على كرامتهم أن الله، سبحانه وتعالى، استجاب لدعاء رسوله (ص) المذكور آنفاً خلال تواجدهم تحت الكساء بأن الله وملائكته يصلون على النبي ويكلف المؤمنين بالصلاة عليهم أيضاً بقوله تعالى: ﴿ان الله

وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾[١٣٤] .

روى ابن حجر قال: صحيح، عن كعب بن هجرة قال: «لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟ فقال: «قولوا، اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم، انك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد»[١٣٥] .

ويروى أن النبي (ص) قال: لا تصلوا عليّ الصلاة البتراء. فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال تقولون: «اللهم صل على محمّد، وتمسكون. بل قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد»[١٣٦] .

بهذه الصّورة كان النبي (ص) يبرز مكانة آله ـ عنده وعند الله ـ للمسلمين، ولم يكن ذلك عبثاً بل إنما يقوم بذلك ليوضح للمسلمين المهمة التي ستلقى على عاتق الآل وهم عترته من بعده، وهي قيادة الأمة في شؤون دينها ودنياها، لأنهم الخيرة والصفوة الإلهية والنبوية في الخلق، وهناك آيات عديدة نزلت لتعريف المسلمين أهمية فضل أهل البيت عند الله وأهمية أتباعهم والتمسك بسيرتهم منها قوله تعالى: ﴿سلام على آل ياسين﴾ [١٣٧] وقد نقل جماعة من المفسرين عن ابن عباس (ر) أن المراد بذلك سلام على آل محمد (ص) و (كذا)، قاله الكلبي [١٣٨] . وقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . . . ﴾ [١٣٩] أخرج الثعلبي في تفسيرها عن جعفر الصادق (ع) أنه قال: «نحن حبل الله الذي قال الله فيه: ﴿واعتصموا . . . ﴾ الآية» [١٤٠] .

وجاء، من طرق عديدة كما يروي ابن حجر، يقوي بعضها بعضاً أن رسول الله(ص) قال: «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا». وفي رواية مسلم «ومن تخلف عنها غرق». وفي رواية «هلك»، «وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له»، وفي رواية «غفر له الذنوب»[١٤١] .

بهذا الوضوح وهذا التأكيد بيّن رسول الله (ص) للأمة مكانة أهل بيته عند الله، وقدمهم للمجتمع الاسلامي الصغير آنذاك وفي دولته البكر على أن اتباع سيرتهم

والتمسك بهم كأهمية سفينة نوح في الطوفان الذي عصف بكل شيء، فكانت تلك السفينة هي وسيلة النجاة الوحيدة، كما شبههم بباب حطة في بني إسرائيل وأنه المدخل الوحيد لمن أراد المغفرة. وهنا يأتي التأكيد أيضاً على اتباع سيرتهم ومودتهم لأنها الطريق إلى رضا الله وغفرانه. وجاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿**وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى**﴾[١٤٢]. قال ثابت البناني. اهتدى إلى ولاية أهل بيته(ص). وجاء ذلك عن أبي جعفر الباقر أيضاً[١٤٣].

وأخرج الدّيلمي مرفوعاً «إنما سميت ابنتي فاطمة لأن الله فطمها ومحبيها عن النار»[١٤٤].

كذلك من الأدلة التي أثبت الرسول (ص) فيها للمسلمين علو درجة أهل البيت ـ أصحاب الكساء عند الله ورسوله نزول آية المباهلة من سورة آل عمران، وذلك في السنة العاشرة للهجرة حينما قدم لزيارة النبي في المدينة وفد من اليمن من نصارى نجران للتحاور معه، فنزلت آية المباهلة بقوله تعالى: ﴿**إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل: تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾[١٤٥] قال الرازي في تفسيره: «أجمع المفسِّرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران عند الرسول (ص)»[١٤٦].

وقال الواحدي في أسباب النزول، قال المفسرون:

«قدم وفد نجران، وكانوا ستين راكباً على رسول الله (ص)، وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر اليهم يؤول أمرهم. فالعاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح، والسيد أمامهم وصاحب رحلهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم وأمامهم وصاحب مدارسهم، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم وكان ملوك الروم قد شرفوه ومولوه وبنوا له الكنائس لعلمه

واجتهاده. فقدموا على رسـول الله (ص) ودخلوا مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات جبات وأردية في جمال رجال الحارث بن كعب. يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله (ص): «ما رأينا وفدا مثلهـم»، وقد حانت صلاتهم فقاموا فصلـوا في مسجـد رسـول الله (ص). فقال رسـول الله (ص) دعـوهم. فصلـوا إلى المشرق فكلم السيـد والعاقـب رسول الله (ص) فقـال لهما اسلما فقـالا: قد اسلمنـا قبلك قال منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولـدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير: قالا: ان لم يكن عيسى ولـد الله فمن أبوه وخاصمـوه جميعاً في عيسى، ثم روى انهما قالا للنبي (ص) ما تقول في عيسـى؟ فسكت. ونزل القرآن وفيه: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ إلى قوله ﴿قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم. .﴾ الآية.

فدعاهما رسول الله إلى الملاعنة»(١٤٧)

وقـال ابن الأثير في يوم المبـاهلـة: «وأما نصـارى نجـران فإنهم ارسلوا العـاقب والسيـد في نفـر إلى رسول الله (ص)، وأرادوا مبـاهلتـه فخـرج ومعه علي وفـاطمـة والحسن والحسين، فلما رأوهم قالوا: هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها. ولم يبـاهلوه وصـالحوه على ألفي حلـة ثمن كل حلة أربعـون درهماً وعلى أن يضيفـوا رسله، وجعل لهم ذمـة الله تعالى وعهـده أن لا يفتنوا عن دينهم ولا يعشـروا وشرط عليهم ان لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به»(١٤٨).

لقد أوضحت آية المباهلة ومناسبة نزولها مكان آل رسول الله عند الله ورسوله وعند وفد النصـارى. ان اختيار الوفد النبـوي جاء بوحي من السماء ففاطمـة ابنته أحب النساء إلى قلبه وأقربهم إليه والسِّبطان هما قرة عينيه وابنيه وعلي أقرب الخلق إليه فهو نفسه. ان الألفاظ القرآنية تمثل مكانة هـؤلاء الأربعة ـ أهل بيت الرسول ـ بصدق في قلب رسـول الله (ص) لاخلاصهم وانقيـادهـم المطلق لله ولـرسـوله، ولـذلك رهب منهم أفـراد وفد نصـارى نجران، وتخلـوا عن المباهلـة حينما استقرأوا من وجـوههم مكانتهم العظمى عند الله. فحديث الكساء وآيـة المباهلة دليلان واضحان لا يرقى إليهما الشك على أن الأربعـة هم آل رسـول الله فقط. هذه نبـذة مـوجزة عـن منزلـة فاطمة الـزهراء وبعلها وبنيها عند الله ورسـوله. وقد أظهر الله ورسـوله لمجتمع دولة

النبوة مظهراً مـن مظاهر تلك المنزلـة في حياة الرسول (ص) لإلقـاء الحجة على الأمة الإسـلامية بعـد رسـول الله وكيف سيخلفـونه في أهـل بيته الـذين أعـزهم الله ورفع شأنهم .

٦ ـ فاطمة الزهراء والغزوات :

تعتبر غـزوة أحُـد من الغـزوات التي لم تلحق بـالمسلمين هـزيمـة مثلهـا ، فقـد استشهد من المسلمين واحـد وثمانون مقاتـلاً ، وأوشك النبي على الهلاك . وخرجت أربع عشرة إمـرأة لمسـاعدة المقـاتلين وتـوفير الطعام لهم والماء وتضميـد جـراحهم . فشاركت فاطمة الزهراء في تضميد جراح [١٤٩] والدها ، كما مر في المقدمة .

وحينما عاد علي إلى بيتـه بعد أن دافع عن حياة رسـول الله (ص) ، وأنجاه الله من الهلاك ناول فاطمة السيف وانشدها بيتي شعر وهما [١٥٠] :

أفــاطم هــاك السيف غير ذميم   فلستُ بـــرعـــديـــد ولا بلئيم
لعمري لقد جاهدتُ في نصر أحمد   وطــاعـــة رب بــالعبـــاد رحيم

يتباهى علي في هـذين البيتين أمام زوجتـه ، بشجاعتـه وجهاده بين يـدي رسول الله(ص) ، حيث أرضى الله تعالى بنضاله وانقاذ رسوله من كيد المشركين .

وفي غزوة الخندق روى علي عن جزء من مساهمتها فقال : كنا مع النبي (ص) في حفر الخندق إذ جاءته فاطمة بكسرة من خبز فرفعتها إليه فقال : «ما هذه يا فاطمة؟ قالت : من قرص اختبزته لابني وجئتك منه بهذه الكسرة» .

فقال : يا بنية أمـا إنها لأول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث[١٥١] . وهذا يعكس مدى المعانـاة التي عاشها المسلمون وشاركهم فيها النبي (ص) خـلال حفر الخندق ليحموا المدينة من دخول جيش المشركين .

وفي فتح مكة في السنة الثامنـة للهجرة شاركت فاطمة الزهـراء زوجها ووالدها ، جيش دولة النبوة العظيم أفراح انتصاراته وهو يدخل مكة فاتحاً ومنهياً بذلك مقاومة قريـش لدولة النبـوة ومؤسسهـا محمد (ص) . كـان النبي (ص) قد وقع مع قـريش عهداً ينظم العلاقـات بين دولة النبوة وقريش ، وذلك في شهـر ذي القعدة في السنة السادسة للهجـرة وكان علي بن أبي طالب هو كـاتب صحيفة ذلك العهد . وسمّي

ذلك العهد صلح الحديبية نسبة إلى المكان، وهو بئر قريب من مكة. وقد أنابت قريش في هذا الصلح سهيل بن عمرو. وجاء في تلك الصحيفة(١٥٢):

«هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو. اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمد من قريش بغير اذن وليه ردَّهُ عليهم. ومن أتى قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه وان بيننا عيبة مكفوفة(١٥٣) وأنه لا إسلال ولا إغلال(١٥٤)، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه وأن من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة. وانه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها».

وقد دخلت قبيلة خزاعة في حلف محمد (ص) كما دخلت قبيلة بكر في حلف قريش. وشهد على كتابة تلك الصحيفة أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان وابو عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص (وكانا مشركين) وعلي بن أبي طالب. وكتب الكتاب من نسختين أحداهما عند رسول الله (ص) والأخرى عند، سهيل بن عمرو(١٥٥).

وحدث أن انتهكت قريش عهد الصلح مع المسلمين بسبب تعاونها مع بني بكر وغدرهم بقتل عشرين رجلاً من خزاعة، حلفاء دولة النبوّة. فجاء وفد منهم إلى المدينة مستصرخين لنجدة النبي (ص)(١٥٦).

أما قريش فقد توقعت رد فعل النبي (ص)، فحاولت أن تقوم بعمل وقائي فأرسلت زعيمها أبا سفيان لتجديد اتفاقية الصلح. وقد فشل أبو سفيان في جميع محاولاته لاقناع الرسول (ص) بالاستجابة لطلبه، علما بأنه سعى لتوسيط أبي بكر وعمر وعلي وفاطمة الزهراء(١٥٧)، حتى ابنته رملة بنت أبي سفيان، زوجة الرسول استقبلته بجفاف وطوت عنه الفراش وقالت: «هو فراش رسول الله (ص) وأنت رجل مشرك فلا ينبغي لك أن تجلس عليه»(١٥٨).

وكان الرسول (ص)، بعد أن سمع قصة ما حدث لخزاعة من وفدهم، قام يجر

رداءه وهو يقول: «لا نُصرت إن لم أنصر خزاعة مما أنصر منه نفسي»[١٥٩] .

شاهدت الزهراء أبا سفيان، وهو أكبر زعامة قُرشية، يتململ ذليلاً بين أيدي المسلمين، متوسلاً وراجياً مساعدته لاقناع رسول الله بتمديد أجل الهدنة بين دولة النبوة الناشئة وبين قريش التي أذاقتها ووالديها وبني هاشم وجميع المسلمين صنوف العذاب انه النصر الإلهي لدولة الإسلام وانحدار الشرك. ان رجوع أبي سفيان إلى مكة منكسراً كان كسراً لشوكة الباطل وانتصاراً للحق، ها هو طريد قريش واتباعه المستضعفون، يؤسسون لهم دولة مؤيدة بنصر الله وإيمان أهلها الذين نذروا أنفسهم للدفاع عنها بأرواحهم وهذا غاية البذل وأسمى أنواع التضحية.

ووضع الرسول خطة محكمة للزحف على مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة؛ حيث سد جميع المنافذ المؤدية لمكة خشية تسرب نبأ زحفه إليهم إلى أن تمكن من مباغتتهم بنجاح[١٦٠] . وقد وعده الله بالنصر المؤزر بقوله تعالى: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا**﴾[١٦١] .

رافقت فاطمة الزهراء مع عدد من النسوة، جيش دولة النبوة الذي زحف على وكر الشرك والضلال قريش في عقر دارها مكة. وخرج رسول الله مع جيشه من المدينة يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان السنة الثامنة للهجرة، في عشرة آلاف مقاتل، بينهم مئات الفرسان وقد وزع الألوية والرايات وجعل لواءه مع ابن عمه علي بن أبي طالب. فوصلوا قريباً من مكة ونزل مع جيشه عشاء، فأمر أصحابه فأوقدو ا عشرة آلاف نار، على عدد المقاتلين بغية إدخال الرعب والفزع إلى قلوب القرشيين وأئمة الضلال والجهل وكانت قريش قد تحسبت للخطر بعد فشل مهمة زعيمها أبي سفيان. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن التكتم الشديد الذي أحاط الرسول به زحفه على مكة كان من أبرز عوامل النجاح. وفتحها سلماً دون قتال فأخذهم المسلمون على غرة منهم. فخرج عشية ذلك اليوم أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يستكشفون الأخبار فذهلوا لمشاهدتهم، الجيش والنيران فجأة فكان وقع ذلك عظيماً عليهمْ وأسقط ما في أيديهم. وكان العباس بن عبد المطلب، عم النبي (ص) قد ركب بغلة رسول الله (ص) والتقى أبا سفيان فأخبره بأن جيش رسول الله يحيط بمكة ونصحه بمقابلته واستئمانه. فأردفه على البغلة وقدم به إلى رسول الله وهو يطوف على النيران، حتى وصل إلى رسول

الله(ص)، واستأذنه في أجارة أبي سفيان لصباح الغد، فلبى طلبه وقال (ص) لعمه العباس: «اذهب فقد أمناه حتى تغدو به علي». وفي الصَّباح أسلم أبو سفيان أمام رسول الله (ص) على مضض. وجعل له ميزة في قومه فقال (ص): «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن»[١٦٢]. وقد حبسه العباس بن عبد المطلب عند خطم الجبل بمضيق الوادي. ومرت عليه قبائل مقاتلي جيش النبوة والعباس يعرِّفه بأسماء تلك القبائل واحدة واحدة، حتى مر رسول الله (ص) في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار في الحديد لا يُرى منهم إلا الحدق فقال: من هؤلاء يا ابا الفضل؟ فقال: هذا رسول الله(ص) في المهاجرين والأنصار، فقال: يا أبا الفضل: لقد أصبح ملك بن أخيك عظيما، فقال ويحك انها النبوة، فقال: نعم. ثم رحل أبو سفيان ينادي قومه بالاستسلام والأمان وعدم القتال، لأنهم لاقبل لهم بجيش دولة النبوة، ودخل جيش الإسلام مكة من عدة جهات كما دخل النبي (ص) الكعبة واستلم الحجر الأسود وحطم الأصنام التي على سطح الكعبة كما أمر بتكسير الاصنام التي كانت حول مكة. وكان رسول الله بعد أن دخل الكعبة وصلى بها ركعتين. وخرج فأخذ بعضادتي الباب فخطب الناس وجموع قريش حاضرة نساء ورجالا فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعىٰ فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج» ثم قال: «يا معشر قريش، ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب ثم تلا: **﴿يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم. . .﴾**[١٦٤] يا معشر قريش ويا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[١٦٥]. وبذلك سمي الذين أسلموا يوم الفتح وبعده الطلقاء وأبناءهم أبناء الطلقاء لأنهم أسلموا على مضض وكراهية، لأن دخولهم الإسلام لم يكن طواعية وفي ذلك اليوم بايعه الرجال على الإسلام بنطق الشهادتين وعلى السمع والطاعة. وبعد الرجال بايعته النِّساء فقرأ عليهم ما أنزل الله من شروط البيعة ـ بعد أن وضع على يده ثوبا ـ على ألاَّ يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن،

ولا يعصينك في معـروف ﴿لا يقتلن أولادهن﴾ بوأد ولا اسقاط ﴿ولا يأتين ببهتـان يفترينه﴾ بكذب يكذبنـه في مولود ﴿بين أيديهن وارجلهن﴾ فـلا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم[١٦٦] .

وقد نزل رسـول الله في قبة ضربت له بالأبطح، ومعه زوجتاه أم سلمـة وميمونة، وأقام بها خمس عشرة ليلة . وكان دخول مكة لعشر بقين من رمضان .

إذا كانت فاطمة الـزهراء قد خرجت من مسقط رأسها مكة حزينـة مرعوبة، كما خرج والدها فها هي الآن تعود إليها فرحـة مرفوعة الرأس مع والدها وابن عمها علي ابن أبي طالب وجيش الإسلام الظافر يدخل الرعب والفزع في قلوب القرشيين أعداء الله واعداء الحق .

إن زهرة النبوّة قـد شاهدت أبا سفيان وجموع جيش الإسـلام تمر عليه وهو واقف مذهول . لقد تذكرت محاولات قريش اذلال والدها بمختلف الأساليب الهمجية من الايذاء والتعذيب اللـذين الحقوهما بالمسلمين وبوالدها . تـذكرت تضحيات والدتها ومرضها ورحيلهـا . وتمنت أن تحضر كرامة الله لـوالدها وعزه لـدينه . وقد حمدت الله عندما علمت بمصرع الحويرث بن نقيد أو منقد الذي روَّعها يوم هجرتها حيث قتله الإمام علي بعـد فتح مكة ضمـن عدد من الرجـال والنساء أمـر النبي (ص) بقتلهم لمبالغتهم في إيذاء المسلمين[١٦٧] .

كما شاهدت فاطمـة الزهراء مدى حلم والدها وعفـوه عن أهالي قريش بعد فتح مكة، حيث عاملهـم بالحسنى ليثبت لهم أنه نبي الرحمة حيث كـان في قمة الاقتدار ليقتص منهم ما الحقـوه به من الأذى ليس في مكة وإنما واصلوا أحقـادهم بالأعمال العسكريـة وتأليب القبائل في الحجـاز وما حـوله ضده ومـع وحشيتهم وقسوتهم لم ينس أنه ينتمي اليهم، فكـانت تلك المعاملـة دليلاً على سمو أخـلاقه الكـريمة في التعامل مع الأعداء . إنه درس للبشرية في العفو عن العدو عند المقدرة . فهل حفظ له الطلقاء وأبناء الطلقاء هذه المكارم الخلقية؟

إن الأحداث التاريخية اللاحقة ستجيب عن هذا السؤال .

لقد رأت فاطمة الزهراء، في رحلة النصر التي دامت شهرين تقريباً قبيلتي هوازن وثقيف وأحلافهما من العرب الذين ظلّـوا حتى ذلك التاريخ على موقفهم المتصلب

المعادي للإسلام ينهارون وتدكُّ حصونهم ومعاقلهم، وتقع أموالهم ونساؤهم غنيمة للمسلمين في معركة حنين خلال فترة قصيرة وعددهم يزيد ثلاثة أضعاف على أعداد المسلمين. وكانت تلك الغزوة في شوال بعد فتح مكة (١٦٨) مباشرة. رأت الزهراء هذه الانتصارات العظيمة كلها في هذه المدة القصيرة. ثم عادت مرفوعة الرأس إلى مدينة النبوة وعزِّ الإسلام، وهي ترى والدها يجني ثمرات جهاده بدخول الناس في دين الله أفواجاً وجماعات فتزداد إيمانا وشكراً وبذلاً في سبيل الله. انه الوفاء الإلهي بوعده للصابرين. وعاشت الزهراء بعد ذلك فترة تربو على السنتين قليلاً عزيزة بين والدها وزوجها وبنيها، سعيدة بحياتها البسيطة، التي لم تتغير منذ دخلت بيت الزوجية من غير أن يتخللها ما يكدِّر صفوها.

٧ ـ الزهراء المناضلة:

على الرغم من قصر حياة فاطمة الزهراء التي لم تبلغ الثلاثة عقود، في بعض التقديرات وأقل من عقدين في تقديرات أخرى إلا أن هناك إجماعاً عند غالبية المؤرخين أنها واجهت حياة قاسية سواء كان في طفولتها أم في حياتها الزوجية أم بعد وفاة النبي (ص) وهذه فترة لم تتعد بضع عشرات من الأيام اختلف الرواة في تقديرها. وعلى الرغم من حياة التقشف التي عاشتها خلال حياتها الزوجية، وفي ظل والدها إلا أنها كانت سعيدة بها في ظل الوالد والزوج والبنين. بيد أنها بعد رحيل والدها لاقت ما لم تلقه هاشمية في تاريخ دولة النبوة إلا بناتها بعد إبادة الحسين وآله وأنصاره على يد جيش سلطنة قريش التي كانت نتاجاً طبيعياً لسلطة الخلافة الواقعية التي برزت على الساحة السياسية في دولة النبوة وفرضت نفسها لحكم المسلمين بعد رسول الله (ص). وكانت فاطمة الزهراء هي الصوت النسائي الذي ارتفع في مجتمع دولة النبوة رافضاً تلك السلطة وسياستها، وهي عزلاء بدون نصير سوى مكانتها العظيمة مع زوجها وبنيها التي تضمنها القرآن والسنة كما مر سابقاً، ووصية والدها لها بالتسلح بالصبر بعد موته وكأنها على موعد مع ضيم الزمان لآل رسول الله (ص) الذي لا يتوقف.

روى الترمذي، عن أم سلمة أن رسول الله (ص) دعا فاطمة عام الفتح فناجاها

فبكت ثم حدَّثها فضحكت، فلما توفى رسول الله (ص) سألتها عن بكائها وضحكها، فقالت:

«أخبرني رسول الله (ص) أنه يموت فبكيت، ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنّة إلا بنت عمران فضحكت»(١٦٩).

وروت عائشة الحديث نفسه بصيغة أخرى، فقالت: «كنا أزواج النبي (ص) عنده فأقبلت فاطمة ما تخفى مشيتها من مشية أبيها رسول الله (ص). فلما رآها قال: مرحبا بابنتي ثم أجلسها ثم سارَّها فبكت بكاءً شديدا. فلما رأى حُزنها سارَّها الثانية فإذا هي تضحك. فلما قام رسول الله (ص) سألتها عما سارَّك قالت: ما كُنت لأفشي على رسول الله (ص) سره.

فلما توفي قلت: عزمتُ عليك من الحقِّ لما أخبرتني قالت: أما الآن فنعم: أما حين سارَّني في الأمر الأول فإنه أخبرني أن جبرئيل كان يعارضني القرآن كل سنة مرّة، وأنه عارضني به العام مرتين ولا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري، فإني نعم السَّلف أنا لك فبكيتُ. فلما رأى جزعي سارني الثاني قال: يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أهل الجنة أو نساء العالمين وفي رواية «فسارني وأخبرني أني أول أهل بيته أتبعه فضحكت»(١٧٠) هل المقصود، في هذا الحديث المتَّفق عليه عند جميع كتاب السيرة أن الرسول قد أوصاها بالصبر على فراقه وأن تحتسبه في الله، أم أنه أضاف إلى ذلك أن سارها بما يجري عليها من ضيم وظلم فطلب منها أن تتسلح بالصبر الجميل كما ربَّاها على ذلك وواجهت معه شتى المتاعب والآلام نتيجة ظلم قريش.

وها هو الرسول (ص) أيضاً يوصي علياً بها وبالسبطين، حيث جاء في رواية ابن عباس عن النبي (ص) أنه قال: «يا علي إن فاطمة بضعة مني ونور عيني وثمرة فؤادي يسوءني ما ساءها ويسرني ما سرَّها وهي أول من يلحقني من أهل بيتي فأحسن إليها من بعدي، والحسن والحسين ابناي وريحانتاي وسيدا شباب أهل الجنة فليكونا عليك كسمعك وبصرك». وأضاف ابن عباس، إلى ذلك أن النبي(ص) رفع يديه إلى السماء، وقال: (اللهم إني أشهدُك أني محبٌّ لمن أحبهم

ومبغض لمن أبغضهم وسلم لمن سالمهم وحرب لمن حاربهم وعدو لمن عاداهم وولي لمن والاهم»[١٧١].

إن علي بن أبي طالب لا يحتاج لتعريفه بمكانة فاطمة والحسنين عند رسول الله، وإنما كان هدف الرسول (ص) أن تكون مثل تلك الوصية لعلي رسالة إلى الأمة الإسلامية، أيضاً في حفظ آل رسول الله (ص).

فهذا علي الذي كان يمثل نفس رسول الله، كما جاء في آية المباهلة، يوصيه أيضاً بالمحافظة على بضعته وسبطيه لإلقاء الحجة والبيِّنة على الأمة.

كان تعويد فاطمة على الصبر من قبل والدها، من أبرز الصفات التي تميزت بها لمواجهة شتى مصاعب الحياة التي تجرعتها في مواقف عديدة. روى الطبري عن عمران بن حصين مستوفي ولفظه قال: خرجت يوماً، فإذا برسول الله (ص) قائم فقال لي: «يا عمران ان فاطمة مريضة فهل لك أن تعودها؟ قال: قلت: فداك أبي وأمي، وأي شرف أشرف من هذا؟ قال فانطلق رسول الله (ص) وانطلقت معه حتى أتى الباب فقال: السلامُ عليكم أدخل؟ قالت: وعليكم السلام ادخل. فقال(ص) أنا ومن معي؟ قالت: والذي بعثك بالحق نبيّاً ما عليَّ إلا هذه العباءة. قال: ومع رسول الله (ص) ملاءة خلقة فرمى بها إليها. فقال شدي بها رأسك ففعلت ثم قالت: ادخل فدخل ودخلت معه، فقعد عند رأسها وقعدت قريباً منه فقال رسول الله «أي بنية كيف تجدينك؟» قالت: والله يا رسول الله إني لوجعة وإنَّه ليزيدني وجعاً إلى وجعي أني ليس عندي ما آكل. قال: فبكى رسول الله (ص) وبكت وبكيت معهما فقال لها: «أي بُنية تصبري» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال لها: «أي بنية أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين» قالت: «يا ليتها ماتت وأين مريم بنت عمران؟» قال لها: «أي بنية تلك سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك. والذي بعثني بالحق لقد زوجتك سيدا في الدنيا والآخرة لا يبغضه إلا منافق»[١٧٢].

ما يمكن أن يستنتج من هذا الحديث، أن رسول الله (ص) بين مكانتها وزوجها في الدنيا والآخرة، وأنه نصحها بالتحلي بالصبر حتى في حالة ندرة لقمة العيش. فتلك رسالته (ص) إلى الزوجات أيضاً عبر تعاقب الأجيال فهذا درس

تربـوي للمرأة من خـلال تعامله مع ابنتـه، فهي نموذجـه لكل نساء البشريـة منذ مبعثه إلى يـوم القيامة حيث خلقهـا بأخلاق النبوة العظيمـة. كذلك من العبر التي يمكن استنتـاجها من هـذا الحديث الكريم أنـه يوجـه رسالـة إلى الآباء من خـلال تعاملـه مع ابنتـه ويعطي درساً لهم في آداب الـزيارة وحرمـة بيت الـزوجية. والعبرة الأخيرة التي يمكن استنتاجها هي أنه يوجـه رسالة إلى الأمة في كيفية التعامل مع آل رسول الله في حياته وبعـد مماته، فها هو الرسـول الكريم والأب البار يجلُّ ابنته ذلك الإجـلال العظيم بشهادة عمـران راوي الحديث، فـالأحرى بأبنـاء الأمة ان يقتـدوا بنبيهم في طريقـة التعامل مع أهل البيت الـذين أذهب الله الرجس عنهـم وطهرهم تطهيرا، كما ورد في آية التطهير.

٨ ـ فاطمة الزهراء وحضور حجة الوداع:

كانت فـاطمة الزهراء ونسـاء رسول الله التسع قد أدين فريضـة الحج، مع رسول الله (ص) والكثير من المسلمين رجالاً ونساءً في السنة العـاشرة للهجرة. فبعد رحيل وفد نصـارى نجران الذي زار النبي من المدينـة إلى اليمن، بعث إليهم ابن عمه علي بن أبي طالب في شهر رمضان من العام نفسه ليقبض ما وقع عليه الصلح معهم.

وكانت أقاليم شبه الجزيرة العربية في تلك السنة، قد دخلت كلها ضمن الحدود السيـاسيـة لـدولـة النبـوة، وتم إبـلاغ جميع المسلمين في هــذه الاقـاليم. ، بعـزم الرسـول(ص) على أداء حجة الـوداع. فبلغ عدد الحجيـج ذكوراً وانـاثاً حـوالى مئة واربعة وعشرين الفاً في أغلب التقديرات.

ولحق علي ومن معـه بالنبي بمكـة في مطلع مـوسم الحج، وأدوا الفـريضة معـه وأشرك النبي علياً في هديه (١٧٣). وفي حجة الـوداع أزال رسول الله (ص) كل لبس وغموض فيما يتعلق بجميع أحكام الحج ومناسكه(١٧٤).

ويعتقـد أتبـاع مـدرسـة الإمـامـة أنـه بعـد أن أتم النبي (ص) والمسلمـون أداء الفريضة، وبلغهم وصـاياه للتمسك بالدين والتعاون كما أوصـاهم بالمرأة خيراً وفقاً للخطبـة التي ذكرت في المقـدمة، تـوجّه وجميع الحجـاج إلى المدينة حتى وصلـوا إلى منطقة يفترق فيها الحجيج، وهـي المعروفة بغدير خم، وذلـك في اليوم الثامن عشر

من ذي الحجة السنة العاشرة للهجرة(١٧٥) .

وهنـاك، نـزل عليـه أمين الـوحي جبرئيل بـآيـةٍ تتضمَّن أمـراً إلهيـاً مبـاشراً للرسول(ص) بتنصيب علي إماماً وخليفـة له على الأمة من بعده، كما تتضمن وعداً إلهيّا بحمايته من الناس إذا كان يخشى ذلك: **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس. . .﴾**(١٧٦) .

كان ذلك اليوم قـائظاً شديد الحر، فـورد أن أكثر الحاضرين كان يلف رداءه على قدميه من شدة الحر. فأمر بدوحات هناك فقّم ما تحتها، وأمر بجمع الرحال ووضع بعضها على بعض ثم أمـر مناديه فنـادى في الناس: الصـلاة جامعة فـاجتمعوا من رحالهم، فصعـد على تلك الرحال حتى صـار في ذروتها واصعد علياً معـه حتى قام عن يمينه ثم خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ فأبلغ في الموعظة ونعى إلى الأمة نفسه الشريفة وقال: «إني قـد دعيت ويوشك أن أجيب وقد حان مني خفوق من بين أظهركم وإني مخلف فيكم مـا إن تمسكتم به لن تضلوا من بعـدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

ثم نادى بأعلى صـوته: «ألست أولى بكم منكم بأنفسكم؟» قـالوا: اللهم بلى، فقال لهم على النسق وقد أخذ بضبعي علي فـرفعها حتى بان بياض ابطيهما: «فمن كنت مـولاه فهـذا علي مـولاه اللهم وال من والاه وعـاد مـن عـاداه وانصر من نصره وأخذل من خذله»(١٧٧) . ثم نـزل فصلى ركعتين، ثـم زالت الشمس، فصلى بهم صلاة الظهر وجلس في خيمته وأمر عليـاً أن يجلس في خيمة له بإزائه وأمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً يهنئونه بمقام الإمامة ويبايعونه بإمرة المؤمنين.

ففعل جميع الحاضرين ما أمـرهم الرسول (ص) في ذلك المشهـد العظيم، وكان يقول (ص) كلما أتى فـوج: «الحمد لله الذي فضلنـا على العالمين»(١٧٨) . وبعد أن فـرغ الرجـال أمـر الرسـول أزواجـه وسائر نسـاء المؤمنين ممن معـه أن يدخلن عليـه ويسلمن عليه بـامرة المؤمنين ففعلن ما أمـرن ولم يتخلف رجل أو امرأة عن المبـايعة ذلك اليوم لعلي بالإمامة وأمرة المؤمنين. وكان عمر بن الخطاب ممن غبط علياً بذلك المنصب فقـال فيما قـال: «بخ بخ لك يـا علي أصبحت مـولاي ومـولى كل مـؤمن

ومؤمنة»(١٧٩) . وقد استأذن حسان بن ثابت رسول الله في وصف ذلك المشهد فقال له رسول الله (ص) . «قل يا حسان على اسم الله» فوقف على نشز من الارض، واشرأبت أعناق المسلمين لسماع شعره فأنشأ يقول(١٨٠) .

يناديهم يوم الغدير نبيهم	بخم، واسمع بالرسول منادياً
وقال: فمن مولاكم ووليكم	فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا	ولن تجدن منا لك اليوم عاصياً
فقال له قم يا علي فإنني	رضيتك من بعدي إماما وهادياً
فمن كنت مولاه فهذا وليه	فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا اللهم وال وليه	وكن للذي عادى علياً معادياً

وبعد فراغ حسان من القاء الأبيات في وصف يوم الغدير، قال له رسول الله(ص) :

«لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك»(١٨١) .

وقد نزلت على رسول الله (ص) في غدير خم بعد تنصيبه علياً إماماً وخليفة للأمة من بعده هذه الآية :

﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾(١٨٢) فقال رسول الله (ص): (الله أكبر على إكمال الدين ورضى الرب برسالتي والولاية لعلي «ع»). وهذا التفسير يرويه اتباع مدرسة الإمامة عن العترة النبوية. ويوصف أهل البيت كما يقول ابن حجر بأربعة الفاظ : آل رسول الله، أهل البيت ذوو القربى والعترة(١٨٤) . لقد وصف الرسول في خطبته بغدير خم تركته في أمته الكتاب والعترة بالثقلين للأهمية العظمى لكل منهما في حياة الأمة لأن الرسول (ص) قد أكد على أن في التمسك بهما النجاة وفي مخالفتهما الهلاك(١٨٥) . فإذا كان القرآن والسنة هما مصدرا التشريع في الإسلام، ، فإن خير مؤتمن عليهما هم العترة لطهارتهم وعصمتهم كما ورد في آية التطهير ومكانتهم العظمى عند الله ورسوله كما ورد في آية المباهلة بالإضافة إلى أنهم أعلم الناس بتفسير القرآن والإحاطة الكاملة بالسنة النبوية .

ويؤكد على ذلك جميع الرواة وكتاب السيرة من مدرستي الإمامة والخلافة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن وصيته (ص) بالثقلين قد وردت أيضاً في خطبته يوم عيد الأضحى بمنى[١٨٦]. أما عن حديث الولاية لعلي يوم غديرخم، فجاء في قوله تعالى: ﴿وقفوهم انهم مسؤولون﴾[١٨٧] حيث أخرج الديلمي عن أبي سعيد الخدري أن النبي (ص) قال: «وقفوهم انهم مسؤولون عن ولاية علي»[١٨٨] ويذكر ابن حجر: «وكأن هذا هو مراد الواحدي بقوله: روي في قولة تعالى: وقفوهم انهم مسؤولون عن ولايـة علي وأهل البيت، لأن الله أمر نبيـه (ص) أن يعرف الخلق أنـه لا يسألهم عن تبليغ الرسالة أجـرا إلا المودة في القربى، المعنى أنهم يسألون هل والوهم حق الموالاة كما أوصاهم النبي (ص) أم أضاعوا الوصية وأهملوها فتكون عليهم المطالبة، والتبعة»[١٨٩].

وقد ذكر حديث الثقلين والموالاة غالبية الرواة وكتاب السيرة من اتباع مدرسة الخلافة مثل، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الذي كتب في حديث الغدير مجلدين تناول فيهما بالشرح والتحليل كل ما يتعلق بهذا الموضوع بالإضافة إلى الإمام أحمد حنبل في مسندة والنسائى في سننه، وابن ماجه وابن حجر في صواعقه وابن كثير في تاريخه والحاكم في المستدرك، والذهبي في تلخيص المستدرك والسيرة الحلبية وغيرها. ويمكن القول إن تناول موضوع الغدير والوصية ليس من مهمات هذا البحث، ولذلك يمكن الاكتفاء بهذا القدر فيما يتعلق بموضوع الغدير. ومن الجدير بالذكر أن أتباع مدرسة الإمامة يحتفلون بيوم الغدير وهو الثامن عشر من ذي الحجة في كل عام ليس فقط في العالم الإسلامي بل في أوساط أتباع مدرسة الإمامة في جميع أرجاء المعمورة حيث تقام المآدب والمهرجانات الأدبية يتحدثون فيها عن أمجاد الأمة الإسلامية ودور أهل البيت في توطيد دعائم الإسلام والدعوة لانتهاج سبيلهم لإعادة أمجاد الأمة.

إن السيدة فاطمة الزهراء واحدة من المجتمع النسائي المسلم اللاتى شهدن يوم الغدير، وشاركت النساء المسلمات في المبايعة لعلي بإمرة المؤمنين، لقد فرحت بانتصار الإسلام ورأت عشرات الآلاف وهم يلهجون بذكر الله والتلبية في مكة انه

انتصـار ونجـاح لنبـوة والـدهـا وجهـوده وتضحيـات المسلمين بما يملكـون، وفي مقدمتهم المهـاجرون والأنصار. انه ثمرة لجهـاد دام ثلاثة وعشرين عامـاً، وها هي تعود إلى المدينة عزيزة بعز الإسلام، فرحة بنجاح والدها بتأمين مستقبل الدين والأمة بتنصيب ابن عمها إماماً وهادياً للأمة بعد والدها.

وصار المسلمـون يلقبون علياً وصي رسول الله (ص) منذ ذلـك اليوم وحتى فترة إمارتـه يوم آلت إليه امـرة المؤمنين بعد ربع قرن من وفـاة رسول الله (ص) كما يتضح ذلك من روايات الصحابة وأشعارهم[١٩٠].

ومن الأمثلـة على ذلك كما ينقل ابن أبي الحديـد مخاطبة أبـو الهيثم بن التيهـان ـ وكان بدريا ـ لبعض قادة حرب الجمل بقوله[١٩١].

قل للـزبير، وقلْ لطلحـة اننـا ... نحن الـذين شعـارنـا الأنصـار

نحن الـذين رأت قـريش أننـا ... يـوم القليب أولئـك الكفـار

كنـا شعـار نبينـا ودثـاره ... يفـديـه منـا الـروح والابصـار

ان الـوصي امـامنـا وولينـا ... بـرح الخفـاء وبـاحت الأسرار

٩ ـ حضور الزهراء مرض أبيها (ص) ووفاته:

تزامن مـرض الرسول (ص) مع الإعـداد العسكري لغزو الـروم، وذلك في شهر صفـر من السنة الحاديـة عشرة للهجرة، حيث أمـر جميع المسلمين بالخروج للقتـال بقيادة اسامة بن زيـد بن حارثة حيث عقد الرسول (ص) لأسامـة اللواء بيده فخرج وعسكر بالجرف خـارج المدينة، ليكون مكاناً للتجمع والانطلاق، وكـان أسامة في أول شبابه ولما طعن بعض المسلمين في إمارته تأذى رسول الله من ذلك وقال (ص): «ان تطعنوا في امارته فقد كنتم تطعنـون في إمارة أبيه من قبل وإيم الله إن كان خليقاً لـلإمارة وان كـان لمن أحبّ الناس إليّ وانّ هـذا لمن أحبّ الناس إليّ بعـده»[١٩٢]. وحينما رأى الرسـول (ص) تردد بعض المسلمين عن الخروج وتجهيز جيش أسـامة، صـار يذهب إلى المسجـد عـدة مرات، وهـو معصب الـرأس لشـدة الألم ويدعـو المسلمين من على منبره للتوجه إلى المعسكر للحاق بجيش أسامة. وهناك من يعتقد

أن الرسول (ص) أراد تفريغ المدينة كلية من وجهاء الأنصار والمهاجرين ليوفر المناخ الأمني الملائم لانتقال السلطة سلمياً ويمنع حدوث صراع السلطة بعد وفاته أو حدوث تغيير [١٩٣] . وكانت فاطمة الزهراء قد رأت والدها (ص)، قبيل مرضه يكثر زيارة القبور في البقيع وشهداء أحد ويستغفر لهم، بعد أن يسلم عليهم ويخاطبهم بكلمات تشعر بدنو أجله[١٩٤] وكان الرسول (ص) قد بدأ به المرض في بيت زوجته أم سلمة ثم استأذن زوجاته أن يمرض في بيت عائشة كما ينقل عنها[١٩٥].

ولازمت فاطمة وعلي والعباس بن عبد المطلب الرسول (ص)، طوال مرضه في بيت عائشة وحتى وفاته. وقد شاهدت معاناة والدها في مرضه وسمعت من أبيها ما قاله لأصحابه حينما كانوا يأتون لزيارته، فكانت تتألم كثيراً وتبكي لفراقه حينما سمعته ينعي نفسه لأصحابه ولأهله، فكان الرسول (ص) يهون عليها ويأمرها بتحلي الصبر. فكانت، على الرغم من احساسها بألم الفراق ولوعته، إلا أنها كانت تتجلد وتصبر ولا تبدى ما في نفسها لأحد. وخاطب الرسول (ص) المسلمين في المسجد، وهو في مرضه وطلب منهم براءة ذمته كما عرض نفسه عليهم، لكي يقتص منه أي انسان لحقته منه ظلامة. وكذلك خطبهم في بيت زوجته عائشة وأخبرهم بدنوّ أجله والزهراء تسمعه[١٩٦] فأيقنت بنهاية أيامه وكذلك نهاية أيامها كما أخبرها بذلك فيزداد ألمها لفراقة وحرمانها وأطفالها من حنانه وحبه العظيم، الذي لا يمكن أن يعوض وغالباً ما كانت الزهراء مع ولديها الحسن والحسين يحيطون برسول الله (ص) خلال مرضه لأنه لا يطيق فراقهم[١٩٧] وفي يوم الخميس قبيل وفاة الرسول حيث اشتد به الألم فكان يغمى عليه مرة ويفيق أخرى طلب من الحضور أن يؤتى إليه بدواة وكتف ليكتب كتاباً يهتدي به المسلمون بعد موته، فحيل بينه وبين ما طلب، والزهراء تسمع وتنظر كلّ الذي حدث وكان النساء والأطفال والحاضرون يجهشون بالبكاء لما حل برسول الله من ألم المرض[١٩٨] . وقد سمى عبد الله بن عباس يوم الخميس بيوم الرزية لاختلاف الحاضرين على تمكين رسول الله (ص) من كتابة وصيته إلى الأمة لضمان وحدتها واستقامتها فعن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله(ص) وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي (ص): «هلموا أكتب

لكم كتاباً لن تضلوا بعده» فقال عمر: قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبكم كتاب الله. فاختلف الحاضرون(١٩٩) واختصموا فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم النبي (ص) كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله (ص) قوموا عني قال عبيد الله فكان ابن عباس يقول: «إن الرزيَّة كل الرزية ما حال بين رسول الله (ص) وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم» (٢٠٠).

ورُويَ هذا الحديث بصيغ مختلفة إلا أن مضمونه واحد. فقد روى سعيد بن جبير قال ان ابن عباس رحمه الله يقول يوم الخميس وما يوم الخميس ثم يبكي حتى تبلَّ دموعه الحصباء فقلنا وما يوم الخميس؟ قال: اشتد برسول الله (ص) وجعه فقال ائتوني باللوح والدواة، أو قال بالكتف والدواة أكتب لكم مالا تضلون بعدي فتنازعوا، فقال اخرجوا ولا ينبغي عند نبي أن يتنازع قالوا ما شأنه اهجر استفهموه فذهبوا يعيدون عليه فقال: «دعوني فما أنا فيه خير مما تدعوني إليه»(٢٠١).

وروى ابن حجر أيضاً ان رسول الله (ص) قال في مرض موته دون تحديد للمكان، ويحتمل أن يكون المسجد: «أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي وقد قدمت إليكم القول معذرةً إليكم ألا اني مخلِّف فيكم كتاب ربي عزَّ وجل وعترتي أهل بيتي، ثم أخذ بيد علي فرفعها فقال هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض فأسألهما ما خُلِّفتُ فيهما»(٢٠٢).

وكان رسول الله (ص) قد قال في علي أحاديث كثيرة تبين مكانته عند الله، لتفانيه في سبيل الله ليس هذا موضعها، ويكتفي المؤلف منها بالحديث الذي يرويه ابن حجر قال: «اخرج أبو نعيم وابن عساكر عن أبي ليلى« أن رسول الله (ص) قال: «الصديقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل يس فقال يا قوم اتبعوا المرسلين، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال اتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم»(٢٠٣) لقد عاشت فاطمة الزهراء كل هذه الأحداث وسمعت الكثير مما قاله الرسول (ص) في مكانة ابن عمها علي (ص) وعرفت توجهات بعض وجهاء المسلمين تجاه المستقبل السياسي لدولة النبوة من خلال المواقف التي حضرتها فهناك جيش على أبواب المدينة وقد تقاعس بعض المسلمين عن الإنصياع لأمر الرسول

والالتحاق بـه . وها هو الـرسول يخذله المسلمـون في بيته ويحولون بينـه وبين تدوين كتـاب يتعلق بمصلحة دولـة النبوة ومستقبلهـا نتيجـة الاختلاف ، وهـا هو القـرآن الكريم يتنبأ بانقلاب المسلمين على أعقابهم بعد موت رسول الله (ص) لقوله تعالى :

﴿ومـا محمد إلا رسـول قد خلت من قبلـه الرسل أفإن مـات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾[٢٠٤] .

ومات رسـول الله (ص) بكمده وهو يرى بـوادر اختلاف الأمة ، وكـان ذلك يوم الاثنين قيل في صفر وقيل في ربيع الأول في السنة الحادية عشرة للهجرة . وتولى غسله بناء على وصية منه علي بن أبي طالب وساعده كل من الفضل بن العباس وأسامة بن زيد كما قام علي بتكفينه[٢٠٥] .

وعاد أسامة بن زيد حينما ثقل رسول الله ثم عاد من معه إلى المدينة دون تحقيق ما أراده الرسول (ص)[٢٠٦] . وكـان علي بن أبي طـالب أقـرب الناس عهـدا بـرسـول الله(ص) كما روت ذلك زوجتاه عائشة وام سلمة .

روى الطبري عن أم سلمة (ر) قالت : «والذي أحلف ان كان علي لأقرب الناس عهدا برسول الله (ص) قالت : عدنا رسول الله (ص) غداة بعد غداة يقول جاء علي وأظنه كان بعثـه في حاجة فجاء بعد فظننت أن لـه حاجة فخرجنـا من البيت قعدنا عنـد البـاب فكنت من أدنـاهم إلى الباب فـأكبّ عليه فجعـل يساره ويـنـاجيـه ثم قبض(ص) يومه ذلك فكان أقرب الناس به عهدا»[٢٠٧] يتضح من خلال حديث أم سلمة وكذلك من حديث عائشة المماثل مـدى تعلق الرسول (ص) بابن عمه فكان حريصاً على ان يكون بجانبه قبل أن يحين الفراق حتى يتمكن من تزويده بما بقي من الوصايا والأسرار التي تتعلق بإمامته ودوره المناط به في الأمة . كان ابن عباس يلقب بحبر الأمة لمكانته العلمية المرموقة ، فلماذا كانت تسيل دموعه على خديه كأنها اللؤلؤ المنظوم حينما يتذكر يوم الخميس الذي سماه «يوم الرزية» ، ألأن الحاضرين حالوا بين الرسول وبين تثبيت بيعة الغدير في كتاب لتكـون ثابتة في أعناق الأمة إلى يوم القيامة وليكون وثيقـة تاريخية ضـد من تسول لـه نفسه التطاول على عهـد رسول الله (ص) للأمة .

إن أحاديث الرسول (ص) التي توضح مكانة علي والمهام العظيمة التي قام بها لخدمة الإسلام بشهادة الرسول (ص) كلها تجعله مؤهلاً لقيادة الأمة و إذا كانت تلك الأحاديث المدونة في حق علي كلها صحيحة فإن التطاول على علي وحقه في الخلافة تطاول على الله ورسوله والأمة الإسلامية.

ومما قاله الإمام علي وهو يلي غسل رسول الله وتجهيزه كما أمره: «بأبي أنت وأمي، يا رسول الله لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء. وخُصِصْت حتى صرت مسليا عمن سواك. وعممْتَ حتى صار الناس فيك سواء. ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفذنا عليك ماء الشؤن. ولكان الداء مماطلاً والكمدُ محالفاً. وقلاّ لك ولكنه مالا يملك رده. ولا يستطاعُ دفعه. بأبي أنت وأمي اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك»[٢٠٨] انها كلمات تأبينية بليغة تصدر من قلب يفيض حباً وولاء وطاعة وإيماناً وحزناً عميقاً، كما تعبر هذه الكلمات عن حجم الرزية التي عمت آل رسول الله بشكل خاص والأمة الإسلامية بشكل عام، وصلى المسلمون على رسول الله (ص) بدون امام: الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد أفواجاً، أفواجاً وسبق علي الجميع بالصلاة عليه ودفنه في بيته ـ وهو المكان الذي قبض فيه منتصف ليلة الاربعاء ونزل في قبره علي والفضل ووالده، العباس بن عبد المطلب وأسامة بن زيد[٢٠٩].

١٠ ـ فاطمة الزهراء وموت أبيها:

حينما توفي الرسول (ص) كانت فاطمة قد أذهلتها المصيبة فتارة يغشى عليها من شدة البكاء والحزن، وتارة تفيق حتى تم دفن أبيها في قبره. ثم تحاملت نفسها إلى القبر ومشت والقت بنفسها على قبر حبيبها وعزها فأغشي عليها. ولما أفاقت أخذت حفنة من تراب القبر وأدنتها من عينيها اللتين قرَّحها البكاء، كما روى البخاري وراحت تشمها وتقول:

ماذا على من شم تربة أحمد	ألا يشم مدى الزمان غواليا
صبت عليّ مصائب لو أنها	صبت على الأيام عدن لياليا

وقد تأثر المسلمون لبكائها رجالاً ونساء، وشاركوها أحزانها، وهم يشاهدونها

تقلب تربة قبر أبيها بيديها وتشمّها وتقول:

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها — وغاب مذ غبت عنّا الوحي والكتب

فليت قبلك كان الموت صادفنا — لما نعيت وحالت دونك الكثب

ثم التفتت إلى أنس بن مالك قائلة: «يا أنس، كيف طابت نفوسكم أن تحثوا التراب على رسول الله؟»[٢١٠]. ومن الألفاظ التي اشتهرت بها فاطمة بندب أبيها يوم موته، وبعد ذلك اليوم:

«يا أبتاه، جنة الخلد مثواه يا أبتاه عند ذي العرش مأواه يا أبتاه كان جبرائيل يغشاه يا أبتاه لستُ بعد اليوم أراه»[٢١١].

ومما يثبت عظم فاجعة فاطمة الزهراء بفقد رسول الله أنها لم تر ضاحكة طوال حياتها بعده وهي حياة تتجاوز الأيام كما جاء في رواية الإمام الصادق (ع)[٢١٢]. وجاء عن الإمام علي (ع) أنه قال: «لقد غسلت النبي في قميصه فكانت فاطمة تقول لي: أرني القميص يا أبا الحسن، فإذا أريتها إياه أخذته وشمته وبكت حتى يغشى عليها، فلما رأيت منها ذلك غيبته عنها»[٢١٣].

وحدث ابن شهر أشوب عن حزنها البالغ في مناقبه قائلاً:

«انها ما زالت بعد أبيها معصبة الرأس ناحلة الجسم، منهدة الركن باكية العين محترقة القلب يغشى عليها ساعة بعد ساعة، وتقول لولديها: «أين أبوكما الذي كان يكرِّمكما ويحملكما، أين أبوكما الذي كان من أشد الناس حباً لكما وشفقة عليكما».

ولا تزال تعدد معاملته الحنونة لهما ومواقفه منهما حتى يغشى عليها[٢١٤]... واستمر حزن فاطمة الزهراء وبكاؤها على فراق أبيها حتى تأذى منها أهل المدينة، وقالوا لها: «لقد آذيتنا بكثرة بكائك» فاضطرت للخروج إلى المقابر في البقيع، فتجلس حتى تقضي وطرها من البكاء، ثم تعود إلى بيتها كما روى الصدوق في أماليه عن الإمام الصادق (ع)[٢١٥]. وروى أنها تضررت من حرارة الشمس فبنى لها الإمام علي بيتاً في البقيع كانت تأوي إليه في ساعات من الليل والنهار تبكي أباها فيه سمِّي بيت الأحزان، مصحوبة ببعض النسوة[٢١٦].

ومما ضاعف من أحزانها بعد وفاة أبيها موقف سلطة الخلافة، بشكل خاص والمسلمين بشكل عام من آل رسول الله، لما لحقهم من الظلم والجور وتربة قبر الرسول لم تجف بعد فكانت ترثي والدها كما جاء في مناقب ابن شهر اشوب وتبثه أحزانها، بل وتعبر من خلال هذه الأبيات عن الضيم والظلم الذي لحقها قائلة: (٢١٧)

قل للمغيب تحت أطباق الثرى	إن كنت تسمع صرختي وندائياً
صبت علي مصائب لو أنها	صبت على الأيام عدن لياليا
قد كنت ذات حمى بظل محمد	لا أختشى ضيما وكان جماليا
فاليوم أخشع للذليل واتقي	ضيمي وأدفع ظالمي بردائيا
فإذا بكت قمرية في ليلها	شجنا على غصن بكيت صباحيا
فلأجعلن الحزن بعدك مؤنسي	ولأجعلن الدمع فيك وشاحيا
ماذا على من شم تربة أحمد	أن لا يشم، مدى الزمان، غواليا

كذلك أورد أحمد زيني دحلان في السيرة النبوية، هذه الأبيات لفاطمة الزهراء، وهي ترثى الراحل العظيم بقولها(٢١٨).

اغبر آفاق السماء وكوّرت	شمس النهار وأظلم العصران
والأرض من بعد النبي، كئيبة	أسفاً عليه وكثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربه	وليبكه مضر وكل يماني

وجاء في مناقب ابن شهر اشوب، أيضاً من رثاء الزهراء البيتين التاليين اللذين ينسبهما أحمد بن زيني دحلان في السيرة النبوية، لحسان بن ثابت(٢١٩).

كنت السَّواد لناظري	فعليك يبكي الناظرُ
من شاء بعدك فليمت	فعليك كنتُ أحاذر

وجاء في رواية الصدوق لما قبض النبي (ص) امتنع بلال من الأذان، وقال: «لا أؤذن بعد رسول الله (ص)». فقالت فاطمة ذات يوم: «إني أشتهي أن أسمع صوت بلال مؤذن أبي، فأخذ في الأذان فلما قال: الله أكبر ذكرت أباها وأيامه ولم تتمالك

نفسها عن البكاء فلما قال أشهد أن محمداً رسول الله شهقت وسقطت لوجهها وغشى عليها. فقال الناس: «أمسك عن الأذان يا بلال فإن ابنة رسول الله قد فارقت الدنيا» فلما أفاقت من غشوتها سألته أن يتم الأذان فلم يفعل وقال لها: يا سيدة النساء إني أخشى عليك مما تنزلينه بنفسك إذا سمعت صوتي»، فأعفته من ذلك[٢٢٠].

ويتضح مما سبق أن فاطمة الزهراء كانت متعلقة بوالدها منذ سنوات طفولتها الأولى، لفقدانها أمها فأصبح يمثل كل آمالها وحياتها على الرغم من زواجها وإنجابها خيرة النسل البشري. وتتحدث الزهراء عن المصائب التي لحقت العترة من سلطة الخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة.

١١ ـ فاطمة الزهراء وسلطة الخلافة:

قال الله تعالى مخاطباً المسلمين بالأمر: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم...**﴾[٢٢١] لماذا لم يستجب المسلمون وخاصة وجهاؤهم امثال ابي بكر الصديق، عمر بن الخطاب، سعد بن أبي وقاص، أبي عبيدة بن الجراح وغيرهم لدعوة الرسول في اللّحاق بجيش أسامة؟

لماذا حال الحاضرون عند رسول الله، يوم الرزية بينه وبين كتابة عهده للأمة؟ وما هي أبعاد التنبؤ القرآني بالإنقلاب بعد وفاة الرسول؟ لماذا وجه الرسول (ص) إلى علي السؤال التالي الذي ورد في هذا الحديث؟.

روى الطبري، عن علي بن أبي طالب قال رسول الله (ص): «كيف أنت إذا زهد الناس في الآخرة ورغبوا في الدنيا، وأكلوا التراث أكلا لمّا وأحبوا المال حباً جمّاً واتخذوا دين الله دغلا، ومال الله دولا؟ قلت أتركهم وما اختاروا وأختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأصبر على مصائب الدنيا وتقواها حتى ألحق بك ان شاء الله تعالى»

قال: «صدقت، اللهم افعل ذلك به»[٢٢٢].

لماذا تنبأ الرسول (ص) بالتشريد والمطاردة والبلاء لأهل بيته؟ روى ابن حجر أن رسول الله (ص) رأى فتية من بني هاشم فاغرورقت عيناه، وتغير لونه ثم قال: «إنا

أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءاً وتشريداً وتطريداً»(٢٢٣).

لماذا أخبر الرسول (ص) المسلمين بارتداد جماعة من أصحابه واقدامهم على التغيير؟ وما هو هذا التغيير أو الإحداث الذي يقصده؟ كما جاء في الحديث التالي الذي ورد بصيغ مختلفة ومضمون واحد. روى البخاري عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: خطب رسول الله (ص) فقال: «يا أيها الناس انكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا» ثم قال: ﴿ . . . **كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين**﴾(٢٢٤) ثم قال: ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وانه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول يا ربّ أصحابي فيقال انك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ **ما دمتُ فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم** . . ﴾(٢٢٥) فقال: «ان هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»(٢٢٦).

من هم المرتدون على أعقابهم منذ أن فارقهم الرسول (ص)؟ وهذا أحد أصحاب الرسول (ص) وواحد من الذين رووا الكثير من الأحاديث عن رسول الله يعترف بالاحداث كما في الحديث التالي، فما هو هذا الإحداث؟

روى البخاري عن العلاء بن المسيب، عن أبيه قال:

«لقيت البراء بن عازب، فقلت: طوبى لك صحبت رسول الله (ص) وبايعته تحت الشجرة. فقال: يا ابن أخي إنك لا تدري ما أحدثنا بعده»(٢٢٧).

إن الإجابة على جميع هذه الأسئلة يمكن معرفتها بشكل تفصيلي في دراسة مستقلة ستصدر للمؤلف لاحقاً، وسيكتفي هنا، بتوضيح الإجابة على تلك الأسئلة بشكل مختصر.

إن ظهور سلطة الخلافة كقيادة للأمة الإسلامية، في دولة النبوة بعد رحيل النبي(ص)، والمتمثلة في شخصية الصحابيين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب والتي تمخّضت عن اجتماع السقيفة والرسول (ص) لم يقبر بعد ان سلطة الخلافة هذه ليست وليدة السقيفة وإنما كانت السقيفة محطة أو معبراً فهي وليدة تخطيط مسبق.

ومن العـلامات البـارزة للعيان ذلك التخطيط المسبق وآيـة الإنقلاب وحـديث الإنقلاب وتجاهل دعوة الرسول للالتحاق بجيش أسامة وتوجهه إلى بلاد الروم ويوم الـرزية وتـرتب على ذلك كلّه تـوديع الـرسول (ص) للـدنيا، وهـو كسير القلب لما سيحدث لأمته من تمزق ولشريعته من تشويه حيث عاش الإرهاصات بشكل جلي.

١٢ ـ سلطة الخلافة:

بعد أن علم الأنصار بموت الرسول اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة[٢٢٨]. وكان الأوس والخزرج أكبر تجمعين قبليين لـلأنصـار فحضروا ذلك الاجتماع وكـان رئيس الخزرج سعد بن عبادة بن ديلم بن حـارثة الخزرجي، وأسيد بن خضير الاوسي زعيم الأوس وتحاوروا في مسألـة الخلافـة ومن أحق بها المهـاجـرون أم الأنصـار فيما بينهم وقدوم بعض وجوه المهاجرين إلى ذلك الاجتماع وهم أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح.

وقد تمَّت لأبي بكـر، كان عمر بن الخطـاب هو بطل السقيفة الـذي حسم الأمر بسرعة لصالح المهاجرين قبل أن يستأثر بـه الانصار فكان أول المبايعين، ولحقه أبو عبيدة ثم بشير بن سعد الخزرجي. ثم تبعهم الباقون، غير أن سعد بن عبادة الذي كان مريضاً ذلك اليوم لم يبايع وقاطع سلطة الخلافة[٢٢٩]. ولعمر بن الخطاب مقولة بشأن الطـريقة التي تمت بها بيعـة أبي بكر قـالها في فترة خلافتـه: «إن بيعة أبي بكـر كانت فلتة وقى الله شرها فمن عاد (أو فمن دعاكم) إلى مثلها فاقتلوه»[٢٣٠] وكانت المعايير التي اعتمـدها عمر، في تقـديم أبي بكر ومبـايعته للخلافـة السنّ والأسبقيّة للإسلام وصحبة الرسول في الغار عند الهجرة.

ورُوي أنه لما ولي أبو بكـر الخلافة كان أبوه أبـو قحافة بالطـائف. فلما بويع لأبي بكر كتب لأبيـه كتاباً، عنوانه: مـن خليفة رسول الله (ص) إلى أبيه أبي قحـافة. أما بعد، فإن الناس قـد تراضوا بي فاني اليوم خليفة الله، فلو قـدمت علينا كان أحسن بك. فلما قرأ أبـو قحافة الكتاب، قـال للرسول: «ما منعكم عن علي؟» قـال: هو حدث السن وقد أكثر القتل في قريش وغيرها، وأبو بكر أسن منه قال أبو قحافة إن كان الأمـر في ذلك بالسن فأنـا أحق من أبي بكر، لقـد ظلموا علياً حقـه وقد بـايعه

النبي(ص) وأمرنـا ببيعته ، ثم كتب من أبي قحـافة إلى أبي بكر أمـا بعد ، فقـد أتاني كتابك فوجـدته كتاباً أحمق ينقض بعضـه بعضا ، مرة تقول خليفـة رسول الله . ومرة تقول خليفة الله ومـرة تقول تراضوا بي النـاس ، وهو أمر ملتبس فلا تـدخلن في أمر يصعب عليك الخروج منه غداً وتكون عقباك منه إلى النـدامة وملامة النفس اللوامة لدى الحسـاب يوم القيـامة ، فإن للأمـور مداخل ومخارج وأنت تعرف من هو أولى منك ، فراقب الله كأنك تراه ولا تدعن صاحبها ، فإن تركها اليوم أحق عليك وأسلم لك»[٢٣١] وكان أبو قحافة في ذلك الوقت منقطعاً في بيته مكفوفاً عاجزاً عن الحركة ، وتوفي في عهد عمر سنة ١٤ هـ وسنّه سبع وتسعون سنة[٢٣٢] . أما عمر بن الخطاب فقد أوضح خـلال الخلافة لابن عباس : «إن أولى النـاس بالأمر بعد رسـول الله هو علي ، إلا اننا خفناه على اثنتين : حداثة سنة وحبه بنى عبد المطلب»[٢٣٣] وكان عمر علي عند وفاة الرسول (ص) ثلاثا وثلاثين سنة ، كما تشير إلى ذلك أغلب الروايات . كما روى الثقفي والسدى أن عمر قال :

«إن النبوة والإمامة لا تجتمعان في بيت واحد»[٢٣٤] . ومع أن غالبية مجتمع المدينة بايعت ابا بكر، إلا أن حركة معارضة علنية حدثت لسلطة الخلافة بالمدينة قادتها ثلة من كبار الصحابـة . ستة من المهاجرين هم : خالـد بن سعيد بن العاص ، سلمان الفارسي ، أبـو ذر الغفاري ، المقـداد بن الأسود الكنـدي ، عمار ابن ياسر ، وبـريدة الأسلمي . ومن الأنصار قيس بن سعـد بن عبادة ، أبو الهيثم بن التيهان ، خـزيمة ابن ثابت ذو الشهادتين ، أبي بن كعب ، سهل بن حنيف ، وأبـو أيوب الأنصاري ، فهؤلاء الاثنا عشر صحابيـاً امتنعوا عن البيعة[٢٣٥] وبدأت اتصالات حركة المعارضة منذ مساء اليوم الذي توفى فيه الرسول (ص) .

إلا أن المواجهـة العلنية الخطـابية مع سلطـة الخلافـة ، ، تأخرت لغيـاب بعض شخصياتها خارج المدينة مثل بريدة الأسلمي وخالد بن سعيد بن العاص[٢٣٦] .

ولذلك حينما علم الخليفة أبو بكر وعمر بن الخطاب بهذا التحرك أرادوا محاصرته واحتواءه بسرعة ، فتشاوروا مع أبي عبيدة بـن الجراح والمغيرة بن شعبة ، وهؤلاء كانوا جميعهم يمثلـون أركان السلطة ، في الليلـة نفسها ، والتقـوا العباس بن عبـد المطلب

حيث عرضوا استمالته إليهم، وأغروه بإشراكه وعقبه في السلطة، ولكنّه امتنع من التعاون معهم(٢٣٧).

١٣ ـ سلطة الخلافة والعترة:

استشار رجال المعارضة من المهاجرين والأنصار علياً فيما يأمرهم بفعله لاعتقادهم بحقه في الخلافة واستنكارهم لما تم في سقيفة بني ساعدة. فأوضح إليهم ما أوعز إليه رسول الله (ص) من غدر الأمة وانقلابها بعده وتكليفه بالجهاد إذا توفر الناصر، وبالكف في حال الخذلان.

وبين الإمام علي لرموز المعارضة أنه اصطحب زوجته وولديه ليلاً ومرّ بهم على بيوت البدريين، وذلك بعد دفنه رسول الله (ص) لإلقاء الحجة على الناس وتنفيذاً لأمر الرسول (ص)، قال: «فما أجابني إلا أربعة وهم: المقداد، سلمان، أبو ذر الغفاري، وعمار»(٢٣٨).

وأخيراً أشار عليهم الإمام علي بالألتقاء بأبي بكر بأجمعهم وتعريفه ما سمعوه من رسول الله (ص) لتأكيد الحجة عليه، فذهبوا إلى المسجد فأحدقوا بالمنبر، وكان يوم جمعة. فلما صعد أبو بكر المنبر بدأ فريق المهاجرين الحوار مع أبي بكر، وكان أول المتحدثين خالد بن سعيد بن العاص، وقد ذكّر رجال المعارضة أبا بكر في كلماتهم بجميع الأحاديث والآيات والمقامات التي نصت على مكانة العترة، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب(٢٣٩).

ويقول راوي الخبر، عن الإمام الصادق (ع)، ابان بن تغلب:

وأفحم أبو بكر على المنبر فأنزله عمر، وقال له: «يا لكع، إذا كنت لا تقوم بحجة فلم أقمت نفسك هذا المقام؟ والله لقد هممت أن أخلعك وأجعلها في سالم مولى حذيفة، وانطلقا فلم يدخلا مسجد رسول الله (ص) إلا بعد ثلاثة ايام(٢٤٠).
وفي اليوم الرابع، حضر رجال سلطة الخلافة بأجمعهم يحرسهم أربعة آلاف سيف في مقدمتهم عمر وخالد بن الوليد وسالم مولى حذيفة ومعاذ بن جبل فدخلوا المسجد شاهرين السيوف، فقال عمر: «والله، ياصحابة علي، لئن ذهب الرجل منكم يتكلم بالذي تكلم به بالأمس، لنأخذن الذي فيه عيناه»(٢٤١).

وكـان جميع الممتنعين عن البيعـة بـالمسجـد، وهـم علي والهاشميين وجماعـة المعارضة ـ الاثني عشر ـ وأوشكت أن تحدث مواجهة بين الفريقين لـولا أن تداركها علي فصرف أصحابه من المسجد، وقـال: والله لا أدخل إلا لزيارة رسول الله (ص) أو لقضيـة أقضيها، فإنـه لا يجوز لحجـة أقامـه رسول الله (ص) ان يترك النـاس في حيرة»[٢٤٢].

ونتيجة لتأخر علي عن البيعـة مع بني هاشم وباقي المعارضين فـان رجال سلطة الخلافة رأوا أن استمرار ذلك الوضع يشكل خطراً على كيانها السياسي الوليد خاصة لما يتمتع به المعارضون للبيعة مع قلتهم من مكـانة في المجتمع الإسلامي آنذاك سواء داخل المدينة أم خارجهـا ولذلك قررّوا الالحاح على علي للمبايعـة، خاصة وأن بيت علي صار ملتقى للمعارضين لسلطـة الخلافة فصاروا يبعثون الرسل إليـه يحثونه على المبايعـة، ويحدث ابن أبي الحديد عن غسان بن عبد الحميـد في شأن الحاح السلطة على مبايعة علي قائلاً: «لما أكثر في تخلف علي (ع) عن بيعـة أبي بكر واشتد أبو بكر وعمر عليـه في ذلك خرجت أم مسطح بن أثـاثة، فـوقفت عند قبر الـرسول (ص) وقالت:[٢٤٣].

كـانـت أمـور وأنبـاء وهنبثـة	لو كنت شاهـدها لم تكثر الخطب
انـا فقـدنـاك فقـد الأرض وابلهـا	واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

وكان علي قد اعتكف في بيته بعد أن خذله مجتمع المدينة وتفرغ لجمع القرآن وفقاً لـوصية الـرسـول (ص) حيث أخبره النبي بكل مـا يجري عليه وعلى العترة بحضـور زوجته والحسنين[٢٤٤].

وذهب عمر بن الخطاب مع جماعة فيهم خالد بن الوليد وقنفذ بن عمر وزيد بن أسلم وأسيد بن حضير وسلمة بن سـلامة إلى بيت علي فوجدوا البـاب مغلقاً فنادوا علياً للخـروج للبيعة فلم يجبهم أحـد فهدَّدهم عمـر بحرق البيت قـائلاً: «والذي نفسي بيده لتخرجن إلى البيعة أو لأحرقن البيت عليكم»[٢٤٥] وإلى هذا التهديد لبيت العترة بالحرق يشير شاعر النيل في ديوانه قائلاً:[٢٤٦]

وقـــولـــة لعلي قـــالها عمـــر	أكـرم بسـامعهـا أعظم بملقيهـا
حـــرّقت دارك لا أبقي عليك بها	إن لم تبايع، وبنت المصطفى فيها

مـا كان غيرُ أبي حفص يفـوهُ بها   أمـام فـارس عـدنـان وحـاميهـا

فلما سمعت فاطمـة الزهراء ذلك وهي لا تـزال مهدودة الأركان لمصاب والـدها خرجت فوقفت على الباب، ثم قالت:

«لا عهد لي بقـوم أسوأ محضرا منكم، تركتـم رسول الله جنازة بين أيـدينا وقطعتم أمركم فيما بينكم، فلم تؤمرونا، ولم تروا لنا حقنـا، كأنكم لم تعلموا ما قال يوم غدير خم؟! والله، لقد عقد لـه يومئذ الولاء ليقطع منكم بـذلك الرجاء، ولكنكم قطعتم الأسباب بينكم وبين نبيكم، والله حسيب بيننا وبينكم في الدنيا والآخرة»(٢٤٧).

ولما فتحت فـاطمة الـزهراء الباب دفعـه عمر فـاختفت وراء البـاب كما جاء في الرواية: «فعصهـا بالباب، فكان ذلك سبب اسقاطها ودلل انـه كان سبب موتها، ودخلوا فـوثبوا على أمير المؤمنين عليه السـلام فأخرجوه عنفـاً فحالت فاطمـة عليها السـلام بينهم وبينه وقـالت والله، لا أدعكم تخرجـون بابن عمي ظلماً، ويلكم مـا أسرع ما خنتم الله ورسوله فينا، فأمر عمـر بن الخطاب قنفذ بن عمر فضربها بسوط حتى أثّـر في جسمها وخـرجوا بعلي عليـه السلام يقـودونه إلى مجلس أبي بكـر إلى أن وصلوا بـه ثم عرضـوا عليه البيعـة له فامتنع فـوضعوا يـده قهراً في يـد أبي بكر فضم أصابعه فأرادوا فتحهـا فلم يمكنهم فمسح عليها أبو بكر وهي مضمومة وقـالوا انه بايع»(٢٤٨). وخرج من كان مع علي في الدار من الهاشميين ووجوه المهاجرين، مثل المقداد وسلمان وأبي ذر والزبير إلى أبي بكر حيث بايعوا كـرهاً. وهؤلاء هـم الوحيدون الذين بايعوا آخر الناس بـالمدينة بالإكراه لا بالرضا(٢٤٩). وعلى الرغم من هـول ما حدث ببيت العترة من قبل رجال السلطة لتعديهم على بيت آل رسول الله وترويعهم الأطفال والنسـاء وما حـدث للزهراء الا أنها خـرجت في طلب ابن عمها خـوفاً على حياته.

فقد رُوي عن الإمام الصادق (ع) أنـه قال: «لما استخرج أمير المؤمنين، صلوات الله عليه من منـزله، خرجت فاطمـة (ع) فما بقيت هاشمية إلا خـرجت معها حتى انتهت قريباً من القبر، فقالت: خلوا عن ابن عمي، فوالذي بعث محمداً بالحق لئن لم تخلـوا عنـه لأنشرن شعـري، ولأضعـن قميص رســول الله (ص) على رأسي،

ولأصرخن إلى الله تبارك وتعالى، فما ناقة صالح بأكرم على الله مني، ولا الفصيل باكرم على الله من ولدي. قال سلمان (رض): كنت قريباً منها، فرأيت والله أساس حيطان المسجد، مسجد رسول الله (ص) تقلّعت من أسفلها، حتى لو أراد رجل أن ينفذ من تحتها نفذ، فدنوتُ منها فقلت يا سيدتي ومولاتي، إن الله تبارك وتعالى بعث أباك رحمة، فلا تكوني نقمة. فرجعت ورجعت الحيطان حتى سطعت الغبرة من أسفلها فدخلت في خياشيمنا[٢٥٠]. وخاطب سلمان الفارسي الصحابي الجليل المسلمين في المسجد بعد أن بايع كُرهاً فقال: «أصبتم ذا السن منكم وأخطأتم أهل البيت لو جعلتموها فيهم ما اختلف عليكم اثنان ولأكلتموها رغداً»[٢٥١].

ومهما كانت صحة هذه الروايات، أو عدمها بشأن تعامل رجال سلطة الخلافة مع العترة إلا أن هناك إجماعاً لرواة المدرستين الإسلاميتين، الإمامة والخلافة بأن عمر ابن الخطاب هدّد بحرق بيت العترة وأن حرمة البيت هتكت، وأخرج عليٌ بالاكراه من بيته للمبايعة. ولا شك ان هتك حرمة بيت ذرية الرسول يعني هتك حرمة رسول الله (ص) وقبره لا يزال ندياً، فكانت تلك الخطوة بداية لانتهاك حرمة الإنسان في دولة النبوة إلى يوم القيامة. لقد تزعزعت الأركان التي قامت عليها دولة النبوة وهي الحق والعدل والمساواة والحرية. كما سيتضح ذلك فيما بعد. ان نظام الخلافة بعد الرسول هو نظام سياسي مستحدث لا تتفق مصالحه وتطلعاته مع نظام الامامة والولاية الذي وضعه الرسول (ص) كنظام الهي نصي. فمن الناحية السياسية البحتة فإن كل ما قام به رجال سلطة الخلافة يعتبر عملاً صحيحاً لحماية مشروعهم وتوفير كل أسباب الأمن والنجاح له. ويعتبر عمر بن الخطاب صاحب الفضل الأول لنجاح نظام سلطة الخلافة وتوفير كل أسباب سلامته منذ قيامه. إلا أن أبا بكر لم يكن يملك حماساً واقداماً للسلطة كالذي امتلكه عمر. ولذلك بعد أن بايع علي ومن معه خطب الناس واعتذر إليهم وقال:

«ان بيعتي كانت فلتة وقى الله شرها، وخشيت الفتنة وأيم الله ما حرصتُ عليها يوماً قط لقد قُلّدت أمراً عظماً ما لي به طاقة...»[٢٥٢].

ويمكن أن يكون اعتذاره للأمة بسبب انتهاك حرمة بيت عترة الرسول (ص)

الذي ترك أثـراً سيئاً في نفوس المسلمين. ولذلـك لم يخف أبو بكر ندمـه وإحساسه بـالذنب على تلك الجرأة، وتـرويع آل رسـول الله وإيذائهم. فمما قـالـه لابنه عبـد الرحمن، وهو على فراش الموت: «وددت أنني لم أكن كشفت عن بيت فاطمة وتركته ولو أغلب على خرب. وودتُ أني يوم سقيفة بني سـاعدة كنتُ قذفتُ الأمر في عنق أحد الرجلين عمر أو أبي عبيدة، فكان أميرا وكنتُ وزيرا. . .»[٢٥٣].

وفي الوقت الذي تجمع فيه مصادر مدرسة الإمامة على أن علياً بايع كرهاً في حياة فاطمة الزهراء إلا أن بعض مصادر مدرسة الخلافة تقول إن علياً بايع طوعاً بعد وفاة فاطمة[٢٥٤]، وبعضها الآخر يقول بايع برضا في حياة فاطمة، بعد استخدام العنف معه كالتهديد بحرق بيته، واقتياده من بيته إلى المسجد ومعه الزبير بن العوام وآخرون من أنصاره[٢٥٥].

لم يكن اقتحـام بيت آل رسـول الله، وهتك حرمتهم وإيـذائهم واكـراه علي على البيعة مع الصَّفـوة من صحبته نهايـة المطاف فقد عمـدت سلطة الخلافـة إلى تجريد فاطمة الزهراء من نحلتها فدك التي نحلهـا إياها والدها (ص) في حياته وهي عبارة عن قريتين من قرى خيبر، حيث ان رسول (ص) لم يوجف عليهما بخيل ولاركاب، وصـالح أهلهما على نصف المحصـول ومنحهما فاطمـة ابنتـه[٢٥٦] بعد نـزول الآية: ﴿**فآت ذا القربى حقه . . .**﴾[٢٥٧].

وكانت خيبر مليئة بالبساتين، ومن أشهرها بساتين فدك ولأهمية محاصيلها روي عن عائشة قالت: «لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر»[٢٥٨]. وعن ابن عمر قال: «ما شبعنا حتى فتحنا خيبر»[٢٥٩].

ان استيلاء سلطـة الخلافة على ميراث فـاطمة الـزهراء، في خيبر، قـد يكون من متطلبات توفير أسباب النجاح للنظام السياسي الجديـد واجراءً وقائياً للحيلولة دون أن يستثمره علي ويستفيد من امواله في اعداد ثورة مسلحة ضدّ السلطة الجديدة.

ولما علمت فاطمـة الزهراء بما أقدمت عليـه سلطة الخلافة بالسَّيطـرة على ميراثها من والدها، ذهبت إلى أبي بكر تلتمسه أن يرد لها ارثها. وجاء في صحيح البخاري، باسناده عن عـائشة، أن فاطمة بنت النبي (ص) أرسلـت إلى أبي بكر تسأل ميراثها

من رسول الله (ص) مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر:

«ان رسول الله قال: لا نورث ما تركناه صدقة. إنما يأكل آل محمد من هذا المال، واني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ولأعملنَّ فيها بما عمل رسول الله (ص)». فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت»[٢٦٠]. وقد استغربت فاطمة الزهراء من حديث الارث الذي رواه لها أبو بكر خلال لقائها معه، لأنها لم تسمع به مع أنها بنت النبي (ص) وأقربهم إليه وتعلم بالقرآن والسنة أكثر من غيرها ولذلك أخرج ابن قتيبة قولها في جوابه: يرثك أهلك ولا نرث رسول الله؟ وأخرج الترمذي أنها قالت: «من يرثك؟ قال: أهلي وولدي، قالت: فمالي لا أرث أبي؟ وقالت له: أترث أباك ولا أرث أبي؟ أين أنت من قوله تعالى: **﴿وورث سليمان داود..﴾**[٢٦١]، وقول زكريا **﴿... فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرثُ من آل يعقوب...﴾**[٢٦٢]. وإذا أجمع على أنها أتت بآيتي الميراث في احتجاجها وثبت الدليل على عصمتها كما جاء في آية التطهير وجب الجزم بحقية قولها[٢٦٣]. ويمكن أن يقال ان ما لحق ذرية الرسول من ظلم وجور إنما هو حسد وحقد من قريش لعلي ونكاية فيه. اكتشفت فاطمة الزهراء من خلال حديثها مع أبي بكر أن رجال السلطة مصرون على التمسك بموقفهم على ابعاد الحق عن ذرية الرسول (ص) ليكونوا عبرة لمجتمع دولة النبوة في ذلك الوقت فصممت على مواجهتهم على الرغم من تدهور صحتها، كما عزمت على كشف الحقائق للأمة الإسلامية من خلال مجتمع المدينة وتعريفهم بأبعاد ما حصل لعترة الرسول (ص) بعد رحيله بزمن قصير.

واختارت يوم جمعة لتوجيه خطبتها إلى جمهور المدينة لإلقاء الحجة عليهم لتقاعسهم عن نصرة آل رسول الله بعد اغتصاب حقهم. وممن دون خطبتها الطبرسي في الاحتجاج حيث قال[٢٦٤]: روى عبد الله بن الحسن باسناده عن آبائه (ع) أنه لما أجمع أبو بكر على منع فاطمة فدكاً وبلغها ذلك لاثت خمارها على رأسها واشتملت بجلبابها وأقبلت في لُمة من حفدتها ونساء قومها تطأ ذيولها ما تخرُمُ من مشية رسول

الله (ص) شيئاً فدخلت عليه وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم فنيطت دونها ملاءة فجلست ثم أنَّت أنه أجهش القوم لها بالبكاء فارتجَّ المجلس ثم أمهلت هنيهة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله أبيها (ص) فعاد القوم في بكائهم فلما امسكوا عادت في كلامها وبدأت خطبتها(٢٦٥) .

ويمكن أن نستنتج من خطبة فاطمة الزهراء الكثير من الأمور ومن أهمها :

١ ـ رباطة جأشها وشجاعتها وقوة إرداتها مع تراكم المصائب عليها كما عبرت عن ذلك في الشعر الذي رثت به والدها وكانت تردده على قبره الشريف . تلك المصائب تمثلت ـ اذا صحت الروايات ـ في فقد والدها ، وانتهاك حرمة بيتها الذي كان الرسول (ص) لا يدخله قبل الاستئذان ، وضربها واسقاط جنينها وترويع أطفالها ، على الرغم من مكانتهم العظيمة عند رسول الله ، واقتياد زوجها من بيته إلى المسجد على الرغم من دوره العظيم في تشييد أركان الدين ومكانته الفريدة عند الرسول (ص) واستبعاده عن منصبه الإلهي كوصي لنبيه على أمته .

٢ ـ فصاحة الزهراء وقوة بلاغتها وغزارة علمها ، ولا عجب في ذلك فهي خرِّيجة حجر النبوة وزوجة الوصي ، وهو سيد العرب وأفصحهم .

٣ ـ تأكيدها للحاضرين ، بعد تعريف نفسها أنها تتوخى الصدق والحق لكي تجذب انتباه الناس لأهمية مضمون خطبتها .

٤ ـ إيضاحها الدور الذي قام به والدها للم شتات العرب وهدايتهم بعد ان كانوا متفرقين فجاءهم بشريعة سماوية تضمن لهم سعادة الدارين وجعل منهم نواة لأمة دولة النبوة التي تقوم على مبادىء ثابتة .

٥ ـ تأكيد الدور الفعال الذي قام به زوجها لبناء صرح الإسلام ودولة النبوة ونضاله الدؤوب في كل الحروب بين يدي رسول الله (ص) وتذكيرها الناس بالجبناء الذين كانوا يفرون من ساحات القتال .

٦ ـ إيضاحها أن ما أقدموا عليه من بيعة إنما هو خلاف للكتاب والسنة .

٧ ـ خاطبت الرجل الأول في سلطة الخلافة أبا بكر بالاسم وسألته عن مصادرة ارثها باستغراب وحاججته بالقرآن ، وكذبته بطريق غير مباشر وفضحت أعمال

رجـال سلطة الخلافـة أمام الملأ بأن مـا قـاموا بـه لا يتفق مع الكتاب والسنـة حينما قالت: «أفخصكم الله بـآية وأخرج منها أبي؟». انها تشير بـذلك إلى الحديث الذي أورده عن النبي (ص) خلال لقائهـا الأول به حينما طالبته بإرثها فقـال: «قال رسول الله(ص): نحن معاشر الأنبياء لا نـورث ما تركناه صدقة». وتـرد عليه بقول رسول الله (ص): «إذا ورد عني حـديث فاعـرضوه على كتـاب الله فإن وافقه فـاقبلوه والا فردوه».

٨ ـ تعلن للملأ عن ظلامتها، وتعـاهد خليفتهـم على السكوت عن حقها حتى تلقى الله وتشكوه يوم المحشر عند الله ورسوله.

٩ ـ في الـوقت الذي أشادت فيه بجهـود الأنصار للدفـاع عن الدين والمسلمين واحتضـانهم لـدولـة النبـوة عـابت عليهم صمتهـم وتخاذلهم عن نصرة آل رسـول الله(ص) وانتهاك حرماته واغتصاب حقهـم في خلافة رسول الله وتؤكد أن هدفها من القاء تلك الخطبة، هـو القاء الحجة على الناس وتذكرهم بأن بيعـة السقيفة ستكون عاراً أبدياً عليهم في الدنيا وعقاباً في دار الآخرة.

١٠ ـ أما أبـو بكر فإنه، في الوقت الـذي يثني فيه عليها يؤكـد أن مصادرة ارثها يتفق مع السنة النبوية فهو لم يحد عنها.

١١ ـ اتهام فاطمة الزهراء رجال السلطة بـالتزوير على أبيها بعد مماته وتشبّه ذلك بالمؤامـرات التي تعرّض لها في حيـاته(٢٦٦). وتمسكها بـالاحتجاج بالآيات القـرآنية الخاصة بتوريث الأنبياء لأولادهم يؤكد ان مصادرة ارثها جزء من مؤامرة دبروها.

١٢ ـ حاول أبو بكر احتواء سخط فـاطمة وغضبها بتلقي تقريعها بصدر رحب حتى لا يثير سخط المسلمين الـذيـن سمعـوا الكثير مـن الأحـاديث عن رسـول الله(ص) التي تنص على علو مكـانتها عند الله ورسـوله ويكرر ثناءه على كـلامها، ويشيد بعظيم مكـانتها. وقد عرف أن المطالبـة بالارث ليست غايـة وإنما هو وسيلة لغايـة أكبر وهي المطالبة بحـق علي في الخلافة. لذلك قـال لها إن المسلمين قلّدوني هذا الأمر بناء على اتفاقهم ودون إجتراء عليهم، وهـم يشهدون بذلك.

١٣ ـ ولـذلك، فإن فاطمة الزهـراء اختتمت خطبتها بتوجيه نقـد لاذع لجمهور

الحاضرين من المسلمين، وأخذت تقرعهم بآيات قرآنية وتذكّرهم بالعواقب الخطيرة التي ستترتب على ما أقدموا عليه.

أما الأبيات التي ذيّلت بها الخطبة، وخاطبت بها قبر والدها فتفصح فيها عن خيانة الأمة لعهد رسول الله، وأن رجال السلطة أظهروا للعترة بعد ممات الرسول ما أضمروه في حياته، فأصبح آله مستضعفين بعده؛ حيث اغتصب الارث كله.

ان الحركة التي قامت بها الزهراء ليس هدفها المطالبة بقطعة من الأرض خاصة وأنها قد علمت بسرعة لحاقها بوالدها بعد وفاته وهي الزهراء الورعة التقية التي تعودت على شظف العيش برضا، وإنما تلك الحركة تعبيراً عن رفضها لسياسة الأمر الواقع التي كان رجال السلطة بصدد فرضها باستحداث نظام سلطة الخلافة واغتصاب الارث النبوي، لذلك فإنَّ خطابها يأتي تعرية تامة لما أقدمت عليه سلطة الخلافة وكأنها تقول للأمة في محاولة لكشف الحقيقة لهم: لقد زوروا سيطرتهم على الارث النبوي وهو امارة المؤمنين التي كانت حقاً لعلي كما زوَّروا مصادرة فدك من الزهراء.

وبما أن مصادرة فدك لا تتفق مع الكتاب والسنة فكذلك السيطرة على الخلافة.

أما بالنسبة لكلمتها العتابية التي وجهتها لابن عمها الإمام علي(٢٦٧) بعد عودتها إلى المنزل حيث كان في استقبالها فيمكن أن تكون كشف سر موقفه إلى الأمة لتعريفها أن سكوته واعتكافه في البيت ناتج عن أمرين: تقيده بوصية الرسول من جانب وخذلان الامة وتخليها عن نصرته من جانب آخر وقد وجهت إليه كلمات قاسية تهدُّ الجبال وتنطق الصخر تصدر من قلب مفعم بالألم والحسرة ويحترق على مصير الأمة وما ستلقاه من ويلات. إنها كانت تنظر ببصيرة تربية النبوة، كما وضحت في تلك الكلمات البليغة ما لحق بها، من ضيم وانفردت بها الأمة بدون كفيل فهذا علي الليث الهصور أصبح سجين عرينه قد سجنته وكتفته وصية أخيه وابن عمِّه الرسول(ص). هذا البطل المغوار الذي بلغت إصاباته في أحد نيفا وسبعين جرحاً حيث قتل أصحاب الألوية وفي خيبر قتل بطل اليهود مرحبا ودحا باب حصن خيبر وجعله ترساً يقاتل به الأعداء، وها هو بعد رسول الله يصبح قعيد داره، تهتك حرمة الدار، ويقاد إلى المسجد للمبايعة. لذلك تقرعه الزهراء بكلمات قاسية

وتشكـو وحـدتها بعـد رسـول الله (ص) فأصبحت وحيـدة بغير كفيل لأن كفيلهـا مقيد .

لذلك يمكن القـول . إذا كانت شجاعـة علي قد أذهلت معاصريـه ، فان صبره على تجرّع غصص المحنة كان أعظم من شجاعته .

لـذلك تقبّل كلمات الـزهـراء القاسيـة بصـدر رحب ، وطلب منهـا ان تحتسب ظلامتها عند الله . إن الحركة التي قامت بها الزهراء لمقارعة السلطة واستنهاض الأمة إنما هي أداء لدورها الرسالي الذي يفرضه عليها واجبها الدينيّ فقامت به خير قيام .

ان الزهراء التي كـانت تخاطب جماهير المسلمين في المسجد وكأنها تسألهم : كيف ترضون نظاماً لا يقيم حرمة لآل رسول الله ؟

هذه هي البداية . هذا هـو ما حل بالعترة كيف سيكون مصيركم أنتم ؛ لقد أدت الزهراء رسالتها وتوقعت الذل والهوان للأمة . لقد استشرفت مستقبل الأمة الإسلامية في خطبتها مـن خلال مـا حدث لعترة الرسـول ، فهل صدقـت تنبُّؤات الـزهراء بما يلحق أمة الإسلام من ذل وعار في الحياة أم لا؟

لقد رسمت الزهـراء ، بحركتها الرسالية تلك ، للمجتمع النسـائي في دولة النبوة نمـوذجاً للـدور الذي يجب أن تضطلع بـه المرأة في الأوقات العصيبـة التي تعصف بـالأمـة والوطـن . فهي قد رسمـت ، بتلك الخطوات نمـوذجـاً يستحق أن يحتـذى لأجيال الأمة من النساء في دولة النبوة عبر تعاقب الأجيال والعصور.

إن حركتها تلك أشبه ما تكون بتظـاهرة نسائية . انها درس للمجتمع النسائي في دولة النبوة وكأنها بحس التربية النبوية تقـول للأجيال النسائية هكذا يجب أن يكون دور المرأة حينما تعصف الأخطار والمحن بالأمـة . يجب ألاَّ تجلس قعيدة الدار ، وإنما عليهـا دوراً نضاليـاً من أجل الدفـاع عن مصالح الأمـة وسلامـة الوطن وإن الأمـر بـالمعـروف والنهي عن المنكـر في دولـة النبـوة لا يقتصر على الـرجـال وإنما يشمل الجميع .

لقـد أدارت الأمة ظهـرها لـرجل نزلـت به ثـلاثمئة آيـة في القرآن كما أخـرج ابن

عساكر[٢٦٨] . لقد أنكروا أو تنكَّروا لبيعة من رُدت عليه الشمس ذات يوم كرامة له حينما كان رأس النبي في حجره كما يروي ابن حجر والوحي ينزل عليه وعلي لم يصلِّ العصر فما سُرّي عنه (ص) إلا وقد غربت الشمس» فقال النبي (ص): «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس ولكن ربما أراد الرسول (ص) أن يبين للمسلمين بعض كرامات علي عند الله بأنه إنسان مميز بطاعته لله وتأهيله للوصية[٢٦٩] .

وذكر ابن حجر عن أن سبط بن الجوزي حدَّثهُ جماعةٌ من مشايخ العراق «أنهم شاهدوا أبا منصور ابن أزدشير القباوي الواعظ ذكر بعد العصر، الحديث المذكور عن ردّ الشمس على علي وذكر فضائل أهل البيت فقطعت سحابةٌ الشمس حتى ظن الناس أنها قد غابت فقام على المنبر وأومأ إلى الشمس وأنشدها:

لا تغربي يا شمس حتى ينتهي	مدحي لآل المصطفى ولنجله
واثني عنانك إن أردت ثناءهم	أنسيتِ إذْ كان الوقوف لأجله
إن كان للمولى وقوفك فليكن	هذا الوقوف لخيله ولرجله[٢٧٠]

قالوا: فانجاب السحاب عن الشمس وطلعت[٢٧١] .

لقد خذلوا رجلاً، تجمعت فيه صفات لم تجتمع في أحد من الخلق غيره. لذا فحينما وصل إليه كتاب من معاوية يتضمن فخراً خلال خلافته (٣٥ ـ ٤٠ هـ) قال لغلامه أكتب إليه، ثم أملى عليه: [٢٧٢]

محمد النبي أخي وصهري	وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحى	يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعُرسي	منوطٌ لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ابناي منها	فأيكموا له سهم كسهمي
سبقتكُم إلى الإسلام طُراًّ	غلاماً ما بلغت أوان حلمي

ومن الجدير بالذكر أن رواة مدرستي الإمامة والخلافة يتفقون على حديث الأئمة

الأثني عشر وأنهم من قريش، ولكن يختلفون على النص عليهم وتحديدهم. أخرج الطبراني عن جابر بن سمرة أن النبي (ص) قال: «يكون بعدي اثنا عشر أميراً كلهم من قريش»[٢٧٣].

كذلك يتفقون على الأحاديث الخاصة بالمهدي الذي سيخرج آخر الزمان فيملأ الأرض قسطاً وعدلا كما مُلئت ظلماً وجورا. من ذلك ما أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة والبيهقي وآخرون: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»[٢٧٤] وفي أخرى لأحمد وغيره: «المهدي من أهل البيت يصلحه الله في ليلة»[٢٧٥].

وفي أخرى للطبراني: «المهدي منا يختم الدين بنا كما فُتح بنا»[٢٧٦]. وأخرج الحاكم في صحيحه: «يحلُّ بأمتي في آخر الزمان بلاءٌ شديد من سلاطينهم لم يسمع بلاءٌ أشد منه حتى لا يجد الرجل ملجأ. فيبعث الله رجلاً من عترتي أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما مُلئت ظلماً وجورا، يحبه ساكن الأرض وساكن السماء، وترسل السماءُ قطرها وتخرج الأرض نباتها لا تمسك فيها شيئاً. يعيش فيهم سبع سنين أو ثمانياً أو تسعاً يتمنى الأحياء الأموات [كذا. .] مما يصنعُ الله بأهل الأرض من خيره»[٢٧٧].

ويتفق رُواة المدرستين على جميع هذه الأحاديث المذكورة.

ومن روايات مدرسة الإمامة، عن الأئمة الاثني عشر ما روي عن محمود بن لبيد قال: لما قبض رسول الله (ص) كانت فاطمة عليها السلام تأتي قبور الشهداء وتأتي قبر حمزة وتبكي هناك، فلما كان بعض الأيام أتت قبر حمزة رحمه الله فوجدتها صلوات الله عليها تبكي هناك، فأمهلتها حتى سكتت فأتيتها فسلمت عليها وقلت: يا سيدة النسوان قد والله قطعت نياط قلبي؟ فقالت: يا أبا عمر، يحق لي بالبكاء فلقد أصبت بخير الآباء رسول الله (ص) ثم أنشأت عليها السلام تقول:

إذا مات يوما ميت قل ذكره   وذكر أبي ما دمت والله أكبرُ

قلتُ: يا سيدتي أسألك عن مسألة تلجلج في صدري؟ قالت: سل، قلت: هل نصَّ رسول الله (ص) قبل وفاته على علي بالإمامة؟ قالت: واعجباه أنسيتم يوم غدير خم؟ قلتُ: كان ذلك ولكن أخبريني بما استتر إليك؟ قالت: أشهدُ الله

تعالى يقـول ولقد سمعتـه : عليّ خير من أخلّفه فيكم ، وهـو الإمام والخليفـة بعدي وأبـو سبطاي ، وتسعـة من صلب الحسين أئمة أبـرار لئن اتبعتمـوهم لوجـدتموهم هادين مهديين ، وان خالفتموهم ليكون الاختـلاف فيكم إلى يوم القيامة . قلت : يا سيدتي فلم قعد عن حقه؟ قالت : يا أبا عمر لقد قال رسول الله (ص) : مثل الإمام مثل الكعبة اذ تؤتى ولا تأتي . أو قالت مثل علي ، ثم قـالت : أما والله لو تركوا الحق على أهله واتبعوا عترة نبيهم لما اختلف في الله تعالى اثنان ، ولورثنها سلف عن سلف وخلف بعد خلف حتى يقوم قائمنا التـاسع من ولد الحسين ، ولكن قدَّموا من أخره الله وأخروا من قدَّمه الله ، حتى إذا الحدوا المبعوث وأودعوه الجدث واختاروا شهوتهم وعملوا برأيهم تبّـاهـم ، ألم يسمعوا الله يقول : **﴿وربك يخلق ما يشاء ويختـارُ ما كان لهم الخيرة. . .﴾**[٢٧٨] بل سمعوا ولكنهم كما قال الله تبارك وتعالى : **﴿. . . فإنها لا تعمى الأبصـار ولكن تعمى القلوب التي في الصـدور﴾** . «هيهات بسطوا في الـدنيا آمـالهم ونسـوا آجـالهم ، فتعسـاً لهم وأضل أعمالهم ، أعـوذ بـك يـا رب من الحور والكور»[٢٨٠] . ويمكن أن يستنتج أن دولة النبوة دولة الهيـة الحكم قائمة على أسس دينية سماويـة أفتتحت بمحمد النبي وستختتم بمحمد الوصي ، أي خـاتم أوصياء النبي الإثنى عشر ، وهو محمد بن الحسن والملقب بالمهدي والمنتظر ، إلى غير ذلك من الألقاب .

وروى ابن مثنى أيضـاً بشأن عـدد الخلفـاء بعـد رسـول الله (ص) عن أبيـه عن عائشـة قال : «سألتها كم خليفـة يكون لرسول الله (ص)؟ فقـالت : أخبرني رسول الله(ص) انـه يكون بعـده اثنا عشر خليفـة فقلت لها : من هـم؟ فقـالت : أسماؤهم عندي مكتوبة بإملاء رسول الله (ص) فقلت لها : فاعرضيه فأبت»[٢٨١] .

وقد واجهت سلطة الخلافة أول إحراج لها في الرد على مسائل عرضها على أبي بكر وفد نصارى قـدم المدينة بعد مبايعـة أبي بكر وأسند الطوسي في أمـاليه وابن جبر في كتاب «الاعتبار في ابطال الاختيار» ، إلى سلمان الفارسي (المحمدي) أنه قدم على أبي بكر نصارى وفيهم جاثليق فقال : وجدنا في الانجيل رسولا بعد عيسى وفي كتبنا لا تخرج الأنبياء من الدنيا إلا ولهم أوصياء ، فقال عمر : هذا خليفة رسول الله .

فقال الجاثليق: بم فضلتم علينا؟ قال أبو بكر: نحن مؤمنون، وأنتم كافرون، قال: فأنت مؤمن عند الله أم عند نفسك؟ قال: عند نفسي ولا علم لي بما عند الله، فقال: أنا كافر عندك أم عند الله؟ فقال عندي ولا علم لي بما عند الله. قال: أنت شاكٌ في دينك، ولست على يقين من دينك، قال: أفتصل بما أنت عليه من ا لدين إلى الجنة؟ قال: لا أعلم، قال: أفترجو ذلك؟ قال: أجل، قال فما أراك إلا راجياً لي وخائفاً على نفسك، فما فضلك عليّ؟ وكيف صرت خليفة النبي (ص) ولم تحط علماً بما تحتاج إليه الأمة؟ قال عمر: كفَّ عن هذا العبث وإلاّ أبحنا دمك، قال: ما هذا عدل على من جاء مسترشداً، دلّوني على من أسأله.

فجاء سلمان به إلى علي (ع) فسأله، فقال (ع) في جوابه: أنا مؤمن عند الله وعند نفسي، وأصل إلى الجنة بوعد نبيٍّ، المعلوم صدقه بمعجزاته، قال: أين الله اليوم؟ قال (ع): إن الله أين، فلا أين له، قال فيحسُّ؟ أم بم يعرف؟ قال (ع) تعالى الله عن الحواس، ويعرف بصنايعه، قال: فما عندكم في المسيح؟ قال: مخلوق لتغيره. قال: فبم بُنْتَ الرعية؟ قال (ع): لعلمي بما كان وما يكون. قال: هات برهانه. قال: أظهرت في سؤالك الاسترشاد، وأضمرت خلافه، وأريت في منامك مقامي، وحذرت من خلافي، فأسلم الجاثليق ومن معه، وأقرُّوا بوصايته. فقال عمر: يجب أن تعلم أن الخليفة من خاطبت أولاً برضى الأمة، فأبى ذلك، فقال عمر: لولا أن يقول الناس قتل مسلماً لقتلته، وإني أظنه شيطاناً يريد إفساد هذه الأمة، ثم توعَّد من يذكر هذه القصة»[282] إنه يُعد قضاء حاجة النصارى، وهي الرد على اسئلتهم، جزءاً من واجب عليّ كإمام للأمة. ومع تنحِّيه عن قيادتها فإنه قد سد ثغره لا طاقة لسلطة الخلافة على سدِّها، ولذلك حرص رجال سلطة الخلافة على التقرب من علي واسترضائه ومشاورته في الكثير من الأمور واتفقوا على مواقفه الإيجابية لدعم وحدة الأمة وخدمة الدين.

بعد كل تلك الأحداث الجسام التي عاشتها عترة الرسول وفي مقدمتهم فاطمة الزهراء التي تلقت المصائب بإيمان عميق وصبر لا ينضب انهارت قواها الجسمية واستسلمت للمرض وكان فيه نهاية حياتها المليئة بالنضال من أجل الدين والأمة. وقد شاع خبر ملازمتها الفراش بين مجتمع المدينة من المهاجرين والأنصار، وندم القوم على سوء صنيعهم مع العترة وخذلانهم بضعة رسول الله (ص).

روى ابن قتيبـة ، في الإمامـة والسيـاسة أن عمـر قـال لأبي بكر: «انطلق بنـا إلى فاطمة فإنـا قد أغضبناها» . فانطلقـا جميعاً فاستأذنا على فـاطمة فلم تأذن لهما فأتيا علياً فكلماه فأدخلهما عليها. فلما قعـدا عندهـا حوّلت وجههـا إلى الحائط، فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام فتكلم أبو بكر فقال: «يا حبيبة رسول الله والله إن قرابة رسول الله أحبُّ إليَّ من أن أصل قرابتي وانك أحبُّ إليَّ من عـائشة ابنتي، ولوددتُ يـوم مـات أبـوك أني ميت ولا أبقى بعـده. أفتراني أعـرفك وأعـرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله إلا أني سمعت رسـول الله (ص) يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه فهو صدقه». فقالت: «أرأيتما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله(ص) تعرفـانه وتفعلان به؟ قـالا: نعم فقالـت: «نشدتكما الله، ألم تسمعا رسول الله(ص) يقول: «رضا فـاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي فمن أحب فاطمة فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟» قـالا: نعم سمعناه من رسـول الله (ص) فرفعت عنـد ذلك كفيها نحو السماء وقالت: «فإني أشهـد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني ولئن لقيت النبي (ص) لأشكونكما اليـه فقال أبو بكـر : اني عائذ بالله تعـالى من سخطه وسخطك يا فاطمة» ثم انتحب يبكي حتى كادت نفسه أن تزهق وهي تقول: «والله لأدعون عليك في كل صلاة أصليها، وأبو بكر يبكي ويقول: «والله لأدعون الله لكِ في كل صلاة أصليها» . . ثم خرج باكياً[٢٨٣] .

ولا شك في أنه كان لكلمات الزهراء وقعا عنيفا في نفسيهما وعلى مسامعهما وغادرا دار فاطمة التي يغضب الله لغضبها ويرضى لـرضاها دون أن يتمكنا من استرضائها ودون أن تقبل عذرهما .

ثم اجتمع الناس إلى ابي بكـر، فقال لهم مخاطباً: «أيبيت كلّ رجل منكم معـانقاً لحليلته مسروراً بأهله، وتركتموني وما أنا فيه، لا حاجة لي في بيعتكم أقيلوني بيعتي» فقالوا: «يـا خليفة رسول الله، إنَّ هذا الامر لا يستقيم وأنت أعلمنـا بذلك، إنَّه إن كان هذا لا يقم لله دين». فقال: «والله لولا ذلك ومـا أخاف من رخاء هذه العروة، ما بتُّ ليلة ولي في عنق مسلم بيعة، بعدما سمعتُ ورأيت من فاطمة»[٢٨٤] .

ولا شكّ في أن كلمات أبي بكر تترجم صراعه الداخلي مع نفسه وخشيته من سوء العاقبة لما لحق بعترة الرسول (ص) من أذى وإحساسه بعقدة الذنب .

ولما أشتد عليها المرض بـادرت لزيارتها نساء المهـاجرين والأنصار. ولما اجتمعن عندها سلمن عليها وقلن لها: «كيف أصبحت من علتك يا ابنة رسول الله(ص)؟» فحمدت الله تعالى وصلت على أبيهـا وألقت فيهم خطبة بليغة(٢٨٥) عبرت فيها عن لواعج حزنها ولوعتها وحسرتها تجاه ما حدث للأمة من انحراف إلى درجة أنّها فضلت الالتحاق بأبيهـا (ص) دون حياة الدنيـا والعيش في ظل الذل والهوان كما عبرت عن سخطها على أزواجهنَّ بعـد تجربتها المرة معهم، حيث خذلوا عترة رسـول الله وتخلوا عن نصرتهم وعن عهـدهم لله ورسولـه. كـذلك أظهرت إمتعـاضهـا لزحـزحة أمـر الخلافة عن بيت مهبط الوحي العالمين بأمور الدنيا والدين وهكذا يبدو أن خطبها لا تنطلق من أفق ضيق وإنما تعبر عن واجبها الشرعي وحرصها على الدين والأمة، فلو تمت الخلافـة لعلي لأوصلهم إلى شاطىء الأمـان والخير وكانت تكثـر من الاعتماد في تلك الخطبة على الآيات القـرآنية لتعزِّز الحجج التي طرحتها في تلك الخطبـة الرائعة كما تنبأت فـاطمة الـزهـراء بمستقبل مظلم لـلأمة يسـوده الجور والظلم واستبـداد الطواغيت وختمت خطبتها بأن بثتهم حسرتها لما سيحل بالأمـة من ويلات وعندها ينـدم النادمـون حيث لا تنفع الحسرة والنـدم. ويـروي سويـد بن غُفلـة أن زائراتها أخبرن أزواجهن بمضمـون تلك الخطبة وبغضب الـزهراء عليهم فجـاءها قـوم من المهاجرين والأنصار معتذرين وقالوا: «يـا سيدة النساء: لو كان أبو الحسن ذكر لنا هـذا الأمـر من قبل أن يبرم العهـد ويحكم العقـد لما عـدلنـا عنـه إلى غيره»، فقالت: «إليكم عني فلا عذر بعد تعذيركم ولا أمر بعد تقصيركم»(٢٨٦).

١٤ ـ علي يودع فاطمة:

عاشت فاطمة الزهراء بعد أبيهـا، خمسة وسبعين يوماً كما يروي ابن قتيبة(٢٨٧)، ولما أحست بدنـو أجلها استـدعت الإمام علي بن أبي طـالب فأوصته بـوصايـاها، حيث طلبت منه تغسيلها وتكفينها والصـلاة عليها ودفنها ليلاً دون أن يخبر أحداً، وأن يعفى مـوضع قبرها، ولا يجيـز لأحد من الـذين ظلموهـا حضور جنـازتها. كما أوصته أن يتزوج بابنـة أختها أمامة لتقوم برعايـة أولادها، فضمن الإمام علي أن ينفذ كل وصاياها كما أمرت(٢٨٧).

ولشدة حيائها كانت تتحرج مـن حملها على النعش ظاهرة حينما تموت وتؤخذ إلى قبرها علماً بأنها أوصت بأن تدفن ليلاً وأن الحضـور سيكونون قلة وهم الصفوة من الموالين لزوجها. فقد روى الطبري في ذخائره عن أم أبي جعفـر أن فاطمة (ع) قالت لأسماء بنت عميس: يا أسماء إني قـد استقبحت ما يصنع بـالنساء. انـه يطرحُ على المرأة الثوب فيصفهـا. وقالت أسماء يـا ابنة رسـول الله، ألا أريك شيئاً رأيتـه بأرض الحبشة فدعت بجرائد رطبة فحنتها، ثم طرحت عليها ثوباً فقالت فاطمة ما أحسن هذا وأجمله تعـرف به المرأة من الرجل! فإذا أنا متُّ فـاغسليني أنت وعلي ولا يدخلَ عليَّ أحد. فلما توفيت جـاءت عائشة (ر) تدخل فقـالت أسماء: لا تدخلي فشكت إلى أبي بكـر قالت: ان هـذه الخثعميـة تحول بيننـا وبين بنت رسول الله (ص) وقـد جعلت لها مثل هـودج العروس فجـاء أبو بكـر فوقف على البـاب فقال يـا أسماء ما حملك على أن منعت أزواج النبي (ص) يدخلن على بنت رسول الله (ص) وجعلت لها مثل العـروس؟ فقالت: «أمـرتني أن لا يـدخل عليها أحـد وأريتهـا هذا الـذي صنعت وهي حيّة فأمرتني أن أصنع ذلك لها. قال أبو بكر: أصنعي ما أمرتك». ثم انصرف وغسلها عليٌ وأسماء».

وذكر أنها لما أرتها النعش تبسمت «وما رؤيت مبتسمة يعني بعد النبي (ص) إلى يومئذ»(٢٨٩).

ومعلوم أن الإبتسامة فارقت فاطمة بعد وفاة والدها لسببين الأول: حزنها العميق على والـدها لتعلقها به من ناحية ولشدة تعلقه بأولادها وعدم استغناء كل طرف عن الآخر. الشـاني: غدر الأمـة بآل البيت بعـد وفاتـه مباشرة حسـب إخباره لهم إلا أن حجم الظلم والعدوان فـاق كل التصورات على الرغم من تأكيدات القـرآن والسنة بحـرمـة العترة ومكانتهم العظيمـة عنـد الله. هـذا إضـافة لألمهـا وحسرتها على مـا ستلاقيه ذريتها من الخلافات من أمة أبيها مستقبلاً، وما سيحل بالأمة من تجاوزات وانحرافات عن الطريق الـذي رسمه لها صاحب الرسالة ومؤسس الـدولة النبوية.
وعن آخر لحظـات حياتها روى الطبري عن أم سلمة قالت: «اشتكت فـاطمة بنت رسول الله (ص) في مرضها فأصبحت يوماً كأمثل ما رأيناها في شكواها، فخرج علي ابن أبي طالب لبعض حاجتـه. قالت فاطمة اسكبي لي يـا أمة غسلا، فسكبت لها

غسلا فاغتسلت كأحسن ما كنتُ أراها تغتسل. قالت ثم قالت: يا أمة ناوليني ثيابي الجدد، قالت، فناولتها ثم جاءت إلى البيت الذي كانت فيه فقالت: قدمي فراشي وسط البيت واضطجعت ووضعت يدها اليمنى تحت خدها ثم استقبلت القبلة ثم قالت: يا أمة اني مقبوضة الآن فلا يكشفني أحد ولا يغسلني أحد. قالت فقبضت مكانها صلى الله عليها قالت ودخل علي، فأخبرته بالذي قالته وبالذي أمرتني. قال علي والله لا يكشفها أحد فاحتملها فدفنها بغسلها ذلك ولم يكشفها ولا غسلها أحد»(٢٩٠).

وتعتبر فاطمة الزهراء أول من غُطِّي نعشها من النساء في الإسلام على الصفة المذكورة، وبعدها زينب بنت جحش صنع بها ذلك، كما رواه البخاري عن أبي عمر(٢٩١).

وحينما توفيت فاطمة الزهراء علت الصيحة في المنزل فاجتمع الناس حول الدار رجالاً ونساء، وقد اشتد حزنهم لفراق ابنة الرسول (ص) وللمشاركة في تشييعها. فأمر الإمام ابا ذر بصرفهم وقال: انصرفوا فإن ابنة رسول الله (ص) قد أُخّر اخراجها هذه العشية فقام الناس وانصرفوا(٢٩٢).

وقام الإمام علي بتكفينها في سبعة أثواب وحنطها بفاضل حنوط رسول الله (ص) ثم صلى عليها وكبر خمسا ودفنها في جوف الليل، وعفى قبرها ولم يحضر دفنها والصلاة عليها إلا عليّ والحسنان وعمار والمقداد وأبو ذر وسلمان وعقيل والزبير وبريدة ونفر من بني هاشم وخواص علي (ع)(٢٩٣).

وروى الحاكم بسنده عن عائشة، قالت: «دفنت فاطمة بنت رسول الله (ص) ليلا ولم يشعر بها أبو بكر حتى دفنت وصلى عليها علي بن أبي طالب»(٢٩٤).

واختلف في موضع دفن فاطمة، حيث قيلت روايات متعددة. فقيل انها دفنت في بيتها وقيل في البقيع حيث سوى علي (ع) حول قبرها عدة قبور مزورة حتى لا يعرف أحد موضعه(٢٩٥).

وهناك روايات تقول: دفنت في الروضة. فيروي البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص): «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على

حوضي»[٢٩٦] فربّما أن الرسول أشار إليها لأنها ستحوي قبر فاطمة وستكون بذلك إحدى رياض الجنة .

وعن الطبري في دلائل الإمامة ، عن محمد بن همام أن عليا (ع) دفنها بالروضة وعفى موضع قبرها قال واصبح البقيع ليلة دفنت وفيه أربعون قبراً جدداً[٢٩٧] .

وفي مسألة دفنها ليلا واعفاء قبرها قال أحدهم متسائلاً : [٢٩٨] .

ولأي الامــور تــدفـن ليــلا بضعة المصطفى ويعفي ثـراها؟

وروي أن عليا حوّل وجهـه إلى قبر رسول الله مناجياً بعـد دفنها وقال كلمات[٢٩٩] تفيض بالحزن والأسى على فراقهـا وفراقه . ويخاطب الرسول خجلا مما حـل بالزهراء من أمته حتى اضطـر لدفنها ليلا وهي بنت النبـوة ، كما يخاطبه باستجواب الـزهراء لتخبره بإجماع الأمة على اغتصابها حقهـا وهو حق العترة ثم يحتكم إلى الله فيما حدث ويودعها . وبعدها وقف على شفير قبر الزهراء وأنشأ[٣٠٠] .

لكل إجتماع من خليلين فـرقـة وكل الــذي دون الفـراق قليل

وإنَّ افتقـادي فـاطما بعـد أحمد دليل على أن لا يـــدوم خليل

وعن الطبري في دلائل الإمـامـة عن محمد بن همَّام أن المسلمين لما علمـوا وفـاتها جاءوا إلى البقيع فوجدوا فيه أربعين قبراً فأشكل عليهم موضع قبرها من سائر القبور فضج الناس ولام بعضهم بعضـا ، وقالوا لم يخلّف نبيكم فيكم إلا بنتـا واحدة تموت وتُدفن ، ولم تحضروا وفاتها والصلاة عليها ولا تعرفون قبرها» . ثم قال ولاة الأمر منهم هـاتوا من نسـاء المسلمين من ينبش هذه القبـور حتى نجدهـا فنصلي عليها ونـزور قبرها . فبلـغ ذلك أمير المؤمنين (ع) فخرج مغضبـاً قد احمرَّت عينـاه ودرَّت أوداجه وعليه قباؤه الأصفر الذي كان يلبسـه في كل كريهة وهو متكىء على سيفه ذو الفقار حتى ورد البقيع فسار إلى الناس النـذير وقالوا : هـذا علي بن أبي طالب قد أقبل كما ترونـه يقسم بالله لئن حوّل من هـذه القبور حجر ليضعنَّ السيف على غابـر الآخر. فتلقاه بعضهم ، فقـال له : مالك يـا أبا الحسن ، والله لننبشنَّ قبرهـا ولنصلينَّ عليها فضرب علي (ع) بيده إلى جـوامع ثوبه فهـزَّه ثم ضرب به الأرض وقال أمـا حقي فقد

تركتـه مخافة أن يـرتدَّ الناس وأمـا قبر فاطمـة ، فوالله الـذي نفس علي بيده لأن رُمتَ وأصحـابك شيئاً من ذلك لأسقين الأرض من دمـائكم ، فإن شئت فأعرض فتلقـاه آخـر فقال يـا أبا الحسن بحق الله وبحق من فـوق العرش الا خليت عنـه فانـا غير فاعلين شيئاً تكـرهه فخلى عنه وتفرق النـاس ولم يعودوا إلى ذلك»(٣٠١) . ويروى أن الذي تحاور مع علي وهدد بالنبش هـو عمر حينما قال : «والله لقد هممت أن أنبشها فأصلي عليها»(٣٠٢) . ويمكن أن يكون دافع أحد رجال السلطـة لذلك التهديد هو غضبهم لاستبعـادهم عن المشاركـة في تشييع بنت النبي وإحساسهم أن ذلك كـان إهانة لهم .

وقـد تـوفيت السيـدة الـزهراء في الثـالـث من جمادي الآخـرة سنـة احـدى عشرة للهجرة، وهو المروي عن الإمام الصادق (ع)(٣٠٣) .

وردت روايات مختلفة في تحديد يوم وفـاتها ، كما اختلفت تلك الروايات في تحديد عمـرها وأقلهـا يقدِّر عمـرها بثماني عشرة سنـة وسبعـة أشهر وأكثـرها يقـدِّره بتسع وعشرين سنة .

وكذلك اختلفت الروايـات في مدة بقائها بعد رسول الله ، فأقلُّ الـروايات حدّده بأربعين يوماً وأكثرها بأربعة أشهر وقيل ستة(٣٠٤) .

وظل الإمام علي بعـد فراق الأحبة الرسول (ص) وابنتـه صامدا كالطـود الشامخ بعـد أن وارى رفيقة دربـه الثـرى وظهـر من خـلال مناجـاتـه لهما نثـرا وشعرا هـول الفـاجعة ، فـراق الأحبـة وخـذلان الأمة . لقـد ظل وحيـدا سوى أربعـة من كبـار الصحابـة الأخيار هـم سلمان وابو ذر والمقـداد وعمار الذين أثبتـوا ولاءً حقيقياً للعترة فكانوا رفـاق دربه الطويل المظلم كما وصفه في احدى خطبه ، وإذا كـان قد خاض الغمـرات بالأمس بسيفـه ذي الفقار فهـا هـو اليوم في عهـد سلطة الخلافـة يخوض الدرب المظلم بسلاح الصبر والإيمان خلال فترة أبي بكر وعمر وعثمان ، ويحرص على تقديم النصح والمشورة إليهم .

وإذا كان سيفه ذو الفقار قـد لعب دوراً رئيساً في إذلال الشرك وبناء صرح الدين ودولته فهـا هو اليـوم بعلمه وحلمه وحكمتـه ، يحاول تثبيت وحدة الأمـة بتضحيته

للتخفيف من الآثار التي ترتبت على بيعة السقيفة ويتكيف مع الأوضاع القائمة وفقاً لوصية النبي (ص) له، ولمواجهة أخطار الذين إدَّعوا النبوة، مثل مسيلمة الكذاب في اليمامة وطليحة بن خويلد الأسدي في نجد[٣٠٥].

إن فاطمة الزهراء قد رحلت إلى جنان الخلد بعد أن سطرت للأجيال النسائية المتعاقبة في دولة النبوة مواقف شجاعة لا تعتبر موضع فخر واعتزاز للمرأة المسلمة فحسب وإنما لكل نساء العالم. رحلت بعد أن عاشت تجربة مرة وقاسية في طفولتها بمكة وبعد رحيل والدها (ص). وكما رحل والدها كسير القلب لعصيان الأمة أوامره حيث ارهاصات المؤامرة قد بدأت، كذلك رحلت الزهراء عن عالم الدنيا إلى عالم الخلود، وهي مكسورة القلب غاضبة على سرعة تنكر الأمة لآل رسول الله(ص) رحلت وخلفت ذريتها في وسط أمة أبت إلا مواصلة إذلال آل رسول الله ومطاردتهم، ومع اجماع الأمة على إيذائهم إلا أن الله أبى إلا اعزازهم لقوله تعالى: **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾**[٣٠٦].

لقد منَّ الله على فاطمة الزهراء جزاء صبرها وتضحياتها في سبيل الله أن جعلها أما لأحد عشر إماماً وزوجة لأبيهم، فهي زوجة الإمام وأمُّ الأئمة وجميعهم القادة إلى سبيل الله [٢٠٧] وكان زادهم في هذه الحياة الفانية التقوى، وجعلهم ورثة لعلم الأنبياء جميعا من أولهم إلى خاتمهم محمد (ص). وقام علي بتدوين كتاب لفاطمة بعد وفاة أبيها(ص) ليكون سلوة لها، وأطلق عليه مصحف فاطمة.

وقد أصبح الكتاب أحد مواريث الأئمة، من علي إلى المهدي (ع). إن الأئمة لم يورثوا ذهباً ولا فضة وإنما ورثوا علماً عن رسول الله عن الله.

روى الصدوق في «الفقيه» عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا (ع) قال: للإمام علامات يكون، أعلم الناس وأشجع الناس وأعبد الناس وأسخى الناس ويولد مختوناً ويكون مطهراً، ويرى من خلفه كما يرى من بين يديه ولا يكون له ظل. وإذا وقع على الأرض من بطن أمه وقع على راحتيه رافعاً صوته بالشهادة ولا يحتلمُ وتنام عيناهُ ولا ينام قلبه. ويكون محدثاً ويستوي عليه درع رسول الله (ص) ولا يُرى له

بول ولا غـائط لأن الله عز وجل قد وكّل الأرض بابتـلاع ما خرج منه وتكـون رائحته أطيب من رائحة المسك ويكون أولى الناس منهم بأنفسهم وأشفق عليهم من آبائهم وأمهاتهم ويكون أشد الناس تواضعاً لله ـ جلَّ ذكـره ـ ويكون آخذ الناس بما يأمر به وأكف الناس عما يُنهى عنـه. ويكون دعاؤه مستجـاباً حتى أنه لو دعـا على صخرة لأنشقت نصفين ويكون عنده سلاح رسول الله (ص) وسيفه ذو الفقار ويكون عنده صحيفة فيها أسماء شيعته إلى يوم القيامة وصحيفـة فيها أسماء أعدائه إلى يوم القيامة ويكون عنده الجامعـة وهي صحيفة طولها سبعون ذراعاً فيها جميع مـا يحتاجُ إليه من ولد آدم ويكون عنـده الجفر الأكبر والأصغر وأهاب مـاعز وأهاب كبش فيهما جميع العلوم حتى ارش الخدش وحتى الجلـدة ونصف الجلدة وثلث الجلدة ويكـون عنده مصحف فاطمة»(٣٠٨) .

وقد انتقلت هـذه العلوم إلى الأئمة عـن طريق رسول الله (ص) الـذي نقلها إلى علي في حياتـه. ويروى أن رسول الله (ص) حينما مـرض مرضه الـذي انتقل فيه إلى جوار ربـه طلب علياً وأدناه منـه وعلمه علـوم مدة عمره الشريف بلحظـة واحدة. فلذا قال علي (ع): ـ لما سئل: ما علمك رسـول الله (ص)؟ ـ أنه علمني ألف باب من العلم ينفتح من كل بـاب ألف بـاب ومن هـذا صـار البطين لتراكم العلـوم في صدره الشريف فهو (ع) بعد النبي (ص)، يقـول «اني عرفت الله سبحانه بما علمته من النبي حتى لـو كُشف الغطاء لم أزدد علما يضـاف إلى معـرفتي الكاملـة ويحتمل معان أخرى أيضاً»(٣٠٩) .

هوامش الفصل الثاني

(١) سورة الكوثر: ١ ـ ٣.

(٢) ابن حجر: الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، جـ١، ص١٨٧.

(٣) نفسه؛ أيضاً، الطبري: ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص ٧٢.

(٤) ابن حجر: نفسه، جـ١، ص ١٢٤، ١٥٦.

(٥) الطبري: المرجع نفسه، ص ٥٣؛ أيضاً العاملي، تاج الدين بن علي: التتمة في تواريخ الأئمة، ص ١٢.

(٦) الامين: المرجع السابق، مجلد ١، جـ٢، ص ٣٠٧.

أيضاً الحسني: المرجع السابق، ص ٦٥.

(٧) الأمين: نفسه، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٨) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٢؛ أيضاً، الامين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٠٧؛ أيضاً الحسني: المرجع نفسه، ص ٦٥.

(٩) الأمين: نفسه؛ أيضاً، الحسني: نفسه،

(١٠) بنت الشاطىء: تراجم سيدات بيت النبوة، عن الحسني: نفسه.

(١١) الطبري: المرجع نفسه، ص ٣٦؛ أيضاً الجزائري: الأنوار النعمانية، جـ١، ص ٨٠.

(١٢) الطبري: نفسه، أخرجه أبو الفضل بن خيرون؛ أيضاً، القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ: ص ٨٦.

(١٣) الطبري: نفسه، ص ٤٥؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٣.

(١٤) الطبري: نفسه، ص ٢٥؛ أيضاً، ابن حجر: المرجع نفسه، ص ١٦٠.

(١٥) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٣.

(١٦) نفسه.

(١٧) نفسه.

(١٨) ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد٣، جـ١٤، ص ٣٠٧ـ٣٠٨؛ أيضاً، الأمين: المرجع السابق، مجلد١، جـ٢، ص ٢٣٥.

(١٩) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ٧.

(٢٠) الأمين: نفس المرجع، مجلد١، جـ٢، ص ٣٠٧.

(٢١) عقبة بن أبي معيط.

(٢٢) البخاري: المرجع السابق، مجلد١، جـ٢، ص٤٢، جـ١١، ص ٢٢٧، جـ١٢، ص٢٤٩، جـ١٥، ص٣٠٠؛ أيضاً الكبداتي: المرجع السابق، ص٣١٣.

(٢٣) سورة غافر: ٢٨، انظر البخاري: نفسه، جـ٢، ص ٣٩٥.

(٢٤) الحسني: المرجع السابق، ص٦٦.

(٢٥) سورة القلم: ٤.

(٢٦) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٢٧) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٣٦، ٢٣٩.

(٢٨) الحسني: المرجع نفسه، ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٢٩) نفسه.

(٣٠) الطبراني، (٢٢/ ٤٣١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٣)، وابن هشام (٢/ ٢٩٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٥٥) عن يماني: المرجع نفسه، ص ١٧٣.

(٣١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠٣)، ابن سعد في الطبقات (٨/ ٣٣)، عن يماني: نفسه، ص ١٧٤ ـ ١٧٥؛ أيضاً الحسني: نفسه، ص ٥٨.

(٣٢) الحسني: نفسه، ص ٧٥ـ٧٦.

(٣٣) نفسه، ص ٧٦.

(٣٤) ابن هشام: السيرة البوية، مجلد١، جـ١، ص ١١١؛

أيضاً، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١، ص ٦١٥ـ٦١٦؛

أيضاً، الامين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٣٦.

(٣٥) الأمين: نفسه، ص ٢٣٨.

(٣٦) نفسه، ص ٢٣٦، ٢٣٩، جـ٣، ص ٣٧٧.

(٣٧) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٣٨) الأمين: نفسه، مجلد١، ص٢، ص ٢٣٨.

(٣٩) نفسه، مجلد١، ج٣، ص ٣٧٨؛ أيضاً ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد٣، ج١٣، ص ٢٥٧.

(٤٠) ابن حجر: المرجع السابق، جـ١ ص ١١٥، ١٤١ ـ ١٤٢؛

أيضاً النسائي: خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٤١) الحسني: المرجع السابق، ص ٨١.

(٤٢) الطبري: المرجع السابق، ص ٢٧ ـ ٢٩؛

أيضاً ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١ ـ ١٤١ ـ ١٤٢؛ أيضاً،

الامين: المرحع نفسه، مجلد١، جـ٣، ص ٣٧٨.

(٤٣) الحسني: المرجع نفسه، ص ٨٢، أيضاً،

الأمين: نفسه، مجلد١، ج٣، ص ٣٧٨.

(٤٤) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٤٥) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٣٦، ٢٣٩.

(٤٦) نفسه، مجلد١، جـ٣، ص ٣٧٨.

(٤٧) الحسني: نفس المرجع، ص ٨٠.

(٤٨) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٢٤؛ أيضاً،

ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٣، جـ١٣، ص ٢٥٧.

(٤٩) الحسني: نفسه، ص ٨٣.

(٥٠) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢١٩.

(٥١) نفسه، مجلد١، جـ٣، ص ٣٢٥.

(٥٢) نفسه.

(٥٣) نفسه.

(٥٤) سورة الحشر: ٩.

(٥٥) الطبري: المرجع السابق، ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٥٦) نفسه ص ٢٧ ـ ٢٩ ؛ الأمين : المرجع نفسه ،
مجلد١ ، جـ٣، ص ٣٧٩ ؛ أيضاً الحسني : المرجع نفسه ، ص٨٣ .
(٥٧) الأمين : نفسه ، ص ٣٧٨ .
(٥٨) نفسه .
(٥٩) نفسه .
(٦٠) معمول بهجر في اقليم البحرين .
(٦١) عباءة قصيرة الخمل معمولة بقطوان ، موضع بالكوفة .
(٦٢) الأمين : المرجع نفسه ، مجلد١ ، جـ٣، ص ٣٧٩ ؛
أيضاً، ابن حجر: المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ .
(٦٣) الأمين : نفسه ، ؛ أيضاً، النسائي :
المرجع السابق، ص١١٥ ـ ١١٦ .
(٦٤) الطبري : المرجع السابق، ص ٣٤، خرجه الدولابي .
(٦٥) نفسه، خرجه أحمد في المناقب . الخميلة : القطيفة هي كل ثوب له خمل من أي شيء كان ، وقيل هي السواد من الثياب ؛ الخمل : أهداب الثوب .
(٦٦) الناضح : النواضح : الابل التي يستقى عليها ، ومفردها ناضح .
(٦٧) الطبري : المرجع نفسه ، ص ٣٥ .
(٦٨) نفسه .
(٦٩) ابن أبي الحديد : المرجع السابق ، مجلد١ ، جـ١ ، ص ٣٩ ؛
أيضاً : البخاري : المرجع السابق، مجلد١ ، جـ١٦ ، ص ٣٠٨ .
(٧٠) الطبري : نفسه ، ص ٣٣ ـ ٣٤ .
(٧١) الأمين : المرجع نفسه ، مجلد١ ، جـ٣، ص ٣٨٠ ؛
أيضاً، الطبري : نفسه ، ص ٢٥ ، ٢٧ ـ ٢٩ .
(٧٢) الحسني : المرجع السابق ، ص ٨٦ .
(٧٣) نفسه .
(٧٤) نفسه ، ص ٨٧ .
(٧٥) نفسه .
(٧٦) نفسه .
(٧٧) نفسه .
(٧٨) نفسه .
(٧٩) نفسه .
(٨٠) نفسه ، ص ٨٦ ـ ٨٧ .
(٨١) نفسه ، ص ٨٧ .
(٨٢) الطبري : المرجع نفسه ، ص ٥١ أخرجه الإمام علي بن موسى الرضا (ع)
(٨٣) نفسه ، ص ٥٠ ـ ٥١ ؛ كما ورد الحديث نفسه بصيغ مختلفة في نفس المصدر، ص ٤٩ ـ ٥٠ ؛
أيضاً،

البخاري: المرجع السابق، مجلد٢، جـ٢٦، ص ٥١١.
(٨٤) الطبري: المرجع نفسه، ص ٥١، خرجه في الصفوة.
(٨٥) المجلسي: بحار الأنوار، جـ٤١، ص ٥٤، ١٣١.
(٨٦) الطبري: نفسه.
(٨٧) نفسه.
(٨٨) نفسه، ص ٤٩، خرجه الدولابي.
(٨٩) لوحته الشمس: غيَّرت لونه.
(٩٠) الشُّح: البخل.
(٩١) استعبر: دمعت عيناه.
(٩٢) الطبري: المرجع نفسه، ص ٤٥ ـ ٤٧، خرجه الحافظ الدمشقي في الأربعين الطوال.
(٩٣) المجلسي: المرجع نفسه، جـ٤١، ص ٢٨، ٣٤.
(٩٤) خصاصة: مجاعة.
(٩٥) يعني علياً وفاطمة والحسن والحسين.
(٩٦) سورة الحشر: ٩.
(٩٧) سورة الأحزاب: ٣٣ ﴿... إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾.
(٩٨) سورة آل عمران: ٦١ ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾.
(٩٩) القرّماني: المرجع لسابق، ص ٧٦.
(١٠٠) سورة الإنسان: ٨ ـ ٩.
(١٠١) مجلت يداي: ظهر في كفيها بقع صغيرة منتفخة صفراء تحتها ماء.
(١٠٢) أحمد في المسند (٦/ ٢٩٨) عن يهاني: المرجع السابق، ص ٧٩.
(١٠٣) الأمين: المرجع السابق، مجلد١، جـ٤، ص ٥٦٣.
(١٠٤) نفسه، ص ٥٧٨.
(١٠٥) نفسه، جـ٣، ص ٣٢٦.
(١٠٦) نفسه، جـ٣، ص ٥٦٢.
(١٠٧) نفسه.
(١٠٨) نفسه، جـ٤، ص ٥٧٨.
(١٠٩) الطبري: المرجع السابق، ص ٥١ ـ ٥٢.
(١١٠) الكبداني: المرجع السابق، ٢٤٠ ـ ٢٤١؛ أيضاً
الطبري: المرجع السابق، ص ٤٠ ـ ٤١.
(١١١) يعني خروجها لقتال الإمام علي (ع) في معركة الجمل بالبصرة حينما تولى امرة المسلمين.
(١١٢) الابشيهي: المرجع السابق، ص ٩٤.
(١١٣) الكبداني: المرجع السابق، ص ٣٤٠؛ أيضاً.
النسائي: المرجع السابق، ص ١٢٢؛ أيضاً،
البخاري: المرجع السابق، مجلد١، جـ١٥، ص٢٩٢، ٢٩٤.

(١١٤) ابن حجر: المرجع السابق، جـ١ ، ص ١٨٨ .

(١١٥) نفسه .

(١١٦) نفسه، ص ١٩١ .

(١١٧) سورة الشورى: ٢٣ .

(١١٨) الطبري: المرجع نفسه، ص، ٢٥٥، أخرجه أحمد في المناقب .

(١١٩) نفسه، ص ٢٦، أخرجه الملا في سيرته .

(١٢٠) نفسه، ص ٢٥ ، أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب: وأخرجه أبو حاتم وقال: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم» ؛ أيضاً ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١ ، ص ١٨٧ .

(١٢١) الكبداني: المرجع نفسه، ص ٣٤٢، رواه الترمذي وقال: هذا حديث غريب؛ أيضاً، ابن حجر: المرجع نفسه، ج١ ، ص ١٨٧ .

(١٢٢) النسائي: المرجع نفسه، ص ١٢٣ ؛ أيضاً،

الكبداني: نفس المرجع، ص ٣٤١ ؛ أيضاً،

يماني: المرجع السابق، ص ٩٤ .

(١٢٣) الطبري: المرجع نفسه، ص ٣٧، خرجه أحمد .

(١٢٤) نفسه .

(١٢٥) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١ ، ص ١٩١ ؛ أيضاً يماني، المرجع نفسه، ص ٩٤ .

(١٢٦) الطبري: المرجع نفسه، ص ٣٩، خرجه أبو سعد في شرف النبوة والإمام علي بن موسى الرضا في مسنده، وابن المثنى في معجمه .

(١٢٧) سورة الأحزاب: ٣٣ .

(١٢٨) الأمين: المرجع السابق، مجلد١ ، جـ٢ ، ـ٣٠٩ ؛

أيضاً، الكبداني: المرجع نفسه، ص ٣٤٠ ؛

أيضاً، الطبري: المرجع نفسه، ص ٢١ ـ ٢٤ ؛

أيضاً، العاملي، بهاء الدين محمد: زبدة الأصول، ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

(١٢٩) الطبري: نفسه، ص ٢٤ ـ ٢٥ ، أخرجه أحمد .

(١٣٠) نفسه .

(١٣١) نفسه، ص ٢٤ ؛ أيضاً، ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١ ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

(١٣٢) ابن حجر: نفسه، جـ١ ، ص ١٤٤ ؛ أيضاً، الطبري: نفسه، ص ٢٥ .

(١٣٣) ابن حجر: نفسه، الطبري: نفسه، ص ٢١ .

(١٣٤) سورة الأحزاب: ٥٦ .

(١٣٥) ابن حجر: نفسه، جـ١ ، ص ١٤٦ ؛ أيضاً الطبري: نفسه، ص ١٩ ، أخرجه البخاري؛ أيضاً البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ٢٦ ، ص ٥١٣ ؛ أيضاً الأبشيهي: المرجع السابق، ص ٣٦٣ .

(١٣٦) ابن حجر: نفسه .

(١٣٧) سورة الصّافات: ١٣٠ .

(١٣٨) ابن حجر: نفسه، ١٤٨ .

(١٣٩) سورة آل عمران: ١٠٣ .

(١٤٠) ابن حجر: نفسه، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(١٤١) نفسه، ص ١٥٢.

(١٤٢) سورة طه: ٨٢.

(١٤٣) ابن حجر: نفسه، جـ١، ص ١٥٣.

(١٤٤) نفسه، الحديث من رواية أبي هريرة.

(١٤٥) سورة آل عمران: ٥٩، ٦٠، ٦١.

(١٤٦) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٤، ص ٤١٦ ـ ٤١٨؛ أيضاً، الطبري: المرجع نفسه، ص ٢٥؛ أيضاً.
ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٥٥ ـ ١٥٧.

(١٤٧) الأمين: نفسه، ص ٤١٧.

(١٤٨) نفسه؛ أيضاً، الكبداني: المرجع نفسه، ص ٣٤٠.

(١٤٩) البخاري: المرجع نفسه، مجلد١، جـ١١، ص ٢٢٦، ج١٢، ص ٢٣٥، جـ١٦، ص ٣٢٠؛ أيضاً.
ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد٣، جـ١٥، ص ٣٩٤، ٤٠٠.

(١٥٠) ابن أبي الحديد: نفسه، ص ٣٩٤.

(١٥١) الطبري: المرجع نفسه، ص ٤٧ خرجه الإمام علي بن موسى الرضا (ع).

(١٥٢) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٦٩.

(١٥٣) العيبة: وعاء، مكفوفة: مقفلة. والمقصود هنا أن الشَّر يكون مكفوفاً بين الطرفين كما تكف العيبة على ما فيها.

(١٥٤) إسلال: غزو، إغلال، خيانة.

(١٥٥) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢ ص ٢٦٩.

(١٥٦) نفسه، ص ٢٧٤.

(١٥٧) نفسه.

(١٥٨) ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٩٩، ١٠٠)؛ والبيهقي.
في «الدلائل» (٥/ ٨ ـ ٩). عن يماني: المرجع السابق، ص ٢١٥.

(١٥٩) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(١٦٠) نفسه، ص ٢٧٥.

(١٦١) سورة النصر: ١، ٢.

(١٦٢) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٧٥؛
أيضاً، الصّغاني: المرجع السابق ـ ص ١٤؛
أيضاً، الكبداني: المرجع نفسه، ص ٣٤٥.

(١٦٣) الأمين: نفسه، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦؛ أيضاً،
البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ١٧، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(١٦٤) سورة الحجرات: ١٣.

(١٦٥) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٧٧.

(١٦٦) نفسه.

(١٦٧) نفسه، ص ٢٧٦.

(١٦٨) نفسه، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .
(١٦٩) الكبداتي : المرجع السابق، ص ٣٤٣؛ أيضاً
النسائي : المرجع السابق، ص ١١٧، ١٢٠؛ أيضاً
الطبري : المرجع نفسه، ص ٣٩ ـ ٤٠؛ ٤١ ـ ٤٢ .
(١٧٠) الكبداتي : نفسه، ص ٣٤٠؛ أيضاً، البخاري :
المرجع نفسه، مجلد١، جـ١٤، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤، جـ١٥، ص ٢٩٢ .
مجلد٢، جـ١٨، ص ٣٥٤؛ أيضاً.
النسائي : المرجع نفسه، ص ١٢٠، متفق عليه .
(١٧١) الحسني : المرجع السابق، ص ٧١ .
(١٧٢) الطبري : المرجع نفسه، ص ٤٣ ـ ٤٤ .
(١٧٣) الأمين نفس المرجع ، مجلد ١ ، جـ٢ ، ص ٢٨٩؛ جـ٣، ص ٤١٨ ـ ٤١٩، اعتمد الأمين في رواياته عن خطبة الغدير على تاريخ الطبري، وابن عساكر ، السيرة الحلبية، والنسائي في سننه .
(١٧٤) نفسه، جـ١، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠، جـ٣، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ .
(١٧٥) نفسه، جـ٢ ص ٢٩٠ ـ ٢٩١، جـ٣، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .
(١٧٦) سورة المائدة : ٦٧ .
(١٧٧) الأمين : نفسه، مجلد١، ص ٢٩٠ ـ ٢٩٢ .
جـ٣، ص ٤١٨ ـ ٤١٩، اعتمد في رواياته عن بيعة الغدير والنص عليها على مجموعة من رواة الحديث لمدرسة الخلافة : ابن كثير والطبري في تاريخيهما، مسند أحمد بن حنبل جـ٤، الحاكم في المستدرك، الذهبي في تلخيص المستدرك، السيرة الحلبية، ابن ماجة، النسائي في سننه؛ أيضاً، البحراني : الانصاف في النص على الأئمة الاثنى عشر من آل محمد (ص)، ص ١٦٧ ـ ١٧٣؛ أيضاً المجلسي : المرجع السابق، جـ٣٧، ص ١٠٨ ـ ١٣٣؛
أيضاً، الجزائري : المرجع السابق، جـ١، ص ١٢٩؛
أيضاً؛ الكبداتي : المرجع نفسه، ص ٣٣٨؛
أيضاً، ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٢٢؛
أيضاً الصّغاني : المرجع السابق، ص ١٨٤؛
أيضاً الطبري : المرجع نفسه، ص ١٦، ٦٧ ـ ٦٨؛
أيضاً، النسائي : المرجع نفسه، ص ٨٤ ـ ٩٦؛
(١٧٨) أيضاً المجلسي : المرجع نفسه، جـ٣٧، ص ١٣٣ .
(١٧٩) الجزائري : المرجع نفسه، جـ١ ص ١٢٨ ـ ١٢٩؛
أيضاً، الكبداتي : المرجع نفسه، ص ٣٣٨؛
أيضاً، الأمين : نفسه مجلد١، جـ٢، ص ٢٩٠ .
(١٨٠) الأمين : نفسه؛ أيضاً المجلسي : نفسه، جـ٣٧، ص ١١٢ .
(١٨١) الأمين : نفسه .
(١٨٢) سورة المائدة : ٣ .
(١٨٣) الجزائري : المرجع نفسه، جـ١، ص ١٢٩، أيضاً،

المجلسي: المرجع نفسه، جـ٣٧، ص ١١١ ـ ١١٢.
(١٨٤) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٥١.
(١٨٥) المجلسي: نفسه، جـ٣٧، ص ١٢٨.
(١٨٦) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٩٩.
(١٨٧) سورة الصافات: ٢٤.
(١٨٨) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٤٩.
(١٨٩) نفسه.
(١٩٠) ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد١، جـ١، ص ٤٧ ـ ٥٠.
(١٩١) نفسه أيضاً الأمين، ص ٤٧.
(١٩٢) البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، ج١٨، ص ٣٥٦.
أيضاً، الكبداني: المرجع نفسه، ص ٣٤١.
(١٩٣) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٣، ص ٤٢٢.
(١٩٤) ابن أبي الحديد: المجلد نفسه، مجلد٣، جـ١٣، ص ١٨٩.
أيضاً الكبداني: المرجع نفسه، ص ٣٢٨.
(١٩٥) ابن أبي الحديد: نفسه أيضاً الأمين.
مجلد١، جـ٣، ص ٤٢٣.
(١٩٦) ابن أبي الحديد: نفسه.
(١٩٧) نفسه، ص ١٩٠.
(١٩٨) نفسه؛ أيضاً، الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٣، ص ٤٢٤.
(١٩٩) الحاضرون.
(٢٠٠) البخاري: المرجع نفسه، مجلد١، جـ١، ص ١٣،
مجلد٢، جـ١٨، ص ٣٥٤، جـ٢٣، ص ٤٦٦؛
أيضاً البحراني: المرجع نفسه، ص ١٨١ ـ ١٨٢.
(٢٠١) ابن الحديد: المرجع نفسه، مجلد٣، جـ١٣، ص ١٩٠؛
أيضاً، البخاري: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ١٢، ص ٢٤٧،
مجلد٢، جـ١٨، ص ٣٥٤؛
أيضاً الكبداني: المرجع نفسه، ص ٣٢٩.
(٢٠٢) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٢٦.
(٢٠٣) نفسه، ص ١٢٥.
(٢٠٤) سورة آل عمران: ١٤٤.
(٢٠٥) الطبري: نفس المرجع، ص ٧١ ـ ٧٢؛
أيضاً؛ ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٣، جـ١٣، ص ١٩٢؛
أيضاً الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٣، ص ٤٢٨.
(٢٠٦) الكبداني: المرجع نفسه، ص ٣٤٢.
(٢٠٧) الطبري: المرجع نفسه، ص ٧٢.

(٢٠٨) إبن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٣، جـ ١٣، ص ١٨٨.
(٢٠٩) نفسه، ص ١٩٢؛ أيضاً الأمين؛
المرجع نفسه، مجلد١، جـ٣، ص ٤٢٩
(٢١٠) الحسني، المرجع السابق، ص ١٠٩.
(٢١١) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٣، جـ١٣، ـ ١٩٤.
(٢١٢) الحسني: نفسه، ص ١٠٩.
(٢١٣) نفسه، ص ١١٠؛ أيضاً، الأمين. المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢٠.
(٢١٤) الحسني: نفسه، ص ١١٠.
(٢١٥) نفسه، ص ١٠٩، ١١٠ـ ١١١.
(٢١٦) نفسه، ص ١١٠ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ١٤.
(٢١٧) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢٣.
(٢١٨) نفسه.
(٢١٩) نفسه.
(٢٢٠) نفسه، ص ٣٢٠، أيضاً، البخاري:
المرجع نفسه، مجلد١، جـ١٥، ص ٢٩٤.
(٢٢١) سورة لأنفال: ٢٤.
(٢٢٢) الطبري: المرجع نفسه، ص ١٠١، أخرجه الحافظ الثقفي في الأربعين.
(٢٢٣) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٨١.
(٢٢٤) سورة الأنبياء: ١٠٤.
(٢٢٥) سورة المائدة: ١١٧
(٢٢٦) البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ١٨، ص ٣٧٠
جـ٢٧، ص ٥٢٩، جـ٢٩، ص ٥٦٦؛
أيضاً، الكبداني: المرجع نفسه، ص ٢٩٠، ٢٩٢؛
أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٢٢ـ ٢٣، ٢٥.
(٢٢٧) البخاري: المرجع نفسه، مجلد١، جـ١٦، ص ٣٣١.
(٢٢٨) سقيفة: ظلة، وبنو ساعدة: جماعة من الأنصار.
حيث تم الاجتماع والبيعة في حيهم. ولذلك سميت البيعة باسم المكان الذي تمت فيه.
(٢٢٩) ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد١، جـ٢، ص ١٢٧ ـ ١٢٨، ١٣٣؛
أيضاً الواقدي: كتاب الردّة، ص ٣٢ـ ٤٢؛
أيضاً البخاري: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٥، ص ٩٢، جـ١٤، ص ٢٨٧.
(٢٣٠) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ١٢٣، ١٢٤.
(٢٣١) الجزائري: المرجع نفسه، جـ١، ص ٦٠ ـ ٦١،
أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ـ ٣٢٩.
(٢٣٢) ابن أبي الحديد، المرجع نفسه، مجلد١، جـ١، ص ٥٢.
(٢٣٣) نفسه، ص ١٣٤.

(٢٣٤) البياضي: الصِّراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، جـ٢، ص ٥٤،
أيضاً المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٢٩٣.
(٢٣٥) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ١٨؛
أيضاً المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ١٨٩؛
أيضاً البياضي: المرجع نفسه، ص ٧٩.
(٢٣٦) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد١، جـ١، ص ٧٤، جـ٢، ص ١٣٢.
(٢٣٧) نفسه؛ أيضاً المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٢٩١ ـ ٢٩٣.
(٢٣٨) المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ١٩١؛ أيضاً،
البياضي: المرجع نفسه، ص ٧٩ ـ ٨٠، ولذلك يشير معاوية في رسالته إلى الإمام علي، خلال أمارته إلى تلك الحادثة ليستهجن بعلي، وما علم أن ذكره تلك الحادثة إنما يعني اشادة بفضل عليّ وأدائه لواجبه الرسالي في الأمة تجاه الله ورسوله ومما جاء في تلك الرسالة: «. . . وأعهدك أمس تحمل قعيدة بيتك ليلا على حمار ويداك في يدي ابنيك الحسن والحسين يوم بويع أبو بكر الصديق، فلم تدع أحدا من أهل بدر والسوابق إلا دعوتهم إلى نفسك. . .» لمزيد من التفاصيل انظر، ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ١٣١.
(٢٣٩) المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ١٩٢؛
أيضاً، البياضي: المرجع نفسه، ص ٨٠.
(٢٤٠) المجلسي: نفسه، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢؛
أيضاً البياضي: نفسه، ص ٨٢
(٢٤١) المجلسي: نفسه، ص ٢٠٢.
(٢٤٢) نفسه، ص ٢٠٣،
أيضاً، البياضي: نفسه، ص ٨٣.
(٢٤٣) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ١٣١ ـ ١٣٢.
(٢٤٤) المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٥٢ ـ ٥٤.
(٢٤٥) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ١٣٤؛
أيضاً العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٨؛
أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٢٩٩؛
أيضاً الجزائري: المرجع نفسه، جـ١، ص ٦٤؛
أيضاً، البياضي: المرجع نفسه، ص ٣٠١.
(٢٤٦) حافظ ابراهيم: الجزء الأول من ديوانه، ص ٨٢.
(٢٤٧) المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٢٠٥.
(٢٤٨) ابن طولون: نوادر المخطوطات (الائمة الاثنا عشر)، ص ٥٩؛
أيضاً العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٨ ـ ١٩؛
أيضاً، ابن أبي الحديد: مجلد١، جـ٢، ص ١٣٢؛
أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.
(٢٤٩) المجلسي: نفسه، ص ٢٦٢، ٢٨٢.

(٢٥٠) نفسه، ص ٢٠٦ .

(٢٥١) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ ٢، ص ١٣١ .

(٢٥٢) نفسه، ص ١٣٢ .

(٢٥٣) نفسه، ص ١٣٠ ؛

أيضاً، البياضي: المرجع نفسه، جـ ٢، ص ٢٩٦ .

(٢٥٤) البخاري: المرجع السابق، مجلد ٢، جـ ١٧، ص ٣٣٧؛

أيضاً، الواقدي: المرجع السابق، ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(٢٥٥) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ ٢، ص ١٣٢ ـ ١٣٥ .

(٢٥٦) البياضي: المرجع نفسه، جـ ٢، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ؛

أيضاً، الأمين: المرجع السابق: مجلد١، جـ٢، ص٣١٤ .

(٢٥٧) سورة الروم: ٣٨ . .

(٢٥٨) البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ ١٧، ٣٣٧ .

(٢٥٩) نفسه .

(٢٦٠) نفسه، مجلد١، جـ ١٢، ص ٢٤٠، جـ ١٥، ص ٢٩١،

مجلد٢، جـ ١٧، ص ٣٣٧ .

(٢٦١) سورة النمل: ١٦ .

(٢٦٢) سورة مريم: ٥، ٦ .

(٢٦٣) البياضي المرجع نفسه، جـ ٢، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

وهناك روايات متعددة حول تعامل رجال سلطة الخلافة مع السيدة فاطمة أثناء مطالبتها بإرثها، إلا أنّ المؤلف فضّل الاكتفاء بهذا القدر؛ حيث يتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل في الدراسة المستقلة المشار اليها في التمهيد .

(٢٦٤) الأمين: المرجع السابق، مجلد١، جص ٢، ص ٣١٥ ـ ٣١٨ .

(٢٦٥) انظر الملحق الأول .

(٢٦٦) سيتناول المؤلف مناقشة هذا الجانب في الدراسة المستقلة المشار إليها في التمهيد .

(٢٦٧) انظر الملحق الثاني .

(٢٦٨) ابن حجر: المرجع السابق، جـ ١، ص ١٢٧ .

(٢٦٩) نفسه، ص ١٢٨ .

(٢٧٠) الشطر الأخير، من البيت الثالث، يعني الوقوف للمهدي من عترة الرسول (ص) آخر خلفاء الرسول الاثني عشر في دولة النبوة، الذي يقاتل أعداء الإسلام قتالاً تقليدياً .

(٢٧١) ابن حجر: نفس المرجع، جـ ١، ص ١٢٨ .

(٢٧٢) نفسه، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٢٧٣) نفسه، ص ١٨٩ . أيضاً، البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ ٢٩، ص ٥٧٩ ؛ أيضاً، الكبداتي المرجع السابق، ص ٣٣٠ .

أيضاً البحراني: المرجع السابق، ص ١٩٥ ـ ١٩٨، ٢٢٣ ـ ٢٢٥ .

(٢٧٤) ابن حجر: نفسه، ص ١٦٣، ٢٣٧ ؛ أيضاً، الطبري المرجع نفسه، ص ١٣٦ .

(٢٧٥) ابن حجر: نفسه، ص ١٦٣؛ الطبري: نفسه؛
أيضاً، الكبداني: المرجع السابق، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣
(٢٧٦) ابن حجر: نفسه.
(٢٧٧) نفسه؛ أيضاً، الكبداني: المرجع نفسه، ص ٢٨٣
أيضاً، البحراني: نفس المرجع، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠.
(٢٧٨) سورة القصص: ٦٨.
(٢٧٩) سورة الحج: ٤٦.
(٢٨٠) البحراني: المرجع نفسه، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.
(٢٨١) نفسه، ص ٣٦٤.
(٢٨٢) البياضي: المرجع نفسه، جـ٢، ص ١٥ ـ ١٦؛
أيضاً، الشرقاوي: علي امام المتقين، جـ١، ص ٨٣ ـ ٨٤.
(٢٨٣) ابن قتيبة: الامامة والسياسة، جـ١، ص ٣١؛
أيضاً، ملا علي: تكفير المكفرين، ص ٣٠؛
أيضاً، الشرقاوي: المرجع نفسه، جـ١، ص ٧٠ ـ ٧١؛
أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨؛
أيضاً، البحراني: المرجع نفسه، ص ٢٦٤؛
أيضاً، الأمين: المرجع السابق، مجلد١، جـ٢، ص ٣١٨.
(٢٨٤) ابن قتيبة، نفسه، أيضاً ابن أبي الحديد، المرجع السابق، مجلد١، جـ٢، ص١٣٢.
(٢٨٥) انظر الملحق الثالث.
(٢٨٦) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢٠.
(٢٨٧) ابن قتيبة: المرجع نفسه، جـ١، ص٣١.
(٢٨٨) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢١؛
أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٣٠٤؛
أيضاً الحسني: المرجع السابق، القسم الأول، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٢٨٩) الطبري: المرجع السابق، ص ٥٣؛
خرّجه أبو عمر وخرّج الدولابي معناه مختصراً؛
أيضاً، الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.
(٢٩٠) الطبري: نفسه.
(٢٩١) نفسه، ص ٥٤.
(٢٩٢) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢١.
(٢٩٣) نفسه، ص ٣٢٢؛ أيضاً، الطبري: المرجع نفسه، ص ٥٤.
(٢٩٤) الأمين: نفسه.
(٢٩٥) نفسه.
(٢٩٦) البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ٣٠، ص ٥٨٨.

(٢٩٧) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢٢.

(٢٩٨) المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٣٠٤.

(٢٩٩) انظر الملحق الرابع.

(٣٠٠) الامين: نفس المرجع، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢٢؛

أيضاً، ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ١٠، ص ٥٩٨.

يذكر ابن أبي الحديد أن الشطر الأول من البيت الأخير هو: وان افتقادي واحدا بعد واحد في الأصل، إلا أنّ الناس يروونه: إن افتقادي فاطما بعد احمد.

(٣٠١) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢٢؛

أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٣٠٥.

(٣٠٢) المجلسي: نفسه.

(٣٠٣) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ٢، ص ٣١٩؛

أيضاً الجزائري: المرجع نفسه، جـ١، ص ٣٦٨.

(٣٠٤) المجلسي: المرجع نفسه، جـ٤١، ص ١٤٩؛

أيضاً، الطبري: المرجع السابق، ص ٥٢-٥٣.

(٣٠٥) الواقدي: المرجع السابق، ص ١٠٨-١٤٦.

(٣٠٦) سورة القصص: ٥.

(٣٠٧) انظر الملحق الخامس.

(٣٠٨) الجزائري: المرجع نفسه، جـ١، ص ٣٤؛

أيضاً، البياضي: المرجع السابق، جـ٢، ص ١٧٥-١٧٦؛

أيضاً، البحراني: المرجع السابق، ص ٢١-٢٦، ٢٧٤-٢٧٦.

أيضاً، العاملي، بهاء الدين محمد: المرجع السابق، ص ٩٦؛

أيضاً، البخاري: المرجع السابق، مجلد ٢، جـ٢٨، ص ٥٥٣، ٥٥٤؛

أيضاً، الكبداني: المرجع السابق، ص ١٧٧؛

أيضاً، الحسني: المرجع السابق، ص ٩٧-٩٨.

(٣٠٩) الجزائري: نفسه، ص ٣٧.

الفصل الثالث

زينب بنت علي بن أبي طالب
رائدة النضال الثالثة للمرأة الرسالية
في دولة النبوّة

١ ـ مولدها وتربيتها وظروف نشأتها.

٢ ـ زواجها، وحياتها الزوجية.

٣ ـ الظروف التي مهدت لكربلاء.

٤ ـ خروج ركب الحسين من المدينة إلى مكة وانضمام زينب للركب.

٥ ـ خروج ركب الشهادة من مكة إلى كربلاء.

٦ ـ الوصول إلى أرض الشهادة.

٧ ـ ركب الشهادة يحطّ رحاله في أرض الشهادة الموعودة.

٨ ـ تقاسم بطولة الملحمة الاستشهادية بين الإمام الحسين وأخته العقيلة زينب.

٩ ـ وسائل حركة الإمام الحسين النهضوية.

١٠ ـ زينب ورحلة السبي.

١١ ـ عودة آل رسول الله (ص) إلى المدينة.

١٢ ـ خاتمة.

إنَّ السيِّدة عقيلة الطالبيين، زينب بنت علي بن أبي طالب، تُعتبر رائدة النضال الثالثة للمرأة الرسالية في دولة النبوة، بعد جدتها خديجة وأمها فاطمة الزهراء. إلا أن المهام المقدسة التي حملتها على كتفيها وحيدة، فور انتهاء الملحمة الاستشهادية عسكريا، فاقت تضحيات سلفها، لأنها وريثة كل رزايا البيت النبوي.

وتكمن عظمتها في صعوبة الظروف التي مرّت بها ولكنها لم تعقها عن تأدية تلك الرسالة التي أعدّها البيت النبوي منذ طفولتها للقيام بذلك الدور العظيم. خديجة أدّت دورها النضالي في ظل كفيلها محمد (ص)، والزهراء أدّت دورها النضالي أيضاً في ظل كفيلها الذي وقع بين المطرقة والسّندان: بين وصية النبي (ص) التي قيدته وبين الانحراف الذي طرأ على مسيرة الأمة. فكان نهوض الزهراء من أجل كشف الحقيقة لإلقاء الحجة على الأمة، دورها الرسالي خدمة للدين والأمة، التي فضلت اختيار عيش الذل في مقبرة الأحياء الصامتة. أما زينب، فعلى الرغم من وحدتها ووقوعها وبقية آل رسول الله (ص) تحت رحمة الأعداء، إلا أنها قامت بدورها الرسالي العظيم على أكمل وجه، كما سيتضح ذلك من دراسة ومناقشة هذا الفصل.

١ ـ مولدها وظروف نشأتها:

إنَّه مهبط الوحي، بيت النبوّة، بيت القرآن، بيت الذرية النبوية، بيت الطهارة، بيت العصمة، بيت بضعة النبي، بيت الوحي، بيت الأئمة، بيت سفن النجاة، . بيت حامي حمى الإسلام بعد أبي طالب، بيت سيد العر ب ومن علّم قريش الفصاحة، بيت أفقه المسلمين وأعلمهم بعد رسول الله (ص).

في هذا البيت استقبل آل رسول الله (ص) زينب بنت علي بن أبي طالب.

وهي المولود الثالث بعد الإمامين: الحسن والحسين. عاشت في كنف والديها وجدها النبي (ص) فترة قصيرة قبل أن يروّعها الزمان ويجور أهلُه على خير البريّة. عاشت في أجواء القرآن والسنة والمعرفة الحقيقية بالحياة إلى جانب أجواء الورع والزهد والتقى. عاشت في مدرسة النبوّة، في رعاية الأم الحنون سيدة النساء وفخر دولة النبوّة. عاشت زينب، وهي طفلة، ترى والديها يعملان، فعلى الرّغم من عظمتها عند الله وعند رسوله والمسلمين فإن والدها كان يحطب ويستسقي ويكنس، وكانت والدتها كما جاء عن الإمام الصادق (ع) تطحن وتعجن وتخبز حتى أنهكتها أعباء المنزل وتربية الأطفال[1].

عاشت زينب مع والديها وأخويها، ورأت أنهم لا يردّون السائل والمحتاج حتى لو باتوا جياعا، كما مر في الفصل الأول. رُئي والدها علي (ع) حزيناً فقيل له: لم حزنك؟ قال: «السبع أتت لم يضف إلينا ضيف»[2]. ورُوي أنه حينما قسم النبي(ص) الفيء أصاب عليٌّ أرضاً، فاحتفر فيها عيناً فخرج ماء ينبع في السماء كهيئة عنق البعير لقوته، فسمّاها ينبع، فجاء البشير يبشر فقال (ع): «بشر الوارث هي صدقة بتة بتلاء في حجيج بيت الله وعابر سبيل الله لا تباع ولا توهب ولا تورث، فمن باعها أو وهبها، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبلُ الله منه صرفاً ولا عدلاً»[3].

وجاء، في تاريخ البُلاذري وفضائل أحمد، أن غلة الأرض التي وهبها علي صدقة في حجيج بيت الله وعابر سبيل الله بلغت أربعين الف دينار، ومع ذلك فقد باع سيفه يوماً، وقال: «لو كان عندي عشاي ما بعته»[4]. هذا هو الوالد الذي تربت عقيلة الطالبيين في كنفه. كان أباً ومعلماً وصديقاً وفيّاً.

لقد شاركت زينب والدتها في كثير من الظروف العصيبة التي مرت بها في حياتها سواء كان في الطفولة أم بعد النضج. فإذا كانت فاطمة قد فقدت أمها في طفولتها فها هي زينب تفقد أمها فاطمة وهي في أول شبابها وتتركها مع أخويها الحسنين يتجرعون مرارة اليتم ولوعته وهم لم يبلغوا الحلم. وإذا كانت فاطمة الزهراء قد ودعت أمها خديجة وهي في خريف عمرها، فها هي زينب حفيدة خديجة تودعُ أمها

فـاطمة وهي في ربيع عمـرها، تتركهم لقمـة سائغـة لجور الأيام وظلم الأمـة. وإذا كانت فاطمـة الزهراء قد عاشت مـع والدها النبي (ص) محنة فراق عضيـديه: أبو طالب وامها خـديجة وانفردت به قريش وزاد تعذيبها لـه والحاق الأذى به، فها هي زينب تعيش الظروف ذاتها حيث كـان الرسول (ص) والزهراء (ع) كـالعضيدين لها فكانت وفاتهما رزية. لقـد عاشت عقيلة الطالبيين في طفولتها رزايا عـديدة. الرزية الأولى تمثلت في وفـاة جدهـا النبي (ص) وحرمـانها وأمهـا وأخويها عطفـه وحنانـه وتوجيهه. والرزيـة الثانية أن الأمة قلبت ظهر المجن لـوالدها وصي رسول الله (ص) وأنكرت عليه حقه ومن ثم لكل العترة، فجلس في بيته كالطير المتكسرة أجنحته، أو كالأسد الجريح في عرينه يجمع القرآن، بعد أن شيـد صـرح الدين والدولة بسيفـه، ـ بشهـادة الأمة ــ . أما الـرزية الثالثـة فهي أن بيت العصمة ومهبط الـوحي وبيت العترة صار هدفاً لرجال سلطة الخلافة بما الحقوه من أذى بآل رسول الله وما صاحب ذلك من ترويع للأطفال الذين كانوا يحظون برعاية وإجلال رسول الله(ص) وتعظيم المسلمين لقـدرهم في حيـاته. إن مثل تلك المشـاهـد لا يمكن أن تمحى من ذاكـرة الإنسان، وخصوصـاً إذا كانت في مرحلة الطفولة. لقـد عاشت زينب مأساة ذلك اليوم الرهيب، تـرى والدها داحي باب خيبر يؤخذ مكرهـا من داره، وأُمها، بضعة رسـول الله تصرخ وتنتخي بأبيهـا رسول الله، وتشكـو خيـانة الأمـة بعـد أن ضُربت وأسقط جنينهـا الذي سماه رسـول الله (ص) محسناً[٥]. تلك المنـاظـر لا يمكن أن تغيب عن خيالها. والرزيـة الرابعة مصادرة نحلـة أمها فدك. أما الـرزية الخامسة، وهي الأهم بالنسبـة لها كطفلة فقدهـا أمها فاطمة الـزهراء، وهي لا تزال في مـرحلة الطفـولة المبكـرة. ولا شك في أنَّ تعلق الطفل وخصـوصاً الأنثى بـالأم لا يمكن أن يعوَّض بحنان امرأة أخرى.

وهناك فرق آخر بين رحيل كلٍّ من خديجة وفاطمة، فخديجة كانت معززةً مكرمةً باستثناء قسوة الحياة التي عاشتها في الشعب. بينما فاطمة كان موتها نتيجة ما لحقها من ضرب واجهاض يوم هاجم رجال سلطة الخلافة بيت العترة.

ولذلك فإن المتمعّن بكلمات الإمام علي (ع) بعـد دفن فاطمة (ع) وتحويل وجهه جهة قبر رسول الله (ص) يناجيه، يحس بخجل الإمام علي من رسول الله (ص) تجاه

مـا حدث لفـاطمـة من ايذاء رجـال سلطـة الخلافة لها دون أن يتمكن من نجـدتها لالتزامه بوصيته .

وكما تحمَّلت فـاطمة الـزهراءُ مسـؤوليـةً تجاه والدهـا في سن مبكرة ، بعـد رحيل والدتها خـديجة ، ها هي زينب تتحمل بالمثل مسؤوليـة تجاه أخويها الحسن والحسين ووالدها ، وهي لا تزال طفلة . وإذا كانت فاطمة الزهراء قد تجرعت في طفولتها أذى قريش ، وخصوصاً أيام الشعب ، فها هي طفلتهـا زينب تتجرع كأساً أشد مرارة من الكأس الذي تجرعته أمُها . فتكون تلك الرزايا ميراثها وعزاءها لأن ما كانت تخبئه لها الأيام لا يقل هولاً عما حدث .

كذلك تلتفت إلى والدها فتجده وحيداً فريداً لم يصفُ له من الأمة سوى أربعة ، لزموا صحبته : سلمان وابو ذر وعمار والمقـداد . فتتعلم منه الصبر ليكون زادها الذي ستـواجه بـه جـور الأمـة على العترة . وصبر علي لا يمكن أن يفـوقه إلا صبر رسـول الله(ص) في مواجهة أذى قـريش له ولأتباعه مـن أوائل المسلمين طوال ثلاث عشرة سنة من البعثة في مكة .

وسمعت زينب ، كما سمع أخواهـا وباقي مجتمع المدينة الكثير من أقـوال الإمام علي (ع) ، التي تعبر عن صبره ودوافع ذلك الصبر . وقـال عن تظلمـه من قـريش واغتصابهم حقـه : «وقد قال قـائل إنك على هذا الأمر يـا ابن أبي طالب لحريص . فقلت : بل أنتم والله لأحرص وأبعـد وأنا أخصُّ وأقـرب ، وإنما طلبت حقاً لي وانتم تحولون بيني وبينه وتضربون وجهي دونه . فلما قرعته بالحجة في الملأ الحاضرين هبَّ كأنه بُهت لا يدري ما يُجيبني به . اللهم إني استعديك على قريش ومن أعانهم فإنهم قطعوا رحمي وصغَّروا عظيم منزلتي وأجمعوا على منـازعتي أمراً هو لي : ثم قالوا : « ألا إنَّ في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تتركه»(٦) .

إن الإمام علي يشير، في هذه الكلمات إلى محاججته رجال سلطة الخلافة بالمسجد النبوي لاغتصابهم حقه .

إنـه يتحـدث عن المظلـومية فهو يشكـو، في هـذه الكلمات ، أمـام حشـد من المهاجرين والأنصار لا لتثويرهم ضد سلطـة الخلافة وإنما ليوجه من خلالهم رسالة

إلى أجيال دولـة النبوّة المتعاقبـة لتعريفهم حقيقة مـا حدث من مظلوميـة لآل رسول الله(ص) فـور لحاقـه بـربـه. إنه يقـول: إن رجـال سلطـة الخلافـة لم يقتصروا على اغتصابي حقي ساكتين عن الدعـوى، ولكنهم أخذوه وادعوا أن الحق لهم وأنّه يجبُ عليَّ أن أترك المنـازعة فيه. فليتهم أخـذوه معترفين بأنه حقي فكـانت المصيبة أخف وأهون[٧].

ويقصد الإمام علي أنَّ الخطأ، من قبل سلطة الخلافة، كان مضاعفاً لظلمهم آل رسول الله (ص) باغتصـاب الخلافة، وإجبار وصي رسول الله (ص) على المبـايعة، ويعني ذلك إكراهـه على التخلي عن عهد عهـده إليه رسـول الله (ص)، بمعنى أنّه أجبر على معصية رسول الله (ص) ومن ثم على معصية الله. وخلاصة ذلك أن بيعة السقيفة، كانـت خيانة الأمة لعهـد الله ورسوله، وقد أجبر الإمـام علي على مشاركة الأمة تلك الخيانة. وهذا عدا مـا لحق بآل رسول الله من أذى، كما اعترف بذلك أبو بكر في نهاية حياته كما مرّ في الفصل الثاني.

ومن الكلمات التي تعلمت منها زينب مظلومية والدها وبقيّة آل رسول الله(ص) خطـاب أبيها في النـاس بمناسبـة رفضـه عرض أبي سفيـان وعمه العبـاس وغيرهما لمبايعته، بعد أن تمت مبايعة أبي بكر، حيث قـدم أبو سفيان المدينة بعد الانتهاء من بيعة السقيفة، فقال الإمام علي:

«أيها الناس، شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق المغامرة وضعوا تيجان المفـاخرة، أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح. هذا مـاء آجن، ولقمة يغُصُّ بها آكلها. ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزراع بغير أرضه فإن أقل يقولوا حرص على الملك، وإن أسكت يقـولوا جزع من الموت. هيهات بعـد اللتيا والتي، والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه، بل اندمجت على مكنون علم لو بحتُّ به لاضطربتم اضطراب الأرشية[٨] في الطَّوي[٩] البعيدة[١٠]».

في عهد الرسول (ص) ظلَّ سيف علي مسلولاً طوال حياته جاهد به الشرك وأهله من أجل إعـلاء كلمة الحق ونشر الـدين وحمايـة الأمة ودولـة النبـوّة، فها هـو يضع سيفـه في غمـده بعـد رسـول الله (ص) مـن أجل الأهـداف نفسهـا لتبقـى الأمـة

موحدة. لذلك رفض علي مبايعة أبي سفيان له ونهره، لأن علياً يعرف ما في نفس أبي سفيان من حقد دفين على الإسلام وأهله، لفقدانه زعامته وتضرر مصالحه.

فقد كان إسلامه يوم فتح مكة استسلاماً، عن رهبة لا عن رغبة، ففسر الإمام حركته تلك بنية سيئة ضد سلامة الدين ووحدة الأمة.

علي في هذه الكلمات البليغة، يحث الناس على وحدة الكلمة والقضاء على الفتن بالتمسك بسفن النجاة وهم أهل البيت النبوي، حيث رُوي عن الرسول(ص) في ذلك أحاديث متواترة عند محدثي المدرستين الإمامة والخلافة. جاء من طرق عديدة يقوي بعضها بعضاً، كما ذكر ابن حجر: «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا». وفي رواية مسلم: «ومَن تخلف عنها غرق»(١١).

وعن أهمية أهل البيت للأمة ودورهم الإلهي فيها روي كذلك عن سعيد بن المسيب عن أبي ذر قال: «قال رسول الله (ص): الأئمة بعدي اثنا عشر، تسعة من صلب الحسين تاسعهم قائمهم». ثم قال (ص): «ألا إن مثلهم فيكم مثل سفينة نوح مَن ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك، ومثل باب حطة في بني إسرائيل»(١٢).

وفي المعنى نفسه عن دور آل رسول الله (ص) في الأمة رُوي عن سعيد المقري عن أبي هريرة قال: «قلتُ لرسول الله (ص): إنّ لكل نبيّ وصياً وسبطين فمن وصيُّك وسبطاك؟ فسكت ولم يرد جواباً، فانصرفتُ حزيناً. فلما حال الظهر قال: «ادنُ يا أبا هريرة»، فجعلت أدنو وأقول: أعوذُ بالله من غضب الله وغضب رسول الله، ثم قال: إن الله بعث أربعة آلاف نبي وكان لهم أربعة آلاف وصي، وثمانية آلاف سبط، فوالذي نفسي بيده لأنا خير النبيين ووصيي خير الوصيين، وأنّ سبطيَّ خير الأسباط: الحسن والحسين (عليهما السلام) سبطي هذه الأمة، وإن الأسباط كانوا من ولد يعقوب وكانوا اثني عشر رجلاً، وأن الأئمة من بعدي اثنا عشر من أهل بيتي، عليٌّ أولهم وأوسطهم محمد وآخرهم محمد، وهو مهديُّ هذه الأمة الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه، ألا إنّ مَن تمسك بهم بعدي فقد تمسك بحبل الله، ومن تخلف عنهم فقد تخلى عن الله»(١٣).

تربت زينب في بيت مَن قال فيه رسول الله (ص) بإجماع رواة الحديث من

المدرستين: «أقضاكم علي»، و «علي أقضى الأمة»[١٤]. فهو إذن أفقههم. ولذلك قال فيه عمر بن الخطاب بعد تجربته الطويلة معه خلال عهد رسول الله (ص)، وعهد أبي بكر، وعهده: «لولا علي لهلك عمر، لا بقيتُ لمعضلة ليس لها أبو الحسن، لا يفتينّ أحد في المسجد وعليٌّ حاضر»[١٥].

وينقل ابن أبي الحديد أنه خلال خلافة عمر أيضاً استعدى رجل على علي بن أبي طالب (ع) عمر بن الخطاب وعلي جالس فالتفت عمر إليه فقال: «قم يا أبا الحسن فاجلس مع خصمك فقام فجلس معه وتناظرا ثم انصرف الرجل ورجع علي (ع) إلى مجلسه فتبين عمر التغير في وجهه. فقال: يا أبا الحسن ما لي أراك متغيّراً أكرهت ما كان؟ قال: «نعم». قال: وما ذاك؟؛ قال: «كنيتني بحضرة خصمي هلا قلت: قم يا علي فاجلس مع خصمك». فاعتنق عمر علياً وجعل يقبّل وجهه وقال: بأبي أنتم بكم هدانا الله وبكم أخرجنا من الظلمة إلى النور»[١٦].

ولما كان علي أفقه الناس في دولة النبوة، بعد رسول الله (ص) فقد أخذ عنه فقهاء الصحابة كعبد الله بن عباس المعروف بحبر الأمة. كما أن فقهاء مدرسة الخلافة الأربعة وغيرهم أخذوا علومهم عن علي، بشكل مباشر أو غير مباشر. فقد قرأ أبو حنيفة على جعفر بن محمد الصادق (ع) وينتهي علم جعفر إلى علي، وعن أبي حنيفة أخذ بقية فقهاء مدرسة الخلافة بعضهم عن بعض أيضاً بوسائل مختلفة[١٧].

لقد كان علي سعيداً بذلك لتأدية واجبٍ من واجبات الإمامة وهو حماية حدود الشريعة، وتلك حسنة من حسنات سلطة الخلافة لأنها رأت أن لا غنى عن فقه حامي الشريعة وعلومه الإلهيّة التي تعلمها من النبي (ص).

تربت زينب ونشأت وتعلمت على يدي مَن قال فيه رسول الله (ص): «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأتِ الباب»، و «أنا دار الحكمة وعلي بابُها»، و «علي باب علمي»[١٨]. ورُوي عن الإمام علي أنه قال: «إسألوني قبل أن تفقدوني عن كتاب الله ما من آية إلا وأنا أعلم حيث نزلت، وما من فتنة إلا وقد علمتُ كبشها، ومَن يقتلُ فيها، والعلم بما يكون لا يكون إلا للرسول لقوله تعالى:

﴿عـالم الغيب فـلا يظهـرُ على غيبـه أحــداً إلا مَن ارتضى من رسـول . . .﴾[١٩]. والرسول يطلع الإمام ليستدل به على استحقاقه لذلك المقام[٢٠].

وتعلمت زينب وأخواها القرآن وعلومه على يديه .

ومما جاء في وصف علي للقرآن وأهميته في حياة الأمة :

«جعلـه الله ريّـا لِعَطَشِ العلماءِ، وربيعـاً لقلـوب الفقهـاء، ومحاجّ لطُـرُقِ الصُّلحـاء، ودواء ليس بعده دواءٌ، ونـوراً ليس معه ظلمـةٌ، وحبلاً وثيقـاً عُروتـه . ومعقلاً منيعاً ذِروتُه وعِزّاً لمن تـولّاه . وَسِلْماً لِمن دخله . وهُدى لمن أتمَّ به، وعُذراً لمن انتحله، وبُرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاجّ به . وحامِلاً لمن حمَلَـهُ، وَمطيّـةً لِمن أعملـه، وآيـةً لمن تـوَسَّم وجنَّـةً لمن استـلأم وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحُكماً لمن قضى»[٢١].

وتعلمت زينب وأخـواها إلى جـانب القرآن وعلـومه والسنـة النبويـة الشريفة، الفصاحة والبلاغة على يدي والدهم الـذي مدح فصاحته أشد الناس عداوة للعترة معاوية بن أبي سفيان بقوله : «إن علياً هو الذي سنَّ الفصاحة لقريش»[٢٢]. ومنزلة قريش الأدبية وشهرتها معروفة تماماً عند جميع العرب . وكتاب نهج البلاغة الذي جمع فيه الشريف الرضي ــ أحد علماء مدرسة الإمامية البـارزين ـ خطب الإمام علي (ع) خير دليل على مستوى فصاحتـه وبلاغته وقد قيل فيه : إنَّ كـلامه دون كلام الخالق وفوق كـلام المخلوقين، ومنه تعلم النـاس الخطابة والكتـابة، فكيف بأولاده فهـم أولى بذلك وأجدر، فهو إمـام الفصحاء وسيد البُلغاء[٢٣]. كـان علي لأولاده الأب والمعلم والصديق والمربي . أصبح حـاضناً لأيتـامه بعد رحيل عضيـديه النبي(ص) وفـاطمة في فترة قصيرةٍ بينهما، كما كـان فقـد النبي لعضيـديـه : خديجة وعمـه أبي طالب .

حق لعلي أن يحزن، وحق له أن يحمـل هم تربية العيـال وهم لا يزالـون أطفالاً، أصبحوا أيتاماً من الجد والأم في سن مبكرة من حياتهم . وكان يقول :

ما إن تأوّهتُ مـن شيء بليتُ به   كما تأوّهتُ لـلأيتـام في الصغـر

فهو المعلم الأكبر بعد رسول الله (ص) لأنه آيته . ولذلك وجب عليه أن يتحمل

هموماً تزول منهـا الجبال وتنهدُ هدّاً، وهـو صامد لا يزول ولا يتـزعزع. فغذّى أولاده بصبر الإمامـة، فأخلاقياته امتـداد لأخلاقيات النبـوّة. أسند ابنُ قرطبة في مـراصد العرفان إلى زيد بن حارثـة: «أن رسول الله (ص) بايعنا على أن نحفظه في نفسه وفي علي بن أبي طـالب، وقـال: أعطـى الله تعـالى العصـا لموسى، والكلمات لإبـراهيم وأعطاني هـذا ـ يعني علياً ـ ولكل نبي آيـة، وهذا آيتي والأئمة الطّاهـرون من بعده آيـاتُ الله، ولم تخلُ الأرض من الإيمان مـا بقـي أحـد من ذريتـه، وعليهم تقـوم الساعة»[٢٤].

لذلك فلا عجب في تميُّزه أنه معجزة النبي بعد القرآن، ومن هنـا جاء التلازم في حديث الثقلين بين القرآن والعترة.

نهلت زينب وأخواها من علوم النبوة، كما تعلموا الفصاحة والبلاغة من والدهم الذي غمرهم بحنـانه وأغدق عليهم من فيض حبه، فهم سلوته بعـد غياب الأحبة وخذلان الأمـة وغياب النـاصر. تخلقت زينب وأخواهـا بأخلاق النبـوة، إلى جانب اتقانهم للقرآن والسنة وعلم الفقه واللغة. فقد تعلموا من والدهم ووالدتهم التواضع والحلم وبساطة العيش والكـرم والورع والزهد والتقوى، فكـانت هذه كلها حليتهم في الحياة الدنيـا، كما ورثوا عن والدهـم الشجاعة والإقدام، وكـذلك كانت والدتهم بضعة الرسول (ص).

لم ينحصر جود علي في السلم فقط، فقـد كان جواداً في الحرب أيضـاً. ذلك أنه كما يروى تنازل عن سلاحه الـذي يحاربُ به لخصمه في عهد رسول الله (ص) خلال المبـارزة، حينما طلب المبارزُ سيف علي. فقـد روي أن عليـاً كان يحارب رجـلاً من المشركين في إحدى الغزوات، فقال المشرك: «يـا ابن أبي طالب هبني سيفك، فرماه إليه، فقال المشرك: يا ابن أبي طالب في مثل هذا الوقت تدفع إليّ سيفك؟ فقال: يا هذا إنك مددت يد المسألة إليّ، وليس من الكرم أن يرد السائل. فرمى الكافر نفسه إلى الأرض، وقـال: هـذه سيرةُ أهل الـديـن، فقبّل (في المصـدر: فبـاس) قـدمـه وأسلم»[٢٥].

لقـد تربت زينب وأخـواها في بيت مَن قـال فيه رسـول الله (ص): «هذا سيـد العرب»[٢٦]. وقد جهلت الأمة حقه كما جهلت حـق ذريته وقدرهم، بعد أن جعل

الله إمامته إكمالاً للدين وإتماماً للنعمة الإلهية على المؤمنين. سُئل الإمام الصادق (ع) عن قوله تعالى: ﴿**يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها...**﴾[٢٧]. قال: «يعرفونها يوم الغدير وينكرونها يوم السقيفة»[٢٨]. وجاء عن الإمام الصادق (ع) تحميله رجال سلطة الخلافة مسؤولية الدماء التي تراق في دولة النبوة منذ بيعة السقيفة إلى يوم القيامة[٢٩] إنّه لما كان قتل قابيل لأخيه هابيل بداية لتأسيس الظلم على وجه الأرض، فإن ظلامة آل رسول الله (ص) بعقد بيعة السقيفة هي البداية لتأسيس الظلم في دولة النبوة وجر المحن وتواليها على الأجيال المتعاقبة لأمة محمد (ص) من قبل الحكومات الجائرة التي كانت وليدة ذلك اليوم.

إن الإمامة أخت النبوَّة وهما ركنان من الإيمان، وجاء تثبيت الإمامة في غدير خم في الثامن عشر من ذي الحجة السنة الحادية عشرة للهجرة إيذاناً بنهاية المطاف لإنجاز الرسالة السماوية بواسطة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (ص)، وإيذاناً كذلك بإقتراب رحيلة من دار الدنيا إلى نعيم الخلد في دار الآخرة.

وعن دور الإمام في حياة الأمة قال الإمام علي (ع): «أنا صراط الله المستقيم وعروته الوثقى التي لا إنفصام لها»[٣٠]. يعني أن معرفته والتمسك به طريق إلى معرفة الله سبحانه. وعن إرتباط الإمام علي بالنبي (ص) وكونه إمتداداً له قال (ع): «أنا من محمد (ص) كالضوء من الضوء، والضوء الثاني مثل الأول لا مستقل ولا أجنبي بل هو كالمالك المتصرف في الملك بتمليك مالك الأول»[٣١]. فعلي يوضح للأمة أنه صنو النبوَّة، فشجاعته من شجاعته، وعلمه من علمه، وأخلاقه من أخلاقه، فهذا إمتداد لحياة النبوَّة ونسخة أصلية منه لا يمكن أن يرقى إليها سائر البشر، وأن التميز بينهما النبوَّة، كما وضح النبي (ص) ذلك لعلي يوم خروجه إلى غزوة تبوك وتخليفه في المدينة ليحل محله بقوله: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي»[٣٢].

ومن كرامات علي عند الله ورسوله أن جعل حبه معياراً للتمييز بين المؤمن والمنافق، عن أنس بن مالك قال: «لما نزلت الآيات الخمس في طس ﴿**أمن خلق السماوات والأرض... إن كنتم صادقين**﴾[٣٣]. إنتفض علي إنتفاض العصفور فقال له رسول الله (ص): (مالك يا علي؟ فإنه لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق،

ولولا أنت لم يعرف حزبُ الله)[٣٤]. فالأئمة وفي مقدمتهم علي والموالين لهم السالكون طريقهم هم حزب الله، كما يدل عليه الحديث الشريف.

وعلى الرغم من تعاونه مع سلطة الخلافة الواقعية خصوصاً خلال خلافة أبي بكر وعمر حيث حظى بإحترامهما وتقديرهما لحاجتهما إليه فكان يزودهما بمشورته ونصائحه إلا أنه حدثت تجاوزات عديدة لم يتمكن من إيقافها خصوصاً في خلافة عثمان بن عفان لأنه لم يكن يملك السلطة السياسية. وكثيراً ما ضاق عثمان ذرعاً بمشورته خصوصاً في نهاية حياته. وكان الإمام علي يبث همومه أولاده والصفوة من أصحابه في بعض الأحيان ليكونوا على علم بكل تلك التجاوزات التي تحدث للدين ولمصالح الأمة ومقدراتها.

وقد وصف الإمام علي بإيجاز ما قام به عثمان بن عفان الخليفة الثالث تجاه دولة النبوَّة من أخطاء بقوله:

«إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه[٣٥] بين نثيله[٣٦] ومعتلفه وقام معه بنو أبيه يخضمون[٣٧] مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث[٣٨] فتله وأجهز[٣٩] عليه عمله وكبت[٤٠] به بطنته»[٤١].

يصور الإمام على ما لحق بدولة النبوَّة من إستغلال لمقدراتها وإلحاق الأذى بأبنائها خصوصاً الآمرين بالمعروف حينما تولى عثمان بن عفان حكم المسلمين وهو ثالث رجال سلطة الخلافة الواقعية الذي فتح الباب على مصراعيه للأمويين والمروانيين الذين حذر الرسول (ص) منهم في أحاديث متواترة عند رواة ومحدثي المدرستين. فيصور الإمام علي (ص) تلاعب الأمويين بمقدرات الأمة ومصادرتها كما تقبل الإبل على أكل نبات الربيع بنهم. وكان ختام عهد سلطنة الخلافة مأساوياً بالنسبة لإنتهاك حدود الله والإساءة إلى الأمة ودولة النبوَّة وتمثل ذلك في الأخطاء الشنيعة التي أرتكبت في حق الإسلام والمسلمين في عهد عثمان وهي: [٤٢].

١ ـ رد الحكم بن العاص (طريد رسول الله) بعد أن نفاه النبي ومنع دخوله المدينة إلى الأبد قائلاً له: «لا تجاورني حياً وميتاً»، علماً بأن أبا بكر وعمر رفضا إعادته حينما طلب منهما ذلك، إلا أن عثمان أعطاه مئة ألف درهم وأعاده.

٢ ـ نفى أبي ذر من المدينـة إلى الشام ثم من المدينـة إلى الربذة حتى مـات وحيداً فريداً، وبذلك قرب عثمان من أبعده رسـول الله وهو الحكم، وأبعد من قربه رسول الله (ص).

٣ ـ طلب منه عبد الله بن خالد بن أسير صلة فأعطاه أربعمئة ألف درهم.

٤ ـ تصديق رسـول الله (ص) بموضع سوق بالمدينـة يعرف بنهروز على المسلمين فأقطعه عثمان الحرث بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

٥ ـ اقطـع عثمان مروان بن الحكم فـدك نحلة الـزهراء التي حـرمتها منهـا سلطة الخلافة منـذ بداية حكمهـا بعد وفاة الرسـول (ص) وظلت فدك يتوارثهـا آل مروان حتى أعادها العبـدُ الصالح عمر بن عبد العزيـز إلى ورثة فاطمة الزهـراء بالمدينة في عهده.

٦ ـ حمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلا عن بني أمية.

٧ ـ أعطى عبـد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليـه من فتح افريقيه بـالمغرب وهي من طـرابلس الغرب إلى طنجـة من غير أن يشركه أحـد من المسلمين، كما ولاه مصر.

٨ ـ أعطى أبـا سفيان بن حرب مئتي ألـف من بيت المال في اليوم الذي أمـر فيه لمروان بن الحكم بمئة ألف من بيت المال، وقد كان زوجه ابنته أم أبان.

٩ ـ أتاه أبو موسى بأموال كثيرة من العراق فقسمها كلها في بني أمية.

١٠ ـ أنكح الحرث بن الحكـم ابنته عائشـة فأعطاه مئة ألـف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيد بن أرقم عن مسؤولية بيت المال لتذمره من هذا التلاعب.

١١ ـ ضرب عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل حتى كسر أضلاعه.

١٢ ـ ضرب غلمان عثمان عمار بن يـاسر حتى انفتق بطنـه وكسروا ضلعـاً من أضلاعه.

١٣ ـ عثر على نسخة من كتاب موجه الى معاوية يأمره بقتل بعض المسلمين.

١٤ ـ أحاط نفسه ببطانـة من بني أمية وآل مروان وفي مقدمتهم مروان بن الحكم الذي أصبح الخليفة الفعلي لدولة النبـوَّة في عهده، مما أدى إلى تأليب الرأي العام في أقاليم الدولة ضده ومن ثم مقتله. كل ذلك حدث وعلي وصي رسول الله والإمام من بعـده بمسمع وبمنظر. كل هـذه التجاوزات طيلـة ربع قرن منـذ موت رسـول الله (ص) إلى مقتل عثمان وهـو يعيش تلك الإنتهـاكـات للـدين وحـدوده ولمقـدرات المسلمين، وقـد شلَّت يمناه وكتفتـه وصيـةُ الرسـول وفقـدان الناصر، وهـذا معنى قولـه(ع): «وطفقت أرتأى بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخيـة عمياء»(٤٣) وصف تلك الفترة التي غـاب فيهـا النـاصر وكثـرت بها التجاوزات والإنتهـاكـات كـالليل البهيم والمظلم لكثرة المظـالم التي حلت بالأمـة ونهب ثرواتها والتعـدي على حرمـات الله. هذه هي الظـروف العصيبة التي عاشتهـا زينب مع والدهـا وأخويها كانت ظلامة العترة هي البداية وقد غاب عن الأمة الأبعاد الحقيقية التي ستترتب على تنكرهم لعهدهم لرسول الله (ص) لقـد خانت الأمة الثقلين الثقل الأكبر كتاب الله والثقل الأصغر العترة أنهما الجدار الأمني لحرمـة الدين والأمـة فإذا انتهكت حرمتهما ورضيت الأمة بذلك فلن تقوم لها قائمة وهذا ما حصل.

تخرجت زينب بنت علي بن أبي طـالب من حجـر النبوَّة ومـدرسـة الإمامـة، إنها سليلة البضعـة النبويـة، نشأت فصيحة بليغـة حتى أنها أفحمت أعداءهـا في عقر دارهم حيث أخـرستهم الخطب لحسن منطقها وعمـق بلاغتهـا وفصاحتهـا مع أنها كانت مسبيه وتحت رحمة أولئك الأعداء كموقفها مع عبيد الله بن زياد والي الكوفة في قصر الإمـارة ومع يـزيـد بمجلسـه في القصر الأخضر بـدمشق كما سيتضح ذلك لاحقاً. أمها فـاطمة الزهراء وجـدتها خديجة بنت خويلد وأبـوها علي بن أبي طالب وجـدودهـا النبي (ص) وخـويلـد وأبـو طـالب وشقيقـاهـا السبطـان الحسن والحسين(ع). لقـد حـازت شرف النسب العالي في قـريش إلى جـانب شرف النبـوَّة وشرف الإمامة وشرف العلـم والفصاحة والبلاغـة والأخلاق الإيمانية كالـزهد والورع والتقوى والصبر والتواضـع والحلم. إن شجرة نسبها من أعلى الأشجار قـدراً ومنزلة عند الله وعنـد الناس. فكـانت بحق نموذجـاً مشرفاً للمـرأة الرسـالية بعـد جدتها

خديجة وأمها فاطمة. من ألقابها العقيلة وفخر المخدرات وعقيلة الطالبيين.

٢ ـ زواجها وحياتها الزوجية:

تزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر (الطيار) بن أبي طالب. أمه أسماء بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم، وأبوه جعفر بن أبي طالب الملقب بالطيار لاستماتته في الدفاع عن الإسلام في غزوة مؤته السنة الثامنة من الهجرة، التي استشهد فيها وعوضه الله بجناحين يطير بهما في الجنة بعد قطع يديه في تلك المعركة الحاسمة. وقد وُلد عبد الله بن جعفر في الحبشة خلال هجرة والديه إليها فراراً بعقيدتهم من مطاردة قريش للمسلمين فكانت الحبشة الملاذ الأول للمسلمين قبل الهجرة إلى المدينة. ومن أبرز الصفات التي اشتهر بها عبد الله الجود لذلك لقب بالجواد(٤٤).

وعلى الرغم من ترحيب علي بن أبي طالب بتزويج ابنته زينب لإبن أخيه عبد الله ابن جعفر إلا أنه إشترط عليه ضمن العقد أن لا يمنعها من الخروج مع أخيها الحسين (ع) إلى العراق(٤٥). ولا شك أن الإمام علياً قد علم من رسول الله (ص) بما يجري عليه وعلى ذريته من ظلم الأمة وجورها عليهم. وإن إصرار الإمام علي في اشتراطه على ابن أخيه يعكس علامتين بارزتين الأولى أن إلتحاق السيدة زينب بالحسين في معركة الشهادة بكربلاء هو عمل مقدس لأنها ستقوم بدور عظيم بعد الحسين حيث ستحمل بعد إنتهاء المعركة المسلحة رسالة الإستشهاد لتبليغها إلى الأمة. والثانية أنه على الرغم من أن العمل الذي ستقوم به هو عمل رسالي إلا أنه لا بد وأن يكون عن إذن من زوجها. فثبت الإمام علي الشرط خشية وقوع المحذور. وإلى جانب هذا وذاك كشف الإمام علي علمه بالأحداث المستقبلية التي زوده بها النبي (ص) ورُزقت زينب من ابن عمها عبد الله أربعة أولاد: علي وعون ومحمد وعباس، وبنتاً واحدة هي أم كلثوم(٤٦). وقد وفى عبد الله بن جعفر بوعده حينما أذن للسيدة زينب بمصاحبة أخيها حينما سار في ركب الشهادة إلى كربلاء وتوّج ذلك

الإلتزام أن قدَّم ولديه عوناً ومحمداً قربانين لدين الله حيث إستشهدا بين يدي خالهما الحسين وبحضور أمهما زينب[٤٧].

إن انتـداب الإمام علي السيـدة زينب لتكـون شريكـة الإمـام الحسين في نضالـه بكربـلاء يعكس مكـانة هـذه المرأة وعظمتها ودورهـا الرسـالي. فكما صاغ الـرسول وخديجة شخصية فاطمة الزهراء، فإن شخصية السيدة زينب هي من صياغة فاطمة الزهـراء وعلي بن أبي طالب. لقد هيأها الإمـام علي (ع) لذلك الدور الرسـالي الذي أذهل الأعــداء قبل الموالين، وستتضح عظمـة هــذا الـدور فيما بعــد. وكما كـان الرسول(ص) متعلقاً بفاطمة، كذلك كانت علاقة الإمام علي (ص) بالسيدة زينب على الـرغم من زواجها فقـد كـانت حريصـة على الإستفادة مـن علمه وتـوجيهاتـه وأخلاقه المثـالية إلى جانب حبه وحنـانه الأبوي. لقد رافقتـه خلال فترة إقصائه عن السلطة ولمست عن قرب مدى آلامه وشكاويه وتظلماته مما حل بالأمة نتيجة تنكرهم لحقه، كما كانت قريبة منه خلال تسلمه مقاليد الحكم.

٣ ـ الظروف التي مهدت لكربلاء:

لقد عـاش علي بن أبي طالب صابـراً على أمره خمسا وعشرين سنة خـلال سلطة الخلافـة كما غُلب الـرسـول (ص) على أمـره وحـــوصر في شعب أبي طـالب بمكـة وعاشت السيدة زينب مع والدها وأخويها آلام العترة وكل الإنحرافات التي حدثت خصـوصاً في عهـد عثمان بن عفان كما مـر ذكر نبـذة مختصرة عن أخطائه. كـذلك عاشت السيدة زينب فترة حكم والدها لدولـة النبوَّة وفرح المؤمنون بعهده كما استاء أصحـاب الأطماع والشهوات من سيـاسته فثـاروا عليـه حيث لم يدم عهـده إلا فترة قصيرة (٣٥ ـ ٤٠ هـ). بعد مقتل عثمان بن عفان الخليفة الثالث فقد أجمع على بيعة علي أهل الحل والعقد ولم يوافق إلا بعد إلحاح شديـد من كبار المهاجرين والأنصار. ويصف الإمام علي مشهد الجماهير المحتشدة التي إنهالت عليه للمبايعة بقوله: «فما راعني إلا والناس كعُرف الضَّبُع إليّ ينثالون[٤٨]عليّ من كل جانب. حتى لقد وُطِيء الحسنان، وشُقَّ عِطفاي[٤٩]، مجتمعين حولي كربيضة الغنم»[٥٠]. فعلي أعجبه أمر الناس وهم ينصبون عليه كانصباب الماء مجتمعين حوله كإجتماع الغنم حول راعيها.

ومع أن نفراً من كبار الصحابة إمتنعوا عن بيعته مثل عبد الله بن عمر، سعد بن أبي وقاص، حسان بن ثابت وزيد بن ثابت إلى جانب ثلاثة نفر آخرين بالإضافة إلى الأمويين والمروانيين[٥١]، إلا أن علياً أبى أن يذل أولئك النفر من كبار الصحابة على الرغم من تخلفهم عن بيعته واكتفى بقوله: «أولئك قوم خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل. تخلفوا عن الحق ولم يقوموا مع الباطل»[٥٢]. لم يقاتلهم كما فعل غيره، ولم يتهمهم بالإرتداد عن الاسلام لأنهم تخلوا عن بيعته كما فعل غيره مع أنه وصيُّ رسول الله وبيعته واجبة في أعناقهم.

ولذلك كان مما قاله حينما تولى مقاليد حكم دولة النبوَّة يقارن بين مكانة عترة الرسول وأهليتهم لقيادة الأمة وبين من تقدم عليهم وحالوا بين العترة وحقهم: «زرعوا الفجور، وسقوه الغرور وحصدوا الثُّبور لا يقاسُ بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد ولا يُسوَّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائصُ حق الولاية، وفيهم الوصية والوِراثة. الآن إذ رجع الحقُّ إلى أهله، ونُقِلَ إلى منتقله»[٥٣]. إنه يشير إلى الذين أسسوا ظلم آل محمد (ص) منذ وفاته، ومع الجهود التي بذلوها لإقصائهم عن قيادة الأمة إلا أن تلك الجهودَ ذهبت أدراج الرياح وقد عاد الحق إلى نصابه. أراد علي أن يمارس حكم الله في الأرض. علي أراد أن يعيد لدولة النبوَّة نضارتها وعزتها كما كانت أيام رسول الله. أراد أن يحيي سُنة الرسول(ص) ويعمل بجوهرها، إلا أنه قد مضى على رحيل الرسول (ص) ربع قرن من الزمن وغيَّر المال نفوس الناس كما توقع رسول الله (ص) للأمة في أحاديث متواترة عند رواة ومحدثي المدرستين. ولذلك ثار عليه الناكثون والقاسطون والمارقون كما أخبره الرسول(ص) وأخبر الأمة بذلك. روى كل من أبي يعلى والبزار أن علياً قال على المنبر في مطلع خلافته بالمدينة: «عهد إليَّ النبي (ص) أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين»[٥٤]. كما أكد الإمام علي في إحدى خطبه بمسجد الكوفة قبيل وفاته على تظلمه من تظاهر الأمة عليه وخذلانه وإشارته الى الفرقَ الثلاث التي قاتلها بقوله: «فلما نهضتُ بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون»[٥٥] ويقصد بالناكثين زعماء حرب الجمل وهم طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين الذين فضح علي تآمرهم مع معاوية عليه

حيث إستخدمهم جنوداً لتنفيـذ تطلعاته للحكم(٥٦)، أما القاسطـون فهم بنو أمية وأما المارقون فهم الخوارج. لقد ضرب علي المثل الأعلى للتواضع والزهد خلال حكمه والمشهـور عن الإمام علي أنـه لم يبنِ لبنة على لبنـة ولا قصبة على قصبـة(٥٧). وحينما إنتهى من معـركة الجمل في البصرة قـدم الكوفة في رجـب سنة ٣٦ من الهجـرة ومعه أشراف البصرة، فخرج أهل الكـوفة لإستقبـاله قبل دخـولها يهنئونـه بالنصر. وحينما عرضوا عليـه النزول في القصر الأبيض الذي كان معداً لسكنـاه أبى قائلاً: «لا أنزلُ القصر، ولكني أنزلُ الرحبة»(٥٨) وهي ساحـة المسجد الجامع، فنـزلها وأقبل ودخل المسجد فصلى ركعتين. فبنى له أهل الكوفة منـزلاً صغيراً بناء على توجيهاته يكون في مستوى أفقر بيت في الكوفة(٥٩). ومن كـلامه في أسلوب عيشـه: «أأقنع من نفسي بأن يقـال أمير المؤمنين ولا أشـاركهم مكـاره الـدهـر»(٦٠). فسكنـه في ذلك المنـزل المتواضع إنما هـو مواساة للمحرومين. ، لـذلك أحبه المساكين والمحـرومين وتبعوه. قال عنه رسـول الله (ص): «علي إمام المساكين»(٦١) ولحب السيدة زينـب وتعلقها بأبيهـا إلتحقت به مـع أسرتها وفضلت أن تعيش إلى جواره لتسعـد بعطفـه وحنانـه الأبوي وتتزود من علمه وحكمتـه ومن مواريث النبوّةالتي آلت إليه، لتجمع لها زاداً من مواريث النبوّة يكون لها عوناً وعزاء في مستقبل الأيام الحبلى بالرزايا التي تنتظرها.

إن الإمام عليا أمـة في رجل فكما كانت النُّبوَّة نعمة ونوراً وهدايـة للعرب فكذلك دور الوصي الذي جهلوا قدره، ولم يعلموا أن تظـاهرهم عليه خلال مدة حكمه إنما كان حطاً لقدرهم وتضييعاً لمقدراتهم وسحقاً لكرامتهم كما تنبأ لهم الإمام علي بذلك وبالذل الشـامل على أيدي الأمويين فقال: «فعنـد ذلك لا يبقى بيتٌ مدر ولا وبر إلا وأدخله الظلمةُ تـرحةً وأولجوا فيه نقمة فيـومئذٍ لا يبقى لهم في السماء عاذر ولا في الأرض نـاصر. أصفيتم بالأمـر غير أهله وأوردتم غير مـورده. وسينتقم الله ممن ظلم مأكلاً بمـأكل ومشرباً بمشرب من مطـاعمِ العلقم ومشارب الصبر والمِقْـر. ولباس شعار الخوف ودثـار السيف. وإنما هم مطايا الخطيئات وزوامل الآثـام. فأُقسم ثم أُقسم لتنخمنَّها أُميَّة من بعدي كما تلفظُ النُّخـامة. ثم لا تذوقها ولا تطعم بطعمها أبداً ما كرَّ الجديدان»(٦٢). يتحدث عما سيحل بـالأمة من جـور وظلم في عهد بني

أمية الذين كـان شعارهم بث الرعب في نفوس الناس بـواسطة السيف كما يتحدث عن زوال ملكهم الـذي أسسوه، وهـو هنا يشير إلى ملك الشرق وليس الأنـدلس. وفي معركة صفين وصف الإمام علي معاوية وجيشه بحزب الشيطان فقال: «ألا وإن الشيطان قد جمع حزبه، وإستجلب خيله ورجله»(٦٣). كما روي عن الإمام علي (ع) أنـه لما نظر إلى رايـات معاويـة وأهل الشـام بصفين قال: «والـذي فلق الحبة وبـرأ النسمة ما أسلمـوا ولكن رجعوا إلى عداواتهم لنـا إلا أنهم لم يتركوا الصلاة»(٦٤). كما توقع الإمام علي أن يأمـر معاوية بسبه لأنـه لم يهادنه بل أصرَّ على إقصائه عن حكم الشام فقال: «أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحبُ البلعوم مندحق البطن يأكلُ مـا يجد ويطلب مـا لا يجد، فأقتلوه ولن تقتلـوه. ألا وأنـه سيأمـركم بسبي والبراءة مني. أمـا السب فسبُّوني فإنـه لي زكاة ولكم نجـاة. وأما البراءة فـلا تتبرأوا مني فإني وُلِدت على الفطرة وسبقتُ إلى الإيمان والهجرة»(٦٥).

كم كانت قصيرة فترة حكم الإمام علي لم يتمكن من تحقيق أحلامه في إقامة حكم الله في الأرض ويعيـد لدولـة النبـوَّة مجدها وعـزها الإلّهي حيث ثـار عليـه الناكثـون والقاسطـون والمارقون إلى درجـة أن الأموال التي صـار معاويـة يوزعهـا يميناً وشمالاً لشراء رجال علي قد أثرت في بعضهم فرحل وقلبـه مليء بالغصص على ما وصل إليه حال أمة نبيه، وكانت وفاته في الحادي والعشرين من رمضان سنة أربعين من الهجرة بعد أن ضربـه عبد الرحمن بن ملجم بالسيف على رأسـه في محراب المسجد الجامع. ودفن بمقبرة الغـرى بالكوفـة حيث دفنه الحسنـان وبعض المخلصين من أصحـابه وأخفيا قبره خوفاً على نبشه من الأمويين كما فعل علي نفسه بقبر فاطمة.

ها هي زينب تتوالى عليها الرزايا تموت أمها شهيـدة لظلامة الأمة وها هو والدها وصي رسـول الله يلحق بـركب الراحلين شهيـداً بعـد أن ذاق الكثير من ظلم الأمـة وخذلانها له وجهلهـا لقدره وحقه بعد أن أفنى حيـاته في خدمتها وخـدمة الدين ولم يُعرف مكان قبره إلا في زمن هـارون الرشيد(٦٦). لقد كان الصراع بين علي ومعـاوية سبـاقاً بين خطين خط دولـة النبوَّة وخط سلطنـة قريش فخط علي هـو إقتفاء سنـة الرسول (ص) لتحقيـق المبادىء التي أقام عليها دولته وهـي الحق والعدل والمساواة

والحريـة فقـاد المسـاكين (المتـواضعين) والمتقين ليجعـل من تلك المبـادىء دستـور الحياة، وهذه سيرته في الأمة خلال حكمـه، وخطبه في كتاب نهج البلاغة، وعهده إلى مـــالـك الأشتر النخعي لما ولاه على مصر وأعمالها(٦٧)، يعد دستـوراً متكامـلاً للسياسة الشرعية بدولة النبوَّة لأنه مستنبط من القرآن والسنة.

وقد وصف معـاوية عهد علي لـلأشتر حينما وقع في يده بعد أن تمكن من التـآمر على قتل مالك سماً وهو في طريقه إلى مصر بقوله يخاطب بطانته(٦٨):

«دعوني أتأملُ في عهد علي لـلأشتر فما قرأتُ علماً أجمع منه ولا أغزر ولا أحكم، ولا أشد إلماماً بالآداب والقضايا والأحكام والسياسة»(٦٩).

وقد وضع الإمام علي سياسة للإنفاق في الدولة تبلورت في الإلتزام بما كان يحدث به قائلاً:

«إن الله وضع في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما مُتع به غني، والله تعالى سـائلهم عن ذلك»(٧٠). وقال: «مـا رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جـانبها حق مضيَّع»(٧١).

تلك هي السيـاسـة التي أغضبت البخـلاء من الأغنياء الـذين أرادوا الإستئثـار بالمال دون غيرهم وجعلتهم يتعاونون مع معاوية لتقويض حكم علي الذي يتعارض مع مصالحهم»(٧٢).

أما سياسة معاوية فكانت تقـوم على تشويه أخلاق الناس وإغراقهم في ملذات الحياة عن طريق وسائل ثلاث:

أ ـ الترغيب

ب ـ الترهيب

جـ ـ الفتيا ووضع أحاديث نبـوية تمدح في الأمويين وتـذم في الطالبين وتحريف تفسير الآيات القرآنية لإغواء المجتمع الإسـلامي وجذبه الى الصف الأموي أو إبعاده

عن عترة الرسول. كل ذلك لإعادة نفوذ زعامة قريش التي قضى عليها ظهور محمد (ص) وثورته النبوية عن جميع مظاهر الحياة في البيئة العربية. فكانت حروب الجمل وصفين والنهروان والأهواز وأرد شير هي إحدى وسائل الترهيب لمقاومة خط السياسة النبوي الذي إنتهجه وصيُّ رسول الله، والتي راح ضحيتها من الأمة خلال خمس سنوات تقريباً مئة ألف قتيل[٧٣]. وهذا يعكس إستماتة الأمويين وأتباعهم الذين كانوا يسعون لتأسيس سلطنة قريش في التصدي لنضال السائرين على الخط النبوي حتى النهاية فكانت الحروب الداخلية خلال عهد علي ليس فقط هدراً لطاقات الدولة النبوية البشرية والمالية وإنما كانت عائقاً لحركة التنمية بمعناها الشمولي وشل حركة الفتوحات لنشر مبادىء الدولة الفتية في أرجاء العالم إضافة إلى أن تلك الحروب أعطت إنطباعاً سيئاً للأمم الأخرى عن سلامة نهجها الإنساني.

أما وسيلة الترغيب فكانت تقوم على إغداق الأموال على رؤساء القبائل لإستمالتهم إلى صفِّه كما ركز على إستمالة رجال علي المقربين إليه وقادة الجيش وعرض عليهم الوعود بالجاه والمناصب في السلم والحرب. كما إستخدم تلك الوسيلة لأصحابه أيضاً لضمان ثباتهم على ولائه[٧٤]. ومعاوية يُقسم بالله أن يجذب من علي ثقاته وأن يغلبهم بدنياه على دينه[٧٥].

أما الوسيلة الثالثة، فإن معاوية حشر في القصر الأخضر مقر حكمه بدمشق برجال هم دخلاء على الدين اصطنعهم معاوية وجعلهم زينة لبلاطه ليتقي بهم عامة الناس ويستخدمهم سلاحاً وقت الحاجة لتفسير القرآن كما يشاء وتقتضي مصلحته السياسية وليضعوا الأحاديث النبوية التي تتفق وتلك السياسة[٧٦]. إنه اسلوب الطواغيت الذين ابتليت بهم أمة الإسلام. فمثلاً حينما قتل عمار في حرب صفين سنة٣٨ من الهجرة جاء الرجلان الشاميان الثريان إلى معاوية وهما يتسابقان طمعاً في الجائزة أحدهما طعن عمار والآخر احتزَّ رأسه، فقال لهما عبد الله بن عمرو بن العاص: «ليطب كل واحد منكما نفساً لصاحبه بقتل عمار، فإني سمعتُ رسول الله(ص) يقول: (قاتله وسالبه في النار، إنما تقتله الفئة الباغية»[٧٧]. وقد وصف عبد الرحمن الشرقاوي الدور الذي قام به علماء بلاط القصر الأخضر وثوابهم بقوله:

«لقد عـرفت الجاهلية صاحبـات الرايـات الحمراء اللائي يبعن الأعـراض واللذات وعرفت الأمة في عهد معاوية أصحـاب الأهواء الذين يبيعون ضمائرهم، ويغلون في الثمن، ويبـذلـون عـرضهم العلمي، وشرفهـم الـديني مقـابل الأمـوال والضيـاع والمناصب»[٧٨].

هذه هي السلطوية التي حكم بها بنو أميـة بعد علي. لم يبدل علي أسلوب عيشه في عهد حكمه عما كان عليـه قبل ذلك. فقد رفض أن يسكن القصر الأبيض الذي أعدَّ له.

أما معاوية فقد بنى له قصراً غلّفـه بالرخام الأخضر ومن هنا إشتق اسمه. واتبع في بنائه فن العمارة الرومانية حيث جلب لـه مهندسين رومانيين، وزينه من الداخل بزخارف تبعاً للفن السـاساني. كما استبدل فرقة الطرب التي تتكـون من مجموعة من أعراب البادية بجوقة موسيقية من عازفين على آلات موسيقية مختلفة كاملة من أفضل الموسيقيين الفـرس. كذلك جلب فـرقة رقص رومـانية. إنـه حاكىٰ بـذلك تقاليـد وعادات دواوين القياصرة والأكاسرة، كما قلدهم في أساليب معيشتهم[٧٩].

ولذلك حينما زار عمـر بن الخطاب خـلال خلافته معـاوية بـدمشق ورأى كثرة جنوده وأُبهة ملكه أعجبه ذلك وأُعجب به ثم قال: «هذا كسرى العرب»[٨٠]لفخامة ملكه وباهر جلالته وعظمة أبهته.

كما روي أن عمـر بن الخطاب حث النـاس على الهجـرة الى معاويـة بالشـام إذا وقعت فتنة أوجبت إفتراق الصحابة، وأن يفوضـوا إليه أمر الفتنة لسداد رأيه وحسن تدبيره[٨١].

وقال معـاوية، يومـاً وهو بين حاشيتـه يصف بإيجاز حياة رجال سلطـة الخلافة الثلاثة: أبو بكر، عمر وعثمان قائلاً: «رحم الله أبا بكر، لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا، وأما عمر فأرادته الـدنيا ولم يردها، وأما عثمان فأصاب من الدنيـا وأصابت منه، أما نحنُ فتمرغنا فيها! والله انه لملك آتانا اللهُ إيّاه!»[٨٢].

إن سلطة الخلافـة هي التي مكنت الطلقاء وأبنـاء الطلقاء من تأسيـس نفوذهـم السياسي في دولـة النبوّة. فمعـاوية بن أبي سفيان تـولى حكم دمشق بعد وفـاة أخيه يزيد بن أبي سفيان في نهاية عهد أبي بكر، وعمر بن الخطاب ثبت معاوية على حكم

دمشق، وعثمان ولاه على كل الشام كما فتح البـاب على مصراعيـه لأقـاربـه، من الأمويين وسلطهـم على رقاب المسلمين دون قيد أو شرط. وتكفـي شهادة معـاوية بنفسه.

ودليل آخر على أن نفوذ الأمويين الـذي مكنهم من تأسيس سلطنة قريش مدان لعهد سلطة الخلافة وصية أبي سفيان لإبنه معاوية حينما زار الأخير أباه فقال له: «إن هؤلاء الرهط من المهاجرين والأنصار سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سبقهم، وقصر بنا تأخـرنا، فصرنا أتباعاً وصـاروا قادة، وقد قلدوك جسيماً من أمـرهم، فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه، ولو قد بلغته لنوفست عليه»[٨٣].

عمـر بن الخطـاب يطلق على معـاويـة «كسرى العـرب»، ويحث النـاس على الإلتحاق به حال حدوث فتنة، وأبو سفيان يأمره بطاعة من قلدوه مهام الحكم.

هذه لمحة مـوجزة، ومؤشراً على أن سلطنة قـريش مدانة في وجودهـا ونفوذها إلى سلطة الخلافـة، وأن كل الأخطاء التـي إرتكبتها سلطنة قـريش بحق الديـن والأمة تتحمل مسؤوليتها سلطة الخلافة التي حكمت دولـة النبوَّة بعد رحيل مؤسسها مدة ربع قرن. علماً بأن الطلقاء وأبنـاء الطلقاء لا يحل إئتمانهم أمور المسلمين ومصالحهم بإتفاق المسلمين.

وفوق هذا وذاك فإن الرسول (ص) قد حذر الأمة من شرور بني أمية وبني مروان وآل مخزوم في أحـاديث عديـدة، قالها في منـاسبـات مختلفة، فكيف يخالف رجـال سلطة الخلافة ما نهى عنه رسـول الله (ص)؟. فقد أخبر الرسول (ص) أن بني أمية تملك الخلافة بعده وقد ذمهم في أحاديث متواترة عند رواة المدرستين الامامة والخلافة حيث رُوي عنه كما يذكر ابن أبي الحديد في تفسير قوله تعالى:

﴿... ومـا جعلنـا الـرؤيـا التي أرينـاك إلا فتنة للنـاس والشجـرة الملعـونـة في القرآن..﴾[٨٤] أنــه رأى بني أُميــة ينـزون على منبره نــزو القــردة ـــ حسب لفظ الرسـول(ص) ـ فساءه ذلك. ثم قال: «الشجـرة الملعونة بنو أُميـة وبنو المغيرة»[٨٥] ونحو قوله (ص): «إذا بلغ بنو أبي العـاص ثلاثين رجلاً إتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً»[٨٦]. وكذلـك قولـه (ص) في تفسير قولـه تعالى: **﴿ليلة القـدر خيرمن ألف شهر﴾**[٨٧]. قال: «ألف شهر يملك فيها بنو أمية»[٨٨].

كذلك حـذر الرسول (ص) الأمـة بما يلقاه آله من أذى على يـد فئات محددة من النـاس ذكرهـا بـالإسم لإلقاء الحجـة على الأمـة وكشف المستقبل لهم بعلم من الله بقولـه: «إن أهل بيتي سيلقون بعـدي من أمتي قتلاً وتشريداً، وإن أشـدَّ قومنـا لنا بغضاً بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم»[٨٩]. وروى عبد الرحمن بن عوف قال: «كان لا يولد لأحد مـولود إلا أتى به النبي (ص) فيدعو له فـأُدخل عليه مروان بن الحكم فقال هذا الوزغ ابن الوزغ الملعون ابن الملعون»[٩٠].

وفي ذم الأمة لسيرة هـؤلاء الذين حذرهم منهم الرسـول (ص) وذمهم على لسان كبار الصحـابة، رُوي عن محمـد بن زياد قـال: «لما بايع معـاوية لإبنـه يزيـد قال مروان: سنةُ أبي بكر وعمـر فقال عبد الرحمن بن أبي بكر سنةُ هـرقل وقيصر فقال له مروان: أنت الذي أنزل الله فيك: ﴿**والذي قال لوالديه أُفٍّ لكما...**﴾[٩١]. فبلغ ذلك عائشـة فقالت: «كـذب والله ما هو بـه ولكن رسول الله (ص) لعن أبـا مروان ومروان في صلبه»[٩٢]. إن رسول الله (ص) لم يخبر عنهم وبـدورهم المستقبلي السيء الذي سيحـدثونـه في الأمة بعده إلا بـوحي من الله وبعد أن عـاش المسلمون معهم تجربـة مريـرة قبل الهجـرة وبعدهـا. ولـولا أن منَّ الله على المسلمين بـالقوة والمنعـة وحاصروا مكة بعد فتحها وفي قبضة أيديهم عشرة آلاف سيف كلها كانت مشهورة لم يستسلموا فكان إسلامهم إستسلاماً، كما ورد سابقاً. فلو كانت لهم فرصة للقتال لما ترددوا لحظة واحدة. ها هو معاوية يحول الشام من ولاية إسلامية خلال عهد سلطة الخلافة إلى نـواة لسلطنة قريش ونفـوذها فقاتل الـرجل الذي ارتضته الأمـة بالإجماع أميراً للمؤمنين، إلا معاوية، فقد خرج عن الطـاعة وفارق الجماعة وشق شمل الأمة وتسبب في إزهـاق أرواح عشرات الآلاف من أبنـاء الأمـة وأثار العصبيـات القبليـة والجاهلية متذرعاً بأخذ الثأر لدم عثمان مخالفاً في ذلك قول الله ورسوله، إذ أن الأخذ بالثأر إحدى العصبيات الجاهلية التي نبـذها الإسلام وأن القصاص من مسؤوليات ولي الأمـر، قـال تعـالى: ﴿**ولكم في القصـاص حيـاة يـا أولي الألبـاب لعلكم تتقون**﴾[٩٣].

إن الرسول لم يحذر الأمة من شرور تلك الفئات إلا لما تمثله من خطورة على الدين والأمة. وقد عاش المسلمون تلك الشرور منذ موته ولا تزال وستظل قائمة. فإذا كانت غزوة الأحزاب في عهد الرسول (ص) زلزالاً وقتياً إمتحن الله به المؤمنين كما وصفه الله تعالى بقوله: **﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً﴾**(٩٤).

إن سلطنة قريش التي أسسها فلولُ الأحزاب قد أحدثت زلزالاً أبدياً لدولة النبوَّة أضعف الدين والأمة، ولن تزول آثار ذلك الزلزال إلا بظهور قائم آل محمد (ص) الامام المهدي الوصي الثاني عشر لمؤسس الدولة فيملأُ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. وقال محي الدين في فتوحاته بشأن المهدي (ع) ودوره ومصيره(٩٥).

ألا إنَّ ختم الأنبياء شهيدُ	وعينُ إمام العالمين فقيدُ
هو القائم المهدي من آل أحمد	هو الصَّارِمُ الهندي حين تبيدُ
هو الشمسُ يجلو كل غيم وظُلمةٍ	هو الوابلُ الوسمي حين يجود

لقد أخبر الامام علي في أقواله وخطبه التي مرت على هيئة مقتطفات توقعاته للبلاء الشامل الذي سيحل بالدين والأمة من بني أمية فهل صدقت توقعات النبي(ص) وعلي أم لا؟ بعد إغتيال الإمام علي (ع) بايع المسلمون في الكوفة والبصرة الإمام الحسن (ع) إلا أنه لم يستطع الصمود أمام سلاح معاوية الفتاك وهو الإغراءات بالمال والجاه والمناصب فتساقط رجال الإمام الحسن (ع) أمام تلك المغريات مما اضطره لمصالحة معاوية على أساس:(٩٦).

أ ـ رفع السب عن أبيه.

ب ـ أن لا يؤذي أحد من السائرين على خط الإمام والعترة.

غير أن معاوية لم يفِ بأي شرط واستمر سب الإمام علي وآله على منابر المسلمين

بها فيها منبر رسـول الله (ص) في المدينة ولم يتـوقف الشتم إلا في عهد عمـر بن عبد العزيز[٩٧] . فهاجـر بعدها سبطـا رسول الله الحسن والحسين (ع) وكـذلك السيدة زينب وآل رسول الله (ص) إلى المدينة واستقروا فيها[٩٨]. وبدأ الأمويون يصبُّون جام غضبهم وحقـدهم على آل رسـول الله (ص) وكأنهم يصفُّـون حسـاباتهم القـديمـة معهم. إنهم يظهـرون الحقـد والكـراهيـة لعترة الـرسـول (ص) عـلانيـة في مقـر الرسـول(ص) ودار هجرتـه. ومن تبجح معاويـة واستهتاره بـذرية الـرسول (ص) وحقـده الدفين على محمـد (ص) وآله أنـه لما قـدم المدينة بعـد أن استقر آل رسـول الله(ص) فيهـا بعـد هجـرتهم من مكة، صعـد المنبر في المسجـد النبـوي ونـال من علي(ع) فقام إليه الإمام الحسن (ع) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن الله عز وجلّ لم يبعث بعثاً إلا جعل له عدواً من المجرمين فأنا ابنُ علي وأنت ابن صخر وأُمك هند وأُمي فـاطمـة وجدتك قتيبـة وجـدتي خـديجة فلعن الله الأدنى حسبـاً وأخملنا ذكـراً وأعظمنا كُفـراً وأشدُّنا نفاقـاً فصاح أهل المسجد آمين آمين. وقطع معاويـة خطبته ودخل منزله»[٩٩] . إن الإمـام الحسن (ع) سليل بيت النبوّة والإمـامـة والفصاحـة والبلاغـة فلا يستطيع معاويـة أن يدانيه في الحجـة والمنطق على الرغم من كـونه من دهاة العرب. ورُوي عن سعـد بن أبي وقاص قال: «قدم معاويـة في بعض حجاته فدخل عليه سعد فذكر علياً فنال منه فغضب سعد وقال: يقول هذا الرجل سمعتُ رسول الله يقول: من كنتُ مـولاه فعلي مولاه، وسمعته يقول أنت مني بمنـزلة هارون من موسى إلا أنـه لا نبي بعدي. وسمعتُه يقـول لأُعطينَّ الراية اليـوم رجلاً يحِبُّ الله ورسوله»[١٠٠]. ومن المعروف أن سعد بـن أبي وقاص كان من كبار الصحابـة الذين إعتزلوا علياً ولم يبايعوه وكذلك عبد الله بن عمر ومحمد بن سلمة الأنصاري إلا أنهم حفظوا لعلي مكانتـه في قلوبهم ورفضوا التعاون مع معاويـة في حياة علي حينما حاول استـدراجهم إلى جـانبـه وعنفـوه وذكـروه بمنـاوأتـه للـدين والأمـة قبل الإسـلام وبعده[١٠١]. النبي (ص) يقـول: «من سب علياً فقـد سبني ومن سبني فقـد سب الله»[١٠٢] . ويقـول في حديث آخـر عن مكانـة علي: «علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيث ما دار» متفق عليـه. وأخرج الطبراني بسند حسن عن أم سلمة عن رسول الله (ص): «من أحبَّ علياً فقد أحبَّني ومن أحبَّني فقد أحبَّ الله ومن أبغض

علياً فقد أبغضني ومـن أبغضني فقد أبغض الله». إن هذه الأحاديث المتـواترة عند رواة المدرستين الإمامـة والخلافة في فضل علي وذرية الـرسول (ص) ليست من أجل أن يجامل الناس رسول الله (ص) في ذريتـه وإنما من أجل أن يحفظوه فيهم ويسلكوا طريقهـم، لأنه الطريـق السوي لمعرفـة الله والدين والحيـاة. إن العترة هم حبلُ الله وصراطه المستقيم. لقـد بلغت الجُرأة بمعاوية أن ينال على المنبر من علي الـذي لولا سيفه ومال خديجة لما قام الإسلام ولما صنعت أعـواد المنابر. ولذلك روي أن الرسول حثَّ على ضرب عنقـه إذا صعـد منبره. رُوي عن عبـد الله بن مسعود قـال: «قـال رسول الله (ص): «إذا رأيتـم معاوية بن أبي سفيـان يخطب على منبر فٱضربـوا عنقه فقال الحسن فوالله ما فعلوا ولا أفلحوا»[١٠٣].

كما حثَّ الإمام علي (ع) على قتله أيضاً[١٠٤]. وإنما حث على قتله لكثرة الجرائم التي ارتكبت بحق الدين والأمة ولا تزال. ولذلك حينما نزل به الموت قال: «يا ليتني كنت رجـلاً من قريش بـذي طُوى وإني لم أل من الأمـور شيئاً»[١٠٥]. يتمنى أنـه لم يحكم لكثرة المظالم التي ارتكبهـا بحق دولة النبوَّة ديناً ودولة. وكـان مروان واليه على المدينة يتعمد سب أهل البيت كل جمعة من على منبر رسول الله (ص) وهو يخطب، فقـد سـب الحسن والحسين، حتى قـال مـرة للحسين: «والله إنكم أهـل بيت ملعونـون»، فتأثر الحسين وقـال لئن قلت هذا فـوالله لقد لعنك الله على لسـان نبيه وأنت في صلب أبيك فسكت مروان»[١٠٦]. هذه كرامة أهل بيت رسول الله بعد موته وهذه وصيته في أمته وهذه أحاديثه التي قالها ورددها على أسماع المهاجرين والأنصار في فضلهم وكرامتهم عند الله ورسوله كأنما ذهبت أدراج الرياح وكأن شيئاً لم يكن.

لم يكتفِ معاوية بإلحاق الهزيمـة السياسية بالإمـام علي والإمام الحسن واستئثاره بالسلطـة والملك وتشريع سب العترة على منابـر المسلمين والإهانات التي تـوجه إلى البيت النبوي وكأن أصحاب هذا البيت أحدثوا جريمة بحق الإنسانية وإنما إمتدت أيـادي سلطنة قـريش وباني عـزها ونفـوذها الى بيت الإمـام الحسن فٱشترى ضمير زوجته جعـدة بنت قيس بن الأشعث على أن تقدم على سم الحسن مقـابل مئة ألف درهـم وتزويجها من ابنه يزيد، فبعث السـم إليها وسقته الإمام الحسن حيث استشهد

من أثر ذلك السم[١٠٧] . ورُوي أنه لما سُمَّ الإمام الحسن جاءهُ الإمام الحسين فلما رأى ما به بكى فقال له الإمام الحسن ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ قال له الحسين: أبكي على ما أراك فيه. فقال له الحسن:

«إن الذي يأتي إليَّ بسمّ يدبَّرُ إليَّ فأُقتَلُ به، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله، يزدلف إليك ثلاثون ألف رجل يدَّعون أنهم من أمة جدنا، وينتحلون دين الإسلام، فيجتمعون على قتلك وسفك دمك، وإنتهاك حرمتك، وسبى ذراريك ونسائك وأخذ ثقلك، فعندها تحل ببني أمية اللعنة، وتمطر السماءُ رماداً ودماً، ويبكي عليك كل شيء حتى الوحوش في الفلوات والحيتان في البحار»[١٠٨]. عامل الأمويون آل رسول الله معاملة سيئة في حياتهم ومماتهم إظهاراً للحقد الدفين تجاههم. فبعد أن توفي الإمام الحسن بعد معاناة من أثر السم دامت أربعين يوماً وذلك في السابع من صفر سنة ٥٠ من الهجرة في عز رجولته حيث كان عمره ثمانية وأربعين عاماً وقد أوصى لأخيه الحسين بأن يحمل بعد موته إلى عند قبر جده (ص) ليجدد به عهداً ثم يدفن في البقيع. وأخبره بأن أعداء العترة لن يمكنوه من دفنه عند جده، كما أوصاه بأن لا يريق بسيفه محجمة دم[١٠٩]. ولما جهزه الحسين (ع) شيعه والهاشميون الى قبر جده تنفيذاً للوصية فظن مروان بن الحكم أنه يريد دفنه عند جده فأظهر المنع والنهي عن ذلك[١١٠]. وأتت في نفس الوقت عائشة (ر) وهي تقول «ما كان عثمان ليدفن بالبقيع ويدفن الحسن عند رسول الله (ص)؟»[١١١] فقال لها الحسين (ع): «ويحكِ يا عائشة يوماً على جمل ويوماً على بغل والله لولا وصية أخي لفعلت وفعلت»[١١٢]. وقد أنشأ أحدهم مخاطباً عائشة[١١٣].

تبغلتي تجملتي	وإن عشتي تفيَّلتي
لك التسع من الثمن	وبالكل تحيَّزت

ثم دفن الإمام الحسين أخاه في مقبرة البقيع فأنشأ أحدهم مستغرباً من إبعاد قبر الحسن عن جده[١١٤]:

وكيف ضاقت على الأهلين تربته ولـلأجانب في جنبيه مُتَّسَعُ

أصبح الطواف بجسد سبط رسول الله عبر قبر جـده أمراً غير مرغوب فيه فكيف بدفنه .

لقد فجعت عترة الرسول بفقـد الإمام الحسن وكـانت رزية السيـدة زينب بفقد أخيها عظيمة فقد عاشت خذلان الأمة لأبيهـا قبل خلافته وخلالها وعاشت خذلان الأمة لأخيها الحسن خـلال خلافته التي لم تدم سوى ستـة شهورٍ. وعاشت فترة في المدينة بعد استقرارهم فيها وهي تشاهـد تظاهر الأمة بقيادة الأمويين والمروانيين على ذرية رسول الله وشتمهم علانية من على منبر رسول الله بواسطة مروان حاكم المدينة .

وكانت فاجعتها برحيل أخيها عظيمة لأنها كانت ترى فيه السند والعون لأخيها الحسين بعد رحيل والدهما العظيم بعطائه وتضحيـاته من أجل الحفاظ على مبادىء النبوّة من أجل تطبيق السنة النبوية وتعليم أبنـاء الأمة كيفية الإستفادة من كتاب الله في شؤون الدين والدنيا . ها هـو الحسن قد ودعهم وترك الإمام الحسين وأخته زينب يواجهان فلول الأحزاب والطلقاء وأبناء الطلقاء الذين لا يعرفون لله حرمة ولا لرسوله عهداً ولا لذريتـه مودة أو إحتراماً . ها هو الحسين يحمـل الثقل العظيم للأمة يحمل همومها . لقـد آن الأوان ليصدق حديث الـرسول (ص) فيـه : «حسين مني وأنا من حسين . أحب الله من أحب حسيناً . حسين سبط من الاسباط»[١١٥] إنه على موعد مع مشيئة الله . إنـه على موعـد لتأدية دَيْنٍ عليـه منذ بدايـة الخليقة ، إذا كـان جده خـاتم الأنبيـاء والمرسلين والشريعـة التي أتى بها خـاتمة الشرائع السماوية فهـا هـو الحسين يحين موعده لحمل ثقل الرسالات . بدأت إمامة الحسين بعد إستشهاد أخيه الإمـام الحسن بالنص عليـه من جده ووالـده وأخيه الحسن فهـو الإمام الثـالث بين أوصياء الرسول (ص) في دولة النبوة . كانت سلطنـة قريش قد سيطرت على مقاليد الأمـور بتزويـر أحاديث عن رسـول الله (ص) وتحريف تفسير آياتـه بواسطـة علماء سلطنـة قـريش ورواتها وكتـابها وفقهـائهـا وحفظـة القـرآن والقـراء . جميع سيـوف المجاهدين في سبيل الله وضعت للإستخدام بواسطة الجلادين في سلطنة قريش التي أصبحت تسيطر على مقاليد الأمور في دولة النبـوة بأكملها منذ إعتزال الإمام الحسن (ع) . جميع مـوارد دولـة النبـوّة من زكـاة ، خـراج ، جـزيـة وضرائب أخـرى كلهـا

استخدمت للإنفاق على بلاط القصر الأخضر بدمشق وملذات الأمويين والمروانيين وحواشيهم. أصبح معاوية الحاكم بأمره في دولة النبوّة وعلى جميع شؤون الأمة الدينية والدنيوية. تاريخ الأمة يكتبه مؤرخو القصر الأخضر.

الوحي، القرآن، السنة، الوحدة، القيم كلها تحت رحمة بلاط القصر الأخضر وعلمائه، وكتابه ورواته وقضاته. أراد معاوية أن يحنط الحسين ويضمه الى بطانة علماء سلطنة قريش ليزين به قصره الأخضر ويزيد عدد علماء البلاط. أراده أن يجلس في مسجد دمشق ويدرس الفقه والثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي أو أي شيء يرغبه الإمام الحسين، معاوية أراد أن يجلب الحسين الى دمشق حتى يكون تحت رقابته وبعيداً عن أي نشاط سياسي. فأنظار الأمة تتجه نحوه لأنه كما يعلم الوصي الشرعي الثالث لرسول الله بعد أخيه الحسن(ع)[١١٦].

ورحل معاوية بعد أن وطّد البلاد والعباد لإبنه يزيد وحذره من أربع شخصيات وشرح له كيفية التعامل مع كل منهم وهم: الحسين بن علي بن أبي طالب، عبد الله ابن عمر، عبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر. الذين رفضوا مبايعة يزيد بولاية العهد في عهد أبيه[١١٧]. أما عن صفات يزيد هل كان مؤهلاً لقيادة الأمة أم لا فهو خريج حجر معاوية وطليق ابن طلقاء فيمكن الإكتفاء بما قاله فيه زياد بن أبيه والي البصرة ـ الذي ألحقه معاوية بوالده أبي سفيان ليضمن ولاءهُ.

طلب معاوية من زياد أن يأخذ بيعة المسلمين في البصرة، فكان جوابه له: «ما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبّغات، ويدمن الشراب، ويمشي على الدفوف وبحضرتهم الحسين بن علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، ولكن تأمره يتخلّق بأخلاق هؤلاء حولاً أو حولين فعسينا أن نموّه على الناس»[١١٨].

وقد حذّر النبي (ص) الأمة مما سيلحقها من شرور وإساءة للدين من يزيد. فقد أخرج الروياني في مسنده عن أبي الدرداء قال: سمعتُ النبي (ص) يقول: «أول من يبدّل سنتي رجل من بني أمية يقال له يزيد»[١١٩]. حتى معاوية نفسه لم يكن مقتنعاً

بتقليد ابنه يزيد مقاليد أمور الحكم لأنـه صنيعته وخريج حجره إلا أن حبه له جعله يقدم على تنصيبه ويجعل الـدين والأمة قربانـاً لهواه. فقد قال معاويـة قبيل وفاته في إحدى خطبه بمكة:

«ولولا هواي في يزيد أبصرتُ قصدي»[١٢٠].

هذا هـو حديث النبي (ص) وحديث معـاوية في يزيد الـذي إرتكبت في عهده جرائم قـلَّ أن يحدِّث بمثلها التاريخ البشري، لـذا فإن عهده لا يعتبر فقـط صفحة سوداء في تاريخ دولة النبـوّة بل سُبّة في التاريخ البشري. لذا فليس غريبـاً ما قام به العبدُ الصالح عمـر بن العزيز خلال حكمه حينما سمع أحـدهم يلقب يزيد بأمير المؤمنين. فقد حـدث نوفل بن أبي الفرات قائلاً: «كنـتُ عند عمر بن عبد العـزيز فذكر رجل يزيد فقال: (قال أمير المؤمنين يزيد بن معاوية فقال: تقول أمير المؤمنين فأمر بضربه عشرين سوطاً)»[١٢١] لماذا أمر ابن عبد العزيـز ضرب ذلك الرجل لأنه يعرف حق المعرفة ما ارتكب من ويلات بحق الدين والأمة في عهده.

الإمام الحسين (ع) لم يتمكن من إشهـار سيفه في عهد معـاوية لهيمنته الكـاملة على جميع أنحـاء دولة النبـوَّة وغياب النـاصر فهو الإمـام الوحيـد الذي يـرى هتك حرمات الله وقتل النفس المحرمة ونهب مقدرات الأمة، فكان ملازماً بيته بالمدينة إلى أن مات معاوية سنة ٦٠ من الهجرة[١٢٢].

وفور وفاة معاوية كتب يزيـد إلى الوليد بن عتبة وإلى المدينة في صحيفة كأنها أُذُنُ فأرة: «أمـا بعد فخـذ حسيناً وعبـد الله بن عمر وعبـد الله بن الزبير بـالبيعة أخـذاً شديـداً ليست فيه رخصة حتى يبايعـوا والسلام»[١٢٣]. فالتقـى الإمام الحسين والي المدينـة وفي معيته ثـلاثين رجلاً من أهل بيتـه ومـواليه وانتهى اللقـاء برفض الإمـام الحسين مبايعة يزيد وقال عليه السلام في ختام اللقاء: «إنا لله وإنا إليه راجعون وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد. وقد سمعتُ جدي رسول الله(ص) يقول: (الخلافة محرَّمة على آل أبي سفيان»[١٢٤].

إذا كـان خاتم النبيين محمـد (ص) قـد حارب رأس الكفـر وقـائد الأحزاب أبـا

سفيان، وخاتم الوصيين وإمام دولة النبوَّة الأول وحامي حمى الإسلام بعد الهجرة وقائد حزب الله ومقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين علي بن أبي طالب قد قاتل قائد فلول الأحزاب وقائد حزب الشيطان وقائد الطلقاء وابن الطلقاء معاوية فها هو سبط رسول الله (ص) الثاني وإمام دولة النبوة. ووصي رسول الله الثالث وسيد شباب أهل الجنة وسليل النبوَّة وخريج مدرسة علي وفاطمة بضعة رسول الله يواجه سليل الشرك وخريج حجر ابن آكلة الأكباد وسليل الطلقاء وأبناء الطلقاء والمرتكب لكل رذيلة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي أصبح الزعيم الأول لسلطنة قريش في دمشق والمهيمن على كل صغيرة وكبيرة في دولة النبوّة. إنه يرفض الإستسلام والمبايعة لمثل يزيد لأنه لا يحلُّ له أن يستسلم وأن يبايع لأن في ذلك اعترافاً بشرعية نظام متسلط على رقاب المسلمين لا شرعية له إلا السيف وكل أنواع الأعمال الهمجية. فقرر الإمام الحسين التصدي لذلك الطاغوت وهو وحيد لا ناصر له ولا معين سوى مواريث النبوَّة التي يريد أن يصونها من عبث الطغاة أعني الكتاب والسنة والمبادىء التي قامت عليها دولة جده. بعد ستين سنة من الهجرة وخمسين سنة على رحيل مؤسس دولة النبوة يتولى يزيد حكم الأمة وتصدق نبوءة محمد (ص) بعد تضحيات المهاجرين والأنصار بكل ما يملكون من أجل إقامة صرح دولة النبوة وتشييد أركان الدين يأتي يزيد على قمة هرم دولة النبوَّة ليزيل كل ما بناه محمد (ص) وأنصاره، ليزيل كل القيم الدينية والإنسانية، ويعزز الإرستقراطية الجديدة والجاهلية الجديدة، والمادية الجديدة التي أسسها والده في القصر الأخضر بدمشق. ولكن لن يهنأ يزيد إلا بإستئصال شجرة البيت النبوي وآل رسول الله. لم يقنع بنو أمية بتأسيس ملك لهم داخل دولة النبوة، إنهم يريدون تصفية حساباتهم القديمة مع رسول الله (ص) من خلال ذريته.

٤ ـ خروج ركب الحسين من المدينة إلى مكة وانضمام زينب للركب:

كانت كلمات الإمام الحسين خلال لقائه بالوليد بن عتبة ـ والذي سبق ذكره ـ وبعد حوار حاد معه ومع مروان ـ قال الإمام الحسين كلمات تدل على الإباء والشموخ وأنه لا خيار له بعد الرفض إلا النهوض بحركة إصلاحية تهزُّ وجدان الأمة

وكان مما قـاله: «إنا أهل بيت النبوَّة ومعـدن الرسالة ومختلف الملائكـة وبنا فتح الله وبنـا ختم الله[١٢٥] ويـزيد رجل فـاسق شارب الخمـر قـاتل النفس المحرمـة معلن بالفسق ومثلي لا يبايع مثله»[١٢٦].

وأوعز الإمام الحسين (ع) إلى أهل بيته وإخوته وبنـي عمومته بالإستعداد للرحيل لتلبيـة نـداء الإستشهـاد في سبيل الله، إذ أن الرسـول (ص) قـد أوحي إليـه عن استشهاد الإمـام الحسين منذ ولادتـه وتحدث للأمة بـذلك، وأخبر فاطمـة وعلياً بما يجري على ذريتهما حتى خاتم الأوصياء الإمام محمـد المهدي. وأحاديث مقتل الإمام الحسين متواترة عند رواة المدرستين الإمـامة والخلافة[١٢٧]. وقبل خروج ركب الإمام الحسين (ع) من المدينة توجـه لزيارة قبر جده (ص) ليلاً وصلى ركعتين وبعـد فراغه جعل يقول: «اللهم هذا قبر نبيك محمـد (ص) وأنا ابن بنت نبيك وقد حضرني من الأمر ما قد علمت، اللهم إني أحِبُّ المعروف وأُنكر المنكر وإني أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحـق هذا القبر ومن فيه ألا اخترت مـن أمري ما هـو لك رضىً ولرسـولك رضىً وللمؤمنين رضىً»[١٢٨]. ثم جعل يبكي. كما زار قبر أمـه فـاطمة وقبر أخيـه الحسن وودعهما[١٢٩]. كذلك كتب كتابـاً إلى أخيه من أبيه محمد ضمنـه وصيته إليه لتبليغها للأمـة بشكل عام وبنى هاشم بشكل خاص يبلغهم نهضته المباركـة وعزمه على التصدي لطـاغوت قريش يـزيد هذا نصه: «بسم الله الـرحمن الرحيم ـ هـذا ما أوصى بـه الحسين بن علي بن أبي طـالب إلى أخيـه محمـد المعروف بـابن الحنفيـة أن الحسين يشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمـداً عبده ورسولـه، جاء بالحق من عند الحق، وأن الجنة والنار حـق، وأنَّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبـور، وأني لم أخرج أشراً ولا بطـراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خـرجت لطلب الإصـلاح في أمـة جدي (ص)، أريـد أن آمـر بالمعـروف وأنهى عن المنكـر، وأسير بسيرة جـدي وأبي علي بن أبي طالب فمن قبلني بقبـول الحق فالله أولى بـالحق ومن ردَّ عليَّ هـذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القـوم بالحق وهـو خير الحاكمين وهذه وصيتي إليك ومـا توفيقي إلا بـالله عليه تـوكلت وإليه أنيب»[١٣٠]. ثم طوى الحسين الكتاب وختمه بخاتمه ودفعه إلى أخيـه محمد ثم ودَّعه وخرج في جوف الليل

لثلاث خلـون من شعبان سنة ٦٠ من الهجـرة متوجهـاً الى مكة[١٣١]. كان معه في الركب جميع أبنـائه وبناته وزوجاته وإخـوته من والده وأخواتـه وعلى رأسهم السيدة زينب شريكتـه في نهضتـه المبـاركـة وأولاد أخيـه الإمـام الحسن (ع) وبعض بني عمومته[١٣٢]. إن مبـادىء نهضة الحسين كما هي واضحـة من وصيتـه لأخيه محمـد تقوم على مـا يلي: طلب الإصلاح والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر والعمل بسنة الـرسول (ص) وسيرة علي والحسن عليهم السـلام، بمعنى أنه كـان يريـد تصحيح الانحرافات وتقويم الأحداث التي أخذت تؤثر على حياة المسلمين بعد موت رسول الله (ص) والتي تمخض عنها في نهاية الأمر تأسيس سلطنـة قريش التي آل أمرها إلى من تخوَّف الـرسول على الأمة مـن شره وهو يزيـد كما مر في الحديث من قبـل. وكان خروج الإمام الحسين من المدينة ليلاً وهو يتلو[١٣٣]. **﴿فخرج منها خائفاً يترقب قال ربِّ نجني من القوم الظالمين﴾**[١٣٤].

فخروج سبط رسـول الله (ص) من مدينة جـده كخروج موسى من مصر خـائفاً على نفسه من جبروت فرعون فشبه الإمام الحسين خروجه من موطن جده وهو سبطه وشمامته بعلم كل المسلمين، هـا هو يخرج بـآل رسول الله خائفـاً من طاغيـة قريش ويلجأ إلى حرم الله في مكة، وحينما دخلها صار يقرأ[١٣٥] حين دخوله ما رواه القرآن الكريم عن قول موسى بن عمران ولجوئه الى نبي الله شعيب بمدين **«ولمَّا توجه تلقاء مديَنَ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل»**[١٣٦].

لقـد كـان سير الحسين عليـه السلام في رحلتـه تلك تنفيـذاً لارادة السماء ووفقـاً لمنهاج خطهُ له جده وأبوه وأخوه بوحي من الله.

مكث الإمام الحسين بمكة بقية شعبان ورمضان وشوال وذي القعدة حتى الثامن من ذي الحجـة من نفس السنـة ٦٠ من الهجرة حيث خـرج لتلبيـة نداء الله وبلـوغ الشهادة. أما لماذا إختار الإمام الحسين مكة؟ فيرجع ذلك لعدة أسباب أهمها:

١ ـ أنها بلدُ الله الآمن وبها بيته الحرام الذي جعلـه الله آمناً لكل من يدخله وكان العرب يجلونه ويحترمـونه قبل الإسلام ولا يقربون من يدخلـه بسوء حيث تعارفوا على

ذلك وأن الإسلام أكد على حرمته لقوله تعالى: «ومن دخله كان آمناً» وقبلة المسلمين في صلواتهم وإليه يحجون.

٢ ـ إن مكة مكان لتجمع المسلمين وليس يقتصر هذا التجمع وزيارة حرم الله في موسم الحج إنما يكون عامراً بشكل متواصل طيلة العام وهناك مواسم مفضلة لأداء حج العمرة. فالأشهر التي مكثها الإمام الحسين بمكة هي أفضل الشهور لأداء حج العمرة.

٣ ـ إن الإمام الحسين يستطيع أن ينشر رسالة حركته الإصلاحية لمقاومة حكم يزيد إلى الأمة الإسلامية عن طريق حجاج مكة وتجارها فكأنها مركزاً استراتيجياً للإعلام عن أية حركة وشواهد التاريخ على ذلك عديدة. فالإمام الحسين نشر عن طريق الحجيج مبادىء وشعارات حركته المقدسة من مكة خلال فترة إقامته فيها.

٤ ـ إن مكة ملتقى لجميع المسلمين بجميع شرائعهم بما فيهم كبار الصحابة فمثلاً إلتقى الإمام الحسين بمكة كل من عبد الله بن عباس، عبد الله بن عمر، عبد الله بن الزبير وغيرهم.

٥ ـ إن اختيار الإمام الحسين لمكة وإقامته تلك الفترة التي زادت على أربعة أشهر تقريباً تمكن من إلقاء الحجة على جميع المسلمين في ذلك الوقت فمن تخلف عن نصرته إنما تخلف عن نصرة الحق المتمثل في شخص الإمام الحسين بقية العترة ووصي رسول الله بعد أخيه الإمام الحسن وسبطه وأمين الله على وحيه وسفينة نجاة الأمة، وفي الوقت نفسه فإنّ المتخلف عن نصرة الإمام الحسين مهادن للباطل بل وظهير له وهو المتمثل في قائد فلول الأحزاب والطليق ابن الطليق الذي اغتصب هو وأبوه حق العترة في قيادة الأمة ذلك الحق الذي نصت عليه الرسالة النبوية المحمدية.

ما إن سمع أهل الكوفة بوصول الإمام الحسين إلى مكة وإمتناعه عن البيعة حتى بدأوا عقد إجتماعات متعددة بينهم على كل المستويات[١٣٧]، وأخذوا يكاتبون الإمام الحسين ويرسلون له الوفود حاملين رسائل التأييد والمساندة ويدعونه للتعجيل

بـالحضـور الى الكـوفـة حتى بلغ عـدد الـرسائل التي وصلتـه منهم إثنتـا عشرة ألف رسالة[١٣٨]. وكان أبـرز الإجتماعات التي عقدت في الكوفـة وأولها وحضره كبار أهل الكوفة الإجتماع الذي عقد في منزل سليمان بن صرد الخزاعي. يقول ابن طاووس في اللهوف: «فلما تكاملـوا قام سليمان بن صرد فيهم خطيباً وقال في آخـر خطبته: (يا معشر الشيعة[١٣٩] أنكم قـد علمتم بأن معاويـة قد هلك وصـار إلى ربه وقـدم على عمله وقـد قعد في موضعـه ابنه يزيـد وهذا الحسين بن علي عليـه السلام قد خـالفه وصار إلى مكة هارباً من طواغيت آل أبي سفيان وأنتم شيعته وشيعة أبيه من قبله وقد إحتاج الى نصرتكم اليوم فإن كنتم تعلمـون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوّه فـاكتبوا إليه وإن خفتم الوهن والفشل فلا تغرن الرجل عن نفسه)»[١٤٠].

وتمخض ذلك اللقـاء عن إتفـاقهم على إرسـال رسالـة لـلإمـام الحسين موقعـة بأسمائهم فكتبوا إليه كتاباً يعبر عن سخط الأمـة على حكم سلطنة قريش وممارسات رجـالها وإخـلاصهم الدعـوة لآل رسـول الله، جـاء فيه: بسم الله الـرحمن الـرحيم للحسين بن علي أمير المؤمنين، من سليمان بن صرد والمسيب بن نجبـة ورفـاعـة بن شداد وحبيـب بن مظاهـر وعبد الله وائل وشيعة مـن المؤمنين سلام عليك أمـا بعد فالحمد لله الذي قصم عدوَّك وعدو أبيك من قبل الجبار العنيد الغشوم الظلوم الذي ابتزَّ هـذه الأُمة أمـرها وغصبهـا فيئها وتأمّـر عليها بغير رضى منهـا ثم قتل خيـارها واستبقى شرارها وجعل مال الله دُولـة بين جبابرتها وعتاتها فبُعداً لـه كما بُعدت ثمود ثم إنـه ليس علينـا إمـام غيرك فـاقبل لعل الله يجمعنـا بك على الحق والنعمان بن البشير[١٤١] في قصر الإمارة ولسنا نجمع معـه في جمعة ولا نخرج معه في عيـد ولو قد بلغنا أنك أقبلت أخـرجناه حتى يلحق بالشـام والسلام عليك ورحمة الله وبركاتـه يا ابن رسول الله وعلى أبيك من قبلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[١٤٢].

ومن نماذج ما كتبـه أهل الكوفة إلى الحسين في بعض رسـائلهم لدعوته ومـؤازرته قـولهم: «إلى الحسين بن علي، من شيعتـه المؤمنين والمسلمين، أما بعـد فحي هـلا [كـذا]، فـإن النـاس ينتظـرونك ولا رأي لهم في غيرك فـالعجل العجـل والسـلام عليك»[١٤٣].

وكتب إليه شخصيات من رؤساء الكوفة كتاباً ورد فيه:

«فأقدم على جند لك مجندة والسلام عليك»(١٤٤). وفي رواية الطبري.

كتب إليه أهل الكوفة «أنه معك مئة ألف»(١٤٥).

أما آخر رسالة وردت على الإمام الحسين من أهل الكوفة فكان نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن علي أمير المؤمنين، من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين(ع) أما بعد فإن الناس ينتظرون لا رأي لهم في غيرك فالعجل العجل يا ابن رسول الله (ص) فقد اخضرَّ الجناب وأينعت الثمار وأعشبت الأرض وأورقت الأشجار، فأقدم علينا إذا شئت فإنما تقدم على جند مجندة لك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى أبيك من قبلك»(١٤٦). وكان الإمام الحسين حينما يستقبل الوفود التي تحمل الرسائل من الدعاة والمؤيدين له يسألهم عن حقيقة الموقف وعن الموقعين على تلك الرسائل ليعرف حقيقة الأمر(١٤٧).

وبعد إستقباله آخر وفد كوفي صلى ركعتين بين الركن والمقام ليشهد الله على أولئك الذين وعدوه بالنصرة، وأنه لا يصح للإمام أن يتقاعس عن الجهاد حال وجود الناصر. ثم كتب رسالة عامة إلى أهل الكوفة خصَّ فيها الذين كاتبوه وها هو يرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب لأخذ البيعة منهم والتمهيد لقدوم الإمام الحسين إليهم بناء على استنهاضهم إياه. ومما جاء في تلك الرسالة: «. . . وإني باعث إليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهلي (مسلم بن عقيل) ليعلم لي كنه أمركم، ويكتب إليَّ بما يتبين من جمعكم. . . »(١٤٨).

وقد بلغ عدد الذين بايعوا مسلماً أكثر من ثمانية عشر ألف رجل من شيعة أهل بيت رسول الله (ص)(١٤٩). وفي رواية خمسة وعشرين ألفاً وفي أخرى أربعين ألفاً(١٥٠). ونتيجة لوجود العديد من جواسيس سلطنة قريش في كل ولاية من ولايات دولة النبوّة، فقد بعثوا إلى يزيد يحيطونه علماً بما يجري في الكوفة، ويحذرونه من إحتمال خروجها عن طاعته ما لم يعجل بإتخاذ إجراء حاسم، نتيجة لتقاعس الوالي. فكان رد يزيد على ذلك أن أصدر أمراً بعزل النعمان بن بشير والي الكوفة، وأمراً آخر بضم ولاية الكوفة إلى إمرة عبيد الله بن زياد إضافة لإمرته على

البصرة[١٥١]. فقدم الكوفة وأفسد على الإمام الحسين (ع) كل منجزات مسلم، فتفرق عن مسلم كل الذين بايعوه إلى أن بقي وحيداً حتى ألقى القبضُ عليه وقتل بعد أن دافع عن نفسه دفاع الأبطال كما قتل معه هاني بن عروة الذي ألجأ مسلماً عنده في بيته، وقطع رأسيهما وألقيت جثة مسلم ورأسه من على قصر الإمارة وجرَّت جثتيهما في الأسواق، ليكونا عِبرة لمن يخرج عن طاعة يزيد بن أبي سفيان وأميره على الكوفة عبيد الله ابن زياد[١٥٢]. وفي قتل مسلم وهاني بتلك الصورة البشعة أنشأ عبد الله بن الزبير الأسدي ويقال أنه للفرزدق شعراً[١٥٣]:

فإن كنتِ ما تدرين ما الموت فانظري	إلى هاني في السوق وابن عقيل
إلى بطل قد هشَّم السيف وجهه	وآخر يهوى من جدار قتيل
أصابهما جور البغيّ فأصبحا	أحاديث من يسعى بكل سبيل
فتى كان أُحي من فتاه. حيئةٍ	وأقطع من ذي شفرتين صقيل
أيركب أسماء العماليج آمنا	وقد طالبته مدحج بدخول
تطوف حواليه مراراً وكلهم	على رقبة من سايل ومسول
فإن أنتم لم تثأروا لأخيكم	فكونوا بغا ما أرضيت بقليل

قائل الأبيات يصور ما جرى لمسلم بن عقيل وهاني بن عروة شيخ قبيلة مدحج ويلومهم على عدم تخليص سيدّهم من قبضة ابن زياد على الرغم من كثرة عددهم، وجلال قدر سيدهم. كما يشير الى إحاطة مدحج بالقصر واستخدام ابن زياد الدهاء لتفريقهم بسلام[١٥٤].

وأرسل ابنُ زياد برأس مسلم وهاني هدية إلى يزيد مع كتاب. فكان فيما جاء في رد يزيد على كتاب ابن زياد:

«أما بعد فإنك لم تعد إن كنت كما أحب عملت عمل الحازم وصلت صولة الشجاع الرابط الجأش، فقد أغنيت وكفيت وصدَّقت ظني بك ورأيي فيك...»[١٥٥].

هذه شهادة يزيد في ابن زياد الذي إستخدم ثلاثة أسلحة لتوطيد سلطنة قريش

في الكوفة: نشر الجواسيس، وتوزيع الأموال، والسيف[١٥٦].

وكان ابن زياد حينما ألقى القبض على مسلم بن عقيل وجيء به إلى قصر الإمارة اتهمه ابن زياد بتفريق كلمة المسلمين. فرد عليه مسلم ـ سليل الطالبين وصديق مقرب للإمام الحسين الذي وصفه في رسالته إلى أهل الكوفة بأخيه ـ قائلاً:

«ما لهذا أتيت، ولكنكم أظهرتم المنكر ودفنتم المعروف وتأمّرتم على الناس بغير رضى منهم وحملتموهم على غير ما أمركم الله به، وعملتم بأعمال كسرى وقيصراً فأتيناهم لنأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر وندعوهم إلى حكم الكتاب والسنة فكنا أهل ذلك»[١٥٧]. إن مسلم بن عقيل خرّيج مدرسة علي والحسن والحسين ولعظم قدره فقد أوفده الإمام الحسين ممثلاً لحركته الإصلاحية النهضوية في دولة جده. ولما عرّى مسلم بن عقيل سلطنة قريش أمام ممثلهم وخريج بلاطهم وأظهر أمام الحاضرين أهداف نهضة الإمام الحسين كما لخصها مسلم في كلماته رأى ابن زياد أنها أصابت منه مقتلاً فخرس لسانه وأفحم بحجة مسلم فلجأ إلى أسلوب الجبناء فصار يشتم مسلماً ويشتم علياً والحسن والحسين فقال له مسلم:

«أنت وأبوك أحقُّ بالشتم فاقضِ ما أنت قاضٍ يا عدو الله»[١٥٨]. ثم أمر ابن زياد بقتل مسلم. رجال جُبلوا على قول الحق مهما كان الموقف صعباً ومهما كلفهم الثمن إنهم رساليون. الثبات على العقيدة والمبدأ غاية مقصدهم في الحياة. تاجروا مع الله فخلدوا في الدنيا والآخرة. وقد تزامن مقتل مسلم وهاني مع خروج الحسين من مكة وهو الثامن من ذي الحجة سنة ٦٠ من الهجرة[١٥٩].

وكان الإمام الحسين قد كتب أيضاً رسالة إلى جماعة من أشراف البصرة يدعوهم فيها إلى نصرته، فكان مصير رسوله سليمان إليها كمصير مسلم، بل وصلب سليمان بعد قتله، وكان ذلك قبل مقتل مسلم وقبل توجه ابن زياد إلى الكوفة[١٦٠]. ولا شك أن قتل رسول الحسين بتلك الوحشية هي رسالة عنيفة الى كل من يتعاون أو يتعاطف مع حركة الإمام الحسين. ومنذ أن وطأت أقدامُ الحسين مكة أقبل عليه أهلها كما أقبلت وفود عديدة من بقية ولايات الدولة النبوية للإستفادة من مصاحبة

سبط رسول الله والانتفاع بعلـومه وفقهه في الدين من ناحيـة ولكي يحجوا بحجه من ناحية أخرى(١٦١).

كـان مسلم بن عقيل ممثل الإمـام الحسين إلى أهل الكوفـة قـد كتب رسالـة قبل إستشهاده إلى الإمام الحسين يخبره فيها بالأعداد التي بايعته ويخبره أن الناس في إنتظاره ويدعـوه للقدوم كما أوضح ذلك مسلـم في وصيته(١٦٢). كان الإمـام الحسين خلال إقامتـه بمكة قـد طاف به شريط الـذكريـات عن أحاديث جده وأبيـه وأمه فـاطمة الزهـراء عن إيذاء قريش لهم وما تحملـه المسلمون الأوائل من آلام وها هـو يرى بيت جده الـذي خرج منـه حامـلاً رسالـة الإسلام وداعيـاً إلى وحدانيـة الله ونبذ عبـادة الأصنام وها هـو يرى دار جده أبي طالب عضيد رسـول الله وحامي حماه قبل الهجرة إلى المدينة. إذ كان جده رسول الله قد أيدهُ الله بأبي طالب وخديجة لنصرته قبل الهجرة وبعلي وفاطمة في نصرته والتخفيف عن همومه بعد الهجـرة فها هو اليوم يواجه حفيد أبي سفيان وزعيم سلطنة قريش يزيد بكل جبروته وطغيـانه وحيداً فريداً لا ناصر له ولا معين ولكنه قـرر الصمود لإنقـاذ دين جـده الذي قـرر أن يفتديـه بروحـه. لقد أصبحت كل منجزات النبـوّة في قبضة وريث القصر الأخضر كل المواريث النبـوية ومصير الأمة رهائن في بـلاط يزيد وألعوبة في أيدي حـاشيته يتصرفون بها كما تقتضي مصلحة سلطنة قريش إنهم شر خلف لشر سلف.

٥ ـ خروج ركب الشهادة من مكة إلى كربلاء:

وقـرر الإمـام الحسين الخروج من مكـة يوم الثـامن من ذي الحجـة سنـة ٦٠ من الهجـرة بعد رحيل جـده إلى نعيم الخلد بخمسين عـامـاً، في الـوقت الذي تتهـافت الناس على مكة لأداء فـريضة الحج ليحجوا بحج الإمـام الحسين ليتعلموا منه الأداء الصحيح لمنـاسك الحج فكيف يخرج قبل مـوقف عرفـه بيـوم؟ وقبل النحر والعيـد بيومين؟ ما هو السر في ذلك؟ والجواب على ذلك يتمثل في الآتي:

١ ـ إن الإمام الحسين (ع) هـو خير من يعرف حرمة بيت الله بعـد الرسول (ص) وأبيه وأخيه من ناحيـة ومن ناحية أخرى فإنه يعرف دنـاءة مستوى خصمه الذي لا يعرف لله حرمـة ولذلك حينما حاوره أخوه محمد بن الحنفيـة بأن مكة هي أعز وأمنع

بقعة له على وجه الأرض أجابه الحسين «يا أخي أخاف أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم فأكون الذي تستباح به حرمة هذا البيت»(١٦٣). كما ردَّ بالمثل على عبد الله بن الزبير(١٦٤). فإذا اغتيل الإمام الحسين وهو أكرم خلق الله في بيت الله، فلن تبقى للبيت حرمة إلى الأبد.

٢ ـ إن مغادرة الإمام الحسين أرض مكة يوم الثامن من ذي الحجة يوم التروية تاركاً الحج بدون تكملة إنما كان يريد أن يعلم أمة جده عبر تعاقب الأجيال والعصور درساً أعظم من شهادته. إنه يترك التجمع العبادي لأداء فريضة الحج نصف منجز، هذه الفريضة التي ناضل من أجل إقامتها جده ووالده وأخوه وجميع أسلافه. أنه يترك نصف حجه غير منجز ويدعو الى الشهادة قبل رحيله من أجل أن يعلم جميع الحجاج في التاريخ، جميع العابدين في التاريخ، وجميع المعتقدين في ديانة إبراهيم، أنه إذا لم يوجد إمامة وزعامة رسالية، إذا لم يوجد هدف، إذا لم يوجد حسين، وبدلاً من ذلك يوجد يزيد طائفاً ببيت الله يكونوا أنفسهم كالطائفين ببيوت الوثن. الأفراد الذين واصلوا طوافهم حول الكعبة في غياب الحسين مساوين لأولئك الذين يواصلون طوافهم وتحركهم حول القصر الأخضر بدمشق لأنهم خذلوا المعروف وهادنوا المنكر. إن صمتهم وعدم تلبيتهم نداء الحسين إنما هو تكريس للباطل ودعم نظام لا شرعية له. إن كل حجة بدونه في العصور التالية طوفان لكعبة الأوثان (الكعبة قبل الإسلام).

٣ ـ قال تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾(١٦٥). إن الذبح العظيم الذي فدى الله به إسماعيل هو الإمام الحسين كما ورد في تفسير هذه لآية عن الأئمة (ع) خلفاء رسول الله (ص)(١٦٦). لذا فإن إستشهاده (ع) كان أمراً حتمياً ليتمكن من إنقاذ الدين من الطوفان الذي أحدثه تآمر الطلقاء وأبنائهم والمنافقين بعد وفاة الرسول (ص). فها هو نظام الوصاية الذي وضعه الرسول (ص) يستبدل بملك وراثي عضوض في آل أبي سفيان ومن بعدهم آل مروان وما فترة سلطة الخلافة إلا مرحلة إنتقالية، تم التمهيد خلالها لسلطنة قريش. لقد كان إقدام الإمام الحسين على الإستشهاد أمراً إلهياً، وقد تقبله الإمام الحسين بإرادة إيمانية حرّة(١٦٧). إنه يحمل حراسة الثورة الإلهية العظيمة ومنجزاتها. إنه لا يستطيع أن يبقى صامتاً أمام الدمار الشامل الذي حل

بأمة ودين جده فلا يستطيع أن يبقى صامتاً ولا يستطيع أن يقاتل وحيداً فليس أمامه إلا طريق الإستشهاد الذي سيكشف حقيقة التآمر لأجيال الأمة المتعاقبة ويرسم لهم منهاجاً في مقاومة الطواغيت الذين ينهجون نهج يزيد ومعاوية لتحقيق حياة كريمة.

وقبل خروج الإمام الحسين من مكة ألقى خطاباً في جموع الحجيج نعى فيه نفسه الشريفة ودعا الأمة الإسلامية من خلال وفود الحجيج إلى نصرته وبذلك فإن الإمام الحسين قد طوّق أعناق الأمة آنذاك بدمه كما طوق جدُّه النبي (ص) أعناق الأمة يوم الغدير في الثامن عشر من ذي الحجة بمبايعتهم الإمام علي بن أبي طالب. وقال في خطابه التاريخي العظيم:

«الحمدلله وما شاء الله ولا قوّة إلا بالله وصلى الله على رسوله. خُطَّ الموت على ولد آدم مخطَّ القِلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي إشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه كأني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جوّفاً وأجربة سُغباً لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذَّ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة بل هي مجموعة له في حضيرة القدس، تقرُّ بهم عينه وينجز بهم وعده، من كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل فإني راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى»(١٦٨).

كما أعلن رسول الله (ص) صرخته المدوية في مكة يدعو أهلها إلى الإسلام في مطلع الدعوة فها هو حفيده وسبطه الإمام الحسين يعلن من نفس المكان ليترجم للأمة بشكل عملي معنى الحديث النبوي « حسين مني وأنا من حسين» بعد ستين سنة من الهجرة وخمسين سنة من وفاة المؤسس. هذه دولته التي تمتد من دمشق إلى خراسان شرقاً ومن دمشق إلى المغرب غرباً قد تحولت إلى مقبرة صامتة للأحياء تظللها الأعمال السوداء التي يرتكبها حكام القصر الأخضر الذين حذر من شرورهم الرسول(ص) وها هي نبوءته تتحقق حيث أصبح الدين والأمة تحت رحمة غلمان بني

أمية وبني مروان. إن حركة الإمام الحسين النهضوية والتي أعلن عنها طيلة إقامته بمكة ها هو يؤكدها قبيل رحيله من مكة. إنها صرخة أشرف المخلوقات في ذلك الوقت ليقضي على صمت المقبرة الرهيب. وإذا كان مقتل الصحابي الجليل عمار بن ياسر في صفين قد كشف للأمة سراً من أسرار نبوءة الرسول (ص) لتعريف الأمة بأن قتلته هم الفئة الباغية فها هو الإمام الحسين يقدم على الشهادة بثبات ويقين ليكشف للأمة صدق نبوءة جده كما حدث بمقتله وحدث عن قاتليه، لتعرف الأمة الخطر الذي يحدق بها وبدينها وتراثها وكل منجزات الشهداء عبر العهد النبوي، أصبحت دولة النبوة تحكم بواسطة نفس الأنظمة التي حاربها النبي (ص) الأكاسرة والقياصرة ولكنهم أكاسرة وقياصرة العرب المتمثلين في سلطنة قريش. إن إقدام الإمام الحسين على الشهادة ليعيد للأمة نبضها ويحيي في الأجيال قيم جده التي طمستها سلطنة قريش وليعيد للأمة نخوتها وحميتها وكل القيم الإنسانية التي ورثها الإسلام عن الحضارات الإنسانية.

وكان خطاب الإمام الحسين في الحجيج قبل رحيله بيوم واحد. وقد إلتقى بنفر من الأهل والصحابة ونصحوه بعدم التوجه إلى الكوفة التي كانت وجهته قبل أن يصله خبر إستشهاد مسلم وهاني، حيث كان خروجه قد تزامن مع مقتلهم وهو الثامن من ذي الحجة سنة ٦٠ من الهجرة كما مرّ ذكر ذلك سابقاً. ومن الشخصيات التي تحدثت مع الإمام الحسين قبيل رحيله: عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدري وأخوه محمد بن الحنفية ومع أنهم حذروه من غدر أهل العراق الذين غدروا بأبيه وأخيه إلا أنه رد عليهم أنه يسير إلى العراق إمتثالاً لأمر جده رسول الله (ص)[١٦٩]. وجاء في رد الإمام الحسين (ع) على نصيحة عبد الله بن عمر فقال:

«يا أبا عبد الرحمن أما علمت أنَّ من هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل أما تعلم أن بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون وكأن لم يصنعوا شيئاً فلم يعجل الله عليهم، بل أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز ذي إنتقام، إتقِ الله يا أبا عبد الرحمن ولا تدعنَّ نصرتي»[١٧٠].

وفضل عبد الله بن عمر والآخرين الذين نصحوه أن يركنوا الى زوايا العبادة التي

فضلوها على نصرة إمامهم الحق كما بايعه النبي (ص) بذلك في حياته بإجماع المسلمين. فما فائدة التعبد في ظل أسر الدين ومصادره في يد الطغاة وتعطيل سننه وأهمها التخلي عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي فريضة الجهاد في السلم والحرب لضمان إستقامة أمور الدين والدنيا في دولة النبوة والتي حث عليها الرسول(ص) في مواقف عديدة.

أما محمد بن الحنفية فقد وصل إلى مكة في الليلة التي أراد الإمام الحسين الخروج في صبيحتها. ولما علم بعزمه على الرحيل إلى الكوفة في الصباح تحاور معه، فأدرك تصميم الإمام على قراره وأنه ينفذ أمر جده رسول الله (ص) الذي رآه في المنام ليلة خروجه وأنه جدد إخباره بمقتله. فقال محمد بن الحنفية: «إنا لله وإنا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال؟» فقال له: «إن الله قد شاء أن يراهنَّ سبايا» فأفترقا بعد الوداع(١٧١). كذلك كتب الإمام الحسين كتاباً إلى بني هاشم يدعوهم إلى نصرته ويخبرهم بإستشهاده، وهذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى بني هاشم، أما بعد: فإنه من لحق بي استشهد ومن تخلف لم يدرك الفتح والسلام»(١٧٢). كما لحق بالإمام الحسين عون ومحمد إبني عبد الله بن جعفر والسيدة زينب بنت علي قبل خروجه من مكة وانضما الى ركب الشهادة وقد طلب ابن جعفر من الإمام الحسين التريث في السير ليلحق به من أجل توديع الهاشميين جميعاً وزوجته زينب في رسالة حملها ولداه إلى خالهما الإمام الحسين(١٧٣).

إلتقى الإمام الحسين (ع) قبيل خروجه من مكة بشخصين قدما من الكوفة وهما أبو محمد الواقدي وزرارة بن صالح اللذان حضرا الى مكة لأداء فريضة الحج. ولما سألهما عن الكوفة أخبراه بضعف الناس فيها وأن قلوبهم معه وسيوفهم عليه(١٧٤).

وكان يزيد قد عزل والي المدينة الوليد بن عتبة، ربما لعدم تمكنه أخذ البيعة من الإمام الحسين وعبد الله بن الزبير، وولّى على الحرمين سعيد بن العاص في نفس فترة إقامة الإمام الحسين بمكة(١٧٥). فمن البديهي أن يكون الوالي مع جواسيس سلطنة قريش قد أخبروا يزيد بخروج الإمام الحسين من مكة متوجهاً إلى الكوفة.

لذلك كتب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد والي الكوفة والبصرة: «أنه قد بلغني أن حسيناً قد سار إلى الكوفة وقد أبتلي به زمانك من بين الأزمان، وبلدك من بين البلدان، وابتليت به أنت من بين العمال، وعندها تعتق أو تعود عبداً كما تعتبد العبيد»(١٧٦).

إذا كانت هذه لغة يزيد مع ولاته فكيف تكون لغته مع عامة الناس؟ إنه أسلوب طاغوتي من أجل إذلال كل من تضمه أراضي دولة النبوّة. لمثل هذا خرج الإمام الحسين لتحرير الأمة من الأسر الطاغوتي.

وربما أراد يزيد أن يذكر عبيد الله بأبويه زياد وسُميّة الذين كانا عبدين عند بني سفيان وأن معاوية ألحق زياد بأبيه أبي سفيان، فأصبح أموياً بهذا الإلحاق وحراً(١٧٧). فهو يهدده، إن لم يقم بالقضاء على الإمام الحسين فسينفيه من النسب السفياني فيعود عبداً. إن الطلقاء وأبناء الطلقاء يردون أيادي محمد (ص) عليهم يوم أطلق سراحهم يوم فتح مكة دون عقاب، بمطاردة عترته بل ومحاولة إبادتهم في كل مكان.

وخرج الإمام الحسين في مسيرته المقدسة من بيت الله الحرام من أم القرى قبل أن يتم حجه، خشية أن تهتك حرمته، إلى أرض الشهادة حيث موعده مع مصرعه ومصرع أحبته من الأهل والأنصار الذين كانوا يمثلون صفوة البشرية آنذاك. ها هو الرجل الذي ظهر من بيت الأحزان من بيت فاطمة الذي عاش مأساة بيت النبوّة حينما صار ذلك البيت تحت رحمة رجال سلطة الخلافة وما لحق بعلي وفاطمة من أذى. جده النبي مات كسير القلب وأمه فاطمة الزهراء شهيدة العقيدة والمبدأ وأبوه شهيد العدالة والحق والمساواة والحرية وأخوه الإمام الحسن شهيد غدر مؤسس سلطنة قريش معاوية. فطريق الشهادة في سبيل إعلاء كلمة الحق وإحياء السنن التي طمست وإنقاذ الأمة كلها أهداف غالية على الإمام الحسين كانت عنده أغلى من حياته فأفتدى تلك الأهداف السامية بروحه وأرواح أصحابه الميامين، الذين جعلوا من أرواحهم وأجسادهم ودمائهم جسوراً لبلوغ تلك الغايات النبيلة. إنه وارث الألم العظيم للإنسانية إنه الوريث الوحيد لآدم وإبراهيم ومحمد. حِمْل جميع المسؤوليات قد وضع على كتفيه. رجل وحيد. ولكن لا إنه ليس وحيداً في حركته

النهضـوية. فقـد برزت معـه امرأة من نفس بيتـه ونهلت من نفس منهله النبـوي، وورثت من الآلام والمسؤوليـات ما ورث، لقد اصطحبتـه جنباً إلى جنب منذ بـداية توديعـه مدينة جـده، وحتى أرض الشهادة في كربـلاء. إنها تحمل نصف الإنتداب الثقيل لأخيها على كتفيهـا إنها زينب بنت علي شقيقته عقيلة الطالبيين ذات المكـانة الرفيعة في البيت النبوي بعد أمها فـاطمة. لقد ورثت آلام جدتها خديجة، كما ورثت مصائب أمها، بل إن المصائب التي تراكمت على عقيلـة الطالبيين فاقت ما تحملته أمهـا من مصائب حتى لقبت بجـامعـة الرزايـا وسيتضح ذلك من خـلال مناقشـة دورها المقدس الذي قامت به خير قيام في أرض الشهادة وفي مناطق السبى والتفرُّج على نساء وأطفال آل رسول الله بعد إنتهاء فاجعة كربلاء.

معلم الشهادة العظيم يسوق ركبه الى كـربلاء ليعلم أولئك الذين يعتبرون الجهاد للتسلط فقط، وأولئك الـذيـن يفكـرون ويعتقـدون أن النصر يكمن في الفتح فقط يريد أن يعلمهم مفهـوماً جديداً، ذلك أن المحارب الـذي يضحي بنفسه على عتبة معبد الحريـة هو المنتصر. الإمـام الحسين، وارث آدم، الذي يعطي حيـاة الحرية إلى أطفـال البشرية، خليفـة الأنبياء العظـام الذي علم البشريـة كيف تعيش يأتي الآن ليعلم البشرية كيف تموت.

ومضى الإمام الحسين يقود ركب الشهادة ومعه زوجاتـه وأخواته، وبناته وإخوته وأبناء إخوته وأبناءه وأبناء عمومته ونفراً من أنصاره وصحبه(١٧٨). وفي الطريق تفرق عنــه أصحـــابُ الأطماع كما إنضم إليـــه من كتب الله لـــه الشهـــادة مثل زهير بن القين(١٧٩). وكـان الفرزدق بن غـالب الشاعـر المعروف من أوائل الـذين التقى بهم الإمام الحسين خلال توجهه إلى الكوفة، وحينما سأل عن حال أهلها قال: «تركتهم، قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء»(١٨٠). وفي بعض المياه بالطـريق إلتقى بعبد الله بن مطيع العـدوي فعبر للحسين إشفاقه عليـه حينما عرف وجهتـه وحـذره بطش الأمـويين وإنتهـاك حـرمة الإسـلام بقتلـه فـرد عليـه الإمـام الحسين(ع): ﴿قل لن يصيبنا إلا مـا كتب الله لنا﴾(١٨١). وظل يواصل سيره حتى بلغ الثعلبيـة ظهـراً وأنـاخ رحـالـه فغفت عينـــاه ثم استيقظ فقـال: رأيت هـاتفـاً

يقول: «أنتم تسيرون والمنايا تسير بكم إلى الجنة» فقال له ابنه علي: يا أبت أو لسنا على الحق؟ قال بلى يا بني والذي إليه مرجع العباد «فقال: يا أبتِ إذا لا نبالي بالموت» فقال له الحسين: «جزاك الله يا بني خير ما جزى والدا عن ولده[١٨٢] وقضوا ليلتهم في الثعلبية، حيث وافاهم في صبيحتها رجل من الكوفة يكنى أبا هرَّة الأزدي فحّيا الإمام الحسين وصحبه وسأله مستغرباً تركه المدينة وتوجهه الى الكوفة فقال له الإمام الحسين (ع): «ويحك يا أبا هِرَّة إن بني أمية أخذوا مالي فصبرت وشتموا عرضي فصبرت وطلبوا دمي فهربت وأيم الله لتقتلني الفِئة الباغية وليلبسنهم الله ذلاً شاملاً وسغباً قاطعاً وليسلطنَّ الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قوم سبأ إذ ملكتهم امرأة فيهم فحكمت في أموالهم ودمائهم»[١٨٣] ثم واصل الإمام الحسين (ع) حتى بلغ زباله حيث ورده خبر استشهاد مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، فتفرق عن الإمام الحسين جماعة من أصحاب الأطماع أيضاً وبقي الصفوةُ معه. ولقد كان لورود خبر مقتل مسلم وهاني وقعاً أليماً في نفس الحسين وصحبه خاصة لوجود زوجته أم كلثوم شقيقة العقيلة وأطفالها بالركب بالإضافة إلى إخوة مسلم[١٨٤]. ولكن الإمام الحسين وقف كالطود الشامخ لا يتزعزع كما عبر للأزدي عن أن الفئة الباغية ستقدم على قتله. وكان تعليق الحسين على ذلك الخبر المؤلم أن استعبر باكياً ثم قال: «رحم الله مسلماً فلقد صار إلى روح الله وريحانه وتحيته ورضوانه أما أنه قد قضى نحبه وما عليه وبقي ما علينا» ثم أنشأ يقول: [١٨٥]:

فإن تكن الدنيا تعدُّ نفيسة ... فدار ثواب الله أعلا وأنبلُ

وإن تكن الأبدان للموت انشئت ... فقتل الفتى بالسيف في الله أفضل

وإن تكن الأرزاق قسماً مقدراً ... فقلةُ حرص المرء في السعي أجملُ

وإن تكن الأموال للترك جمعها ... فما بال متروك به الحدُّ يبخلُ

إن الإمام الحسين قد أوضح بكلماته نثراً وشعراً أنه لا خيار لنا غير الإستشهاد في سبيل الله وهو أفضل أنواع الموت فالإمام الحسين وصحبه إختاروا الشهادة ووقعوا عليها ولم تقع عليهم وهنا تكمن عظمة الإمام الحسين في إقدامه على الاستشهاد ليزلزل الصمت المطبق. كان الإمام الحسين يعلم في رحلته الإستشهادية أنه لا وجه

للمقارنة بين استعداداته العسكرية واستعدادات خصمه الذي سيحشد له ـ كما أخبره أخوه الإمام الحسن (ع) قبيل استشهاده ـــ ثلاثين ألف رجل. إنه يعلم بإمكاناته المتواضعة، لكنه عشق الشهادة إنه يريد أن يدافع عن الحقيقة عن طريق ضرب رأس عدوه المهاجم بموته، فأختار بعد ذلك الموت، إنه يشتري حياة الموت بموت الحياة وقد قيل: «أطلبوا الموت توهب لكم الحياة». وقال الإمام الحسين(ع) «موت في عز خير من حياة في ذل»(١٨٦).

ويواصل الإمام الحسين (ع) إقامة الحجة على أهل الكوفة الذين دعوه لنصرته ليجعل ذلك ضمن وثائق التاريخ الإنساني بشكل عام والإسلامي بشكل خاص بأنه قد أدى ما عليه تجاه الناس لدعوتهم لتحرير الأمة والدين من طاغية قريش يزيد، بصفته الوريث الشرعي والوحيد لكل شرائع السماء آنذاك على الرغم من الأنباء المثبطة لهمم الجبناء بشأن القبضة الحديدية التي أمسك بها عبيد الله بن زياد الكوفة والبصرة وما فعله برسوليّ الإمام الحسين إليها. فكتب كتاباً إلى أول من راسلهم من زعماء الكوفة: سليمان بن صرد الخزاعي والمسيَّب بن نجبة ورفاعة بن شدَّاد وجماعة من شيعة أهل البيت وبعثه مع قيس بن مِسهِّر الصيداوي يقول ابن طاووس: «فلما بلغ مشارف الكوفة إعترضه الحصين بن تميم صاحب عبيد الله بن زياد ليفتشه فما كان من رسول الإمام الحسين إلا أن أخرج الكتاب ومزقه بغية الحفاظ على حياة المعنيين بالأمر. فكان عقابه أن أُخذ إلى ابن زياد فلما طلب منه أن يعرف نفسه قال: أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وابنه قال: فلماذا أحرقت الكتاب؟ «قال: لئلا يعلم ما فيه، قال: وممن الكتاب وإلى من؟ قال: من الحسين إلى جماعة من أهل الكوفة لا أعرف أسماءهم. فغضب ابن زياد وقال والله لا تفارقني حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم أو تصعد المنبر فتلعن الحسين بن علي وأباه وأخاه وإلا قطعتك إرباً إرباً، فقال قيس: أما القوم فلا أخبرك بأسمائهم وأما الحسين وأبوه وأخوه فافعل. فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلَّى على النبي وآله وأكثر من الترحم على علي وولده صلوات الله عليهم ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه وأخاه ولعن عتاة بني أمية عن آخرهم. ثم قال أيها الناس أنا رسول الحسين عليه السلام إليكم وقد خلّفته بموضع كذا فأجيبوه(١٨٧) «وقد أمر ابن زياد بإلقائه من أعلى قصر الإمارة» فلحق بقافلة شهداء كربلاء في نعيم الخلد إلى جانب

سليمان رسول الحسين الى البصرة ومسلم وهاني فهؤلاء الأربعة هم أول قافلة شهداء حركة الإمام الحسين النهضوية خارج ميدان معركة كربلاء.

لقد مثل الرسل الثلاثة الإمام الحسين (ع) خير تمثيل وأثبتوا بمواقفهم الإيمانية وثباتهم على العقيدة والمبدأ وهم يواجهون لحظات الموت بأسمى معاني الشموخ والإباء فأثبتوا الولاء والإنتماء إلى مدرسة آل رسول الله. وقد تمكن قيس أن يبلغ رسالة الحسين (ع) بأمانة فاقت حدود الخيال، فقد حافظ على سلامة أرواح المعنيين من ناحية وبدل أن يقتصر التبليغ على نفر قليل جداً من أهالي الكوفة تمكن قيس أن يقهر الموت وكل جبروت سلطنة قريش وقوتها فأبلغ رسالة الإمام الحسين إلى أهالي الكوفة كافة وشتم عتاة الأمويين وسلالة ابن زياد، وهكذا تسامى قيس بعقيدته على الموت ليهرب من موت الأحياء الذي أصبحت فيه الحياة مع الظالمين تافهة. الحياة التي صار المهيمنون على مقاليد أمور دولة النبوَّة الذين يتباهون بشتم أبناء الرسول وعترة النبي الطاهرة، فما قيمة الحياة حينئذٍ؟ لقد أعطى قيس لأهالي الكوفة بشكل خاص وللأمة عبر تعاقب الأجيال بشكل عام نموذجاً لعظمة شهداء كربلاء الذين أصبحوا حديث البشرية طالما وجدت حياة على وجه الأرض. ولما بلغ الإمام الحسين استشهاد قيس استعبر باكياً وقال: «اللهم اجعل لنا ولشيعتنا منزلاً كريماً واجمع بيننا وبينهم في مستقر من رحمتك إنك على كل شيء قدير»[١٨٨]. لم يضعف ولم يستكن بل صمم على مواصلة طريق الحق، طريق الشهادة.

٦ـ الوصول إلى أرض الشهادة:

بدأ ابن زياد يعدُّ العدة لحرب الإمام الحسين منذ أن تسلم كتاب يزيد بن معاوية الذي هدده فيه بإعادته للعبودية إن لم يقض على الحسين كما مر سابقاً. فجهز جيشاً كبيراً مكوناً من ثلاثين ألفاً حسبما تشير إليه معظم الروايات وأمّر على ذلك الجيش عمر بن سعد بن أبي وقاص[١٨٩] ـ الذي كان واحداً من الذين بادروا بإخبار يزيد عن حركة مسلم بن عقيل وتمثيله للإمام الحسين[١٩٠] فربما يكون تأميره على الجيش الذي حارب الإمام الحسين مكافأة له على تلك الخدمة لنيل رضا وثقة يزيد بن معاوية وواليه ابن زياد. وقد أحكم ابن زياد بالجيش الضخم الذي حشده لحرب

الإمـام الحسين حصار الكـوفـة خشية أن يخرج أحـد من أهلهـا لـلإلتحاق بـركب الشهادة المتوجـه نحو الكوفة . وكـان ابن زياد قد أمر بتضييق الخنـاق ومراقبة تحرك كل أهل الكوفة بشكـل عام وشيعة أهل البيت بشكل خاص وكل من كـان معروفاً بحب الإمام الحسين(١٩١).

وكـانت أولى الطلائع العسكـريـة التي خرجت من الكـوفـة لمراقبة ركب الإمـام الحسين تتكـون من ألف فارس بقيـادة الحر بن يـزيـد الريـاحي الـذي كان مأمـوراً بأحتجـاز الـركب أينما وجـد وإحـاطـة ابن زيـاد علماً بـذلك(١٩٢). وبالـرغم من التعليمات الصـارمـة التي يحملهـا الحر للإسـاءة إلى الإمـام الحسين فإنـه خجل من الحفاوة التي إستقبلـه بها الإمام الحسين وطليعة الفـرسان الذين معـه حيث سقوهم مـاء مع خيولهم حينما إلتقـوا بهم عنـد مـرحلتين من الكوفـة(١٩٣). ثم اتفق الإمـام الحسين مع الحر على أن يأخـذ ركب الإمـام الحسين طريقـاً لا تـدخلـه الكوفـة ولا توصله إلى المدينة .

فسار ركـب الإمام الحسين تحت رقابـة طليعة الجيـش الأموي التي يقـودها الحر حتى وصلت رسالـة ابن زياد إلى الحر تلومـه في أمر الإمام الحسين وتأمـره بالتضييق عليه . ولما لم يجد الحر بـداً من تنفيذ أوامر ابن زياد منعـوا الإمام الحسين من السير. ولما استفسر الإمام الحسين من الحر عن سبـب تغيير موقفه أخبره بـرسالـة ابن زياد والجواسيس الذين عينهم لمراقبة مدى إمتثاله لأوامره(١٩٤).

وخطب الإمام الحسين أصحـابه وأصحاب الحر بالبيضة فحمـد الله وأثنى عليه ثم قال : «أيها النـاس إن رسول الله (ص) قال من رأى سلطانـاً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثـاً لعهد الله مخالفاً لسنـة رسول الله (ص) يعمل في عباد الله بـالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كـان حقاً على الله أن يدخله مدخلـه ألا وإن هؤلاء قد لزموا طـاعة الشيطان وتركوا طـاعة الرحمٰن وأظهروا الفسـاد وعطّلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حـرام الله وحرّموا حلاله وأنـا أحق من غيَّر وقد أتتني كتبكم وقدمت عليَّ رسلكم ببيعتكم أنكم لا تسلمـوني ولا تخذلـوني فإن تممتم على بيعتكم تصيبـوا رشـدكم فأنا الحسين بن علي وابن فـاطمة بنت رسـول الله (ص) نفسي مع أنفسكم

وأهلي مع أهليكم فلكم فيَّ أسوة وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم والمغرور من اغترَّ بكم فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[195]. لقد أوضح كل شيء للحاضرين وبين لهم أنه وريث النبيين جميعاً فحركته امتداد لثورة جده الإلهية فهو حارس الشريعة وعلى كتفيه تقوم كل المسؤوليات لمناهضة الطوفان الذي يكتسح دولة جده. كما يذكرهم بأن مجيئه إلى الكوفة إنما كان بناء على مراسلات وتعهدات وبيعة تم أخذها له. ويحذرهم عاقبة النكوص. ثم واصلوا سيرهم داخل العراق حتى وصلوا ذي حسم. وهناك قام الإمام الحسين خطيباً في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون وأن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها واستمرت حتوفها ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً»[196]. هذه إحدى صرخات عملاق الحرية التي أطلقها في بيداء الحياة فصارت تتردد أصداؤها عبر الزمان والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يتغنى بها عشاق الحرية على اختلاف ألوانهم وأعراقهم وأديانهم إنه يرى في الموت الحياة الخالدة التي توفر أعلى درجات السمو للشهيد في الدنيا والآخرة لأنه المنقذ للبشرية من الآلام، وأن الموت الحقيقي يكمن في العيش الذليل مع الظالمين ولزوم الصمت على جرائمهم ضد الإنسانية وضد الأديان وضد القيم وضد كل المواريث النبوية وكانت كلمات الإمام الحسين (ع) في أصحابه كالبركان الهادر الذي فجر في أعماقهم ثورة عارمة فقام نفر منهم يعبرون عن أمتنانهم للنعمة التي أسبغها الله عليهم بمرافقته والإستشهاد معه دفاعاً عن العقيدة والمبدأ ومن هؤلاء: زهير بن القين، هلال بن نافع، ويزيد بن حصين[197]. ثم سار ركبُ الإمام الحسين والحر ومن معه من الفرسان يسايرونه، ولما حذر الحر الإمام الحسين بأنه سيكون مصيره القتل إذا صمم على مقاتلة الجيش الأموي رد عليه الإمام الحسين بقوله: «أفبالموت تخوّفني وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني، ما أدري ما أقول لك ولكن أقول كما

قـال أخو الأوس لابن عمـه حينما لقيـه يريـد نصرة رسـول الله (ص) فقال لـه : أين تذهب فإنك مقتول! فقال : [١٩٨].

سأمضي وما بالموت عار على الفتى ... إذا مـا نـوى حقاً وجـاهـد مسلماً

وآسى الـرجـال الصالحين بنفسـه ... وفـــارق مثبـوراً يغشّ ويـــرغما

واكتفى الحر بسماعـه هـذه الأبيات أن الإمـام الحسين مصمم على الإستشهـاد، لذلك تنحى عنه وصار كل منهما يسير بأصحابـه حتى وصلوا إلى عذيب الهجانات وكان بها هجـائن النعمان ترعى هنالك فـوجدوا أربعة رجـال قدموا من الكـوفة على رواحلهم ومعهم فرس لنافـع بن هلال يقال له الكامل ومعهم دليلهـم الطرماح بن عدي على فرسه وهو يقول : [١٩٩]

يـا نـاقتي لا تذعـري من زجـري ... وشمّـــرى قبل طلـوع الفجـــر

بخير ركبـــان وخير سفـــــر ... حتى تحلى بكــــريم النجــــر

الماجـــد الحر رحيـب الصـــدر ... أتى بـــه الله لخير أمـــــــر

وكان هـؤلاء النفر قد قـدموا لنصرة الإمام الحسين على الـرغم من إحكام الجيش الأموي الحصار على الكوفة ـ وعلى الرغم من معارضة الحر المبدئية لإنضمام هؤلاء إلى ركب الإمـام الحسين إلا أنه تنـازل أزاء الموقف المتصلب الـذي وقفه الإمـام الحسين ضده وهدده بالقتال إذا أصرَّ على المعارضة[٢٠٠]. وقد أخبر الطرماح ومن معه الإمام الحسين بحشود الأمويين العسكرية الضخمة التي إجتمعت لقتاله[٢٠١].

واستمـر ركب الإمام الحسين وركب الحر يتسـايـران يمنعون الإمـام الحسين من السير تارة ويسايرونه تارة أخرى حتى بلغـوا كربلاء وذلك في اليوم الثاني من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة[٢٠٢]. فلما سأل الإمـام الحسين عن اسم الأرض التي بلغوهـا قيل كربلاء. فقال : أنـزلوا ها هنا والله محطّ ركـائبنا وسفك دمائنا، هـا هنا والله محل قبـورنـا، هـــا هنـا والله تسبى حـريمنـا، بهذا وعـــدني جـدي رسـول الله (ص)[٢٠٣]. فنـزلوا جميعـاً وكان الحر في جـانب، ونـزل الإمام الحسين وصحبـه في جانب آخر. فقبض الإمام الحسين (ع) قبضة من تـراب كربلاء فشمَّها فقال : «هذه والله هي الأرض التي أخبر بها جبرئيل رسول الله (ص) أننـي أقتلُ فيها. أخبرتني أم

سلمة بذلك[٢٠٤]. ورُوي أن الإمـام الحسين (ع) حينما ألجأه جيش الضـلال إلى القتال للدفاع عن نفسه وحريته وعن دين جده وعن مواريث كل الديانات وكان يرتجز شعراً وسيفه مصلت في يده كما روى ابن حجر ويقول: [٢٠٥].

أنـا ابن علي الحبر من آل هـاشم كفـاني بهذا مفخـراً حين أفخـرُ

وجدي رسولُ الله أكرم من مشى ونحن سراجُ الله في الناس يـزهرُ

وفـاطمـةٌ أمي سـلالـة أحمدٍ وعمي يدعى ذا الجناحين جعفر

وفينـا كتـابُ الله أُنـزل صـادقـاً وفينا الهدى والوحي والخير يذكرُ

ويمكن أنـه (ع) كان يريـد تنويـر من على قلبه غشـاوة من الجيش الأمـوي وما أكثرهم علّة يوفق لهداية أحد منهم.

٧ ـ ركب الشهادة يحطُّ رحاله في أرض الإستشهاد الموعودة:

وصدقت نبـوءة الإمام علي بعد ثـلاث وعشرين سنة حينما مروا بكـربلاء وهم في طريقهم الى صفين لقتـال معاوية. فيقال أن الحر بن يـزيد الرياحي وصحبـه منعوا ركب الإمام الحسين (ع) من المسير حينما وصلوا إلى هذا المكـان، وقال للإمام: إنزل بهذا المكـان فـالفـرات منك قـريب. وحينما سـأل الإمـام عن إسم المكـان قيل لـه كربلاء. قـال: «ذات كرب وبلاءِ، ولقد مـرَّ أبي بهذا المكان عند مسيره إلى صفين، وأنا معه، فوقف، فسأل عنه، فأُخبر باسمه، فقال: «ها هنا محط ركابهم، وها هنا مهراق دمائهم»، فسُئل عن ذلك، فقال: «ثقل لِآل محمد، ينزلون ها هنا»[٢٠٦].

ثم أمر الإمام بـأثقاله وجُطت في ذلك المكان. وكتب إلى أخيـه محمد بن الحنفية وجماعة مـن بني هاشم: أمـا بعد فكأن الـدنيا لم تكن، وكأن الآخـرة لم تزل»[٢٠٧]، فكـانت آخر رسـالـة يوجههـا إلى أقربـائه ينعى فيهـا نفسه ويخبرهم بتصميمـه على الإستشهاد لإلقـاء الحجة عليهم وحتى يلحق بـه كل راغب في الإستشهاد من أجل هزيمة الباطـل ونصر الحق وإظهاره. إنه آخر نداء يوجهه لأقـاربه من أجل الحرية وكرامة الإنسـان في دولة النبوة التي أهدرهـا الأمويون منذ سيطـرتهم على حكم هذه الدولة حيث أعـادوا عهد الجاهلية في ثوب جديد: بـزي إسلامي ولكن على الطراز الأموي.

ورُوي أن جيش الأمـويين الـذي إجتمع لقتال الإمـام الحسين قبيل العـاشر من محرم سنة إحـدى وستين من الهجرة بلغ ثـلاثين الفا مع كـامل أسلحتهم، بينما بلغ أنصـار الإمـام الحسين كما رُوي عن الإمـام الصـادق خمسة وأربعين فـارسـاً، ومئـة راجل، ونقل أنهم كانوا نيفاً وسبعين[٢٠٨]. وروي أنه حتى السـادس من شهر محرم بلغ عدد جيش الأمـويين بقيادة عمر بن سعـد عشرين ألفاً[٢٠٩] بينما أقلُّ الروايات تقدره بأربعة آلاف مقابل اثنين وسبعين وهـم أصحابُ الإمام الحسين[٢١٠](ع). كان أنصار الإمام الحسين خمسين والباقي من البيت الطالبي.

٨ ـ زينب وكربلاء:

بوصـول ركب الشهادة إلى أرض البطولات كـربلاء بدأ العـدُّ التنازلي على اكتمال دور الإمام الحسين وإنجاز ما عليه من مهام لتتسلم عقيلة الطالبين وفخر المخدرات زينب مهامهـا البطولية لتحمل رسالـة ملحمة الشهادة لتحدث بها أجيـال البشرية المتعـاقبـة ويحكـوا قصص بطولاتها. إن مهـام السيـدة زينب في ملحمـة الشهـادة بكربلاء يمكن تلخيصها في:

١ ـ توصيل رسالة الشهادة إلى الأجيال المتعاقبة عبر العصور في دولة النبوّة بشكل خاص وإلى بقية الأمم بشكل عام عبر ميادين الكوفة، دمشق ومدينة الرسول (ص) وكـذلك في القصرين الأبيض بـالكـوفة والأخضر بـدمشق تخاطب سـلاطين الجور والفساد وتزلزل الصمت المطبق في مقبرة الأحياء التي غشيها ليل بهيم.

٢ ـ الحفـاظ على حياة الإمام زين العابـدين بقية العترة وحجة الله في أرضـه بعد الإمـام الحسين (ع) الذي أراد الأمـويـون قتلـه مرتين إحـداهما في كـربـلاء والثانيـة بالكوفة. وقد شاءت إرادة الله أن يمرض قبيل وصول ركب الإمام الحسين إلى كربلاء وظل مريضاً حتى عـودته إلى المدينة حيث أنهكته المصـائب، فسقط عنه القتال بين يدي والده الإمام.

٣ ـــ كذلـك من مهام السيـدة زينب لمّ شمل الأطفـال والنسـاء خـلال المعركـة وبعـدها، بل منـذ وطأت أقدامهم أرض كـربلاء أصبحت السيـدة زينب تتحمل

مسؤولية تمريض زين العابدين ورعاية النساء والأطفال. وسيتضح لاحقاً كيف أدت السيدة زينب تلك المهام بإتقان وأمانة.

وقال العلامة الأصفهاني في أرجوزة له يصف فيها ميراث السيدة زينب الذي مكنها من القيام بدورها العظيم في ملحمة الشهادة فقال[٢١١].

مليكة الدنيا عقيلة النسا	عديلة الخامس من أهل الكسا
شريكة الشهيد في مصائبه	كفيلة السجاد في نوائبه
بل هي ناموس رواق العظمة	سيدة العقائل المعظمة
أم الكتاب في جوامع العلا	أم المصاب في مجامع البلا
رضيعة الوحي شقيقة الهدى	ربيبة الفضل حليفة الندى
ربة خدر القدس والطهارة	في الصون والعفاف والخفارة
ما ورثته من نبي الرحمة	جوامع العلم أصول الحكمة
سرّ أبيها في علو الهمة	والصبر في الشدائد الملمة
وما أصاب أمّها من البلا	فهو تراثها بطف كربلاء

الإمام الحسين بدأ في إعداد العقيلة زينب لدورها الرسالي العظيم في ملحمة الشهادة بكربلاء منذ خروجهم في ركب الشهادة من المدينة. ولذلك حينما حطوا برحالهم أرض كربلاء كان الإمام الحسين (ع) يتعهدها بشكل مستمر بتوجيهاته ونصائحه الفذّة يعلّمها كيف تسمو على الجراح، وكيف تؤدي دورها المقدس.

إن قائد الجيش الأموي عمر بن سعد وبناء على توجيهات سيده عبيد الله بن زياد خيّر الإمام الحسين (ع) بين المبايعة أو القتال، فاختار القتال[٢١٢]. لماذا؟ لأن المبايعة استسلام وذل والقتال إسشهاد وعز. لأن المبايعة عبودية وتعطيل لحدود الله وانتهاك لحرماته والقتال حرية وإحياء للسنن وإماتة للبدع. وكان ابن زياد قد أمر قائد جيشه بأن يمنع الحسين وأصحابه الماء كما جاء في رسالته إلى عمر بن سعد: «إمنع الحسين وأصحابه الماء، وحُل بينهم وبينه حتى لا يذوقوا منه حسوة، كما فعلوا بالتقي عثمان بن عفان[٢١٣]. ليس غريباً على ابن زياد أن يتطاول على الحقيقة

لأنه عـدوٌّ من أعدائهـا ومن سخريـات القدر أن يصل أمـر الأمة الإسـلامية إلى أن يشارك أمثـال ابن زياد في تسيير دفة الأمور فيهـا فجميع المؤرخين للأحداث بـدولة النبوَّة يـذكرون دور الإمام علي وولـديه الحسن والحسين في الدفـاع عن عثمان، وهذا مثل متـواضع لتشويـه الحقـائق من قبل أمـراء سلطنة قـريش لتعـرف أجيال الأمـة المتعاقبة في دولة النبـوَّة مدى الزيف الذي على أساسه بنى الأمـويون حكمهم. لقد أراد ابن زيـاد أن يجعل الماء سلاحاً يضغـط به على الإمام الحسين وصحبـه من أجل حملهم على المبايعة والإستسلام. ولكن متى كان لمثل ابن زياد أن يعرف معدن الإمام الحسين وصحبه ومدى إبائهم وشمـوخهم وعمق إيمانهم وأن سعادتهم الحقيقية هي في الإستشهاد وأن حيـاتهم مع الظالمين هـي الذل الأبـدي، لقد تأثـر الإمام الحسين وأصحـابـه وثقلـه من آل رسول الله بحظـر الماء عنهم ولكنهم لم يستسلمـوا كـانـوا عطاشى ولكن تعطشهم للشهـادة كان أبلغ أثراً، لقد عشقـوا الشهادة وعشقتهم. لقد صاروا نبراساً يهتدي به السائرون في دروب الحق والحرية.

٩ ـ وسائل حركة الإمام (ع) النهضوية:

تتمثل هذه الوسائل في ثلاث:

أ ـ الكلمة (خطب الإمام الحسين).

ب ـ السيف.

جـ ـ خطب السيدة زينب.

أما الكلمة فتمثلت في خطب الإمـام الحسين بدءاً من رفضه مبايعة يـزيد خلال لقائه، الوليد بن عتبة والي المدينة ثـم خطبته في جماهير الحجاج في مكة قبيل خروجه حيث أوضح للجميع أهداف حركتـه الإصلاحية المباركة ودعا الـراغبين للدفاع عن الحق والقيم الإنسانيـة اللحاق به، ثم خطبته في طليعة الجيـش الأموي بقيادة الحر بن يزيـد الرياحي التي خـرجت لإعتراض طريقه وإقتياده إلى الكـوفة(٢١٤). كذلك خطبته في كربلاء يوم السادس من محرم(٢١٥) حينما إحتشدت جحافل الجيش الأموي وضيقـوا على الإمام الحسين(ع) وصحبـه بمنعهم عن الماء، فخـرج إليهم واتكأ على

سيفه وناداهم بأعلى صوته مخاطباً معرفاً نفسه لهم لإلقاء الحجة عليهم وكان جوابهم الإصرار على عنادهم وعلى حرمان الإمام الحسين وصحبه من الماء حتى يموتوا عطاشى كما ورد في الخطبة، كذلك ألقى خطبة عصماء في الجيش الأموي يوم العاشر من محرم قبيل بدء القتال[٢١٦] عبر الإمام فيها عن غدر أهل الكوفة ونكثهم بيعته ووصفهم بأوصاف تليق بموقفهم الخياني من سبط رسول الله (ص) وخليفة الله في أرضه آنذاك كما أوضح إباءه وإصراره وإختياره لموت الأحرار ونبذه حياة العبيد التي تعتبر الموت الأبدي، كذلك تنبأ بمصير قتلته جميعاً وأولهم قائدهم عمر بن سعد الذي مناه يزيد على لسان واليه ابن زياد بتوليته الري وجرجان بعد قضائه على الإمام الحسين. لم تكن خطب الإمام الحسين (ع) للجيش الأموي من أجل الإستعطاف ليتركوا سبيله، لأنه يعلم من سلفه عن علم الله أنهم لن يتركوه وأنه مقتول لا محالة، إنما كان هدفه تبليغ رسالة الحرية إلى أجيال أمم العالم المتعاقبة بأن الحرية تؤخذ ولا تعطىٰ، ويكشف لأجيال أمة جده بشكل خاص هويَّة النظام الذي قامت عليه سلطنة قريش وشوَّهت كل ما جاء به محمد (ص)، فها هي قوة دولة الخلافة العسكرية تستخدم لإبادة ذرية النبي (ص) واستئصالها من الوجود. توظفت جميع إمكانيات دولة الخلافة المادية والعسكرية للقضاء على العترة النبوية وكل من سار على نهجها، فبدل أن توظف تلك الإمكانيات لمشاريع تنموية تعود بالخير على الأمة وبدل أن يستخدم الجيش لنشر مبادىء دولة النبوَّة في أرجاء العالم. بالإضافة إلى ذلك كان هدف الإمام الحسين (ع) إلقاء الحجة على جميع أفراد الجيش الأموي جنود أو قادة، علَّه يهدي بخطابه أحداً منهم فينقذه من سخط الله وعذابه، إمَّا بتحييده، وإما اللَّحاق به ونصرته، كما فعل الحر بن يزيد الرياحي قائد طليعة الجيش الأموي الأولى، التي لاحقت ركب الإمام الحسين منذ إلتقائه حتى كربلاء. إذ إلتحق الحر بالإمام الحسين يوم العاشر من محرم، واعتذر له عما بدر منه من إساءة ثم استشهد بين يديه بعد قتال بطولي. فلما حضر الإمام الحسين مصرعه، مسح التراب عن وجهه وقال: «أنت حُرٌّ كما سَّمتك أمُك، حُرٌّ في الدنيا والآخرة»[٢١٧]. وكما صنع الحر بإلتحاقه بالحسين كذلك صنع بطل آخر هو «يزيد الكندي» [٢١٨]..

إضافة إلى ذلك فهناك الرسـائل التي وجّهها الإمام الحسين (ع) إلى وجهاء شيعة أهل البيت في كل من الكوفة والبصرة كما ورد ذكره سابقاً.

وكما استخدم الإمام الحسين الكلمة مع عامـة الناس في مكة والجيش الأموي في الطريق وفي كـربلاء لإلقاء الحجـة وكشف الحقيقة وتنويـر العقول عن الجرائم التي ارتكبتها سلطنـة قريش بحق الـدين والأمة، كذلك استخـدم الكلمة مع أصحـابه لغربلتهم وإطلاعهم على حتمية استشهاده. فكما خطبهم واختبرهم في ذي حسم ـ كما ورد مناقشتـه ـ كـذلك فعل ليلة العـاشر من محرم حينما قام فيهـم خطيباً[219]. فتهـافت أهل بيتـه وأصحابـه بعـد انتهـائه من خطبتـه، أعربـوا لـه عن تعطشهم لـلإستشهـاد بين يـديـه وبـايعـوه على الموت مع أنـه أحلّهم في تلـك الخطبـة من بيعته[220]. وقضوا ليلتهم تلك في التزود من العبـادة. ووصف ابن داود تلك الليلة بقولـه: «بات الحسين (ع) وأصحـابه تلك الليلـة ولهم دوي كدوي النحـل ما بين راكع وساجد وقـائم وقاعد»[221]. ومن هنـا تأتي حكمـة الإمـام الحسين أنـه حينما زحف عمـر بن سعد بجيشـه على مخيم الإمام الحسين عصر التـاسع من محرم كلف أخاه العباس بن علي بن أبي طالب أن يستمهلهم سواد ليلة العاشر، فإستجاب ابن سعد لطلب الإمام[222]. فكـان تأجيل القتال ليتمكـن الإمام الحسين من إختبـار أصحابـه والتزود من العبادة، إنـه قائد عسكـري محنك يضع اللمسات الأخيرة على خطتـه العسكريـة. كان هـول الموقف عظيماً إلا أن صبر الإمام الحسين كـان أعظم وإيمانه بسمو أهداف إستشهـاده جعله يتعملق على كل شيء حتى على الموت الذي رأى فيـه الحياة الأبـدية في الـدنيا والآخـرة. كان حـريصاً على تهدئة خـاطر عقيلـة الطالبين زينب وتزويدها بوصاياه الأخيرة لكي تحمل أعباء توصيل رسالة الإستشهاد إلى الأجيال المتعاقبة من الأمة بشكل خاص والبشرية بشكل عام، يهديء من روعها ويسكن ويخفف من لوعة الفراق وحرقة الثكل التي تهد الجبال الشُّم. فحينما زحف عمـرُ ابن سعد بجيـش الضلال عصر التـاسع من محرم يـوم الخميس دون أن يعلم الإمام الحسين بذلك، كان محتبياً بسيفه إذ خفق برأسه على ركبتيه فلما سمعت أخته زينب صيحة الجيش الأموي، دنت منه، وقالت: يا أخي! أما تسمع الأصوات قد إقتربت، فقـال الإمام الحسين بعد أن رفـع رأسه: «أني رأيت السـاعة جـدي محمداً

وأبي علياً، وأمي فاطمة وأخي الحسن وهم يقولون: يا حسين إنك رايح إلينا عن قريب»، وفي رواية: «غداً». قال الراوي: «فلطمت زينب وجهها وصاحت»، فقال لها الحسين عليه السلام: «لا تشمتِ القوم بنا»(٢٢٣).

وموقف آخر للإمام الحسين (ع) مع أخته وشريكة نضاله زينب قبل يوم ملحمة الشهادة يوصيها بوصاياه فهو شقيقها و إمامها ولا تستطيع أن تقدم أو تؤخر إليه أمراً مع عظم المصيبة وكونها امرأة. لكن عليها أن تتحمل الرزايا جميعها وتحملها على كتفيها وحيدة ليس معها معين سوى ميراثها النبوي التربوي. وميراث الرزايا الذي ورثته من جدتها خديجة وأمها الزهراء وأبيها علي وأخيها الحسن. يبدو أن الإمام بعد أن خطب أصحابه ليلة العاشر إعتزل في خيمة وكان معه جون مولى أبي ذر الغفاري، فجعل الإمام يصلح سيفه ويقول: (٢٢٤).

يا دهرُ أُفٍ لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيلِ

من طالب وصاحب قتيل ... والدَّهرُ لا يقنعُ بالبديلِ

وكلُّ حيّ سالك سبيل ... ما أقرب الوعد من الرحيل

وإنما الأمر إلى الجليل ... إلى جنانٍ وإلى مقيلِ

وقد روى الطبري عن علي بن الحسين بن علي أن عمته كانت تمرضه فسمعا تلك الأبيات التي رددها الإمام الحسين مرتين أو ثلاثاً يقول علي بن الحسين: «حتى فهمتها وعرفت ما أراد بها، فخنقتني عبرتي فرددت دمعي ولزمتُ السكوت، فعلمتُ أن البلاء قد نزل، فأما عمتي فإنها سمعت ما سمعت وهي امرأة وفي النساء الرقة والجزع فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها وأنها لحاسرة حتى انتهت إليه فقالت: وا ثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياه! اليوم ماتت فاطمة أمي! وعلي أبي! وحسن أخي! يا خليفة الماضي وثمال الباقي، فنظر إليها الحسين(ع)، فقال: يا أُخيَّة! لا يذهبن حلمك الشيطان، قالت: بأبي أنت وأمي، يا أبا عبد الله استقتلت! نفسي فداك! فردَّ غصته وترقرقت عيناه وقال: لو ترك القطا ليلاً لنام قالت: يا ويلنا! أفتغتصب نفسك إغتصاباً! فذلك أقرحُ لقلبي! وأشدُّ على نفسي! ولطمت وجهها وأهوت إلى جيبها وشقته! وخرت مغشياً عليها! فقام إليها الحسين،

فصبَّ على وجهها الماء! وقال لها: يا أُخيَّة! إتقي الله! وتعزَّي بعزاء الله! وأعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجهَ الله الذي خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون، وهو فرد وحده، أبي خير مني، وأُمي خير مني، وأخي خير مني، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة، وفي حثها على الصبر على المصيبة قال لها: «يا أُخية إني أُقسمُ عليك فأبري قسمي لا تشقي علي جيباً! ولا تخمشي عليَّ وجهاً! ولا تدعي علي بالويل والثبور إذا أنا هلكت! قال ثم جاء بها حتى أجلسها عندي»(٢٢٥).

إن الإمام الحسين لم يلجأ للسيف إلا مضطراً بعد أن فشلت الكلمة في تحقيق غرضها وللدفاع عن النفس الأبية التي شاء الله لها أن تكون في عليين دنيا وآخرة، إن رفض الإمام الحسين المبايعة ليزيد وتصميمه على القتال في تلك الصفوة من أهل بيته وأصحابه جعله يقتسم وإياهم أسمى مراتب الشهادة ولذلك لقب بسيد الشهداء كما لقب قبله الحمزة، وإذا كان الحمزة بن عبد المطلب قد إختارته الشهادة في معركة أحد، فإن الإمام الحسين (ع) وصحبه هم الذين إختاروا الشهادة ووقعوا على الموت لتكتب لهم الحياة الأبدية في الدارين. لقد لقب الإمام الحسين بتلك الوقفة الباسلة والشجاعة المنقطعة النظير التي أبداها يوم الشهادة بشهادة أعدائه أبي الضيم.

أراد الإمام الحسين (ع) برفضه مبايعة الطغاة ومطفئي نور الإسلام - كما وصفهم في خطبته يوم العاشر - وإقدامه وصحبه على قتال الجموع الغفيرة، أن يجعل من كربلاء معقلاً للثائرين، كل الثائرين على خطى أئمة الهدى وجميع عشاق الحرية في كل زمان ومكان. وعلى الرغم من إستقبالهم لحتوفهم يوم العاشر - إلا أن الإمام الحسين وصحبه باتوا تلك الليلة فرحين مستبشرين بما أعد الله لهم من نعيم في جنات الخلد. وقد إغتسلوا في تلك الليلة وتطيبوا(٢٢٦)، وكأنهم عرسان يزفون. نعم لقد زفوا للحور العين بعد إستشهادهم.

فرغ الإمام الحسين (ع) من إلقاء خطابه على الجيش الأموي الذين كانوا كما قال الله فيهم: ﴿صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون﴾(٢٢٧) وقال أيضاً: ﴿ختم الله على

قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾[٢٢٨]. فصمموا على إبادة آل رسول الله (ص) لإرضاء طاغية القصر الأخضر يزيد. وكان عمر بن سعد أول من رمى مخيم الإمام الحسين بسهم وتبعه جيشه في الرمى. فقال الإمام الحسين (ع) بعد أن هيأ رجاله للبراز: «قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بد منه فإن هذه السهام رسل القوم إليكم»[٢٢٩] وبدأ القتال، وبعد أن قتل جماعة من أصحابه ضرب بيده على لحيته وجعل يقول: «اشتدَّ غضبُ الله على اليهود إذ جعلوا له ولداً، واشتدَّ غضبه على النصارى إذ جعلوه ثالث ثلاثة واشتد غضبه على المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر واشتد غضبه على قوم إتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيهم. أما والله لا أُجيبهم إلى شيء مما يريدون حتى ألقى الله تعالى وأنا مخضب بدمي»[٢٣٠]. كلمات الإباء والشمم في كل موقف حتى في الأوقات العصيبة، لا مهادنة ولا استسلام حتى فنيت رجاله من أصحابه وأهل بيته وبقي وحيداً يقاتلهم بشجاعة لم تشهد الحروب لها مثيلاً سوى شجاعة أبيه داحي باب خيبر. وروى حميد بن مسلم ـــ وكان ممن شهد الواقعة، من أفراد الجيش الأموي ـ واصفاً شجاعة الإمام الحسين (ع) الخارقة بقوله: «كانت الرجال تشدُّ عليه فيشدُّ عليها بسيفه فتنكشف عنه إنكشاف المعزى إذا اشتد فيها الذئب وكان يحمل عليهم وقد تكاملوا ثلاثين ألفاً فيهزمون بين يديه كأنهم الجراد المنتشر ثم أثخنوه بالجراح إلى أن بقي كالقنفذ واختلف عليه الطعن والضرب حتى وقع عن فرسه ثم احتز رأسه سنان بن أنس النخعي وقيل شمر بن ذي الجوشن الضبابي وسلب الحسين عليه السلام وسبيت نساؤه ونهبت أمواله وأحرق فسطاطه ودفع رأس الحسين (ع) إلى خولّي فرفعه على رمح وكان أول رأس حمل على رمح في الإسلام»[٢٣١]. ورُوي أنه (ع) وُجد في ثوبه مئة وبضع عشرة ما بين رمية وطعنة وضربة[٢٣٢]. وقال الإمام الصادق(ع): «وجد بالحسين (ع) ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة»[٢٣٣].

وهكذا قضى الإمام الحسين وصحبه نحبهم عطاشى وقطعت رؤوسهم جميعاً. ولم يكتفوا بذلك بل سلبوا من الإمام الحسين (ع) كل شيء وتركوه عارياً[٢٣٤]. ولم تكن تلك النهاية ولم يشفوا غليلهم بعد. بل انتدب ابنُ سعد ـ تنفيذاً لأمر سيده

عبيد الله ابن زياد ـ عشرة فرسان أوطأوا خيولهم جسد الإمام الحسين ـ بعد أن احتزوا رأسه ورفعوه على رمح ـ ظهراً وصدراً. ولذلك حينما وصل العشرة إلى ابن زياد بالكوفة يهنئونه بالنصر ويسألونه الجائزة ويتباهون أمامه بما فعلوه بجسد الحسين، فقال أسيد بن مالك أحد العشرة شعراً(٢٣٥):

نحن رضضنا الصَّدر ثم الظهرا بكل يعسوب شديد الأسرِ

ولم يكتفوا بذلك بل هجم جيش الطلقاء وأبناء الطلقاء على مخيم الإمام الحسين حتى جعلوا ينزعون ملحفة المرأة عن ظهرها ونهبوا كل المحتويات وسلبوا النساء والأطفال، بل وأشعلوا النار في مخيم آل رسول الله ففرت ربّات الخدور مع الأطفال إلى العراء (٢٣٦) ليس معهم كفيل ولا منكر لتلك الأعمال الهمجية التي قل أن يحدِّث بها التاريخ البشري.

ولما ورد خبر مقتل الإمام الحسين عمرو بن سعيد والي الحرمين (مكة والمدينة) قال: «هذه واعية بواعية عثمان بن عفان»(٢٣٧) بمعنى أن الأمويين انتقموا لدم عثمان باجتثاث آل رسول الله من الوجود في كربلاء.

ورُوي أنه لما ورد خبر مقتل الإمام الحسين (ع) إلى عبد الله بن عمر أنكر ذلك على يزيد واستعظمه فكتب عبد الله بن عمر إلى يزيد: «أما بعد، فقد عظمت الرزية وجلت المصيبة وحدث في الإسلام حدث عظيم ولا يوم كيوم الحسين (ع) (٢٣٨)». فكتب إليه يزيد: «أما بعد يا أحمق، فإنا جئنا إلى بيوت متجددة وفرش ممهدة ووسائد منضدة فقاتلنا عليها فإن يكن الحق لنا فعن حقنا قاتلنا وأن يكن الحق لغيرنا فأبوك أول من سنَّ هذا وآثر واستأثر بالحق على أهله والسلام»(٢٣٩). فسكت عبد الله بن عمر عن جداله، وأظهر للناس عذر يزيد في ما فعله فقال: «هذا ظلم من يزيد لعنه الله لعمر فإن عمر لم يأمر بذلك ولم يعلم أن الأمر يصل إلى يزيد»(٢٤٠).

نعم، لولا تهديد عمر بن الخطاب بحرق بيت فاطمة لما حرقت لثقل رسول الله خيمة في كربلاء بعد خمسين عاماً من موت الرسول (ص) ولولا بيعة السقيفة و إنكار المسلمين لبيعة الغدير لما أنكر الكوفيون بيعة الإمام الحسين بعد خمسين عاماً. ولولا

بيعـة السقيفة لما استئصلت عترة رسـول الله في كربـلاء . ولولا هجـوم رجال سلطـة الخلافة على بيت فاطمة لما هجم جيش الفئة البـاغية على مخيم الإمام الحسين وفرقوا نسـاءه وعيالـه في بيداء كـربلاء حفـاة . ولولا إقتيـاد الإمام علي من بيتـه مكرهـا إلى مسجـد رسول الله (ص) لما اقتيـد ثقل الإمـام الحسين من كـربلاء إلى الكـوفـة ومن الكوفة الى دمشق مسلـوبين مسبيين على جمال هزيلة بدون وطاء كأنهنَّ سبـايا الروم والـديلم . ولولا بيعـة السقيفـة لما أبتليت دولة النبـوَّة بحكم الفـراعنة والطـواغيت والبغاة ، والأدعيـاء وأبناء الأدعياء ، والطلقاء وأبنـاء الطلقاء الذين تـربوا في القصر الأخضر الذي صار وكراً لتشـويه مصادر الإسلام الرئيسية كتابـاً وسنة . في كربلاء ، أعـداء الإمام الحسين ممثلين في جيش الفئـة الباغيـة قهـروا أجساد الشهـداء فقط ، ولكن آيديولـوجية الشهداء أدانت هؤلاء الأعداء ونظامهم . الشهـداء بدمهم أبطلوا المؤامرة الضخمـة إلى الأبد . إن استشهاد الامام الحسين ورفـاقه في السلاح وأطفـاله وسلب ثقله وسبيهم فضح كل ما كان العـدو يحاول أن يخفيه عن عيون الناس . أراد أعـداءُ آل رسول الله (ص) أن يخفـوا أحداث كـربـلاء في أعماق التاريخ بعيـداً عن الذاكرة البشريـة للإنسانية بواسطة أسـاليب سلطنة قريش الدعائيـة ، والنشاطات الأدبيـة والعلميـة والفلسفيـة والتفسيرية لطـوابير الكتّـاب وعلماء البـلاط المشرئبـة أعناقهم للسلطة والنفوذ والثروة . دمُ الشهـداء نزع جميع الأقنعة ، وجرّ جميع أغطية الخداع ، صار مستحيلاً في جماعة التوحيد ، وجعل حكومة الإكراه والبغي مستحيلة في رسالـة النبوَّة ، وجعل السحر الفـرعوني ممقوتاً أمـام أعين الناس المحبين للحسين وحركته النهضويـة . وإذا كان لكل ثورة مظهران الدم والرسـالة فإن المهمة الأولى قد أنجزها الإمـام الحسين (ع) ورفاقه في ثورته العقـائدية وبقيت المهمة الثانية الـرسالة التي حملتها جامعة الرزايا زينب على كتفيها لتبيلغ الأمة حقيقة ما حدث .

فقدت السيـدة زينب من آل رسول الله اثنين وعشرين قتيلاً بينهم أربعـة أطفال للإمـام الحسن وللإمام الحسين أحـدهم رضيع الإمام الحسين ، والبـاقي ثمانية عشر شاباً ما على وجه الأرض لهم مثيل في ذلـك الوقت علماً وأدباً وشجاعة وجمالاً (٢٤١) . وبين الثمانية عشر ولداها محمد وعون ابني عبـد الله بن جعفر ، الذي قال حينما بلغه نبأ الفاجعة «والله إنّـه لممّا يسخى بنفسي عنهما ، ويهون عليَّ المصاب بهما ، أنهما أصيبا

مع أخي وابن عمي مـواسيين له صابـرين معه» [٢٤٢]. وبين هـؤلاء أيضاً ستـة من إخوتها : شقيقها الإمام الحسين (ع) بالإضـافة إلى إبن أخيها علي الأكبر نجل الإمام الحسين (ع) وعبد الله والقاسم نجلا أخيهـا الإمام الحسن (ع). قضوا نحبهم جميعاً وهم عطـاشى بما فيهم الإمام الحسين (ع) بشهـادة هـلال بن نافع من جيش الفئـة الباغيـة قال : «إني لـواقف مع عمـر بن سعد إذ صرخ صـارخ أبشر أيها الأمير فهذا شمـر قد قتل الحسين (ع) قـال : فخرجـت بين الصفين فوقفتُ عليـه وأنه ليجـود بنفسه فـوالله ما رأيتُ قط قتيلاً مضمخـاً بدمهِ أحسن منـه ولا أنور منه وجهـاً ولقد شغلني نـور وجهـه وجمال هيبتـه عن الفكرة في قتلـه فـاستسقى في تلك الحال مـاءً فسمعت رجلاً يقول : والله لا تذوق الماء حتى تـرد الحامية فتشرب من حميمها . قال فسمعته يقول : إنـا لله وإنا إليه راجعون والله لا أرد الحاميـة بل أرد على جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وأسكن معه في داره في مقعد صدق عند مليك مقتدر وأشربُ من ماء غير أسن وأشكو ما ارتكبتم مني وفعلتم بي قال : فغضبوا بأجمعهم حتى كأنَّ الله لم يجعل في قلب أحدهم من الرحمة شيئاً ، فـاحتزّوا رأسه وأنه ليكلمهم فتعجبتُ من قلـة رحمتهم له وقلتُ والله لا أجـامعكم على أمر أبـداً»[٢٤٣]. وشهد شاهد من أهلها . فهل أبقى الأمـويون عـذراً لأحد كي يذكـرهم بخير؟ فكيف بالـدفاع عنهم وعن أعمالهم الهمجيـة التي فاقت حـدود الخيـال والوصـف؟ نعم هناك من يـدافع عنهـم ، فهذا عمرو بن سعيد الذي أمر بهدم دور بنـي هاشم بعد توليه أمرة الحرمين وعقاباً للإمام الحسين بسبب خروجه عن طاعة يزيد يعتبر إبادة آل رسول الله (ص) وأنصارهم في كربلاء إنتقاماً لدم عثمان[٢٤٤] ، وعُدَّ يوم العاشر عيداً للنصر في دمشق ولا يـزال يحتفل به بعض المسلمين الـذين يعتبرون إمتداداً لسلطنـة قريش وامتـداداً لجذور الطلقاء وأبنـاء الطلقاء وحـزب الشيطان كما لقبهـم الإمام علي ونجلـه الإمام الحسين (ع) فيلسوف الحرية ومعلم الإباء .

على الرغم من هول الفاجعة لزينب إلا أنها بعد تقديم القرابين جميعهم أصبحت حفيدة خـديجة وابنة فـاطمة وحيدة في بيـداء كربلاء إرتكـزت على كتفيها مسـؤولية تـوصيل رسالـة ثورة أخيهـا الجليلة إلى الأجيـال ، وكان زادهـا في رحلتها الـرساليـة

المقدسة صبر السلف على كل الرزايا التي واجهتهم، وزادها أيضاً وصايا إمامها وأخيها الإمام الحسين (ع) الراحل العظيم الذي قدم رسالة الدم بكل أمانة وبكل شجاعة. نعم هذه المرأة التي منها تتعلم نساءُ البشرية الفضيلة والشجاعة والشموخ. لقد ظن جيش حزب الشيطان أن ثقل رسول الله (ص) قد أذلتهم فاجعة كربلاء وسيحنون رؤوسهم لبني أُمية وجيش الضلال. ولكنهم فوجئوا بعكس ذلك.

فها هي زينب عقيلة الطالبين تنفذ وصايا أخيها بدقة وأمانة تخرج الى جسده الشريف، مقطوع الرأس مضرجاً بدمائه وتجلس عنده بوقار صابرة محتسبة كالجبل الأشم وتمد يديها الناعمتين بهدوء ووقار تحت ظهر جسد شقيقها الحسين، ورفعت جسده عن الأرض وأسندته إلى صدرها، ورفعت طرفها إلى السماء وقالت وهي خاشعة خاضعة بين يدي الله تعالى وهي ترى أجساد الأحبة بدون رؤوس ملقاة في أرض المعركة: «اللهم تقبل منا هذا القربان، اللهم تقبل منا هذا الفداء»[٢٤٥]. وعادت إلى النساء الثواكل والأطفال اليتامى وابن أخيها العليل زين العابدين الذي أنهكته علتان: علة المرض وعلة الفاجعة بفقد الأحبة ها هم يقعون أسرى في يد أعداء لم يحدث التاريخ الإنساني بمثلهم. عادت تجر أذيال ملابسها المعطرة بدماء الشهادة إلى الحرم والأطفال والعليل. وكانت السيدة زينب قد تمكنت من تخليص زين العابدين من القتل حينما قاد شمر بن ذي الجوشن الضبابي هجوماً للجيش الأموي على مخيم الإمام الحسين بعد مصرعه مساء العاشر من محرم سنة ٦١ من الهجرة وتسابق أفراد الجيش للنهب والسلب وفرَّ آل رسول الله (ص) بالبيداء بعد حرق المخيم وبقي زين العابدين مسجى فدخل عليه شمر فجذب النطع من تحته وقلبه على وجهه ثم جرَّد السيف ليقتله فأنكبت عمته السيدة زينب عليه واعتنقته وصاحت: «إن أردتم قتله فأقتلوني قبله» وبينما كانت العقيلة زينب معانقة لزين العابدين إذ دخل عمر بن سعد قائد الجيش فلما نظر ذلك المشهد قال لشمر: «دعه لها فإنه لما به» فتركه[٢٤٦]. نعم لولا وجود زينب لما بقي ذكر لذرية رسول الله (ص) فزين العابدين هو الإمام الرابع بعد الإمام الحسين وأول الأئمة التسعة من صلب الإمام الحسين. هكذا كان تعامل الجيش الأموي مع من بقي من آل رسول الله(ص)

من نساء وأطفال. نعم هذه هي الدنيـا التي ترعرع في أحضانها حزب الشيطان. إن قادتـه سُبّه في جبين العروبة والإسـلام، وما قاموا بـه في كربلاء سربل العروبـة بعار سرمدي لا تمحوه الأيام.

إن رسالة زينب هي أكثـر صعوبة وأثقل من رسالة أخيهـا أولئك الذين يملكون الشجاعـة لأن يختاروا استشهادهم قـد صنعوا ببسـاطة إختياراً عظيماً، تلك رسـالة الدم التي أنجـزها الإمام وصحبـه الغر الميامين. ولكن مسـؤولية الذين بقـوا أحياء ثقيلـة وصعبة. وهـا هي زينب بقيت حيـة لتكون لسـان حال الـدم الذي رفـد نهر الرسالـة النبوية وأعاد لـه التدفق والحياة مرة أخـرى. ها هي رسالة زينـب تبدأ بعد أخيها سيد الشهداء. إنها تبليغ رسالة الاستشهاد لأجيال الأمة المتعاقبة.

٩ ـ زينب ورحلة السبي:

في مساء اليـوم العاشر قبيل الغروب، وبعـد أن أنهى جيش الفئة الباغيـة مهمته القذرة بعث عمر بن سعد مع خولى بن يزيد الأصبحي وحميد بن مسلم الأزدي رأس الإمام الحسين هـدية إلى عبيد الله بن زيـاد بالكوفـة. وفي اليوم نفسه أمـر ابن سعد برؤوس البـاقين من أهل بيته وأصحابـه فنظفت وسُرِّح بها مع شمر بن ذي الجوشن وقيس بن الأشعث وعمـر بن الحجاج وذهبـوا بها إلى عبيد الله بن زيـاد أيضاً هـدية له(٢٤٧). ورُوي أن عـدد رؤوس أصحـاب الإمـام الحسين ثمانيـة وسبعين رأسـاً، اقتسمتها قبائل كنـدة، تميم، بنو أسد، مذحج وسـائر أفراد الجيش لتتقرب بها إلى ابن زياد ويزيد لنيل عطاياهما(٢٤٨).

وبعد زوال شمس يوم الحادي عشر من محرم نادى منادي عمر بن سعد على ثقل رسول الله (ص) نساء وأطفالاً بالرحيل، وقدمت لهم النياق الهزل للركوب بغير وطاء هذا هو مصير مخدرات رسول الله (ص) وأطفاله وصفوة الخلق في عباده يسامون كما تسام العبيد، فجاء أفراد الجيش ليركبـوهم على تلك النياق، فقالت عقيلة الطالبين بشمم وإباء وكبريـاء البيت النبوي: «ويلك يا ابن سعد، سـوَّد الله وجهك، أتأمر الأجانب أن يـركبونـا، ونحن بناتُ رسـول الله (ص)، قل لهم فليتباعـدوا عنا حتى يركب بعضنا بعضاً»(٢٤٩).

وتحرك عمر بن سعد ورجاله بقافلة السبايا والمأسورين من آل رسول الله يحيط بهم

الأعداء من كل جانب ونساء رسول الله (ص) مكشفات الوجوه وساقوهن للسبي كما يساق سبي الترك والروم وفي ذلك يقول الشاعر: (٢٥٠).

يصلَّى على المبعوث من آل هاشم　　وتُغـرى بنـوه أن ذا لعـــجيب

ولما مروا بقافلة الأسرى والسبايا على مصرع الإمام الحسين (ع) ومصارع القتلى الكرام ونظرت النسوة إلى القتلى صِحنَ وضربن وجوههن، أما السيدة زينب فكانت تندب الإمام الحسين (ع) وتنادي بصوت حزين وقلب ثاكل كئيب وجسم قد أنحلته وهدَّته الرزايا العظيمة وتقول: «يا محمداه صلى عليك مليك السماء هذا الحسين مرمَّل بالدماء مقطع الأعضاء وبناتك سبايا إلى الله المشتكى، وإلى محمد المصطفى، وإلى علي المرتضى، وإلى حمزة سيد الشهداء، يا محمداه هذا حسين بالعراء، تسفي عليه الصّبا، قتيل أولاد البغايا يا حزناه يا كرباه، اليوم مات جدي رسول الله يا أصحاب محمداه، هؤلاء ذرية المصطفى يساقون سوق السبايا»(٢٥١).

ومشى الركب إلى الكوفة التي كانت عاصمة دولة النبوَّة في عهد الإمام علي (ع). وها هي اليوم تستقبل بناته وأطفاله سبايا. ها هي ابنته زينب التي كان يضرب المثل بخدرها تساق مع باقي النساء والأطفال مسبية إلى عبيد الله بن زياد ها هي ترى قافلة المأسورين والمسبيات خلفها، وصفوف الأعداء على امتداد الصبر، تاركة خلفها حديقة حمراء للشهادة التي يفوح عبقها من أذيال ملابسها الملطخة بدماء أولادها وإخوتها وبني عمومتها.

ولنعم ما قال في وصف دورها أحد الأدباء: (٢٥٢)

وتشاطرت هي والحسين بنهضة　　حتم القضاء عليهما أن يندبـــا

هذا بمعترك الـــرماح وهـــذه　　في حيث معترك المكاره في السبا

وبلغ من كراهية وحقد الجيش الأموي على آل رسول الله (ص) أن تركوا أجساد الإمام الحسين (ع) وجميع قتلاه بدون دفن على بوغاء كربلاء تصهرهم الشمس، ولكن شاءت إرادةُ الله أن يحفظ لتلك الأجساد الطاهرة حرمتها، ففي اليوم الثالث عشر من محرم خرج قوم من بني أسد الذين كانوا نزلوا بالغاضريَّة فصلَّوا على تلك

الأجساد الطواهر المرملة بالدماء ودفنوها على ما هي عليه، وقد حضر زين العابدين الدفن حيث تم تحديد أصحاب القبور بواسطته لأنها كانت أجساداً بلا رؤوس(٢٥٣).

كان عزيزاً على رسول الله وآله والمؤمنين وكل الغيارى من أبناء الإنسانية مع إختلاف ألوانهم وأعراقهم وأديانهم أن يروا قافلة الأسر والسبي من آل رسول الله حين دخولها الكوفة وقد ملأ الناس الطرقات وسطوح المنازل للتفرج على نساء وأطفال رسول الله (ص). وتعود أم كلثوم وزينب وبقية النسوة وكذلك زين العابدين بذاكرتهم قبل ربع قرن حينما كانت دولة النبوة تحت حكم الإمام علي، حيث عاش في وسطهم كأفقر إنسان ولم يبلغ في عدله فيهم أحد من حكام دولة النبوَّة سوى رسول الله (ص) وها هي ذريته تدخل إلى نفس المكان، إلى نفس المدينة أسيرة مسبية في منظر يفطر القلب الجلمود، وتأباه الإنسانية. ومن بين المتفرجات الكوفيات أشرفت عليهن إحداهن وسألت من أي الأسارى أنتنَّ؟ فقلن: «نحن أسارى آل محمد (ص)، فنزلت عن سطح دارها، وجمعت ملاءً وأُزراً ومقانع فاعطتهن فتغطَّين»(٢٥٤) وقد رثى الكوفيون والكوفيات لحال آل رسول الله (ص) المأساوي فجعلوا ينوحون، فقال زين العابدين (علي بن الحسين): «تنوحون وتبكون من أجلنا فمن الذي قتلنا؟»(٢٥٥).

وقال شاهد عيان ـ بشير بن جذلم الأسدي ونظرتُ إلى زينب بنت علي يومئذٍ ولم أرَ خفِرة قط أنطق منها كأنما تفرغُ من لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا ثم قالت: «الحمد لله والصلاة على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار، أما بعد يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر، أتبكون فلا رقأت الدمعة ولا هدأت الرنّة، إنما مثلكم كمثل التّي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم، ألا وهل فيكم إلا الصَّلف والنطف، والصدر الشّنف وملق الإماء، وغمر الأعداء أو كمدعى على دمنه أو كقصّة على ملحودة ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون أتبكون وتنتحبون، أي والله فأبكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترخصوها بغسل أبداً وأنى ترخصون قتل سليل خاتم النبوَّة وسيد شباب أهل الجنة، وملاذ حيرتكم ومفزع نازلتكم، ومنار حجتكم، ومدرة سنتكم، ألا ساء ما

تزرون، وبُعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي، وتبت الأيدي وخسرت الصفقة، وبوأتم بغضب من الله. أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم، لقد جئتم بها صلعاء، عنقاء، سوداء، فقماء، بلاء، حرقاء، شوهاء، كطلاع الأرض، أوملء السماء. أفعجبتم أن مطرت السماء دماً، ولعذاب الآخرة أحرى، وأنتم لا تبصرون ولا يستخفنكم المهل، فإنه لا تحضره البدارة، ولا يخاف فوت الثأر، وأن ربك لبالمرصاد»(٢٥٦). قال شاهد العيان: وكان شيخاً بجانبي قد شارك الحاضرين حيرتهم وبكاءهم حتى اخضلت لحيته وهو يقول: «بأبي أنتم وأمي كهولكم خير الكهول وشبابكم خير الشباب ونساؤكم خير النساء، ونسلكم خير النسل لا يجارى، ولا يبارى»(٢٥٧) كانت تلك الكلمات موجهة إلى آل رسول الله من الأسرى والسبايا. هكذا كانت خطبة العقيلة زينب المعبرة والمؤثرة، والتي أوضحت فيها أن إستشهاد الإمام الحسين خلد، في الدارين وأن الذين قتلوه خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. تلك رسالة العقيلة الإعلامية عن ثورة الإستشهاد توجهها إلى الأجيال المتعاقبة عبر جماهير الكوفة المحتشدة في شوارعها. إنها تكشف أسرار ثورة الشهادة، ثورة الحرية وتبرز حقائقها للأمة. إنها تكشف للأمة بشاعة الجريمة التي ارتكبها الأمويون بمساندة ومؤازرة الكوفيين.

وبعدها ألقت فاطمة الصغرى بنت الإمام الحسين خطبة بليغة في جموع الكوفيين المحتشدة بالشوارع أثبتت فيها براعة آل رسول الله وفصاحتهم وغزارة علمهم رجالاً ونساء وأشادت فيها بدور العترة الإلهي الذي تجاهلته الأمة واستهانت بجريمتهم المتمثلة في إبادة عترة رسول الله وأنصارهم في كربلاء حتى طلب الحاضرون من فاطمة أن تكف من خطابها لأنها أحرقت أكبادهم بكلماتها(٢٥٨).

كذلك ألقت أم كلثوم بنت الإمام علي (ع) خطبة مماثلة بعد فراغ فاطمة من خطبتها سخرت فيها من جريمتهم البشعة بخيانتهم لآل رسول الله (ص) وأوضحت المصير السيء الذي سيلاقونه جزاء ما عملوا(٢٥٩). وقد أجهش الحاضرون بالبكاء رجالاً ونساء لمعرفتهم حقيقة ما حدث بأرض الشهادة ونتيجة خذلانهم للإمام الحسين (ع) وآل رسول الله (ص) ولعلمهم بالذل الذي سيلحقهم على إثر ذلك(٢٦٠).

كما أنَّ زين العابدين ألقى خطبة فيهم كانت الأخيرة عرفهم فيها بتفصيل ما

حدث منذ كتابة الكوفيين إلى الإمام الحسين (ع) إلى مقتله الشريف مع أهل بيته وأنصاره، وما تحمله ثقل رسول الله (ص) من ويلات بعد إبادة الشهداء على أيدي جنود الفئة الباغية متباهياً باستشهاد والده(٢٦١). لقد تمكن آل رسول الله (ص) وهم تحت وطأة الأسر وذله، أن يتمردوا ويتعملقوا كما هو دأبهم في الإباء والشموخ وأن يفضحوا جريمة حزب الشيطان وتخاذل الأمة عن نصرة العترة. هكذا كانت كلماتهم لسان حال الدماء الزكية والأجساد الطاهرة لتعريف الأمة بإنتصار الشهادة وهزيمة الطغاة، أمام دم الشهداء الهادر في بيداء كربلاء.

قال تعالى: **﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾**(٢٦٢).

وقال أيضاً: **﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾**(٢٦٣).

اعتقد قادة حزب الشيطان أنهم بأسر وسبي آل رسول الله إنما يشفون بذلك غليلهم ويذلونهم بالتطواف بهم في شوارع الكوفة وإدخالهم قصر الإمارة ليتفرج عليهم القاصي والداني والشريف والوضيع، وما دروا أنهم بذلك خدموا ثورة الإمام الحسين (ع) إذ أن آل رسول الله وهم في الأسر، لم يحنوا رؤوسهم لأنهم يعلنون بخطبهم العصماء للأمة وأجيالها المتعاقبة جرائم حزب الشيطان وأحقاد الفئة الباغية على رسول الله (ص) وعترته الطاهرة، فكانت الشوارع ودواوين القصور التي دخلوها منابر لهم لإعلان إنتصار الدم على السيف وعلى وحشية وكلاء العبودية والقتلة. كما أن أمراء وجنود الفئة الباغية بعملهم الدنيء بسلب وسبي العترة قد عجلوا بيومهم وحفروا قبورهم بأيديهم لأن كلمات آل رسول الله (ص) التي مثلت الدم ومثلت الشهادة الخرساء، ومثلت تلك الأجساد الطاهرة الصامتة على بوغاء كربلاء، كانت كالصواعق المحرقة تهزُّ الحاضرين هزّاً عنيفاً من أعماقهم وتشعرهم بالخيبة والذل والهوان على تخاذلهم عن نصرة آل رسول الله وتواطؤهم مع حزب الشيطان.

وحينما أمر ابن زياد بإدخال قافلة المأسورين والسبايا من آل رسول الله إلى ديوانه بالقصر الأبيض، أصدر إذناً عاماً للناس بالحضور من أجل الشماتة ولكي يشفي

حقده الدفين على آل رسول الله (ص) ثم جيء برأس الإمام الحسين (ع) ووضع بين يديه، وجميع آل رسول الله (ص) ينظرون إلى رأس الإمـام وكلهم لوعة وحسرة. وقد جلست عقيلة الطـالبين متنكرة، فلما سأل عنها قيل لـه: هذه زينب بنت علي (ع) فأقبل عليها شامتاً ومتشفياً وقـال: «الحمدُ لله الذي فضحكم وأكذب أُحدوثتكم» نعم يشتم آل رسـول الله (ص) في قصر الإمارة الـذي بني لـلإمام علي (ع) ليسكنـه فرفض، لأنه لا يرغب في التعالي على أفقر ساكن بالكوفة. وها هم آله أسرى وبناته مسبيات في نفس القصر وتحت رحمة رجل يعتبر عاراً على الإنسانية. صراع بين الحق والباطل، بين الخير والشر، إن هـذا الصراع أزلي، وتردُّ عليـه فخر المخـدرات بإباءِ النبوَّة وشموخ شهداء كربلاء إنها مندوبة الثورة الإستشهادية، إنها لسان حال الدماء الزكية لا بـدّ وأن تفضح المؤامرة في عقر دارها، وهـا هي الآن في وكر المؤامرات التي حيكت لإستئصـال العترة النبويـة، ردت عليـه بثبـات وإيمان لا تزعـزعـه الريـاح العاتية، قالت: «إنما يفضح الفاسق ويكذبُ الفـاجر وهو غيرُنا» فردَّ عليها قائلاً: «كيف رأيت مـا صنع الله بأخيك وأهل بيتك؟» فـردت عليـه بكلمات كالصـواعق تقرعه تقريعاً وتفضحه وهو بين حـاشيته وجلاوزته دون أن تكترث بسطوته وجبروته لأنها رسـاليـة لأنها ابنـةُ فـاطمـة التي هــزت المسلمين من أعماقهم حينما خطبتهم بمسجد الـرسول فـاضحة المؤامـرة على آل رسول الله (ص)، وها هـي ابنتها زينب تتأسى بها وتـواصل دورها المقـدس لفضح المؤامرات وتنـوير الأمـة لإحقاق الحق، و إزهـاق الباطل. قـالت: «مـا رأيتُ إلا جميلاً، هـؤلاء قـوم كتبَ اللهُ عليهم القتل فبرزوا إلى مضـاجعهـم وسيجمعُ الله بينك وبينهم، فتحـاج وتخاصم، فـأنظـر لمن الفلجُ يومئذٍ، ثكلتك أُمُّك يا ابن مرجانة». لقد أفحمته بالحجة والمنطق، لم لا وهي خريجة حجر النبي وعلي وفاطمة، إنها ثمـرة النبوَّة إنها خريجة بيت الطهارة والعصمة والمباهلـة، لم لا تكون كـذلك وأبوها أوّل مـن علّم الناس الفصاحـة والبلاغـة بعد رسـول الله (ص) فحار ابن زيـاد جـواباً، فلم تكن لـه وسيلـة للرد على هـذه المرأة الجليلة المسبية الأسيرة الماثلة في مجلسه مع بقيـة النساء وزين العابدين (ع) والأطفال من آل رسول الله، إلا الغضب وعزمه على إيذائها فهدأ عمرو بن حريث غضبه وقال إنها امرأة، والمرأة لا تُؤاخذ بشيء من منطقها. فعاودها ابنُ زياد ليخفف من خجله

قائلاً: «هذه سجّاعة، ولعمري لقد كان أبـوكِ شاعراً سجاعاً» فردت العقيلة عليه بدون تردد قائلة: «يا ابن زياد ما للمرأة والسَّجاعة»(٢٦٤) فترك السيدة زينب، ولكنه قد أحسَّ بـالهزيمة في أعماقه أمـام حاشيتـه وجلاوزته وكبـار قادة الجيش، فأراد أن يخفف من ذلك بتطاوله على زين العابدين وهو مقيد، فقال ابن زياد: «من هذا؟» فقيل علي بن الحسين (ع). فقـال: «أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟ فقـال علي (ع): «قد كان لي أخ يقال له علي بن الحسين قتله الناس». فقال ابن زياد: «بل الله قتله» فقال علي (ع) «**الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها**...» (٢٦٥) فقال ابن زيـاد بعد أن أفحمـه زين العابدين: «ولك جـرأة على جوابي؟ إذهبـوا به فأضربوا عنقه» فسمعت حاملة مسؤولية رسالة الشهادة زينب فقالت: «يا ابن زياد إنك لم تبقِ منـا أحداً، فإن كنت عزمـت على قتله فأقتلني معـه». نعم لم تستعطفه وتطلب العفو عنه، إنما طلبت أن تقتل معه أنه بيت النبوَّة، بيت العطاء المتدفق من أجل حمايـة الدين والـدفـاع عنه ومن أجلـه ترخـص النفوس والـدماء فهي سليلـة الشهـداء، فلم تبخل بنفسها؟ هكـذا تعلموا مـواجهة أحلك اللحظـات من بيت الرزايـا، من بيت الأحزان، من بيت فـاطمة المتواضع الـذي نهلوا منه تعـاليم النبوَّة وتعاليم الإمامة وتعاليم إزدراء الحياة الـذليلة والإقدام على الموت بشجاعة لأنه جسرُ الحيـاة الأبديـة للشهداء، عشَّـاق الحق والحريـة. عندهـا قال علي لعمتـه زينب: «اسكتي يا عمـه حتى أُكلمه» ثم أقبل على ابن زياد فقال: «أبـالقتل تهددني يا ابن زياد، أما علمت أن القتل لنا عـادة وكرامتنا الشهادة»(٢٦٦). هكذا تم ختام الحوار بين الناطق الرسمي للقصر الأخضر والناطقين باسم رسالة الشهادة، الذين أضرموا قصر الإمارة نـاراً بكلمات الحق التي زلزلت ابن زيـاد وأفقدتـه وعيه حتى حكم على أسير مريض مقيد بالقتل، وهنا للمرة الثانية يكون حضور العقيلة منقذاً ومانعاً من قتل الإمـام زين العـابـدين حجـة الله في أرضه بعـد أبيـه، ولـذلك على الـرغم من مسؤولية العقيلـة عن آل رسول الله بعد أخيها إلا أنها لا تستطيع مخالفـة إمامها زين العابـدين (ع) ثم أمر ابن زياد بـوضع السبايـا من آل رسول الله (ص) في دار جنب المسجد الأعظـم الذي كان يخطـب فيه الإمـام علي خلال حكمه. فطلبـت العقيلة زينب أن لا تدخل عليهن عربية، إلا أم ولد أو مملوكة، لأنهن سبين كما سُبيت نساء

رسول الله (ص)[٢٦٧]. ولأجل الإرهاب والشماتة أمر ابنُ زياد أن يطاف برأس الإمام الحسين في سكك الكوفة. وأنشأ ابن طاووس شعراً في وصف ذلك المشهد المخزي للأمة بشكل عام وللفئة الباغية بشكل خاص[٢٦٨]:

رأسُ ابنُ بنت محمد ووصيِّه ... للناظرين على قناة يرفعُ

والمسلمون بمنظرٍ وبمسمعٍ ... لا مُنكِر منهم ولا مُتفجّعُ

كَحَلت بمنظركَ العيونُ عمايـة ... وأَصمَّ رزؤك كلَّ أُذن تسمعُ

أيقظت أجفاناً وكنت لها كرى ... وأنمت عيناً لم تكن بك تهجعُ

ما روضةٌ إلا تمنَّت أنَّها ... لك حفرةٌ ولخطِّ قبركَ مضجعُ

نعم شاهد المسلمون رأس الحسين (ع) يطاف به في سكك الكوفة، إنهم بمسمع وبمنظر، إنهم يرون رأس سبط رسول الله الذي طالما قبل شفتيه وضمه وأغدق عليه من حبه وعطفه وقال فيه وفي أخيه الإمام الحسن (ع) الكثير من الأحاديث التي ما زالوا يعرفونها ولكنهم قد صرعهم مال وسيف طاغية القصر الأخضر.

كانت هزيمة ابن زياد في قصره بواسطة كلمات فخر بيت النبوَّة زينب التي كانت تؤدي من خلالها رسالة الثورة الإستشهادية المقدسة فأراد بعقليته العنجهية الهمجية المتغطرسة أن يثأر لتلك الهزيمة بعمل أساء الى سلطنة قريش دون أن يشعر لأن الحقد أعمى بصره وبصيرته. حيث أنه بذلك العمل فضح النظام الدخيل على دولة النبوَّة أمام حشد من الناس في مسجد الكوفة، حينما صعد المنبر وقال:

«الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين وأشياعه وقتل الكذَّاب بن الكذَّاب»[٢٦٩] كلمات قاسية تعبر عن مستوى قائلها الوضيع، ولا يمكن أن يشك أحد في صحتها بعد كل الجرائم التي ارتكبوها إنه تأكيد لصحة نبوءة النبي محمد(ص) وتوقعاته بما يلحق بالأمة من فراعنتها. ولقسوة تلك الكلمات على مسامع المؤمنين قام إليه عبد الله بن عفيف الأزدي أحد خيار المؤمنين من محبي أهل البيت. فقد عينه اليسري يوم الجمل واليمنى في صفين. وكان يلازم المسجد الأعظم

يصلي فيه طوال اليوم فقاطع ابن زياد بعد تفوهه بتلك العبارة قائلاً: «يا ابن زياد الكذّاب بن الكذاب أنت وأبوك ومن استعملك وأبوه يا عدو الله، أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بهذا الكلام على منابر المؤمنين؟»(٢٧٠) كانت كلمات الأزدي كالصواعق المحرقة على مسامع ابن زياد فهو يعتقد أنه لم يعد هناك رمق في الأمة للمقاومة بعد اجتثاثه آل رسول الله ببيداء كربلاء. ولكنه أصيب بالذهول لتلك الكلمات النّارية فسأل غاضباً قال: «من هذا المتكلم؟» فقال الأزدي: «أنا المتكلم يا عدوَّ الله أتقتل الذرية الطاهرة التي قد أذهب الله عنها الرجس وتزعم أنك على دين الإسلام؟ واغوثاه أين أولاد المهاجرين والأنصار لا ينتقمون من طاغيتك اللعين ابن اللعين على لسان محمد رسول رب العالمين»(٢٧١). أعتقد ابن زياد أن الأزدي سيتململ خوفاً منه، ولكنه أردف بكلمات تنبعث من قلب محترق لما آل إليه أمر دولة النبوّة لوقوعها تحت أسر طاغية سلطنة قريش بعد التضحيات العظيمة للنبي (ص) ورجاله في تأسيسها. ومع أن ابن زياد أراد قتله إلا أن أبناء عشيرته خلصوه وحملوه إلى منزله. إن كلمات الأزدي فتحت جرحاً عميقاً في قلبه لتعريته والنظام الذي يمثله أمام جموع الحاضرين بالمسجد. وبعد عودته إلى منزله تمكن جلاوزة ابن زياد من أسر الأزدي بعد أن دافع عن نفسه دفاع الأبطال مع ذهاب بصره. فأقتادوه إلى ابن زياد فلما رآه قال: «الحمدلله الذي أخزاك» فرد عليه الأزدي الوقور الذي أمضى حياته في ساحات الحروب من أجل الدفاع عن كلمة الحق وفي عبادة الله بقوله: «يا عدو الله وبماذا أخزاني الله؟ والله لو فرّج لي عن بصري ضاق عليكم موردي ومصدري». فقال ابن زياد يا عدو الله ما تقول في عثمان بن عفان؟ «فقال: «يا عبد بني علاج يا ابن مرجانة» وشتمه قائلاً: ما أنت وعثمان بن عفان أساء أو أحسن، أصلح أم أفسد، والله تبارك وتعالى وليُّ خلقه يقضي بينهم وبين عثمان بالعدل والحق، ولكن سلني عن أبيك وعنك وعن يزيد وأبيه؟ فقال ابن زياد: والله لا سألتك عن شيء أو تذوق الموت فقال الأزدي: «الحمد لله رب العالمين أما أني قد كُنتُ أسألُ الله ربي أن يرزقني الشهادة من قبل أن تلدك أمك، وسألتُ الله أن يجعل ذلك على يد ألعن خلقه وأبغضهم إليه، فلما كفَّ بصري يَئستُ من الشهادة، والآن فالحمدلله الذي رزقنيها بعد اليأس منها، وعرَّفني الإجابة منه في قديم دعائي» فكان

رد ابن زياد الوحيد على هذا الرجل المؤمن أن أمر بضرب عنقه فضربت عنقه وصُلبت في السَّبخة لإرهاب الناس[٢٧٢]. هذا هو سلاح الأنظمة الضعيفة التي تفتقد إلى الشرعية. القتل لكل أنصار الحق مع النبي وآله. كلهم يجب أن يُبادوا لينعم ابن زياد وطاغية القصر الأخضر وحاشيتهم.

وروى ابن حجر أنه لما حمل رأس الإمام الحسين لإبن زياد في مجلسه جعله في طشت وجعل يضربُ ثناياه بقضيب ويقول به (كذا) في أنفه، ويقول: «ما رأيت مثل هذا حسناً إن كان لحسن الثغر»، وكان عنده أنس بن مالك فبكى، وقال: إنه كان أشبههم برسول الله (ص)»[٢٧٣].

كما روى ابن حجر عن ابن أبي الدنيا أنه كان بين الحاضرين أيضاً زيد بن أرقم فقال لابن زياد: «إرفع قضيبك فوالله لطالما رأيتُ رسول الله (ص) يقبل ما بين هاتين الشفتين» ثم جعل زيد يبكي، فقال ابن زياد: «أبكى الله عينيك، لولا أنَّك شيخ قد خرفت لضربتُ عُنُقك». فنهض زيد وهو يقول: «أيها الناس أنتم العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمَّرتم ابن مرجانة، والله ليقتلنَّ خياركم ويستعبدنَّ شراركم، فبُعداً لمن رضي بالذلة والعار». ثم قال: «يا ابن زياد لأحدثنك بما هو أغيظُ عليك من هذا، رأيتُ رسول الله (ص) أقعدَ حسناً على فخذه اليمنى وحسينا على اليسرى ثم وضع يده على يافوخيهما ثم قال: «اللهم إني استودعك إياهما وصالح المؤمنين، فكيف كانت وديعة النبي (ص) عندك يا ابن زياد»[٢٧٤]. ابن زياد وجيش سلطنة قريش أداتهم الباطشة قهرت أجساد معركة الشهادة، وها هي مجالس قصورهم والمساجد ترتفع فيها كلمات الحق والأحاديث النبوية في فضل أهل البيت، فكانت كل جهود الأمويين وأشياعهم قد ذهبت سدى. إنها هزيمة حقيقية لهم ونصر مؤزر لقرابين الشهادة قرابين فيلسوف الحرية وسيد الشهداء. لقد أصبحت قصور الفئة الباغية منابر لفضح جرائمهم، ومكاناً لإعلان رسالة الدم والشهادة. إلى أجيال الأمة المتعاقبة بشكل خاص والبشرية بشكل عام. أراد فلول حزب الشيطان أن يمحوا ذكر آل محمد (ص) بجريمتهم البشعة في كربلاء، وما علموا أنهم قد حفروا اسم الحسين في قلوب كل من يعشق الحرية عبر امتداد الزمان والمكان. لقد أصبح اسم الإمام الحسين (ع) رمزاً للإباء والحرية عند جميع الأمم.

بعد أن شفى ابن زياد غليله من إبادة آل رسول الله (ص) في كربلاء وتركهم أجساداً بلا رؤوس، دون دفن وبعد أن سبى ونهب وسلب ثقل رسول الله وجعلهم فرجة للناس وتشمتهم بمجلسه بقصر الإمارة وبالمسجد الأعظم وطيف برأس الإمام الحسين (ع) ورؤوس أهل بيته وأنصاره سكك الكوفة جهز ثقل الإمام الحسين(ع) من الأطفال والنساء ومعهم العليل زين العابدين لإرسالهم هدية إلى طاغية القصر الأخضر يزيد. وكان ابن زياد قد كتب رسالتين الأولى إلى يزيد بن معاوية يخبره فيها بقتل الإمام الحسين (ع) وانتصاره على آل رسول الله (ص) وإبادتهم في كربلاء وسبي النساء والأطفال[٢٧٥]. والثانية الى عمرو بن سعيد بن العاص والي الحرمين بنفس المضمون، فصعد عمرو المنبر وأخبر الناس بانتصار جيش سلطنة قريش ومقتل الإمام الحسين (ع) وجميع من معه[٢٧٦]. فعظمت المصيبة على بني هاشم بشكل خاص وعلى مجتمع المدينة بشكل عام. فأقاموا المآتم لإستشهاد الإمام الحسين (ع) وأهل بيته وأنصاره. وكانت زينب بنت عقيل بن أبي طالب بين الهاشميات اللاتي ندبن الإمام الحسين (ع) فأنشأت تقول[٢٧٧].

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأُممِ
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أُسارى ومنهم ضُرِّجوا بدمِ
ما كان هذا جزائي إذ نصحتُ لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمِ

وما إن تسلم يزيد بن معاوية كتاب ابن زياد بشأن مقتل الإمام الحسين، حتى أعاد الجواب إليه يأمره بحمل رأس الإمام الحسين (ع) وجميع الرؤوس وآل رسول الله من نساء وأطفال[٢٧٨]. فأستدعى ابن زياد خمسين رجلاً وإختار بينهم مخفر بن ثعلبة العائذي ليتسلم مسؤولية القافلة وسلمه رأس الإمام الحسين وجميع الرؤوس وآل رسول الله (ص) من نساء وأطفال، كما أمر بأن تغل أرجل وأيدي الإمام السجاد بأغلال من حديد إلى عنقه فساروا بهم هدية إلى يزيد كما يسار بسبايا الكفار[٢٧٩].

نعم بنات رسول الله (ص) وأطفاله يساقون مع رؤوس القتلى من أهلهم وأنصارهم يتقدمهم رأس الإمام الحسين (ع) من الكوفة إلى الشام على محامل بغير

وطاء يساقـون كما تساق أسارى الروم والديلم. نعم هذا هـو جزاء رسول الله (ص) ووصيته الأمـة في ذريته لقولـه تعالى: «.. قل لا أسألكـم عليـه أجـراً إلا المودة في القربى...»(٢٨٠) لقد حفظـت الأمة عهـدها لـرسول الله (ص) في ذريتـه حفظاً لم يشهـد التاريخ البشري لـه مثيلاً، فهـا هي أم كلثـوم بنت علي بن أبي طالـب، وقـد إقترب ركب السبي إلى دمشق عـاصمـة سلطنـة قـريش تطلـب من شمـر بن ذي الجوشن قضاء حاجة لها قالت: «إذا دخلت بنا البلد فأحملنا على درب قليل النظّارة. وتقدم إليهم أن يخرجوا هذه الرؤوس من بين المحامل وينحونا عنها، فقد خزينا من كثرة النظر إلينا، ونحن في مثل هذه الحال»(٢٨١). لأن السيدة أم كلثوم سألت لئيماً، فما كان رده على سـؤالها إلا أن جعل الرؤوس على الرماح في أوسـاط المحامل وسلك بهم بين المتفرجين حتى أتى بهم وهم على تلك الصفة بـوابة دمشق التي تسـمى باب الساعـات، فوقفوا بـالسبايا والـرؤوس عند درج باب المسجـد الجامع، حيث يقام السبّي عادة(٢٨٢). ويوم دخول ثقل رسول الله عاصمة الحكم الأموي عطلت الأعمال ونشرت الزينـات وأعلن أن ذلك اليوم عيـد للنصر، وضربت الدفـوف والطبول من قبل النساء والفتيـات الشاميـات والناس كانـوا فرحين مستبشرين بـانتصـارهم على الخوارج(٢٨٣).

وكان يزيـد خلال دخول ركب السبايا والرؤوس في منظـرة على رباجيرون فأنشد فرحاً مستبشراً بذلك المشهد(٢٨٤):

لما بـدت تلك الحمـول وأشـــرقت	تلك الشمـــوس على ربـــا جيرون
نعب الغـراب فقُلتُ صح أولا تصح	فلقـد قضيت من الغـــريم ديـوني

نعـم، ليس غريباً على يزيد بن معـاوية أن يتفوّه بمثل هذه الأبيات جذلاً، وليس غـريبـاً عليـه أن يستقبل رؤوس آل رسـول الله (ص) وصحبهم من المؤمنين، فهـذا الغصن من تلك الشجرة الملعونة في القرآن، وله في والده أُسوة. ففي عهد الإمام علي أُهدي لمعاويـة رأسا مؤمنين: الأول رأس عمار بن يـاسر في صفين، وعمار هو الذي قال فيه الـرسول أحاديث عديـدة لإيمانه وتفانيه في سبيل الله منهـا «عمار تقتله الفئة الباغية» باتفاق المسلمين(٢٨٥). والثاني رأس محمـد بن أبي بكـر والي الإمام علي (ع)

على مصر، الذي وضعت جثته في جوف حمار وأُحرقت(٢٨٦). وبعد استشهاد الإمام علي (ع) عمد معـاوية إلى تصفية جميع من طـالته يده من رجـالات الإمام علي (ع) فكان عمـرو بن الحمق الخزاعي أحد الضحايـا، حيث فرَّ هائماً على وجهـه، فكان جـزاؤه، إلقـاء القبض على زوجتـه آمنة بنت الشـديـد واقتيـادهـا إلى دمشق حيث سجنت لمدة عـامين. وحينما تمكن عبد الـرحمن بن الحكم والي معاويـة على الموصل من الظفر بعمرو، قطع رأسه وأهداه إلى مؤسس سلطنة قريش معاوية بدمشق فكان ثـاني رأس يطاف بـه من بلـد إلى بلد بعـد رأس محمـد بن أبي بكر وعمار بن يـاسر. ولقسوة معاوية بعث رأس عمـرو إلى زوجته بالسجن، وطُلب من الحارس أن يحفظ كلماتها. وفوجئت آمنة برأس زوجها يطرح في حجرها فارتاعت من هول المشهد، ثم وضعت يديها على رأسها وقـالت: نفيتموه عني طويلاً وأهديتمـوه إليَّ قتيلاً، فأهلاً وسهلاً بمن كنتُ له غير قالية، وأنا له اليوم غير ناسية»(٢٨٧).

وكان الإمام الحسين (ع) قد كتب إلى معاوية بمناسبة مقتل عمرو وإستشهاده: «أولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله (ص) العبد الصالح بعدما أمنته وأعطيته من عهود الله ومواثيقه ما لـو أعطيته طائراً نزل إليك من رأس جبل ثم قتلته جرأة على ربك وإستخفافاً بذلك العهد»(٢٨٨). إن الإمام الحسين (ع) يشير على أن الأمويين ليس لهم عهد ولا ذمـة، لأنهم لم يؤمنوا بالله طرفـة عين، لأن إسلامهم يوم الفتح كان إستسلاماً، كما وردت مناقشة ذلك.

أما إذا أقدم يزيد على سبى نسـاء رسول الله (ص) وبناته وأسرهن والتطواف بهن في البلـدان، فإنه أيضـاً يتبع خطى والده. فبـالأمس القريب وخـلال عهد الإمـام علي(ع) حينما هـاجم جيش معـاويـة الحجـاز واليمن بقيـادة بسر بن أرطأة إرتكب أعمالاً لا تقل بشاعـة عن الأعمال التي إرتكبها جنود يزيـد مع آل رسول الله (ص). فقـد قتل بسر قائد الجيش شخصيـات يمنيـة مثل عبـد الله بن عبد مـدان الحارثي وأخيه مالك، وأحـرق منزل والي اليمن من قبل علي ـ عبيد الله بـن عباس ـ ولما علم بأن زوجته في بـادية كنانة قصـدها بجيشه وقتل طفلي عبيد الله بن عبـاس في حجر أمهما أمام نسوة بني كنانة، وأباد الرجـال والنساء الذين استنكروا عمله لأنهم رفضوا أن يخلعـوا بيعة الإمـام علي (ع) ويبايعـوا معاويـة كما سبى بسر النساء وبـاعهن في

الأسواق، فكن أول مسلمات سبين في الإسلام(٢٨٩).

وقال رجلان من الـذين شهدوا المأساة أنهما سمعا أبا ذر يدعـو ويتعوَّذ في صلاة صلاَّها، طـال قيامها وقعودهـا وركوعها، فسألناه: «مم تعـوَّذت؟ وفيم دعوت؟» فقال: «تعـوَّدتُ من يـوم البلاء أن يدركنـي، ويوم العـورة أن أدركه» فقلنـا: «وما ذاك؟» قال: «أما يوم البـلاء فتلتقي فئتان من المسلمين فيقتل بعضهم بعضاً، وأما يوم العورة فإن نسـاء من المسلمات يسبين فيكشف عن سوقهن فأيَّتهن كانت أعظم سـاقاً إشتريت على عِظم سـاقهـا! فدعـوتُ الله ألا يـدركني هـذا الزمـان» وبكى الناس!!(٢٩٠) نعم هذا هو المنهاج الذي رسمه واختطه معاوية لنجله يزيد ليقود أمة محمـد (ص) «إلى طموحـاتها وتطلعـاتها بين الأمم» بقتل الأطفال، بسبي النسـاء، بتقطيع رؤوس المؤمنين وإهــدائهـا لطــاغيــة القصر الأخضر ليعم الصمت مقبرة الأحياء، وليتفـرغ حفيد هند وأبي سفيـان للعَّب بالقردة والكـلاب وليالي الأُنس مع القيان والغلمان(٢٩١).

نعم، هــذه ذخيرة بيت النبـوَّة التي حمَّلهــا الإمـام الحسين (ع) تبليغ رسـالـة الإستشهاد إلى الأمـة تدخل مـدينة الجريمـة وعاصمـة السلطنة القـرشية التي أذاق مؤسسوها وآلهم محمداً وآله ألواناً من العذاب منذ بداية دعوته حتى استئصال ذريته في كربلاء، ها هي فخر المخدرات زينـب وأخواتها وبنات أخوتها وبقية أطفال وآل رسول الله (ص) وزوجات الإمام الحسين (ع) يـدخلن مركز الظلم والطغيان والجور والقتل بسلام واعتـداد واعتزاز بالنفـس لأنهن يحملن رسالة الإستشهـاد لتبليغها إلى الأمة، إلى الأجيال المتعاقبة لفضح الجريمة، لكشف الحقيقة، ها هي زينب المسبية بعـد أن تجرعت وبقيـة آل رسول الله (ص) غصص الأسر وفقـد الأحبـة، إنها تعلن الإنتصـار على السلطة ووحشيـة وكلاء العبـودية إنها تعلن لجميع الأجيـال شعوبـاً وحكومات من بـوابتي دمشق: باب الساعات، وباب تـوما: «الحمدُ لله على جميع كرمه ومجده الذي منحنا شرف النبوَّة وشرف الشهادة».

إنها تقدم مسؤولية إعلان رسالة الحيـاة الأبدية، لكن الشهادة صامتة. إن زينب أبقت الشهادة حيـة لأنها قد هيأهـا الإمام الحسين (ع) لتكـون اللسان المعبر لأولئك

الـذين قد قطع لسـانهم بواسطـة سيف القتل. إذا لم يكن للدم رسـالة، فإنـه يبقى صامتاً في التـاريخ. إذا لم تصل رسالة الدم إلى جميع الأجيال، فإنـه يكون كما لو أن القـاتل قد سجن الشهيـد في قلعـة عصر واحد وزمـن واحد. لـو أن زينب لم تنقل رسالة كربـلاء إلى ضمير الأمة، ستبقى كربلاء مجرد حادثة تاريخيـة، وبالتالي الأفراد الذين يحتـاجون هذه الرسالـة سوف يحرمونها. وهكذا لن يقـدر أحد على أن يسمع رسالة أولئك الذين تحدثوا إلى الأجيال عبر دمائهم. وقال أحد الأدباء في وصف حال السيدة زينب: (٢٩٢).

قـــد ورثت زينـب عن أمهـــا	كل الـذي جـرى عليهـا وصـار
وزادت البنـتُ على أمهـــــا	من دارهـــا تهدىٰ إلى شر دار

وقال آخر في وصف تحملها رعاية الأيتام والنساء: (٢٩٣)

بأبي التي ورثت مصـائب أُمِّهـا	فغـدت تقـابلهـا بصـبر أبيهـا
لم تلهُ عن جمع العيـال وحفظهم	بفـراق إخـوتها وفقـد أبيهـــا

روى ابن طـاووس أن بعض فضلاء التـابعين لما شاهـد رأس الإمام الحسين (ع) بالشام أخفى نفسه شهراً من جميع أصحابه فلما وجدوه بعد إذ فقد سألوه عن سبب ذلك، فقال:

«ألا ترون ما نزل بنا؟» فأنشأ يقول: (٢٩٤).

جاءوا برأسك يـا ابن بنت محمد	مترمـلاً بـــدمـائه تـــرميــلاً
فكأنما بك يـــا ابـن بنت محمـد	قتلـوا جهـاراً عــامـدين رسـولا
قتلـوك عطشـانـاً ولما يـرقبـوا	من قتلك التـأويل والتنـزيـلا
ويكبرون بـــأن قتلـــت وإنما	قتلـــوا بك التكبير والتهليـــلا

أبيات رائعة تعبر عن فهم عميق للفـاجعة التي حلت بالأمة بمجزرة كـربلاء إنه يرثي حال الأمة التي طعنت في دينها بإبادة آل رسول الله (ص).

ومن الأخبار التي تهز كل غيـور من الأعماق ما رواه سهل بن سعد أحد صحـابة

رسول الله (ص)، الـذي شاهد بنـات الرسالـة عند بـاب الساعات بـدمشق يقول سهل: «فدنـوت من إحداهن فقلـت: يا جاريـة من أنتِ؟ فقالت: سكينـة بنت الحسين. فقلتُ لها: ألكِ حـاجـة إليَّ؟ فأنـا سهل بن سعـد ممن رأى جـدَّكِ وسمع حديثه. قالت: يا سهل قل لصاحب الرأس: أن يتقدّم بالرأس أمامنا حتى يشتغل النـاسُ بالنظـر إليه فـلا ينظرون إلينـا! فنحن حـرم رسول الله، قـال: فدنـوتُ من صاحب الـرأس وقلتُ له: هل لك أن تقضي حاجتي وتأخـذ مني أربعمائة دينار؟! قـال: ومـا هي؟ قلتُ: تقـدم الـرأس أمـام الحرم، ففعل ذلك ودفعتُ لـه مـا وعدته»[٢٩٥].

وروى ابن طـاووس أيضـاً أن رجـلاً مسناً دنـا من نسـاء النبـوَّة في نفس الموضع فقـال: «الحمـدُ لله الـذي قتلكم وأهلككم وأراح البـلاد من رجـالكم وأمكن أمير المؤمنين منكم»[٢٩٦]. فجعل زين العابدين يعرف نفسه ومن معه للشيخ من خلال الآيـات التي وردت في أهل البيت بـالقـرآن إلى أن تلى قولـه تعـالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾[٢٩٧] فسأله زين العابدين هل قـرأت هذه الآيـة؟ قـال الشيخ نعم قـرأت ذلك فقال زين العـابـدين: فنحن أهل البيت الـذين خصَّصنا الله بـآية الطهـارة يـا شيخ. فسكت الشيخ ولم يحر جوابـاً، واستغفر ربه لخطئه، وطلب التوبة والمعذرة من زين العابدين فقال له نعم. إن تبت تـاب الله عليك وأنت معنـا، فقـال: أنـا تـائب». وحينما علم يـزيـد الخبر أمـر بقتله[٢٩٨]، خشيـة أن يكون وسيلـة إعلام لآل رسـول الله بـدمشق فيفضح طاغيـة القصر الأخضر.

قـريش بكل زعـامـاتها لم تستطع أن تقف في وجـه الـزخم الإيماني العقـائدي لمحمد(ص) وأنصاره. لقد هزموا كل زعامات قريش حتى استسلموا في فتح مكة. ولكن بعد رحيل صاحب الرسالة ومؤسس الدولة النبوية محمد (ص) تآمرت أغلبية الأمـة على الثقلين الكتاب والعترة. أمـا الكتاب فمـزقته الـرماح في صفين بحجـة الإحتكام إليه، وأمـا العترة فأبيدت في كربلاء. وأما بنات رسـول الله (ص) وأطفاله فها هـم يساقون في الأسر والسبـي يعبرون الصحاري بـدون كفيل سوى أعـداء قد إمتلأت قلوبهم بالشحناء الجاهلية البغيضة ضد محمد وآله. وها هم يدخلون ديوان يـزيد بـالقصر الأخضر بدمشق الـذي تأسس من أجل تقويض كل المبـادىء التي

تأسست عليها دولة النبوّة ولإستعادة كل أحلام وتطلعات قريش في النفوذ والجاه والسلطان.

وأدخل آل رسول الله جميعاً على يزيد أطفالاً ونساء ومعهم زين العابدين وهم موثقين في الحبال. فسأل زين العابدين يزيد قائلاً: «أُنشدك الله يا يزيد ما ظنك برسول الله (ص) لو رآنا على هذه الصفة؟». فأمر يزيد بالحبال فقطعت[٢٩٩].

ثم وضعت جميع الرؤوس بين يديه. فارتفعت أصوات النساء والأطفال بالعويل عندما شاهدوا رؤوس الأحبة وقائدهم الإمام الحسين (ع) حتى رق لحالهم الحضور.

ولما رأى يزيد الرؤوس بين يديه قال تشفياً[٣٠٠].

يفلّقن هاماً من رجال أعزّةٍ علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

إن يزيد يتذكر قتلاهم الماضين خلال حرب الإسلام مع الشرك، فهو يعتقد أنه أخذ بثأر الأمويين من محمد (ص) وآله العاقين الظالمين كما يصوّرهم.

ثم أنشد يحيى بن الحكم أخو مروان فقال: [٣٠١]

لهام بجنب الطف أدنى قرابة من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل

سُميَّة أمسى نسلُها عدد الحصى وبنتُ رسول الله ليس لها نسل

هكذا بلغت الوقاحة والتبجح بالأمويين والمروانين يستهزئون ويتباهون باجتثاث نسل رسول الله (ص) هذه نبوءة الرسول (ص) تتحقق ويتسلم أمور الأمة غلمان قريش هذه نتيجة تآمر الأمة التي لحقها الذل الأبدي بعد خيانتها للرسول (ص) وعترته. إنهم هم الذين وعلى أكتافهم قامت دولة النبوّة خانوهم فتراكمت عليهم كل المحن والمصائب حتى صاروا لقمة سائغة لأحط الأُمم.

ومن الأعمال المشينة التي قام بها يزيد في ذلك اليوم أن رأس الحسين قد وضع بين يديه في طشت من ذهب، فدعا بقضيب خيزران فجعل ينكت به ثنايا الحسين أمام أهل بيته، وهو يقول: «لقد كان أبو عبد الله حسن الثغر»[٣٠٢]. وكان بين الحاضرين أبو برزة الأسلمي رجل من أصحاب رسول الله (ص) فقال ليزيد: «ويحك يا يزيد أتنكتُ بقضيبك ثغر الحسين بن فاطمة (ع) أشهد لقد رأيتُ أن

النبي (ص) يرشفُ ثناياه وثنايا أخيه الحسن (ع) ويقول: «أنتما سيدا شباب أهل الجنة فقتل الله قاتلكما وأعدَّ له جهنم وساءت مصيراً». فأمر يزيد بإخراجه من ديوان قصره سحباً[٣٠٣] هذا مصير كل من ينطق بالحق في دولة النبوَّة لأن ذلك يخالف منهاج سلطنة قريش الذي رسمه المؤسسون لهذه السلطنة.

ثم جعل يزيد يتمثل شماتة بأبيات ابن الزبعري[٣٠٤].

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحاً	ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القوم من ساداتهم	وعدلناه ببدر فأعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا	خبر جاء ولا وحي نزل
لستُ من خندفِ إن لم أنتقم	من بني أحمد ما كان فعل

إنه إعلان صريح بعودة العصبية الجاهلية والأخذ بالثأر فهو يعتبر أن الأمويين أخذوا بثأر قتلاهم في بدر من محمد وآله بإبادة عترته في كربلاء.

وعلى أثر تغني يزيد بتلك الأبيات التهكمية، رأت ذخيرة بيت النبوَّة، وحاملة رسالة الإستشهاد أن تقول كلمتها وتلعب دورها الرسالي المطلوب لتكشف الحقيقة للتاريخ، لفضح الجريمة، لتعلن صرخة الشهادة، لتبلغ الأمة، الأجيال، البشرية رسالة الدماء الزكية التي عطرت بيداء كربلاء وجعلتها منارة وكعبة للأحرار في كل زمان وكل مكان قالت بعد أن وقفت بشموخ النبوة وبلاغة وفصاحة وشجاعة أبيها وإباء سيد الشهداء أخيها[٣٠٥]: «الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق الله سبحانه حيث يقول: «ثم كانت عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذَّبوا بآيات الله، وكانوا بها يستهزئون». أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض، وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسرى أن بنا هواناً على الله، وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مبروراً، حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين

كفروا إنّما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذابٌ مهين﴾ .

«أمن العدل يـا ابن الطلقاء، تخديـرك حرائرك وإمـاءك، وسوقك بنـات رسول الله(ص) سبايا، قد هتكت ستورهنَّ، وأبديت وجوههنَّ، تحدو بهنَّ الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهنَّ أهلُ المنـاهل والمناقل، ويتصفحُ وجوههن القـريبُ والبعيد، والـدَّنيُّ والشريف، ليس معهن من رجالهم ولي ولا من حُماتِهنَّ حمي، وكيف يـرتجى مـراقبة ابن مـن لفظ فوه أكبـاد الأزكيـاء، ونبت لحمه مـن دماء الشهـداء، وكيف يستبطأُ في بغضنـا أهل البيت من نظر إلينا بالشَّنف والشنـآن، والاحن والأضغان، ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم :

لأهلّـــوا واستهلّـــوا فـــرحـــاً   ثم قـــالـــوا يـا يـــزيـــد لا تشل

«منحنياً على ثنـايا أبي عبـد الله (ع) سيد شبـاب أهل الجنة تنكتهـا بمخصرتك وكيف لا تقول ذلك، وقد نكأت القرحة، واستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذريَّة محمـد (ص) ونجـــوم الأرض من آل عبـد المطلب وتهتف بأشيـــاخك زعمت أنك تناديهم فَلَتَرِدَنَّ وشيكاً موردهم وَلَتَوَدَّنَّ أنك شُلِلْت ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت» .

«اللهم خذ بحقنا، وانتقم من ظالمنا، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا، وقتل حماتنا، فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا حززت إلا لحمك ولتردن على رسول الله(ص) بما تحملت من سفك دماءِ ذريته وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، حيث يجمعُ الله شملهم، ويلم شعثهم ويأخـذ بحقهـم، ولا تحسبنَّ الـذين قتلـوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون» .

«وحسبك بـالله حاكماً وبمحمـد (ص) خصيماً، وبجبريل ظهيراً، وسيعلم من سوّل لك ومكَّنك من رقاب المسلمين بئس للظـالمين بدلاً وأيُّكم شرٌّ مكاناً وأضعف جنـــداً، ولئن جـرَّت عليَّ الـــدواهي مخاطبتك، إني لأستصغـــر قـــدرك واستعظم تقريعك، واستكثر توبيخك، لكن العيـون عبرى، والصدور حرَّى . ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء، بحزب الشيطان الطلقاء. فهذه الأيدي تنطف من دمـائنـا، والأفـواه تتصلبُ من لحومنا وتلـك الجثث الطواهـر الـزواكي تنتـابها

العواسل، وتعفـرها أُمَّهات الفراعل، ولئن إتخذتنـا مغنماً، لتجدنا مغرمـاً وشيكاً، حين لا تجد إلاَّ مـا قدَّمت يـداك وما ربك بظـلام للعبيد، وإلى الله المشتكى وعليـه المعوَّل».

«فكد كيدك، واسعَ سعيك، وناصب جهـدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمـدنا، ولا تدحض عنك عارهـا، وهل رأيك إلا فند وأيامك إلا عدد، وجمعُك إلا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنةُ الله على الظالمين».

«والحمدُ لله رب العـالمين، الذي ختم لِأوَّلنا بالسَّعـادة والمغفرة ولآخرنا بـالشهادة والـرحمة، ونسـأل الله أن يكمل لهم الثـواب، ويـوجب لهم المزيـد ويحسـن علينـا الخلافة، إنه رحيم ودود حسبنا الله ونعم الوكيل».

لقد أدت السيدة زينب وهي أسيرة رسالـة الشهداء إلى الأمة، عبر كل العصور، فإذا كان والدها قد زلزل ميادين القتال بصـولاته وجولاته الحيدرية في بدر وفي أحد وفي الأحـزاب وفي خيبر وفي حنين وفي كل المشـاهـد مع الـرسـول (ص) وأيضـاً في البصرة وصفين والنهروان، بسيفـه ذي الفقار وإذا كـان الإمام الحسين (ع) وإخـوته وأنصاره قد أذهلـوا الأعداء بشجاعتهم وثباتهم أمـام آلاف الجنود بكامل أسلحتهم فهـا هي زينب تقـف بنفس الـروح والعـزيمـة والتصميم لتحكي للتـاريخ قصـة المؤامرة، قصة الرسالة النبوية، قصة خيـانة الأمة، قصة الثورة الإستشهادية المقدسة في كربلاء، قصة الحرية والعزة والكرامة. إنها أسيرة، لكنها بنت فاطمة. إنها مسبية لكنها تربية علي بن أبي طالب.

قال يزيد[٣٠٦]:

يـا صيحـة تحمـدُ من صـوائح   مـا أهـون الموت على النـوائح

وحينما استشار يـزيد أهل الشام فيما يصنـع بآل رسول الله (ص) قـال له النعمان بن بشر ناصحاً: «أنظر ما كان الرسول يصنع بهم فاصنعه»[٣٠٧].

ومن غريب مـا حدث يوم تـواجد بنـات الرسالـة في ديوان قصر يزيـد أن رجلاً شامياً طلب من يزيـد أن يهبه فاطمـة بنت الإمام الحسين (ع) جارية له. فكان نص

قـوله كما روتـه بنت الحسين (ع): «يـا أمير المؤمنين هب لي هـذه الجارية. فـلاذت بعمتها وتعلقت بثيابها، فقالت زينب: «لا ولا كـرامة لهذا الفاسق». فقال الشامي من هذه الجارية؟ فقال يزيـد: هذه فاطمة بنت الحسين (ع) وتلك زينب بنت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فقـال الشامي الحسين بن فاطمـة وعلي بن أبي طالب؟ قال: نعم. فقال الشامي لعنك الله يا يـزيد أتقتل عترة نبيك وتسبى ذريتهُ؟ والله ما توهّمت إلا أنهم سبى الـروم» فقال يزيد: «والله لألحقنك بهم»، ثم أمـر به فضربت عنقه[٣٠٨]. لماذا؟ لأنه قال كلمة حق عند سلطان جائر.

كان يـزيد قد أحرقت فـؤاده كلمات بنت الرسالـة زينب في خطبتها العصماء ولما وجد نفسـه عاجـزاً عن الرد عليهـا بالحجـة والمنطق وقرّعتـه تقريعـاً بتلك الكلمات البليغة بعـد كشفها الحقيقـة كاملـة أمام وجهـاء الشام لجأ إلى أسلـوب العاجـزين والمفلسين وطلب من الخطيب أن يصعـد المنبر ـــ وما أكثـر أولئك الخطبـاء المرتزقـة الذين هيأتهم سلطنة قريش لإفساد الدين وتشـويهه ـ لينال من كرامة الإمام الحسين وأبيـه (ع) ففعل الخطيب ذلك وبـالغ في ذمهما من أجل العطيّـة[٣٠٩]، وفي الوقت نفسه مدح معـاوية ويزيد، وآل رسـول الله (ص) بمسمع وبمنظر لكل ما يحدث. إن يزيد مـا زال قلبه ينضح حقداً تجاه منجزات النبـي (ص) ووصيه الإمام علي، لم يكتفِ بعد بمجـزرة كربلاء وبسبي آل رسول الله (ص) واستعـراضهم في مجلسه مع الرؤوس، إنها الجاهلية بأبشع صورها.

فصـاح زينُ العـابدين: «ويل أيها الخطيـب إشتريت مرضـاة المخلـوق بسخط الخالق فتبوَّء مقعـدك من النار»[٣١٠]. وقـد أحسن ابن سنـان الخفـاجي في وصف الإمام علي (ع) وما ناله من الأمة: [٣١١].

أعلى المنابـر تعلنون بســـــبه وبسيفـه نصبت لكم أعـوادهـا

ثم إن زين العابدين علي بن الحسين بعد أن ردَّ على الخطيب بتلك الكلمات التي تفيض بحكمة النبوَّة والإمامة، إستأذن يزيد ليصعد المنبر ويتكلم بكلمات فيهن لله رضا، وللحاضرين أجراً وثواباً، فأبى يزيد ذلك، ولكنه استسلم أخيراً تحت ضغوط الحاضرين، فأذن له، فألقى خطبة تعبر عن بلاغة البيت النبوي وتعرّف من خلالها

تاريخ هذا البيت النضـالي من أجل إقامة صرح دولة النبوّة، كما عـرّف نفسه للناس بذكر نسبه الشريف، لكشف الغمامة عن بصيرة وأبصار الحاضرين، حيث أسر ابن النبوّة قلوب الحاضرين بكلماتـه البليغة المؤثرة والمعبّرة فأستسلموا للبكـاء فقطع يزيد خطبته بالآذان خوف الفتنة. (٣١٢). لأن زين العابدين قد أوضح للحاضرين أن يزيد قد قتل الدين بقتله شهداء كربلاء.

وقبل أن يغـادر آل رسـول الله (ص) ديوان القصر الأخضر وعـد يـزيـد علي بن الحسين بقضاء ثلاث حاجات له وأسكنهم أربعة أيام في منزل لا يكنهم من حر ولا برد فأقـاموا بـه حتى تقشرت جلودهم هـذا إلى جانب متاعب السفـر وفاجعـة فقد الأحبـة، وقـد إتخذوا من هـذا الـدار مكـانـاً لإقـامـة العـزاء والبكـاء على شهـداء كربلاء(٣١٣).

ويروي ابن طـاووس أن زين العابـدين علي بن الحسين خرج ذات يـوم من أيام إقامتهم يمشي في أسـواق دمشق فاستقبله المنهـال بن عمرو الصحابي، فقـال له: كيف أمسيت يـا ابن رسـول الله؟ قال: «أمسينـا كمثل بني إسرائيل في آل فـرعـون يذبّحون أبنـاءهم ويستحيون نساءهم! يا منهـال أمست العرب تفتخر على العجم بأنَّ محمداً عربي، وأمست قريش تفتخر على سـائر العرب بأن محمداً منها، وأمسينا معشر أهل بيته ونحن مغصـوبون مقتولـون، مشرّدون، فإنّا لله وإنا إليه راجعـون مما أمسينا فيه يا منهال». فأنشد منهال شعراً: (٣١٤)

يعظمـون لـــه أعـواد منبـــره ... وتحت أرجلهم أولاده وضعـــوا

بأيّ حكـــم بنوه يتبعونكـــم ... وفخـــركم أنّكم صحب لـه تبعُ

وحينما عزم يزيـد على ترحيل عائلة الإمـام الحسين (ع) من دمشق إستدعى زين العابدين علي بن الحسين وسأله أن يذكر لـه حاجاته الثلاث التي وعده بقضائهن، فقال له: «الأولى أن تريني وجه سيدي ومولاي أبي الحسين (ع) فأتزوّد منه، والثانية أن تردَّ علينا ما أُخِذَ مِنّا، والثالثة إن كنت عزمت على قتلي أن توجه مع هؤلاء النسوة من يردهنَّ إلى حـرم جدهن (ص) فقال يزيـد: «أما وجه أبيك فلن تراه أبـداً، وأما قتلك فقد عفونـا عنك، وأما النساء فما يردهن غيرك إلى المدينة، وأمـا ما أُخِذَ منكم

فأُعوِّضكم عنه أضعاف قيمته» . فقال علي بـن الحسين: «أما مالك فلا نريده وهو موفـر عليك، وإنما طلبتُ ما أُخِـذَ منـا لأنَّ فيـه مغـزل فاطمـة بنت محمـد (ص) ومقنعتها وقلادتها وقميصهـا» فأمر يزيد برد ذلك وزاد فيه مئتي دينـار فأخذها زين العابدين وفرقها على الفقراء[٣١٥].

ويبدو أن يزيـد قد بدأ يشعر ببشاعـة الجريمة التي إرتكبها في كربـلاء وما ألحقه من ذل وهوان بـآل رسول الله من جانب، وتذمـر الناس مما حصل من جـانب آخر فحاول أن يخفف ذلك بتحسين معاملته لذرية رسول الله (ص) الذين أصبحوا تحت رحمته. فكلف النعمان بن بشير أن يتولى تجهيزهم ويهيء معهم رجلاً صالحاً من أهل الشام وفرساناً لحراستهم[٣١٦].

وخرج آل رسول الله (ص) من عاصمة سلطنة قريش بعدما تحملوا الويلات من التفـرج والشتم وحرقـة الفـؤاد وذل الأسر والسبي، وحينما بلغـوا العراق طلبـوا من الدليل أن يمر بهم على كربـلاء وكان وصولهم قد تزامن مع وجود جـابر بن عبد الله الأنصاري وجماعة من بني هاشـم قدموا لزيارة الإمام الحسين، حيث تزامن مع مرور أربعين يومـاً على إستشهاد الإمام الحسين ورجالـه وهو يوم العشرين من صفـر سنة إحدى وستين للهجرة. ومكثـت عائلة الإمام الحسين (ع) عند قبـور الشهداء حتى قضـوا وطراً من البكـاء والنياحـة، وبعدهـا توجـه موكب ذريـة الرسـول (ص) إلى المدينة[٣١٧].

١١ ـ عودة آل الرسول (ص) إلى المدينة:

وعادت حاملـة رسالة الشهادة إلى وطن جدها مع الإمـام زين العابدين علي بن الحسين وبقية اليتـامى والثواكـل. عادت بعـد أن شمت ثرى قبـور الأحبة في أرض الشهـادة، أرض الإباء، أرض الحريـة، أرض كربـلاء. عـادت ولكن بأية حـال، فبالأمس القـريب عند خـروجها من مدينـة جدها رسـول الله (ص) كانت محفـوفة بشبيبة الهاشمين وسيـوفهم مشهورة محلقـة حول هودجهـا واليوم تعـود كسيرة، وقد كسيت جميع الهوادج بالسـواد. تعود بعد أن احتضنت أرض كربـلاء تلك الأجساد الطواهـر لأولئك الأحبة. قـرابين الإسلام. عـادت إلى مسقط رأسها بعـد أن بلَّغت

رسالـة الشهادة إلى كل أجيال الأمـة عن طريق الكلمة التي تحمل الحقيقـة، وتروي ملحمة الشهـادة، بأمانة الأنبياء والقـديسين، وبذلك يكتمل المظهر الشـاني للثورة الإستشهادية، بعـدما قدم الإمام الحسين (ع) وأهل بيته وأنصاره الغـر الميامين الدم والإستشهـاد، هذا بـالشهادة، وهـذه بتبليغ الشهادة، وبهذا بطلت مـؤامرة حـزب الشيطان، وأصبحت ملحمة الإستشهاد عبر الزمان والمكان أنشودة تتردد على شفاه عشاق الحرية والحق والعـدالة والمساواة. إنها المبادىء التي قامت عليهـا دولة النبوّة وبهذا تـرجم الإمام الحسين (ع) عمليـاً للأمـة مـا الذي يقصـده الرسـول(ص) من حديثه: «حسين مني وأنا من حسين». يقـول المهاتماغاندي: «تعلَّمتُ من الحسين أن أكون مظلوماً فأنتصر».

لـو أن زينب لم تنقل رسالـة كربـلاء إلى التـاريخ، ستبقى كربـلاء مجرد حادثـة تاريخية، وبالتالي فإن الأفراد الذين يحتاجون هذه الرسالة سوف يحرمونها. وهكذا لن يقدر أحد على أن يسمع رسـالة أولئك الذين تحدثوا إلى الأجيال بـدمائهم. إنه لهذا السبب كـانت رسـالـة زينب ثقيلـة وصعبـة. رسالتهـا تبليغ رسـالـة الشهـداء إلى البشرية، إلى جميع أولئك الذين يبكون الإمام الحسين (ع): «إن الحياة لا تكون ذات قيمـة إلا بـالإعتقـاد والجهاد، وأن الـذين يستطيعـون أن يعيشـوا بصـدق، الـذين يستطيعون أن يموتوا بصدق».

وحينما وصل ركبُ آل رسـول الله (ص) إلى مشـارف المدينـة حطـواْ بـرحـالهم، وضرب علي بن الحسين فسطاطه وأمر بشير بن جذلم أحد الحراس الذين كانوا معه، أن يطـوف بالمدينـة، وينعي الإمـام الحسين (ع). فـركب بشر فرسـه كما يـروي ابن طاووس حتى وصل مسجد النبي (ص)، فرفع صوته باكياً، وأنشأ قائلاً:[٣١٨].

يـا أهل يثـرب لا مقـام لكم بها قتل الحسين فـأدمعي مـــدرارُ

الجسم منــه بكـربــلاء مضرَّج والـرأس منـه على القنـاةِ يـدارُ

وحينما إجتمع النـاس عنـده أخبرهم بـالفـاجعة، ومكـان نـزول الإمـام عليٍّ بن الحسين (ع) مع أطفـال ونساء آل رسـول الله (ص)، فهـرعوا إلى مخيمهم، فعـزوه،

وأعربـوا له عن لوعتهم ومواسـاتهم لمصاب آل رسول الله (ص) بفقد سيـد الشهداء ورجاله وأطفاله.

ثم ألقى عليهم الإمـام علي بن الحسين (ع) خطبة تضمنت تفـاصيل ما حـدث بكربـلاء، وما حل بثقله من سلب ونهب وسبي، وأن عترة الرسـول (ص) أصبحوا غـرباء وسط الأمـة الإسلاميـة، كما أعتبر أن مـا حصل لآل رسول الله (ص) ثلمـة عظيمة في الإسلام(٣١٩).

وعاش الإمام علي بن الحسين (ع) أربعين سنة بعد إستشهاد والده قضاها باكياً، صائماً نهاره، قائماً ليلـه لم يهنأ بطعام ولا شراب(٣٢٠). وحق له ذلك، فإن الفاجعة التي عاشها، وما ترتب عليها من ذل السلب والنهب والسبي، لا يمكن أن تزيلها الأيام من الـذاكرة. ومما ضـاعف أحزانه أنـه وجد المنازل خـالية من الرجـال الذين استشهدوا مع الإمام الحسين (ع)، ليس بها سوى نساء ثواكل وأطفال يتامى(٣٢١). إن ما حصل لآل رسول الله (ص) وصمة عـار في جبين الأمة الإسلامية لا يمكن أن يمحوهـا الزمان وعلي بن الحسين لقب بالسجـاد وزين العابدين لأنه قضى حيـاته بعد استشهاد أبيه في العبادة فأبوه الإمام الحسين وأُمه شاه زنان بنت يزدجرد لذا كان من ألقابه ابن الخيرتين وروي أن أبا الأسود الديلمي قال فيه: (٣٢٢).

وإن غـلامـاً بين كسرى وهـاشم ... لأكـرم من نيطـت عليـه التمائم

إن السيدة زينب بعد العودة من رحلة الشهادة والسبي إلى مدينة جدها واصلت نضـالها الإعلامي عن الثـورة الإستشهاديـة وشرح ممارسـات الأمويين مع آل رسـول الله(ص) خلال رحلة السبي من كربلاء إلى الكوفـة ومن الكوفة إلى الشام التي بالغ أهلها في الشماتة والبهجة بما حل بآل رسـول الله (ص) حيث عاصمة الحكم الأموي دمشق، وذلك بسرد الأحـداث في التجمعـات النسـائيـة التي كـانت تعقـد بـدور الهاشميين الخالية، وظلـت على هذه الحال، وفيَّة لتبليـغ رسالة الإستشهـاد، حتى قضت نحبها في المدينـة ودفنت في البقيع(٣٢٣)، بعد أن قامت بـدور طليعي لخدمة الدين.

١٢ ـ خاتمة :

لقد هاجر النبي محمد (ص) خائفاً من مكة إلى المدينة ليقيم دولة النبوة، كذلك كانت هجرة حفيده وسبطه الإمام الحسين خائفاً أثناء خروجه من مكة إلى كربلاء، ولكن خوفه ليس على نفسه وإنما خشية أن تهتك حرمات الله، فكانت هجرته إلى كربلاء من أجل تقويم الإعوجاج والإنحراف الذي حل بدولة جده نتيجة تسلط أعداء الرسول الذين حاربوا دولته بالأمس بكل جبروتهم. لقد تسللوا داخل دولة النبوَّة بعد استسلامهم في فتح مكة، حتى تمكنوا من تأسيس سلطنة قريش التي حققت ما عجزوا عن تحقيقه في العهد النبوي.

إن سلطنة قريش التي أسسها الطلقاء وأبناء الطلقاء في دمشق هي أول نظام للحكم الوراثي القبلي في الإسلام، وكانت البداية لتوجهات الحكم القطري وتمزيق أوصال دولة النبوَّة منذ صراع معاوية بن أبي سفيان مع الإمام علي بن أبي طالب حيث أخفى أطماعه في الملك خلف قميص عثمان الذي طالب بدمه دهاءً ومكراً. رجال سلطة الخلافة رفضوا أن تجتمع النبوَّة والخلافة في بيت النبي (ص) ولكن لم يعارضوا تأسيس سلطنة قريش في دمشق التي باركوا ومهدوا لإنشائها منذ عهد الخليفة الأول أبي بكر. آل رسول الله يقصون عن قيادة الأمة، وتكون القيادة لمن استسلم في فتح مكة. أئمة الهدى ومن سار على دربهم يطاردون بواسطة فراعنة الأمة من آل أمية وآل مروان وآل مخزوم، وحامي حمى الإسلام علي بن أبي طالب شتم وآله على منابر المسلمين مدة الحكم الأموي عدا فترة حكم العبد الصالح عمر بن عبد العزيز. وآل رسول الله (ص) وأنصارهم يبادون في كربلاء وتسبى وتسلب وتنهب نساؤهم وأطفالهم ويطاف بهم من بلد إلى بلد، فهل من العدل أن يحدث كل هذا في دولة النبوَّة والمسلمون بمسمع وبمنظر؟ أهكذا يكون جزاء رسول الله(ص) وحفظ عهده في ذريته؟ لا ليس من العدل أن يحدث كل هذا، ولكنه الإسلام السلطوي وليس النبوي إنه الإسلام المظهري وليس الإسلام الجوهري، إنه الإسلام الشكلي وليس الإسلام الحقيقي. إنه الملك، فمن أجل سلامته يرخص

الابن عند أبيه فيفنيه اذا نازعه فيه .

نعم لقد حوّلت سلطنة قريش من مقرّها في القصر الأخضر الإسلام إلى أفيون . أفرغته من مضمونه وطوّعته كوسيلة من سائل توطيد الحكم ، وما أكثرها . واتُّخِذَ ذلك الأسلوب سُنَّة في دولة النبوَّة عبر تعاقب العصور والأجيال .

الإمام الحسين (ع) وأنصاره جعلوا دماءهم درساً وأرواحهم قرباناً لتقويم الدين وتفجير عروش الظالمين ، فكانت تلك التضحية رسالة مقدسة لكل أمم الأرض لتتعلم كيفية مواجهة الظالمين والمستبدين . وزينب التي حملت رسالة التضحيةوالإستشهاد إلى العالم وبلغتها بأمانة الوصي على تلك الثورة الإستشهادية ، ووقفت بشموخ ثاكلة الولد والأخوان وكل الأهل تقض عروش الطواغيت في عقر دارهم في القصر الأبيض بالكوفة ، وفي القصر الأخضر بدمشق تقرعهم بكلمات بركانية بالفصاحة والبلاغة التي تعلمتها من سيد العرب والدها تبلغ أمم العالم عبر ابن زياد ويزيد كيف يجب أن يواجه الظالم . رسمت مع أخيها طريقاً لعشاق المبادىء التي شيَّد جدها عليها دولته وهي الحرية والحق والعدالة والمساواة . هذا بالإستشهاد في ملحمة كربلاء وهذه بالكلمة في رحلة السبي ، فخلدت محبتهما في قلوب السائرين على درب الأئمة وعشاق الحرية والفضيلة في كل زمان ومكان . إنها بحق نموذج فذ للمرأة الرسالية في دولة النبوة .

هوامش الفصل الثالث

(١) المجلسي: المرجع السابق، جـ٤١، ص٥٤ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه: ص ٣٩ـ٤٠؛ أيضاً ابن طولون: نوادر المخطوطات (الأئمة الإثني عشر) ص ٥١ .

(٤) المجلسي: نفس المرجع، ص ٢٦ .

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٥٧ .

(٦) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٢، جـ٩، ص ٤٩٥ .

(٧) نفسه: ص ٤٩٦ .

(٨) الأرشية: الحبال .

(٩) الطَّويّ: البئر المطوية بالحجارة .

(١٠) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١، ص ٧١ .

(١١) ابن حجر: المرجع السابق، جـ١، ص ١٥٢: أيضاً، الطبري: المرجع السابق، ص ٢٠ .

(١٢) البحراني: المرجع السابق، ص ١٥٩ .

(١٣) نفسه: ص ١٦١ـ١٦٢ .

(١٤) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٢٣؛ أيضاً الطبري: نفس المرجع، ص ٨٣ .

(١٥) المجلسي: نفس المرجع، جـ٤١، ص ١٤١؛ أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٢٦ـ١٢٧ .

(١٦) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٤، جـ١٧، ص ١٣٣ .

(١٧) المجلسي: نفس المرجع، جـ١، ص ١٤٠ـ١٤١ .

(١٨) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٢٢؛ أيضاً، الطبري: نفس المرجع، ص ٧٧ـ٧٩ .

(١٩) سورة الجن: ٢٧ .

(٢٠) البياضي: المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٧ .

(٢١) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٢، جـ١٠، ص ٥٦٨ .

(٢٢) المجلسي: نفس المرجع، جـ٤١، ص ١٤٦ .

(٢٣) نفسه .

(٢٤) البياضي: نفس المرجع، جـ٢. ص ٨٥ .

(٢٥) المجلسي: نفس المرجع، جـ٤١، ص ٦٩ .

(٢٦) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٢٢؛ أيضاً، الطبري: نفس المرجع، ص ٧٠ .

(٢٧) سورة النحل: ٨٣ .

(٢٨) المجلسي: نفس المرجع، جـ٣٧، ص ١٦٦ .

(٢٩) الجزائري: المرجع السابق، جـ١، ص ١١٤ .

(٣٠) المفيد: تصحيح إعتقاد الإمامية، ص ٢٢ .

(٣١) العاملي، بهاء الدين محمد: المرجع السابق، ص ١٦٩ .

(٣٢) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٢١؛ أيضاً، الطبري: نفس المرجع، ص ٦٣ـ٦٤ .

(٣٣) سورة النمل: ٦٠ـ٦٤ .

(٣٤) مناقب آل أبي طالب ، جـ ١ ، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥ ، عن المجلسي : نفس المرجع ، جـ ٤١ ، ص ١٧ ـ ١٨ .
(٣٥) نافجا حضنيه : إمتلأ بطنه طعاماً .
(٣٦) نثيلِهِ : روثِهِ .
(٣٧) يخضمون : يأكلون بنهم .
(٣٨) انتكث : انتقض .
(٣٩) أجهز عليه عملُه : قتله سوء صنيعه .
(٤٠) كبت به بطنته : أسقطه الإسراف في الشبع .
(٤١) ابن أبي الحديد : نفس المرجع ، مجلداً ، جـ ١ ، ص ٦٦ .
(٤٢) نفسه ، ص ٦٦ ـ ٦٧ ؛ مجلد ٢ ، جـ ١٠ ، ص ٥٣٧ .
(٤٣) الجزائري : نفس المرجع ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .
(٤٤) ابن أبي الحديد : نفس المرجع ، مجلد ٢ ، جـ ١ ، ص ٢١ .
(٤٥) الأمين : المرجع السابق ، مجلد ٧ ، جـ ٣٣ ، ص١٣٧ ؛ أيضاً ، الكاشي : مأساة الحسين بين السائل والمجيب ، ص ٢٤٩ .
(٤٦) الأمين : نفس المرجع ، مجلد ٧ ، جـ ٣٢ ، ص ١٣٦ ؛ أيضاً ، الطبري : نفس المرجع ، ص ١٦٧ .
(٤٧) الأمين : نفس المرجع ، مجلد ٧ ، جـ ٣٢ ، ص ١٣٦ .
(٤٨) ينثالون عليَّ : ينصبُّون عليَّ كإنصباب الماء .
(٤٩) إنشق عطفاي : إنشق جانباً ثوبي من كثرة إزدحام الناس .
(٥٠) ابن أبي الحديد : نفس المرجع ، مجلد ١ ، جـ ١ ، ص ٦٧ ؛ أيضاً ، الجزائري : نفس المرجع ، ص ١١٨ .
(٥١) الشرقاوي : علي إمام المتقين ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ، ١٣٩ ، ٢٤٠ .
(٥٢) نفسه : ص ٢٥ .
(٥٣) ابن أبي الحديد : نفس المرجع ، مجلد ١ ، جـ ١ ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٥٤) ابن حجر : نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٦٦ .
(٥٥) ابن أبي الحديد : نفس المرجع : مجلد ١ ، جـ ١ ، ص ٦٧ .
(٥٦) الشرقاوي : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٢٦٦ .
(٥٧) ابن طولون : نفس المرجع ، ص ٥٢ .
(٥٨) الشرقاوي : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٢٩٣ ؛ أيضاً ، جرداق : علي وحقوق الإنسان (الامام علي صوت العدالة الانسانية) ، جـ ١ ، ص ٧٧ .
(٥٩) الشرقاوي : نفسه .
(٦٠) جرداق : نفس المرجع ، ص ٧٧ .
(٦١) الشرقاوي : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٣٩ .
(٦٢) ابن أبي الحديد : نفس المرجع ، مجلد ٢ ، جـ ٩ ، ص ٤٦٦ .
(٦٣) نفسه ، مجلد ١ ، جـ ١ ، ص ٧٩ .
(٦٤) نفسه : مجلد ١ ، جـ ٤ ، ص ٣٤٧ .
(٦٥) نفسه : ص ٣٥٥ .

(٦٦) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ٢٦؛ أيضاً، ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ١، ج٤، ص ٣٦٤.

(٦٧) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٤، جـ١٧، ص ١١٩ ـ ١٥٨.

(٦٨) الشرقاوي: نفس المرجع، جـ٢، ص ٢٦٩.

(٦٩) نفسه: ص ٢٧٣.

(٧٠) نفسه: ص ٣٨٠.

(٧١) نفسه.

(٧٢) نفسه، ص ٣٤٤.

(٧٣) نفسه: ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٧٤) نفسه: ص ٩٦، ١٢٧.

(٧٥) نفسه: ص ٢٣٣.

(٧٦) نفسه: ص ٢٢٩ ـ ٢٣٤.

(٧٧) نفسه: ص ٧٨.

(٧٨) نفسه: ص ٢٣٣.

(٧٩) Gihàd and shahàdat, ed, Mehdi Abedi 8c Gary Legenhausen, PP.186 - 187.

(٨٠) ابن حجر: نفس المرجع، جـ٢، ص ٢٤.

(٨١) نفسه: ص ١٩.

(٨٢) نفسه، جـ١، ص ٩٩؛ أيضاً الشرقاوي: نفس المرجع، جـ٢، ص ٢٧٣.

(٨٣) الشرقاوي: نفسه، ص ٣٤٢.

(٨٤) سورة الإسراء: ٦٠.

(٨٥) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٢، جـ٩، ص ٤٦٦.

(٨٦) نفسه: ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧؛ أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع: جـ٢، ص ٥٣.

(٨٧) سورة القدر: ٣.

(٨٨) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، ص ٤٦٧.

(٨٩) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٨١، صححه الحاكم.

(٩٠) نفسه: صححه الحاكم.

(٩١) سورة الأحقاف: ١٧.

(٩٢) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٨١؛ أيضاً ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٢، جـ٦، ص ٥٥.

(٩٣) سورة البقرة: ١٧٩.

(٩٤) سورة الأحزاب: ١٠ ـ ١١.

(٩٥) الاصفهاني: بيان في خلافة النبي، ص ٩.

(٩٦) العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٢٨، أيضاً، ابن طولون: نفس المرجع، ص ٦٤ ـ ٦٥؛ أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٩٧) العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٢٨.

(٩٨) نفسه: ص ٣٠.
(٩٩) ملا علي، محمد: تكفير المكفرين، ص ١١.
(١٠٠) نفسه.
(١٠١) الشرقاوي: نفس المرجع، جـ١، ص ٣١٨ـ٣٢٠، جـ١، ص ١٢٧.
(١٠٢) مناظرة بين الغروي والهروي ومجادلتهما في أمر الخلافة حال إجتماعهما بمشهد الإمام الرضا بمدينة مشهد في إيران، ص ٦٠؛ أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٢٣.
(١٠٣) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ١، جـ٤، ص ٣٤٨.
(١٠٤) نفسه: ص ٣٥٥.
(١٠٥) ابن حجر: نفس المرجع، جـ٢، ص ٢٨.
(١٠٦) نفسه: ص ٦٣.
(١٠٧) العاملي: تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٠.
(١٠٨) الحلي: اللهوف على قتلى الطفوف، ص ١٥ـ١٦؛ أيضاً، الشيرازي: كلمة الإمام الحسن، ص ٢٥.
(١٠٩) العاملي: تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٠.
(١١٠) نفسه؛ أيضاً القرماني: أخبار الدول وآثار الأُول في التاريخ، ص ١٠٦.
(١١١) العاملي نفسه.
(١١٢) نفسه.
(١١٣) نفسه.
(١١٤) نفسه.
(١١٥) ابن طولون: نفس المرجع، ص ٧١، قال الترمذي: حديث حسن؛ أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٩٢.
(١١٦) Gihad and Shahàdat, P.174.
(١١٧) خالد: أبناء الرسول في كربلاء، ص ٩١ـ٩٣؛ أيضاً، العسكري: معالم المدرستين، المجلد الثالث، ص ٤٥.
(١١٨) العسكري: نفسه، ص ١٨.
(١١٩) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ٢٢١.
(١٢٠) نفسه: جـ٢، ص ٢٥.
(١٢١) نفسه: جـ١، ص ٢٢١.
(١٢٢) العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣١.
(١٢٣) العسكري: نفس المرجع، ص ٤٥؛ أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ١٣؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣؛ أيضاً، ابن قتيبة الدنيوري: الإمامة والسياسة، جـ١، ص ٢٢٤ـ٢٢٦.
(١٢٤) الحلي: نفس المرجع، ص ١٥؛ أيضاً العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٤٦؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ٩٥.
(١٢٥) يقصد الإمام الحسين بالفتح نُبوَّة محمد (ص) مؤسس دولة النُّبوَّة. أما الختم فهو بالإمام الحجة المنتظر محمد ابن الحسن الإمام الثاني عشر آخر أوصياء وخلفاء رسول الله (ص)، وهو ختام دولة النبوَّة.
(١٢٦) الحلي: نفس المرجع، ص ١٤؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٤٦.

(١٢٧) القرماني: نفس المرجع، ص ١٠٧؛ أيضاً ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٩٤؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٦ـ٤٤؛ أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ١٦ـ١٧.

(١٢٨) العسكري: نفس المرجع، ص ٤٧.

(١٢٩) نفسه: ص ٤٨.

(١٣٠) نفسه: ص ٥٠.

(١٣١) نفسه: أيضاً، الحلي، نفس المرجع، ص ١٨؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ٩٦.

(١٣٢) خالد: نفسه.

(١٣٣) العسكري: نفس المرجع، ص ٥١.

(١٣٤) سورة القصص: ٢١.

(١٣٥) العسكري: نفس المرجع، ص ٥١.

(١٣٦) سورة القصص: ٢٢.

(١٣٧) الحلي: نفس المرجع، ص ١٩؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي، نفس المرجع، ص ٣٣؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٢.

(١٣٨) الحلي: نفس المرجع، ص ٢١؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٢.

(١٣٩) المقصود بالشيعة هنا الموالون لأهل البيت النبوي.

(١٤٠) الحلي: نفس المرجع، ص ١٩ـ٢٠.

(١٤١) والي الكوفة منذ عهد معاوية، وهنا يوضح كاتبوا الرسالة مقاطعتهم للوالي الأموي، وتلك المقاطعة تعني عدم إعترافهم بسلطة الأمويين على الكوفة.

(١٤٢) الحلي: نفس المرجع، ص ٢٠ـ٢١؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٢.

(١٤٣) العسكري: نفسه.

(١٤٤) نفسه.

(١٤٥) نفسه.

(١٤٦) الحلي: نفس المرجع، ص ٢١ـ٢٢.

(١٤٧) نفسه.

(١٤٨) خالد: نفس المرجع، ص ١٠٦ ـ ١٠٧؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣ أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ٢٢، أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٣.

(١٤٩) الحلي: نفس المرجع، ص ٢٢.

(١٥٠) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٣ـ٥٤.

(١٥١) الحلي: نفس المرجع، ص ٢٢ ـ ٢٣؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٤؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٠٨.

(١٥٢) العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣ـ٣٤؛
أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ٢٩ـ٣٧؛
أيضاً العسكري: نفس المرجع، ص ٥٤ـ٥٥؛
أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١١٤ـ١١٥.

(١٥٣) الحلي: نفس المرجع، ص ٣٧_٣٨.

(١٥٤) نفسه: ص ٣٢_٣٣.

(١٥٥) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٥؛ أيضاً،

الحلي: نفس المرجع، ص ٣٨؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١١٩.

(١٥٦) خالد: نفسه، ص ١١٤_١١٥.

(١٥٧) الحلي: نفس المرجع، ص ٣٦.

(١٥٨) نفسه.

(١٥٩) نفسه، ص ٣٨؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٤.

(١٦٠) الحلي: نفسه، ص ٢٣_٢٧؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١١٠_١١١.

(١٦١) خالد: نفسه، ص ٩٦.

(١٦٢) نفسه، ص ١١٩؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٦.

(١٦٣) الحلي: نفس المرجع، ص ٤٠؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٢٤_١٢٥.

(١٦٤) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٦.

(١٦٥) سورة الصَّافات: ١٠٧.

(١٦٦) الجزائري: نفس المرجع، ص ١٣٥_١٣٦.

(١٦٧) نفسه.

(١٦٨) الحلي: نفس المرجع، ص ٤١.

(١٦٩) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٦_٥٨؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٢٠_١٢٤، أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ١٩، ٣٩_٤٠.

(١٧٠) الحلي: نفسه، ص ١٩.

(١٧١) نفسه، ص ٣٩_٤٠.

(١٧٢) نفسه، ص ٤٢؛ أيضاً، كامل الزيارة ص ٧٥ باب ٧٥، عن العسكري: نفس المرجع، ص ٥٨، ويذكر مصدر العسكري (كامل الزيارة) إن كتاب الإمام الحسين آل بني هاشم هو نفس النص ويختلف فقط في عنونته: «إلى محمد بن علي ومن قبله من بني هاشم. . .» كما يختلف في وقت إرساله عن الحلي. ففي حين ينص كامل الزيارة مصدر العسكري على إرساله قبل خروج الحسين من مكة إلى العراق بفترة، يذكر الحلي أنه تم إرساله خلال خروج الحسين من مكة.

(١٧٣) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٨_٥٩.

(١٧٤) الحلي: نفس المرجع، ص ٣٩.

(١٧٥) تاريخ الطبري ٦/ ١٩١، عن العسكري: نفس المرجع، ص ٥٢.

(١٧٦) البلاذري: أنساب الأشراف، القسم الرابع، جـ١، ص، ٢٩٩.

(١٧٧) كتاب عبد الله بن سبأ ج١، فصل إستلحاق زياد، عن العسكري: نفس المرجع، ص ٦٢.

(١٧٨) خالد: نفس المرجع، ص ١٢٦.

(١٧٩) الحلي: نفس المرجع، ص ٤٦_٤٧؛ أيضاً العسكري: نفس المرجع، ص ٦٤.

(١٨٠) العسكري: نفسه، ص ٦٢؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٢٦.

(١٨١) العسكري: نفسه؛ أيضاً، خالد: نفسه، ص ١٢٧.

(١٨٢) الحلي: نفس المرجع، ص ٤٥.

(١٨٣) نفسه، ص ٤٥ ـ ٤٦.

(١٨٤) نفسه، ص ٤٧ ـ ٤٨؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٦٥ ـ ٦٨ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

(١٨٥) الحلي: نفسه، ص ٤٨.

(١٨٦) الأمين: المرجع السابق، مجلد ١، جـ ٤، ص ٥٨١.

(١٨٧) الحلي: نفس المرجع، ص ٤٨ ـ ٥٠؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(١٨٨) الحلي: نفسه، ص ٥٠.

(١٨٩) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ٣٤.

(١٩٠) الحلي: نفسه، ص ٢٣.

(١٩١) خالد: نفس المرجع، ص ١٣٣.

(١٩٢) نفسه: أيضاً، الحلي: نفسه، ص ٥٠ ـ ٥١؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٦٩.

(١٩٣) الحلي: نفسه، ص ٥٠؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٣٣؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٦٩.

(١٩٤) الحلي: نفسه. ص ٥١؛ أيضاً، خالد: نفسه، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(١٩٥) العسكري: نفسه، ص ٧١ ـ ٧٢، أنظر ملحق ٦.

(١٩٦) الحلي: نفسه، ص ٥١ ـ ٥٢؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٧٢.

(١٩٧) الحلي: نفسه، ص ٥٢؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٧٢.

(١٩٨) العسكري: نفسه.

(١٩٩) نفسه: ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٢٠٠) نفسه، ص ٧٣.

(٢٠١) نفسه: ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٢٠٢) الحلي: نفس المرجع، ص ٥٢؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٧٧.

(٢٠٣) الحلي: نفسه، ص ٥٣.

(٢٠٤) العسكري: نفس المرجع، ص ٧٧؛ أيضاً ابن حجر: المرجع السابق، جـ ١، ص ١٩٣.

(٢٠٥) ابن حجر: نفسه، جـ ١، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٢٠٦) العسكري: نفسه، ص ٧٧؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٣٧؛ أيضاً، ابن حجر: نفسه، جـ ١، ص ١٩٣؛ أيضاً القرماني: المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٢٠٧) كامل الزيارة لإبن قولوية، ص ٧٥، باب ٢٣، عن العسكري، نفسه، ص ٧٧.

(٢٠٨) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ٣٤ ـ ٦٦؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٦٦.

(٢٠٩) العسكري: نفسه، ص ٨٣؛ أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ٥٦.

(٢١٠) خالد: نفسه، ص ١٥٠.

(٢١١) الكاشي: المرجع السابق، ص ٧٠ ـ ٧١.

(٢١٢) العاملي تاج الدين، نفس المصدر ص ٣٤.

(٢١٣) العسكري، نفس المرجع ص ٨٢؛ أيضاً خالد، نفس المرجع ص ١٤٤.

(٢١٤) أنظر ملحق ٦.

(٢١٥) أنظر ملحق ٧ .

(٢١٦) أنظر ملحق ٩ .

(٢١٧) الحلي: نفس المرجع، ص ٦٩ ـ ٧٠، أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(٢١٨) خالد: نفسه، ص ١٦٣ .

(٢١٩) أنظر ملحق ٨ .

(٢٢٠) الحلي: نفسه، ص ٦٠ ـ ٦٢؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٩٠ ـ ٩١، أيضاً، خالد. نفسه، ص ١٥٦ ـ ١٥٨ .

(٢٢١) الحلي: نفسه، ص ٦٢ .

(٢٢٢) نفسه، ص ٥٩ ؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٨٩ ؛ أيضاً، خالد: نفسه، ص ١٥٢ .

(٢٢٣) الحلي: نفسه، ص ٥٩ ؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٨٨ .

(٢٢٤) نفسه، ص ٥٣ ؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٩١ .

(٢٢٥) الحلي: نفسه، ص ٥٣ ـ ٥٤ ؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٩١ ـ ٩٢ .

(٢٢٦) نفسه، ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٢٢٧) سورة البقرة: ١٨ .

(٢٢٨) سورة البقرة: ٧ .

(٢٢٩) الحلي: نفس المرجع، ص ٦٧ .

(٢٣٠) نفسه .

(٢٣١) العاملي، تاج الدي بن علي: نفس المرجع، ص ٣٤ ـ ٣٥؛ أيضاً، الحلي: نفسه، ص ٨٠ ـ ٨١ .

(٢٣٢) الحلي: نفسه، ص ٨٩ .

(٢٣٣) نفسه؛ أيضاً، القرماني: المرجع السابق، ص ١٠٨ .

(٢٣٤) الحلي: نفسه، ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٢٣٥) نفسه، ص ٩٤ ؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٣٧ ؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٤٧ .

(٢٣٦) الحلي: نفسه، ص ٩١ ـ ٩٢ .

(٢٣٧) العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٢ .

(٢٣٨) مناظرة بين الغروي والهروي: ص ٦١ .

(٢٣٩) نفسه: ص ٦١ ـ ٦٢ .

(٢٤٠) نفسه: ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٢٤١) ابن قتيبة الدينوري: المرجع السابق، جـ ٢، ص ١٢ ؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٢٢ ـ ١٣٤ ؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٧٤ ـ ١٧٦ .

(٢٤٢) العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٣ .

(٢٤٣) الحلي: نفس المرجع، ص ٨٧ ـ ٨٨ .

(٢٤٤) العسكري: نفسه، ص ١٥٢ .

(٢٤٥) الكاشي: المرجع السابق، ص ١٥٦ .

(٢٤٦) نفسه، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(٢٤٧) الحلي: نفس المرجع، ص ٩٨ .

(٢٤٨) نفسه، ص ٩٩؛ أيضاً، ابن قتيبة الدينوري: نفس المرجع، جـ ٢، ص ١٢.
(٢٤٩) الكاشي: نفس المرجع، ص ١٥٦.
(٢٥٠) الحلي: نفس المرجع، ص ٩٩.
(٢٥١) نفسه: ص ٩٢.
(٢٥٢) الكاشي: نفس المرجع، ص ٧٠.
(٢٥٣) الحلي: نفس المرجع، ص ٩٩؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٣.
(٢٥٤) الحلي: نفسه، ص ١٠٠.
(٢٥٥) نفسه.
(٢٥٦) نفسه: ص ١٠١ ـ ١٠٢.
(٢٥٧) نفسه: ص ١٠٢ ـ ١٠٣.
(٢٥٨) أنظر ملحق ١٠.
(٢٥٩) أنظر ملحق ١١.
(٢٦٠) الحلي: نفس المرجع، ص ١٠٨.
(٢٦١) أنظر ملحق ١٢.
(٢٦٢) سورة التوبة: ٣٢.
(٢٦٣) سورة آل عمران: ١٦٩.
(٢٦٤) الحلي: نفس المرجع، ص ١١١ ـ ١١٢؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٨٦ ـ ١٨٧
(٢٦٥) سورة الزّمر: ٤٢.
(٢٦٦) الحلي: نفس المرجع، ص ١١٢؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٨٧ ـ ١٨٨.
(٢٦٧) الحلي: نفسه، ص ١١٢ ـ ١١٣.
(٢٦٨) نفسه: ص ١١٣.
(٢٦٩) نفسه.
(٢٧٠) نفسه: ص ١١٣ ـ ١١٤.
(٢٧١) نفسه: ص ١١٤.
(٢٧٢) نفسه: ص ١١٤ ـ ١١٧.
(٢٧٣) ابن حجر: المرجع السابق، جـ ١، ص ١٩٨؛ أيضاً الكبداني: المرجع السابق، ص ٣٤٢.
(٢٧٤) ابن حجر: نفسه.
(٢٧٥) نفسه: جـ ١، ص ١١٧؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٤.
(٢٧٦) الحلي: نفس المرجع، ص ١١٧؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٢٧٧) الحلي: نفسه، ص ١١٧ ـ ١١٨.
(٢٧٨) نفسه: ص ١١٨.
(٢٧٩) نفسه: أيضاً، العسكري: ؛ نفس المرجع، ص ١٥٤؛ أيضاً، القرّماني: المرجع السابق، ص ١٠٨.
(٢٨٠) سورة الشورى: ٢٣.
(٢٨١) الحلي: نفس المرجع، ص ١٢٠؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٥.
(٢٨٢) الحلي: نفسه، ص ١٢٠ — ١٢١؛ أيضاً، العسكري: نفسه.

(٢٨٣) العسكري: نفسه، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢٨٤) نفسه: ص ١٥٥.

(٢٨٥) الشرقاوي: المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٧.

(٢٨٦) نفسه: جـ٢، ص ٢٦٢.

(٢٨٧) الأمين: المرجع السابق، مجلد ٨، جـ٣٨، ص ٣٧٦.

(٢٨٨) نفسه.

(٢٨٩) ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد ١، جـ٢، ١١٩ ـ ١٢٠؛ أيضاً، الشرقاوي: نفس المرجع، جـ٢، ص ٣٢١.

(٢٩٠) الشرقاوي: نفسه، جـ٢، ص ٣٢٢.

(٢٩١) البلاذري: المرجع السابق، القسم الرابع، جـ١، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٨.

(٢٩٢) الكاشي: المرجع السابق، ص ١٥٥

(٢٩٣) نفسه.

(٢٩٤) الحلي: نفس المرجع، ص ١٢١.

(٢٩٥) مقتل الخوارزمي، جـ٢/ ٦٠ ـ ٦١، عن العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٦.

(٢٩٦) الحلي: نفس المرجع، ص ١٢١؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢٩٧) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٢٩٨) الحلي: نفسه، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢٩٩) نفسه، ص ١٢٣؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٨.

(٣٠٠) العسكري: نفسه.

(٣٠١) نفسه.

(٣٠٢) نفسه: ص ١٦٠؛ أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ١٢٤.

(٣٠٣) الحلي: نفسه؛ العسكري: نفسه.

(٣٠٤) الحلي: نفسه، ص ١٢٤ ـ ١٢٥؛ أيضاً. العسكري: نفسه، ص ١٦١.

(٣٠٥) الحلي: نفسه، ص ١٢٥ ـ ١٢٨.

(٣٠٦) نفسه: ص ١٢٨؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٦٤.

(٣٠٧) الحلي: نفسه.

(٣٠٨) نفسه: ص ١٢٩؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٣٠٩) نفسه.

(٣١٠) نفسه: ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٣١١) نفسه: ص ١٣٠.

(٣١٢) أنظر ملحق ١٣.

(٣١٣) الحلي: نفس المرجع، ص ١٣٠؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٦٦.

(٣١٤) الحلي: نفسه، ص ١٣٣ ـ ١٣٤؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٦٧.

(٣١٥) الحلي: نفسه، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٣١٦) العسكري: نفسه، ص ١٦٨.

(٣١٧) نفسه؛ أيضاً، الحلي: نفسه، ، ص ١٣٥_١٣٦.

(٣١٨) الحلي: نفسه، ص ١٣٦.

(٣١٩) أنظر ملحق ١٤.

(٣٢٠) الحلي: نفسه، ص ١٤٥.

(٣٢١) نفسه: ص ١٤٠.

(٣٢٢) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ٣٦_٣٧.

(٣٢٣) الأمين: المرجع السابق، مجلد ٧، جـ ٣٢، ص ١٤٠ ـ ليس غريباً أن يعفى قبر السيدة زينب الكبرى خوفاً من نبشه من قبل الامويين. ولها في أخفاء قبري والديها اسوة. فقد أخفي قبر امها السيدة فاطمة الزهراء وما يزال حتى الآن مجهولاً لدى الكثير من المسلمين ويستدل على مكانه يقول رسول الله (ص): «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة». ويعتقد أتباع مدرسة الامامة ان هذا المكان يضم قبر السيدة فاطمة الزهراء (ع).

أما قبر السيدة زينب الموجود في قرية راويه على نحو فرسخ من دمشق والذي يسمى مشهد الست فهو قبر السيدة زينب الصغرى المكناة بام كلثوم، بينما قبر السيدة الموجود في القاهرة فيخص السيدة زينب بنت يحيى المتوج بن الحسن الانور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط بن علي بن ابي طالب (ع).

الفصل الرابع

نماذج من نضال المرأة الرسالية في دولة النبوّة

١ ـ سُميَّة بنت خباط (أم عمار بن ياسر)

٢ ـ أسماء بنت عميس.

٣ ـ بطلات أحد:

أ ـ نسيبة بنت كعب (أم عمارة)

ب ـ هند بنت عمرو بن حزام.

جـ ـ السمداء بنت قيس.

٤ ـ أسماء بنت يزيد بن السكن (أم سلمة).

٥ ـ تُماضر بنت عمرو (الخنساء)

٦ ـ سودة بنت عمارة الهمدانية (أم الخير).

٧ ـ فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية (أم البنين).

٨ ـ آمنة بنت السيد حيدر الصدر (بنت الهدى).

١ ـ سميَّة بنت خبَّاط (أم عمّار بن ياسر)

إن التاريخ الإسلامي حافل بالمناضلين والمناضلات الذين قدموا أرواحهم فداء للعقيدة والمبدأ فكـانوا خير معين للأجيال، وكان إستشهادهم خير حـافز للاحقين من أبناء الأمة من ناحية، ودعامة لتثبيت أركان الدين ونشره من ناحية أخرى.

يـاسر وزوجتـه سميـه وابنهما عمار أسرة نموذجيـة لـلإستشهـاد، من السـابقين والمؤمنين برسـالة النبي محمـد (ص)، تعلقوا بـالدين حتـى الثمالة، لذلـك عشقوا الشهادة. ياسر بن عامر بن كنـانة بن قيس العفسي المذحجي هو والد عمار، عربي قحطاني من عنس في مـذحج باليمن. قدم مكة مع أخويـن له هما مالك والحارث في طلب أخ لهم رابع، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكة. فحالف أبا حذيفة بن المغيرة ابـن عبد الله بن عمر بن مخزوم. فزوجه أبو حـذيفة أمة يقال لها سميَّة بنت خباط، فأولـدها عماراً، فأعتقه أبو حذيفة فمن هنـا كان عمار مولى بني مخزوم[١].

أسلم يـاسر وزوجتـه وابنهما سرّاً، ثم جـاهـروا بإسـلامهم، ولم يكن لهم من يحميهم، فعـذبهم مشركـو قـريش، بأن البسـوهم دراع الحديد، وكـانـوا يتركـونهم بالشمس، وحينما يحمى الحديد من حرارة الشمس تشتعل أجسامهم ناراً[٢].

وحينما سُئل ابن عباس عن تعذيب آل ياسر قال: «كان رسول الله (ص) في أول الدعوة يمر بعمار وأمـه سمية وأبيه ياسر وهم يعذبـون في رمضاء مكة فيقول: (صبراً آل يـاسر، موعـدكم (الجنـة!) وكان المشركـون يبلغـون من المسلمين في العذاب مـا

يعذرون به عل ترك دينهم! إن كانوا ليضربون أحـدهـم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستـوي جالساً، من شدة الضر الـذي به حتى أنه ليعطيهم مـا سألوه من الفتنة، وحتى يقولوا له: اللات والعزى الهك من دون الله! فيقول: نعم»[٣].

كان ياسر وزوجته سمية وابنهما عمار يتعرضون للتعذيب بشكل مستمر ويطلب منهم المشركـون الـذين يمارسـون أعمال التعذيب الـوحشيـة معهم وعلى رأسهم أبـو جهل، البراءة من محمـد (ص) ودينه، ولكنهـم يـواجهونهم بـالإصرار على التمسك بعقيدتهم مستلهمين في ذلـك صبر النبي (ص) وتحمله إيذاء قـريش، ومستلهمين صبر عضيـدته السيـدة خـديجة وتضحياتها بكل مـا تملك من أجل نصرة الـدين، وتثبيت أركانه.

وقـد بلغ التعذيب من عمار مبلغـه ذات مـرة حتى أنه استسلم لما يـريد عـدوُّه، حيث سبَّ النبي (ص) وذكـر آلهتهم بخير، ثـم تـركـوه. فأتى إلى الـرسـول (ص) باكياً. فسأله الرسول قائلاً: «مـا وراءك؟» قال: «شرٌّ يا رسول الله، ما تركوني حتى نلتُ منك، وذكرت آلهتهم بخير». قال الـرسول (ص): «كيف تجدُ قلبك؟» قال: «مطمئناً بالإيمان» قـال: «فإن عادوا لك فعدلهم»[٤]. فنزلت هذه الآية: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾[٥].

رأى عمار بعينيـه تعذيب والـديه، اللـذين لم يقبلا المسـاومة على دينهما، فكـان لصبرهما أثـر عميق في نفسـه حيث تعمق إيمـانـه، وصـار مـوضع إفتخـار لـرسـول الله(ص) يبـاهي به أصحـابـه، في مـواقف عديـدة. لأنـه تـربية أول شهيـدين في الإسلام. عُذبـا حتى إستشهدا دون أن تضعف نفسيهماويستسلما لإرادة المشركين. لذلـك أقدم أبو جهـل على ضرب سمية بحـربة في قلبها فقضـت نحبها في الحال. فكانت أول الشهداء، كما استشهد زوجها أيضاً في التعذيب[٦]. أنهما أول المتقدمين في قافلة شهداء دين الإسلام. ، لقد صـار ثباتهما على العقيدة والمبدأ نموذجاً يحتذى به في دولة النبوَّة.

إلتحق عمار بـالمهاجـرين إلى أرض الحبشـة فراراً بعقيـدتـه فهـو من المهاجـرين الأولين، وبعدها إلى المدينة. شهد بدراً وجميع الغزوات ودافع ببسالة عن الإسلام.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾[٧] إنه عمار بن ياسر ﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾[٨] «إنه أبو جهل بن هشام»[٩]. وقال ابن عباس أيضاً: قال رسول الله (ص): «أن عماراً مليء إيماناً إلى مشاشه»[١٠]. وقيل: «إلى أخمص قدميه»[١١].

وروى أبو عمرو من حديث علي بن أبي طالب (ع) أن عماراً جاء يستأذن على رسول الله (ص) يوماً فعرف صوته فقال: «مرحبا بالطيب المطيب - يعني عماراً - ائذنوا له»[١٢].

وروى الأعمش عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «شهدنا مع علي (ع) صفين فرأيتُ عمار بن ياسر لا يأخذُ في ناحية ولا واد من أودية صفين إلا رأيت أصحاب محمد (ص) يتبعونه كأنه علم لهم وسمعته يقول يومئذٍ لهاشم بن عتبة: «يا هاشم تقدم الجنة تحت البارقة.

اليوم ألقى الأحبة ... محمداً وحزبه

والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر[١٣] لعلمت أنَّا على الحق وأنهم على الباطل ثم قال[١٤]:

نحن ضربناكم على تنزيله ... فاليوم نضربكم على تأويله

ضرباً يزيلُ الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

أو يرجع الحق على سبيله

وبعدها استشهد على أيدي رجال معاوية وبذلك صدقت نبوءة الرسول في مقتله بقوله (ص): «تقتل عمارا الفئة الباغية» ثم قطع رأسه وأهدى لمعاوية[١٥]، فكان أول رأس يُهدى لمعاوية خلال محاولاته تأسيس حكم وراثي قبلي في دولة النبوّة والقضاء على خلافة علي (ع) بحد السيف.

وعندما علم الإمام علي (ع) باستشهاد عمار، بكاه وصلى عليه، وأمر بدفنه حيث استشهد[١٦].

وقال فيه الإمام علي عند استشهاده: «إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل

عمار بن ياسر ويدخل عليه المصيبة لغير رشيد، رحم الله عماراً يوم أسلم، ورحم الله عمارا يوم قتل ورحم الله عمارا يوم يبعث حياً. لقد رأيتُ عماراً وما يذكر من أصحاب رسول الله (ص) أربعة إلا كان رابعاً ولا خمسة إلا كان خامساً»[١٧].

نعم عمار أسلم ثم هدى الله على يديه أبويه وأخاه عبد الله الذين أسلموا بعده[١٨]. هاجر الهجرتين وصلى القبلتين.

وشهد بدراً وأحداً وبيعة الرضوان وجميع الغزوات والمشاهد مع رسول الله (ص)، وأبلى بلاءً حسناً. وكان من المبرزين في الجيش الذي استمات من أجل نصرة الحق. واستمر بعد وفاة الرسول (ص) يعمل على رفع راية الاسلام ونشر مبادئه[١٩].

وحينما ثار مسيلمة الكذاب باليمامة، كان عمار أحد رجال ذلك اليوم البارزين الذي انتصر فيه المسلمون على المرتدين. روى الواقدي عن عبد الله بن عمر قال: «رأيتُ عماراً يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف عليها يصيح: يا معشر المسلمين أمن الجنة تفرون أنا عمار بن ياسر، هلمّوا اليَّ، وأنا أنظر إلى أُذنه قد قطعت فهي تذبذب[كذا] وهو يقاتل أشد القتال»[٢٠].

عذبته قريش مع والديه حينما كانت تحت زعامة أبي سفيان حيث لوحظت آثار النار على ظهر عمار حتى أواخر حياته. وقتل عمار على أيدي رجال معاوية بن أبي سفيان. إنه استمرار لصراع الحق مع الباطل. كان عُمر عمار عند استشهاده أربع وتسعين سنة[٢١]، وما بكاء الامام علي (ع) على عمار ورثائه بتلك الكلمات البليغة إلا دليل مكانته العظيمة في الاسلام. لقد كان أحد صفوة رجاله القلائل الذين نذروا حياتهم لخدمة العقيدة. انه سليل سميَّة وياسر.

٢ ـ أسماء بنت عميس

إحدى نساء دولة النبوَّة الفاضلات ومن أوائل السابقات إلى الإسلام، حيث أسلمت قبل دخول الرسول (ص) دار الأرقم بمكة[٢٢]. وهي بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم. أمها خولة بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة بن حرش[٢٣]. زوجها جعفر بن أبي طالب (الطيار) من السابقين إلى الإسلام أيضاً. وهي إحدى النساء العشر اللواتي سماهنَّ الرسول (ص) الأخوات

المؤمنات[٢٤]. قيل فيها أنها أكرم الناس أصهاراً، فمن أصهارها النبي (ص) لأنه زوج أختها ميمونة لأمها، وحمزة بن عبد المطلب زوج أختها سلمى، والعباس بن عبد المطلب زوج أختها لبابة أم الفضل[٢٥].

وحينما إزداد تعذيب مشركي قريش للمسلمين ووجد النبي (ص) نفسه عاجزاً عن حمايتهم نصحهم بالهجرة إلى الحبشة لشهرة ملكها النجاشي بالعدل. فكانوا أحد عشر رجلاً وقيل عشرة مع أربع نساء برئاسة عثمان بن مضعون وكان ذلك في رجب السنة الخامسة للبعثة النبوية الشريفة، وكانت وسيلة نقلهم سفينتين تجاريتين، حيث مكثوا شعبان ورمضان بالحبشة وعادوا إلى مكة في شوال لسماعهم نبأ إسلام قريش[٢٦]. وحين اكتشف المهاجرون الأوائل عدم صحة تلك الأنباء وإزداد تعذيب المشركين لهم أمرهم الرسول (ص) بالهجرة مرة أخرى إلى الحبشة وكانوا خمسة وسبعين رجلاً وقيل ثمانين ومعهم اثنتا عشرة امرأة وقيل ثمانـي عشرة بينهم أسماء بنت عميس وزوجها جعفر بن أبي طالب المتحدث باسمهم بأمر من النبي (ص)[٢٧].

وعاش المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة بعيداً عن الوطن فراراً من أذى قريش حيث وجدوا الدعم والعون من ملكها النجاشي على الرغم من محاولة قريش تحريضه لطردهم فباءت مكيدتهم بالفشل. وكانت قريش قد انتدبت عمرو بن العاص لهذه المهمة وحملته بالهدايا حيث رافقه عمارة بن الوليد بن المغيرة[٢٨]. ويظهر من حركة قريش تلك أنهم كانوا يحاولون أن يضيقوا الخناق على المسلمين داخل وطنهم وخارجه. ولكن الله نصر نبيه والمؤمنين به. فقد أُعجب النجاشي ببراعة جعفر وقدرته على الحجة والبرهان باستخدام الآيات القرآنية ولم يُؤمرهُ الرسول (ص) على وفد المهاجرين المسلمين إلا لمعرفته بالحنكة وفقهه في الدين. ولذلك أعاد النجاشي هدايا قريش إلى وفدهم[٢٩]. كما كان لإعجاب النجاشي بفصاحة وحجة جعفر في الحوار ودرايته بالدين أثر كبير في استجابته لدعوة الرسول (ص) باعتناقه الاسلام حينما سلمه عمرو بن أمية الضميري كتاب الرسول (ص) بهذا الخصوص[٣٠]. كما كتب الرسول (ص) إلى النجاشي بعد ذلك أن يزوجه رملة بنت أبي سفيان التي كانت قد أسلمت وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش ــ أخو السيدة زينب بنت جحش زوجة الرسول (ص) ــ الذي إرتدَّ عن

الاسلام وتنصر في الحبشة بعد أن ولدت رملة له بنتاً تدعى حبيبة فكنيت بأم حبيبة(٣١).

وحينما أبلغها النجاشي كتاب رسول الله (ص) وافقت فوكلت خالد بن سعيد أبن العاص بن أمية ليزوجها. فحضر مهاجروا الحبشة من المسلمين مجلس العقد، ودفع النجاشيُ المهر عن رسول الله (ص) وأقام لهم وليمة احتفاء بالمناسبة، كما أرسل نساؤه الطرف والهدايا من طيب وغيره إلى زوجة الرسول (ص) المهاجرة أم حبيبة(٣٢).

نعم، مكثت أسماء بنت عميس مع زوجها جعفر في رعاية المسلمين المهاجرين بالحبشة بعيداً عن أهلهم وديارهم حوالي خمسة عشر عاماً من العام الخامس للبعثة إلى العام السابع للهجرة. وهناك ولدت أسماء لجعفر ثلاثة أولاد هم عبد الله ومحمد وعون. وقدم جعفر وزوجته أسماء وأولاده إلى المدينة وهي الهجرة الثانية، وجميع من معه من المسلمين وكان يوم وصولهم يوم فتح خيبر في السنة السابعة للهجرة. فعانقه النبي (ص) عند قدومه وقال: «ما أدري بأيّها أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»(٣٣). وقيل أن جعفر كان أشبه الناس خلقاً وخلقاً برسول الله (ص)(٣٤). وكان كريماً وجواداً يحب أن يصل المساكين حتى سماه الرسول (ص) أبا المساكين(٣٥).

قُتل جعفر شهيداً في غزوة مؤتة عند الكرك. وكانت في جمادي الأولى سنة ٧ هـ، وهو أول قتيل من الطالبين في دولة النبوَّة حيث كان أميراً على جيش المسلمين، وقتل معه أيضاً في المعركة زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة واحد بعد الآخر وهما اللذان توليا أمرة الجيش من بعده، فرزيء النبيُ والمسلمون بفقدهم. وقد استبسل جعفر في الدفاع عن الاسلام في تلك المعركة، فقد قطعت يداه وبلغت جراحه حسبما روي في مقدم جسمه ما يزيد على تسعين جرحاً(٣٦).

أما موقف أسماء حينما وردها خبر استشهاد جعفر فقد روي أنها قالت: «أصبحتُ في اليوم الذي أُصيب فيه جعفر وأصحابه فأتاني رسول الله (ص) ولقد هنأتُ يعني دبغتُ أربعين أهاباً من أدم وعجنت عجيني وأخذت بنيَّ، فغسلتُ وجوههم ودهنتهم، فدخل عليَّ رسول الله (ص) فقال: (يا أسماء أين بنو جعفر؟ فجئت بهم إليه فضمهم وشمهم، ثم ذرفت عيناه فبكى، فقلت: أي رسول الله لعله بلغك عن جعفر شيء؟ قال: نعم: قتل اليوم. فقمتُ أصيح فاجتمع إليَّ

النسـاء، فجعل رسـول الله (ص) يقـول: يـا أسماء! لا تقـولي هجـراً، ولا تضربي صدراً. ودخل على ابنته فاطمـة وهي تقول: واعماه، فقال (ص): على مثل جعفر فلتبك الباكية). ثم قال اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم[٣٧] كما بشرها الـرسول بكرامة جعفـر عند الله وأنه جعل له جنـاحين يطير بهما في الجنة، وقد أخبر الـرسول المسلمين، بتلك المكرمة الإلهيـة لجعفر[٣٨] وعاشت أسماء حزينة على فقد جعفر، ثم تزوجها أبو بكر فولدت له محمد بن أبي بكر، وبعد وفاته تزوجها علي بن أبي طالب وكـان سن محمد بن أبي بكـر عند وفاة أبيـه نحو ثـلاث سنوات، فربـاه علي بن أبي طالب، فكان ربيبه وخـرِّيج حجره ومدرسته وفي مكـانة أولاده. تعلق محمـد بن أبي بكر بـالإمام علي فلم يكن يعـرف له أبـا سواه، ولا يعتقـد لأحد فضيلة غيره، حتى قال الإمـام علي (ع): «محمد ابني من صلب أبي بكر»[٣٩]. وقد ولدت أسماء لعلي يحيى وعوناً[٤٠].

وكـانت لأسماء بنت عميس منـزلـة عنـد رسول الله (ص) لسبقهـا إلى الاسـلام وصبرهـا على النأى عن الـوطن، وتحمـل آلام الغـربـة في سبيل الله وتعلقهـا بحب الرسول وآله إلى جانب وشائج المصاهـرة فهي زوجةُ ابن عمه جعفر الذي يعتبر ثاني المصلين خلف الرسـول (ص) بعد الإمام علي (ع) من الرجال، وكـانت خديجة(ع) ثالثتهما[٤١]. فقد رُوي أن أبـا طالـب مرَّ على رسـول الله (ص) وهو يصلي وعلي إلى جانبه وخديجة خلفـه، فقال لإبنه جعفر الذي كان بـرفقته صل جناح ابن عمك، فـوقـف على يسـار رسـول الله (ص) وصلى. وانصرف أبــو طـالـب مسروراً وهـو يقول[٤٢].

إن عليـــــاً وجعفـــــرا ثقتـي	عنـد ملم الـزمـان والكـرب
والله لا أخـــــــذل النبـي ولا	يخذلـــــه مـن بني ذو حسـب
لا تخذلا وانصرا ابــــن عمكما	أخــي لأمـي مــن بينهـم وأبي

وحفظ رسول الله (ص) لأسماء منزلتها عن طـريق الإشادة بتضحياتها في مواقف عديدة. روى البخاري عن أبي موسى قال: «بلغنا مخرج النبي (ص) ونحنُ باليمن فخرجنـا مهاجرين إليـه أنا وإخوان لي أنـا أصغرهم، أحـدهما ابو بُردة والآخـر ابو

زُهم، في ثـلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجـلاً من قـومي. فركبنـا سفينـة فالقتنـا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشـة فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا معـه حتى قدمنا جميعاً، فـوافقنا النبي (ص) حين افتتح خيبر. وكـان أناس من النـاس يقولـون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ سبقناكم بالهجرة. ودخلت أسماء بنت عميس، وهي ممن قدم معنا على حفصة زوج النبي (ص) زائرة، وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر. فدخـل عمر على حفصـة وأسماء عندها، فقـال عمر حين رأى أسماء: مـن هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال عمر: الحبشية هذه، البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قـال: سبقنـاكم بـالهجـرة فنحـن أحق بـرسـول الله (ص) منكم. فغضبت وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله (ص) يطعمُ جائعكم، ويعظِ جاهلكم، وكنّا في دار أونى دار البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسول الله (ص) ونحن كنا نُؤذى ونخاف، وسأذكـر ذلك للنبي (ص) وأسأله، والله لا أكذبُ ولا أزيغُ ولا أزيدُ عليـه. فلما جاء النبي (ص) قـالت: «يا نبي الله إن عُمـرَ قال: كـذا وكذا، وقلتُ له كذا وكذا. قال: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان».

قالت: فلقد رأيتُ أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالا يسألوني عن هذا الحديث، ومـا مـن الـدنيـا شيء هم بــه أفـرح ولا أعظم في أنفسهم ممـا قـال لهم النبي(ص). قال أبـو بردة، قالت أسماء: فلقد رأيـت أبا موسى وانه ليستعيـدُ هذا الحديث مني»(٤٣) هكذا كان يجلُّ الرسول (ص) قدر المسلمين المناضلين والمضحين في سبيل الدين ولا فـرق في ذلك عنده بين ذكـور وإناث، بمثل تلك المعـاملة ربى رجال ونساء دولة النبوّة. فكانوا خير نموذج للأجيال اللاحقة عبر تعاقب العصور.

إزداد تعلق أسماء وشدة حبها لأهل بيت رسول الله بعد وفاته (ص) ولازمت بيت فاطمـة الزهـراء لخدمتها خصوصـاً في مرضها. وقـد ورد ذكر النعش الـذي صنعته لفاطمة الزهراء قرب موتها في الفصل الثاني، والذي يعتبر إحدى حصائل خبراتها في الحبشة من ناحية، كما يدل ذلك الخبر على ملازمة أسماء خدمة فاطمة الزهراء لحبها لها وتعبيراً عن ولائها لآل رسول الله (ص) والتزامـاً بحفظ رسول الله (ص) في ذريته

وفقاً لـوصيته لـلأمة. كما ورد في الفصـل الثاني أيضـاً مشاركتهـا الامام علي (ع) في تغسيل فاطمة بعد وفاتها[٤٤]. وان دلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على الثقة التي نالتها أسماء عند البيت النبـوي وصدق ولائها لهم طمعـاً في مرضـاة الله. كما أن إقدام كل من أبي بكـر وبعده الامـام علي (ع) على الزواج منها يعكـس مكانتهـا العاليـة عند المسلمين لأنها هـاجرت الهجـرتين وصلت القبلتين. وأنجبت من أزواجهـا الثلاثـة وكل بنيهـا تربـوا تحت رعايتهـا لم تقنط في حق أحـد منهم. ويقال أنها لما بلغهـا نبأ استشهـاد إبنهـا محمـد بن أبي بكـر بمصر قـامت إلى مسجـد بيتهـا وكظمت حتى شخبت ثدياها دماً[٤٥].

ولا شك أن قِـدَمَ إسـلامها ومـا تحملتـه من معانـاة الاغتراب في سبيل عقيـدتها وفجيعتها باستشهاد زوجها جعفـر في ربيع شبابه إذ لم يبلغ الأربعين عاماً، وعشرتها الإمـام علي آخـر أزواجهـا كل ذلـك صقل شخصيتهـا وعمَّق إيمانها وانعكس على سلوكها في مواجهة المصائب، حيث أن ولاءهـا لأهل البيت قولاً وفعلاً جعلها تلتزم سيرتهم وتتخذهم أسوة في مواجهة محن الزمان.

وكما استشهد ابنها محمد بن أبي بكر لثباته على الولاء المطلق لأهل البيت، كذلك استشهد حفيـداها محمـد وعون ولـدا ابنها عبـد الله بن جعفر، في ملحمـة الشهادة بكربـلاء دفاعاً عن الحق والـدين والأمة. أما على الصعيـد العلمي فقد روت أسماء الحديث عن النبي (ص)[٤٦].

كانت سيرة أسماء بنت عميـس نموذجاً للمـرأة الرساليـة التي تضحي من أجل عقيـدتها وتلتـزم بأخلاقيـات تلك العقيـدة في القـول والفعل وضحت بـالنأى عن الوطن مـن أجل سلامة تلك العقيـدة. وكانت حيـاتها نموذجـاً للمسلمة الملتـزمة بشرائع دينها، ونمـوذجاً للـزوجة الصـالحة، ونموذجاً فـذاً للأم المتفـانية في رعـاية أولادها.

ولتلك السيرة العطـرة حق لها أن تكـون قـدوة لنسـاء دولـة النبـوَّة. فهي زوجـة الشهيد الطيار وجدة الشهيدين محمد وعون. إنه عطاء الإيمان العظيم لإمرأة رسالية عظيمة.

٣ ـ بطلات أحد

أولاً: نسيبة أم عمارة

ثانياً: هند بنت عمرو بن حزام

ثالثاً: السمداء بنت قيس

إن تـاريخ دولة النبـوَّة حافل بنماذج متعـددة من الشخصيات النسـائية الـلاتي أعطين للدين والأمة الكثير مـن حياتهن وقدمن النموذج الأمثل لأجيـال دولة النبوَّة المتعاقبـة. كان حافزهن في ذلك المبـادىء التي قامت عليها دولة النبـوَّة والمتمثلة في الحق والعدل والمسـاواة والحرية، التي تعتبر خلاصـة للقيم الحضارية التي عـرفتها البشرية من جانب وتضحيات النساء السـابقات إلى الإسلام بكل شيء، وتساميهن على بهارج الحياة الدنيوية أو بمعنى آخر على الماديات من جانب آخر.

فالسيـدة خديجة ضحت بكل مـا تملك وهي سعيدة بـذلك من أجل أن تنتصر مبـادىء الدين الـذي جاء بـه زوجهـا محمد (ص). وسميَّـة وزوجها يـاسر قدمـا أرواحهما قرابين من أجل انتصار نفس المبـادىء، وغيرهن من السابقات إلى الاسلام نأين عن الأهل والأحبة والوطن وتحملن الكثير من الآلام في أرض الهجـرة بالحبشة، مثل أسماء بنت عميس ورملة بنت أبي سفيـان وغيرهن من أجل مسانـدة الحق ضد الباطل، وحتى تبقى كلمة الله هي العليا. إنه الـذوبان في العقيدة، إنه الذوبان في ذات الله بعمق الإيمان. ولقد سجلت المرأة المؤمنة المتعـالية على بهارج الحياة وزينتها مـواقف خالـدة خلال أشـد المعارك ضراوة. وكـانت معركـة أحد واحـدة من أهم المعارك الحاسمـة في الصراع من أجل البقاء بين حـزب الشيطان الذي مثلتـه قريش وحزب الله الـذي مثله النبي محمد وأتبـاعه من المسلمين، حيث تعرضت فيـه حياة الـرسول (ص) للخطـر وفرَّ العـديد من المسلمين من جبهـة القتال نتيجـة لضعف إيمانهم وقد بـرزت في هذه المعركة بطـولة ثلاث شخصيات نسـائية يستحق أن يقف عندهـا التاريخ والمؤرخـون لتسجيل هذه المواقف الفـذة، لتتخذ منهـا المرأة في دولة النبوَّة العبرة والقدوة والتباهي بمواقفهن بين نساء العالم. بل والتحدث عنهن بإعزاز وفخار. خـاصة بـالنسبة للذين يجهلـون المبادىء الحقيقيـة التي أسس محمد (ص)

عليها دينه ودولته. ومما يؤسف له أن هذا الجهل لا يقتصر على غير المسلمين، وإنما يشمل بعض المسلمين بالهوية الذين ينظرون للمرأة نظرة ترفضها حتى الأديان غير السماوية.

فكيف لا يرفض مثل تلك النظرة الدين الذي جاء خلاصة لتلك الحضارات التي عرفتها البشرية.

فعلى الرغم من فرار الكثير من المقاتلين المسلمين من معركة أحد إلا أن رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات صمدوا ونذروا أرواحهم فداء لله. فعن أنس بن مالك أنه أُتي رسول الله (ص) بعلي وعليه نيف وستون جراحة. قال أبان: أمر النبي (ص) أم سليم وأم عطية أن تداوياه فقالتا؛ قد خفنا عليه، فدخل النبي (ص) والمسلمون يعودونه ـ بعد انتهاء المعركة ـ وهو قرحة واحدة، فجعل النبي (ص) يمسحه بيده ويقول: «إن رجلاً لقى هذا في الله لقد أبلى، وأعذر، فكان يلتئم، فقال علي: «الحمد لله الذي جعلني لم أفر ولم أولي الدبر» فشكر الله تعالى له ذلك في موضعين من القرآن(٤٧)، وهو قوله تعالى: ﴿سيجزي الله الشاكرين﴾(٤٨). ﴿وسنجزي الشاكرين﴾(٤٩).

أما هؤلاء النساء الثلاث اللاتي برزت بطولتهن في أحد فهنَّ:

أولاً: نسيبة أم عمارة:

لم يقتصر دور المرأة خلال المشاركة في الحروب في العهد الأول لدولة النبوَّة على توصيل الماء والطعام ومداواة الجرحى، ولكن لعبن أدواراً أكثر فاعلية وأكثر شجاعة وكما برزت بطولات رجالية في معركة أحد كذلك برزت بطولات نسائية. فقد نقل ابن أبي الحديد عن الواقدي قوله: «كانت نسيبة بنت كعب أم عمارة بن غزية بن عمرو قد شهدت أحداً وزوجها غزية وابناها عمارة بن غزية وعبد الله بن زيد. وخرجت ومعها شن لها في أول النهار تريد أن تسقي الجرحى، فقاتلت يومئذ وأبليت بلاء حسناً فجُرحت اثنى عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف. فكانت أم سعد بنت سعد بن الربيع تحدث فتقول دخلتُ عليها فقلت لها يا خالة: (حدثيني خبرك فقالت: خرجتُ أول النهار إلى أُحد وأنا أنظر ما يصنعُ الناس ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيتُ إلى رسول الله (ص) وهو في الصحابة والدولة [كذا] والريح للمسلمين،

فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله (ص) فجعلتُ أباشرُ القتال وأذبُّ عن رسول الله(ص) بالسيف وأرمي بالقوس حتى خلصت إلى الجراح. فرأيتُ على عاتقها جرحاً أجوف له غور. فقلتُ: يا أُمَّ عمارة! من أصابك بهذا؟ قالت: أقبل ابن قميئة، وقد ولّى الناس عن رسول الله (ص) يصيح دلوني على محمد لا نجوتُ إن نجى. فاعترض له مصعب بن عمير وناس معه، فكنتُ فيهم، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكنه عدو الله كان عليه درعان»(٥٠).

وعن استبسال أم عمارة في قتال المشركين في أحد وتشجيعها أبناءها، روى الواقدي عن عبد الله بن زيد المازني قال: جرحت يومئذٍ جُرحاً في عضدي اليسرى، ضربني رجل كأنه الأقل ولم يعرج علي ومضى عني وجعل الدم لا يرقأ. فقال رسول الله(ص) اعصب جرحك، فتُقبل أمي إليَّ ومعها عصائب في حقويها قد أعدتها للجراح، فربطت جرحي والنبي (ص) واقف ينظر، ثم قالت: انهض يا بني فقاتل القوم، فجعل رسول الله (ص) يقول: «ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟» قالت وأقبل الرجل الذي ضربني، فقال رسول الله (ص) هذا ضارب إبنك، فاعترضت أمي له فضربت ساقه فبرك. فرأيتُ النبي (ص) تبسم حتى بدت نواجذه ثم قال استقدت يا أم عمارة. ثم أقبلنا نعلّه بالسلاح حتى أتينا على نفسه، فقال النبي (ص): (الحمدُ لله الذي ظفرك وأقر عينك من عدوك وأراك ثارك بعينك)»(٥١).

لقد استبسلت الأسرة بكاملها من أجل إنقاذ حياة الرسول (ص) خاصة وأن وجود المرأة بينهم واستماتتها في القتال لا شك أنه يثير النخوة والحمية في الرجال، فكيف بالمرأة وهي تباشر القتال بنفسها، مما يضاعف همة الرجال خصوصاً حين الدفاع عن العقيدة.

وعن تفاصيل بعض المواقف القتالية في أحد وثبات أم عمارة روى الواقدي عن الحارث بن عبد الله قال: سمعت عبد الله بن زيد بن عاصم يقول: «شهدت أحداً مع رسول الله (ص) فلما تفرق الناس عنه دنوتُ منه وأمي تذبُّ عنه فقال: يا ابن عمارة قلتُ: نعم، قال: أرمِ، فرميتُ بين يديه رجلاً من المشركين بحجر وهو على فرس فأُصيبت عين الفرس، فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه وجعلتُ أعلوهُ بالحجارة حتى لقوت عليه منها وقرا، والنبي (ص) ينظر إليَّ ويبتسم، فنظر

إلى جرح بـأُمي على عاتقها فقـال: (أمك! أمك! اعصب جرحهـا بارك الله عليكم من أهل بيت. لمقام أمك خير من مقام فلان وفلان، ومقام ربيبك ـ يعني زوج أمه ـ خير من مقام فلان رحمكم الله من أهل بيت» فقـالت أمي: ادعُ لنا يا رسول الله أن نـرافقك في الجنة فقـال: (اللهم اجعلهم رفقـائي في الجنـة)، قالـت: فما أُبالي مـا أصابني من الدنيا[٥٢]. نعم، الرجال يفرون والمرأة تصمُـد، انه سلاح العقيدة الذي يثبت القلوب، وقوة الإيمان التي تندك عندها الجبال الرواسي، وقوة الإيمان والإقدام على التضحية تتسامـى على الموت، وتحتقره. هكذا كانت الروح، التـي حملتها النساء الرساليات بين ثنايا أضلعهنَّ في الصـدر الأول لدولة النبوَّة. إنه الثبات على العقيدة والمبدأ المرأة المؤمنة المجاهدة نسيبة في أُحد تقدم على الموت من أجل انقاذ حياة منقذ البشرية من الظلمات إلى النـور لأنها لمست عن قرب النقلة التي أحدثهـا الإسلام في حيـاتهم في شتى المجـالات. تستميت نسيبـة في انقـاذ الـرسـول (ص) مع زوجهـا وأولادهـا ليكمل رسـالتـه الإلهيـة. بينما غـالبيـة المقـاتلين المسلمين بما فيهم بعض الصحابة يفرون تاركين الرسول يواجه مصيره في لحظات الخطر والحسم، انهم يفرون خوفاً من الموت. اختلاف الدرجات الايمانية هو الفيصل، وهو المحك في الساعات الحرجة قال تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنـا قل لم تؤمنوا ولكن قولـوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾[٥٣].

قـوة العقيـدة تتحـول إلى شعله وهـاجـة داخل النفس البشريـة تضيء الطـريق لـلإقدام على الشهـادة وتجعل الحياة رخيصـة من أجل سـلامة المعتقـد في ساعـات الحسم. وإذا تمكنت العقيـدة مـن النفس، كـانت أعـزَّ من الأهـل والمال والـولـد والوطن.

وحينما سُئلت أم عمارة عما إذا كانت نساء قريش قد شاركن في قتال المسلمين يوم أحـد، قـالت كما يروي الـواقـدي: «لا والله مـا رأيت امـرأة منهن رمت بسهـم ولا حجـر، ولكن رأيتُ معهـن مكـاحل ومـراود، فكلما ولى رجل أو تكعكع نـاولتـه إحداهن مروداً»[٥٤].

كما أبدت نسيبة تذمـرها من عصيان الرماة أوامر الـرسول (ص) وكان ذلك سبباً لهزيمة المسلمين وكثرة خسائرهـم البشرية بقولها: «فعند الله نحتسب ما أصابنا يومئذ

من قبل الرماة ومعصيتهم لرسول الله (ص)»[٥٥].

ولم تقتصر مشاركة نسيبة المقاتلين المسلمين في معركة أحد ولم يدخل قلبها روع مما حدث لقوة إيمانها، ولذلك شاركت في حرب المرتدين باليمامة بزعامة مسيلمة الكذاب فسجلت موقفاً بطولياً آخر وعلى الرغم من أن يدها قد قطعت في هذه الحرب، إلا أنها لم تلتفت لذلك، إلا بعد أن إطمأنت على قتل مسيلمة الكذاب على يد ابنها زيد المازني، فسجدت لله شكراً على تخليص الأمة والدين من أحد أعداء الله الضالين المضللين[٥٦].

وقد حفظ لها عمر بن الخطاب مكانتها ومنزلتها عند رسول الله (ص) أن برها في في العطاء، وكان يقول: «سمعت رسول الله (ص) يوم أحد يقول: (ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني)[٥٧].

وهكذا قدمت نسيبة أم عمارة نموذجاً للمرأة الرسالية في دولة النبوّة من خلال الدور البطولي الذي لعبته في ساحات القتال جنباً لجنب مع أخوتها المقاتلين في جيش دولة النبوّة. إنها تستحق أن تكون قدوة في تضحياتها من أجل الدين والأمة، لأنها امرأة رسالية أعطت الدروس الحقيقية لنساء دولة النبوّة عبر الأجيال بشكل خاص ولنساء العالم بشكل عام. إن الدور الذي قامت به إنما هو نتاج التربية النبوية لنساء الأمة عبر مبادىء الرسالة النبوية من جانب والسيرة المعطاءة لنساء البيت النبوي كخديجة وفاطمة الزهراء والعقيلة زينب من جانب آخر.

ثانياً: هند بنت عمرو بن حزام:

لم تكن نسيبة وأسرتها الوحيدين، الذين قدموا مواقف بطولية في معركة أحد، فقد فجّرت مبادىء دولة النبوّة ورسالة مؤسسها في نفوس المؤمنين والمؤمنات روح التضحية والفداء. فهند بنت عمرو بن حزام وأسرتها المكونة من زوجها عمرو بن الجموح وأولادها نموذجاً آخر من نماذج أحد البطولية التي تستحق الوقوف عندها لاتخاذ العظة والعبرة واستلهام روح الاقدام والتضحية من مواقف هذه الأسرة المؤمنة المعطاءة. وهند هي أخت عبد الله بن عمرو بن حزام والد جابر بن عبد الله الأنصاري الصحابي الجليل[٥٨]، الذي يعتبر أول زائر لقبر أبي عبد الله الامام

الحسين(ع)، كما ورد ذلك في الفصل الثالث.

كان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج كما روى الواقدي، وكان له بنون أربعة يناضلون بين يدي النبي في الغزوات كأنهم الأسود الضارية. فلما كان يوم أحد تاقت نفس عمرو إلى الشهادة فأراد قومه أن يحبسوه لسببين: الأول أن أولاده الأربعة قد التحقوا بالرسول (ص) للقتال بين يديه دفاعاً عن الاسلام(٥٩). والثاني أنه أعرج ولا حرج عليه، أي أن واجب الجهاد يسقط عنه شرعاً، لقوله تعالى: **﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً﴾**(٦٠).

فكيف كان موقفه من الحاح قومه عليه بلزوم بيته؟

إن عشق الشهادة جعله يتمرد على مقترحاتهم النابعة من عواطفهم وشفقتهم عليه كأقرباء فقال: «بخ يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عندكم؟»(٦١). إنه يغبط أولاده على أن جهادهم سيقودهم إلى الجنة فهو لا يريد أن يكون حبيس داره، ويحظى أبناؤه بنعيم الجنان والخلود في الدارين. وقالت زوجته هند بنت عمرو بن حزام تصف حاله حين خروجه من الدار كما يروي الواقدي قائلة: «كأني أنظرُ إليه موليا قد أخذ درقته وهو يقول: (اللهم لا تردني إلى أهلي)»(٦٢).

عمرو بن الجموح رفض أن تكون عاهة العرج حائلاً بينه وبين عشقه للشهادة. تمرد على أبنائه، وعلى كبار قومه وعلى شيخوخته وعلى عاهته وذهب شاكياً لرسول الله(ص) همه، ملتمساً إذن الجهاد قائلاً: «يا رسول الله إن قومي يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك، والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة»(٦٣). لقد كان رسول الله (ص) بينهم النبي والمعلم والصديق. إنها أخلاق خاتم الأنبياء والمرسلين الذي امتدح الله أخلاقه في كتابه العزيز بقوله تعالى: **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**(٦٤).

كان موقف الرسول (ص) من التماس عمرو بن الجموح تدريجياً فقد بيّن له الموقف الشرعي أولاً، بقوله: «أما أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك»(٦٥)، وحينما

لاحظ عليه رسول الله (ص) تعطشه للشهادة لأنه أبى التقيد بالحكم الشرعي بسبب عاهته توجه النبي (ص) لقومه وبنيه الذين عارضوا التحاقه بميدان القتال في أحد قائلاً لهم: «لا عليكم أن تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة»(٦٦) لقد أوضح الرسول(ص) بحنكته المرونة في تطبيق الحكم الشرعي. وبعد أن أذن له الرسول(ص) خرس خطب قومه وبنيه، والتحق عمرو بساحة القتال في أحد وقاتل يومئذ حتى رُزق الشهادة بين يدي رسول الله (ص)(٦٧).

ويقول أبو طلحة ـ شاهد عيان في معركة أحد ـ يصف الموقف البطولي لأسرة ابن الجموح قائلاً: «نظرتُ إلى عمرو بن الجموح حين انكشف المسلمون ثم ثابوا وهو في الرعيل الأول. لكأنّي أنظر إلى ضلعه وهو يعرج في مشيته وهو يقول: (أنا والله مشتاق إلى الجنة)، ثم انظر إلى ابنه يعدو في أثره حتى قتلا جميعاً(٦٨)، كما قتل أيضاً عبد الله بن عمرو بن حزام أخو هند. ثلاثة شهداء لهند: ابنها وأخوها وزوجها. كلهم تسابقوا لنيل الشهادة، وفدوا الرسول(ص) والدين والأمة بأرواحهم الطاهرة من أجل أن ينتصر الحق وتعلو كلمة الله.

ونتيجة لهزيمة المسلمين في هذه المعركة وإصابتهم بخسائر بشرية كبيرة وانتشار خبر مقتل الرسول (ص) في المدينة، توجه عدد من نساء المدينة إلى مكان المعركة مذعورات بينهن فاطمة الزهراء وعائشة كما ورد ذلك في الفصل الثاني، حيث قرب مكان المعركة من المدينة.

كانت هند واحدة من تلك النساء حيث انطلقت ببعيرها إلى مكان المعركة ورأت مصارع زوجها عمرو بن الجموح وابنها خلّاد وأخيها عبد الله بن عمرو بن حزام، فحملت جثثهم على بعيرها وتوجهت بهم نحو المدينة لدفنهم، حتى تكون قريبة من قبور الأحبة لزيارتهم. قال الواقدي يصف هذا المشهد، وما حصل من إعجاز في نقل تلك الأجساد الطاهرة: «وكانت عائشة خرجت في نسوة تستروح الخبر، ولم يكن قد ضرب الحجاب يومئذ حتى كانت بمنقطع الحرة وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي لقيت هنداً بنت عمرو بن حزام أخت عبد الله بن عمرو بن حزام تسوق بعيراً لها عليه زوجها عمرو بن الجموح وأخوها عبد الله بن عمرو بن حزام أبو جابر ابن عبد الله وابنها خلاد فقالت لها عائشة: (عندك الخبر فما وراءك؟) فقالت هند: خير أما رسول الله (ص) فصالح وكل مصيبة بعده جلل واتخذ الله من المؤمنين

شهداء ورد الله الذين كفروا بغيظهم»[٦٩].

إنها قوة الإيمان، إنها تحمل نفس الروح التي قدمتها أجساد الأحبة الذين تحملهم على بعيرها في ميدان القتال فداء للعقيدة، إنها ترد على عائشة بكل وقار وإفتخار ما دام رسول الله (ص) سالماً فكل غال يرخص من أجل الدين من أجل سلامة النبوّة، ومن أجل الأمة. إن هؤلاء الثلاثة ذخيرة غالية لهند في الحياة، لكنها تعلم أن الصرح الذي شيدوه بتلك التضحية هو خير عزاء إنه صرح الخلود في الدارين. تلك كانت رسالة هند إلى مجتمع المدينة وإلى مجتمع الأمة عبر تعاقب الأجيال أن سلامة الدين هي الحياة وأن سقوطه هو الموت الأبدي. كل حبيب يرخص من أجل الرسول(ص) لأنه يمثل كل شيء في حياة الأمة. وخطط الوثنيين أحبطها الله من خلال دماء الأمة وقرابينها. وهكذا تجلت عظمة الاسلام في خلق مثل هذه الأسرة العظيمة، هكذا جنود الله وهكذا تكون النفوس الرسالية لا فرق في العطاء والحماس العقائدي بين شيخ وشاب أو بين رجل وامرأة، والكلُّ يقدم من أجل تأسيس دولة النبوّة ومن أجل صاحب الرسالة، ومن أجل سلامة الأمة وبنائها، لتبقى العزةُ لله ولدينه ولرسوله ولأمة الحق.

وحينما سألتها عائشة عن الأجساد التي تحملها على بعيرها قالت هند: «أخي وابني وزوجي قتلى، قالت: فأين تذهبين بهم؛ قالت إلى المدينة أقبرهم بها»[٧٠]. بعدها أرادت هند أن تواصل مسيرها إلى المدينة مستخدمة عبارة حل حل تزجر بعيرها وبدلاً من السير برك البعير. فقالت لها عائشة: «لثقل ما حمل» قالت هند: «ما ذاك به لربما حمل ما يحمله البعيران، ولكن أراه لغير ذلك»[٧١]، وحينما زجرت هند بعيرها قام، إلا أنه عاد وبرك حينما وجهته إلى المدينة. فاقترحت عليها عائشة أن يذهبن جميعاً إلى الرسول (ص) بأحد لإخباره بقصة البعير. فحينما وجهت هند البعير إلى أحد أسرع، فرجعت إلى أحد حتى التقت النبي (ص) فأخبرته بما كان من أمر البعير. فقال: «أن الجمل لمأمور، هل قال عمرو شيئاً حينما هم بالخروج من المنزل؟» قالت: «نعم إنه لما وجه إلى أحد استقبل القبلة ثم قال: اللهم لا تردني إلى أهلي وارزقني الشهادة». فقال (ص): «فلذلك الجمل لا يمضي، إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبرّه منهم عمرو بن الجموح، يا هند ما زالت

الملائكة مظلة على أخيك من لدن قُتِلَ إلى الساعة ينظرون أين يدفن»[٧٢].

هكذا شرح الرسول (ص) قصة الإعجاز في استجابة الله لدعاء عمرو بن الجموح العبد الصالح الذي أشاد الرسول (ص) بمكانته العالية عند الله وكذلك مكانة أخيها العالية عند الله أيضاً كما يتضح ذلك من قول رسول الله (ص) خلال حواره مع هند في أُحد هكذا يكرّم الله عباده الصالحين الذين يقدمون أرواحهم فداء لدينه وإعلاء كلمته.

وقد أمر الرسول (ص) بدفن عبد الله بن عمرو بن حزام أخو هند، وزوجها عمرو بن الجموح في قبر واحد، فقال: «إدفنوا هذين المتحابين في الدنيا في قبر واحد»[٧٣]. ويروي الواقدي أن رسول الله (ص) مكث في قبرهم ثم قال: «يا هند قد ترافقوا في الجنة جميعاً عمرو بن الجموح بعلك وخلّاد ابنك وعبد الله أخوك». فقالت هند يا رسول الله: «فادعُ الله لي عسى أن يجعلني معهم»[٧٤]. وهذا يدل على أنهم دفنوا في قبر واحد. إلا أنه يقال أن سبب دفن عمرو وعبد الله في قبر واحد أنهما مثّل بهما كل مثلة حيث قطعت آدابهما عضواً عضواً فلا تعرف أبدانهما، لذا أمر النبي(ص) بدفنهما في قبر واحد[٧٥]. وكما ينقل الواقدي عن جابر أن أباه أول قتيل من المسلمين في أحد، قتله سفيان بن عبد شمس أبو الأعور السلمي، فصلى عليه الرسول (ص) قبل هزيمة المسلمين في تلك المعركة[٧٦].

لقد مثّلت هند دور المرأة المؤمنة الصابرة، دون أن تضعف وهي ثكلى، حمل بعيرها أجساد أعز الناس عندها في الحياة، لكن تبقى العقيدة عندها فوق كل إعتبار. إنها نموذج من نماذج نساءدولة النبوّة الرساليات اللواتي يقدمن من خلال مواقفهن الإيمانية في لحظات حاسمة من تاريخ دولة النبوّة وهي في طور النشأة، وهي في المهد تصارع جنود الباطل وأحزاب الشيطان، من أجل تحقيق الحياة الكريمة لكل انسان مهما كان لونه أو عرقه أو دينه. كانت هند وأسرتها من عوامل نجاح دولة النبوّة التي كانت ما تزال في المهد. في بناء الأسرة المناضلة المضحية الرسالية. إن موقفها البطولي يجب أن يكون نبراساً للمرأة المسلمة بشكل خاص لتستمد منه روح التضحية والفداء من أجل تربية أبناء في مستوى أبناء هند وزوجها

وأخيها ليكونوا عوناً وسنداً للدين والأمة والوطن.

ثالثاً: السمداء بنت قيس:

وتكررت المواقف البطولية لنساء دولة النبوّة في ملحمة الاستشهاد في أحد، حيث لم تقتصر تلك المواقف على نسيبة وهند مع أُسرتيهما، فقد سجّلت السمداء بنت قيس موقفاً بطولياً آخر دلّ على الزخم النسائي العقائدي في تلك الفترة المبكرة من تاريخ دولة النبوّة الفتية.

كان للسمداء ولدان شاركا في تلك المعركة فخرجت منطلقة على بعيرها نحو ميدان القتال لاستكشاف خبرهما بعد أن شاعت أنباء هزيمة المسلمين أمام جيش حزب الشيطان. فقد روى الواقدي أن السمداء بنت قيس إحدى نساء بني دينار علمت باستشهاد ابنيها النعمان بن عبد عمر وسليم بن الحارث بين يدي رسول الله(ص)، فلما نُعيا إليها قالت: «فما فعل رسول الله (ص)؟» قالوا بخير هو بحمد الله صالح على ما تحبين»، فقالت: «أرونيه أنظر إليه»، فأشاروا لها إليه فقالت: «كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل»(٧٧).

نسيبة، هند، السمداء كلهن، اعتبرن أن سلامة رسول الله (ص) هي أهم شيء في الوجود عندهن، لماذا؟ لأنه يمثل أملهن في خلق دولة المبادىء لإقامة حكم الله في الأرض. إن حياة الرسول (ص) تمثل عزّهن وكرامتهن فكل عزيز يرخص من أجله. إن تلك الروح الإيمانية المتسامية على زخارف الحياة هي نتيجة تربية الرسول(ص) ومعايشتهن له ولأهل بيته وتأثرهن بأقواله وأفعاله، إنهن نماذج أصيلة لثمرة نضاله في إرساء قواعد الدين وبناء إنسان دولة النبوّة.

لم تكن تلك النماذج غريبة على من نذر حياته في خدمة الدين والأمة هو وعترته إن مواقف نسيبة وهند والسمداء إنما هو تأسياً بسيرة الرسول (ص) وأهل بيته، وفي مقدمتهن خديجة وفاطمة الزهراء وعلي والحسنين.

بعد أن وصلت السمداء بنت قيس إلى مصرع ولديها حملتهما على بعير وساقته متجهة للمدينة والتقت في الطريق بعائشة مع بعض النساء المسلمات اللاتي توجهن إلى ميدان المعركة فسألتها عائشة قائلة:

«ما وراءك؟» فأخبرتها قالت : «فمن هؤلاء معك؟» قالت أبناي ثم ساقت جمـالها نحو المدينة حيث دفنا بها(٧٨).

أثبتت كل من نسيبة وهنـد والسمداء إنهن رساليات تسـامين بعقيدتهن وأعطين النموذج الحق والأمثل للمرأة التي تنكرت لـذاتها، وأعطين الدرس لنساء دولة النبوّة عبر تعاقب أجيالها. أنه طالما كان في الأمة نساء في مستوى إيمانهن، فلن يتجرأ أحد على إنتهاك حرمة الدين، والنيل من كرامة الأمة.

إنهن نمـوذج مشرف يحق لدولـة النبـوّة أن تتباهـى به ويحق لهن أن يكن القـدوة الحسنة لكل امرأة حريصة على التمسك بعقيدتها. والولاء لأمتها ووطنها.

٤ ـ أسماء بنت يزيد بن السكن (أم سلمة) :

إن تاريـخ دولة النبـوّة زاخر بنماذج عديـدة للدور المشرّف الـذي قامـت به المرأة المسلمـة في الحروب خـلال العقـود الأربعة الأولى من تـأسيس هذه الـدولـة. لقـد سجّلت المرأة المسلمــة مــواقف بطــوليــة ومشرفــة في السلم والحرب على عهــد الرسول(ص) لإيمان المرأة أن دورها النضـالي في دولة النبوّة يجب أن لا يقل أهمية عن دور الـرجل وعطائه للـدفـاع عن العقيـدة والأمة ونشر الاسـلام في العـالم لتحريـر الشعوب من ظلم حكامها وجبروتهم عن طريق تطبيق مبادىء دولة النبوّة.

ففي معركة اليرموك، التي وقعت في السنـة الثالثة عشرة من الهجرة بين المسلمين والروم، حيث كانت حربـاً طاحنة دامت أياماً عديدة، كـان للمرأة المسلمة موقف بطولي يعتبر موضع افتخار لنساء دولـة النبوّة بشكل خاص. منهن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصـاري المكناة بأم سلمـة. وإلى جانب الخطـابة، التي اشتهـرت بها تميزت أيضاً بالشجاعة والاقدام(٧٩).

أسلمت في السنة الأولى للهجرة فبايعت الرسول (ص) وسمعت حديثه(٨٠).

وحضرت زواج السيدة فاطمة الزهراء وقامت بخدمتها في زواجها(٨١).

تشربت أسماء بنت يزيـد الأنصاري بالروح الإيمانية للبيت النبـوي حيث تأثرت بسيرة السيدة فـاطمة الزهـراء وتحملها شظف العيش. وفي معركـة اليرموك التحقت

بجيش دولـة النبوّة تسقي الجنود وتضمـد جراحهم مع عـدد من المسلمات . وحينما اشتدت الحرب وحمي وطيسها ، ورأت تساقط الشهداء من المسلمين ، أبت أن تقف موقف المتفرج فـإنقضت على عمود خيمتها بكل ما تملك من شجـاعة وغاصت في ميدان المعـركة ، وتمكنت من قتل تسعـة من جنود الـروم ، وتوفيت بعـد انتهاء تلك المعركة بفترة ليست قصيرة(٨٢).

إن قـوة إيمانها دونما شك هـو الذي دفعهـا لأن تـرخص بحيـاتها من أجل نصرة إخوتها الذين يدافعون عن الـدين وعن الأمة ، إنّ أسماء الأنصارية نموذج من نماذج المرأة الـرساليـة في دولة النبـوة التي قامت بـدور بطولي خلّـد ذكرهـا في تاريخ هـذه الدولة ، وكـانت موضع تقدير ونمـوذجاً يحتذى ببطولتها وإقـدامها وتضحيتها من أجل رفعة الدين وإعلاء شأن الأمة .

٥ ـ تماضر بنت عمرو (الخنساء) :

لم تتوقف تضحيات المرأة المسلمة في دولة النبوّة خلال العقود الأربعة الأولى ، لأن هذه الفترة تمثل قمة إلتزام المسلمين رجالاً ونساءً بالعقيدة ومبادىء دولة النبوة ولأنهم عاصروا الرسول (ص) وذريته وتأثروا بسيرتهم . لذا فان التضحيات مصدرها الايمان والاقتداء بسيرة الـرسول (ص) وآلـه الذيـن كانـوا يلتزمـون بنصوص الشريعـة قولاً وعملاً .

ومن المعارك الحاسمـة في تاريخ دولة النبـوّة في مطلع العقد الثـاني من الهجرة في عهد الخليفة الثـاني عمر بن الخطاب معركة القادسيـة بين جيش دولة النبوة وجيش الامبراطورية الكسرويـة في عهد يزدجرد آخر ملوك تلك الامبراطـورية التي أطاح بها جيش دولة النبوّة . وقعت هذه المعـركة بالقادسية بالعـراق في السنة الرابعة عشرة من الهجرة . كان قائد جيش الدولة النبـوية سعد بن أبي وقاص وقائد الجيش الكسروي رستم الأرمني(٨٣).

الأسباب غير المباشرة لهذه المعـركة هي محاولة مد نفوذ دولة النبـوّة وتوسعها لنشر المبادىء المحمدية التـي قامت عليها رسالته ودولته . أمـا المباشرة فتعود إلى استفزازه من جانب سعـد بن أبي وقاص من ناحية وإمتـلاكه قوة عسكـرية هائلة من نـاحية أخرى تفوق أضعـاف قوة المسلمين . كان رسول سعد بن أبي وقاص إلى يـزدجرد هو النعمان بن مقرن الذي توجه إلى المدائن يدعوه إلى الإسلام والطاعة لخليفة المسلمين ،

وكانت ردود فعل يزدجرد عنيفة حيث قـال للرسول المسلم. «لولا أن الرُسل لا تقتل لقتلتك»(٨٤). فأخرجه من المدائن بعد أن حمَّله وقرا من التراب على رأسه، قائلاً له: «إرجع إلى صـاحبك فقـد كتبت إلى رستم أن يـدفنـه وجنده من العـرب في خنـدق القادسية ثم لأُشغلن العرب بعدها بأنفسهم ولأُصيبنهم بأشـد مما أصابهم به سابور ذو الأكتاف»(٨٥).

وحينما عـاد النعمان بن مقرن إلى سعـد وأخبره بما حصل لـه مع يـزدجرد طمأنـه قائلاً: «لا تخف إنَّ الله قد ملكنا أرضهم تفاؤلاً بالتراب»(٨٦).

كان جيـش المسلمين يتكون من بضعـة وثلاثين ألفاً بينما الجيـش الكسروي كان يتكـون من مئة وعشرين الفـاً، إضـافة إلى ثـلاثة وثـلاثين فيـلاً بينهم فيل يزدجـرد الأبيض الضخم. لقد أقام رستم من جيشه لكثرة عدده بريداً بين القادسية والمدائن حيث يمكن أن تصل كلمته عن طريق نقلها من جندي إلى آخر(٨٧).

وعلى الـرغم من الاستعـدادات الضخمة للجيش الكسروي وتفـوقـه على جيش المسلمين إلا أن رستم كان كارها القتال مؤثراً الوصول إلى حل سلمي، بيد أن الحاح يــزدجـرد على القتــال أدى لإستســلام القــائد لتنفيـذ رغبــة الملك. ومن ضمن استعدادات رستم وخططه أنـه قيَّد ثلاثين ألف جندي بالسـلاسل لعدم الفرار عن المواجهة(٨٨).

وحينما التحم الجيشان تمكنت الفيلة من القضـاء على خيول المسلمين. وكان رد المسلمين الحاسم والحازم أن ثبت الرَّجَّالة للفيلة وقطعوا خراطيمها بالسيوف فملأت ساحة القتال عواء. وكانت حصيلـة الخسائر البشرية في اليوم الأول خمسمئة جندي من المسلمين ومن الجيش الكسروي الفي جنـدي. وكان اليـوم الثـاني للقتال أشـدُ وطأة على الجيش الكسروي من اليوم الأول لوصول أبي عبيدة بن الجراح من الشام في ذلك اليوم على رأس جيش آخر لدولة النبوّة، فشكل الجيش الإسلامي الجديد دعماً وسنداً لجيش دولة النبـوّة ورفع معنويات المقاتلين المسلمين. وكـانت حصيلة ذلك اليـوم من الخســائر البشريـة في الصفين الفين من المسلمين، ومن الجيش الكسروي عشرة آلاف(٨٩).

أما اليوم الثالث فقد كان مهولاً على الجيشين المتحاربين لاستماتة كلٍّ منهما حيث

استمرت الحرب طوال النهار وطوال الليل لا ينطقـون، كلامهم الهرير فسميت ليلة الهرير، إذ انقطعـت أخبار المعركـة عن قائدي الجيشين، وظلـت الحرب مشتعلة إلى وقت ظهر اليوم الرابع. فانهزم الجيش الكسروي نتيجة إرهاقه واستبسال جيش دولة النبـوّة وثباتهم بـالإضـافـة إلى هبوب ريح عـاتيـة، حتى تمكن جيش الاسـلام من الـوصول إلى سريـر رستم فقتلـه هلال معلنـاً نبأ مقتلـه على يديـه. فلم تبق لجيش كسرى عزيمـة لمواصلة القتال وفروا نحـو المدائن مخلفين وراءهم ثلاثين ألف قتيل، فاستـولى المسلمون على أمـوالهم وأحمالهم الكثيرة، كما جمع جنود الاسـلام الكثير من كميات الـذهب والفضة، فأرسل سعـد بن أبي وقاص الأنفال والغنـائم إلى الخليفة عمر بن الخطاب بالمدينة، وقد تلقى سعد رسـالة من عمر بن الخطاب تأمره بالبقاء في موضعـه وأن لا يلحق بجيش العدو المنهزم، فتمكن من تأسيس مسجد ومـدينة الكوفـة المعروفـة اليوم التي أصبحت فيها بعـد عاصمـة لدولـة النبوّة في عهـد الإمام علي(ع)[٩٠].

في هـذه الحرب السِّجـال شـارك عــدد من النسـاء المسلمات لإمـداد المقـاتلين العطشى بالماء وتضميد جراح المصابين. وكانت بينهن تُماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد الملقبـة بالخنساء، من بني سُليم، من قيس عيـلان من مضر، من أشهر شاعرات العـرب، وهي من بادية الحجاز في الشمال الشرقي من يثـرب عاشت أكثر عمـرها في العصر الجاهلي، وحينما ظهـر الإسـلام وفدت على رسـول الله (ص) مع قومها بني سليم، وكانت تنشد الرسول (ص) شعراً فيعجب بشعرها[٩١].

تزوجت الخنساء من زوجين من قبيلتها: الأول اسمـه عبد العزى بن عبد الله بن رواحة، فأنجبت لـه ابنها أبا شجرة عبـد الله. ثم تزوجت بعد وفاتـه مرداس بن أبي عامر، فأولدها بنين ثلاثة هم زيـد ومعاوية وعمر ثم ابنتها عمره وهي الأصغر[٩٢]. أكثر شعرها جودة رثاؤها لأخويها: صخر ومعاوية اللذين قتلا في العصر الجاهلي.

ومن شعرها في رثائها: [٩٣]

بكت عيني وحـق لها العــويل ... وهاض جناحي الحدث الجليل

ثم تراصل قائلة

معاويـة بن عمـرو كـان ركني　　　وصخـراً كـان ظلهـم الظليل

في معركـة القادسية أهـدت الخنساء لجيش دولـة النبوّة أبناءهـا الأربعة فجعلت تحمسهم وتـرفع من معنويـاتهم للثبات في ميـدان القتـال دفاعـاً عن الدين والأمـة قائلة : «يا بني! إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إلّه غيره، إنكم لبنو رجل واحـد، كما انكم بنو إمـرأة واحدة، ما خنـتُ أباكم، ولا فضحتُ أخوالكم، ولا هجنتُ حسبكم، ولا غيرتُ نسبكم، وقد تعلمـون ما أعدَّ الله تعالى للمؤمنين من الثواب الجزيـل في حرب الكافرين، واعلموا إن الـدار الآخرة خير من الدار الفانية، يقول الله عز وجل : **﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾** ؛ فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن سـاقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رسيسها، تظفروا بالغنى والكرامة في دار الخلد والمقامة»[٩٤].

إنها تحثهم على الثبات في الجهاد لبلوغ الشهادة والفوز بنعيم الآخرة وخلود الذكر في الـدنيا . أم تقـذف بفلـذات كبدهـا في لهيب الحرب المشتعلـة متساميـة على كل العواطف، على كل الماديـات، بكل شجاعة، هكـذا يكون عطاء المرأة الرسـالية، تـربي بنيها وذخـرهـا في الحيـاة الفانيـة لكنهـا ببصيرة الإنسان المؤمـن تعرف درجـة الشهـداء عند الله ومـا أعد لهم من النعيم إن حبهـا العظيم لهم وللـدين هو الـذي دفعها لأن تحمسهم من أجل الاستشهاد والاستماتة في سبيل الله ونصرة دينه .

فلما أصبح الأبناء، قصـدوا مراكـزهم مبكرين في ميدان القتال وسـاحة الشرف والشهادة، وتقـدموا واحـداً تلو الآخر وهـم يـرتجزون ذاكرين وصيـة أمهم العجوز، فقال الأول[٩٥]:

يـا إخوتي إنَّ العجـوز الناصحـة　　　قـد نصحتنـا إذ دعتنا البـارحـة

بقـالـة ذات بيـان واضحـة　　　فباكـروا الحرب الضروس الكالحة

وإنما تلقـون عنـد الصـائحـة　　　من آل سـاسـان كـلاباً نـابحـة

قـد أيقنـوا منكم بـوقع الجائحـة　　　وأنتم بين حيـاة صـالحة

ومـيتـة تـورث غنماً رابحـة

وقال الثاني[٩٦]:

إن العجــوز ذات حـزم وجلــد ... والنظــر الأوفق والـرأي السـدد

قـد أمـرتنـا بـالسـداد والـرشـد ... نصيحـة منهـا، وبـرا بـالـولـد

فبـاكـروا الحرب كماة في العـدد ... إمـا بفـوز بـارد على الكبـد

أو ميتـة تـورثكم غنم الأبـد ... في جنة الفردوس والعيـش الرغد

وأنشد الثالث[٩٧]:

والله لا نعصي العجـوز حـرفـا ... قـد أمـرتنـا حـربـا وعطفـا

نصحـا وبـرا صـادقـاً ولطفـا ... فبـادروا الحرب الضروس زحفـا

حتى تلفـوا-آل كسرى لفـا ... أوتكشفـوهم عـن حماكم كشفـا

إنـا نـرى التقصير منكم ضعفـا ... والقتل فيكم نجـوة وعـرفـا

وقال الرابع[٩٨]:

لسنـا لخنسـاء ولا لـلاحـزم ... ولا لعمـرو ذي السنـاء الأقـدم

إن لم أر في الجيش جيش الأعجم ... مـاض على هـول خضـم خضرم

إمـا لفـوز عـاجـل، ومغنم ... أو لـوفـاة في السبيل الأكـرم

نعم لقـد كانت كلمات أمهم مصـدر إلهام لتحمسهم ورفع معنويـاتهم القتاليـة وذلك يتضح من خلال الأبيـات التي أنشدها كل منهم. قاتلـوا قتال الأبطال حتى استشهـدوا جميعهم. إنهم خير رفـاق للعقيدة وخير الأبنـاء البـارين لأمهم ودينهم وأمتهم. لقـد كان وجـود مثل هـذه النماذج من الابطـال في جيش دولة النبـوّة بهذه المعـركـة مع الفـارق الكبير بين الجيشين في العدد والعـدة، هـو العـامل الحاسم في تحقيق النصر للمسلمين.

كيف استقبلت الخنساء نبأ استشهـاد أبنائهـا الأربعة؟ قالت: «الحمـد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجوا من ربي أن يجمعنـي بهم في مستقر رحمته». ولم تـزد على هذه الكلمات شيئاً[٩٩].

إنها تعتبر استشهـاد أبنائهـا الأربعة في سبيل العقيـدة والمبـدأ ورفع راية الاسـلام شرفاً عظيماً لها. إنه الإيمان العميق. إن الخنسـاء المرأة الرسالية تعـرف أن أولادها قد

خلدوا في الدارين وعاشوا الحياة الأبدية ونعيمها وحفروا أسماءهم في سجل التاريخ البشري باستشهادهم. إن ولاء الخنساء للأمة ودولة النبوّة وتمكن العقيدة من نفسها جعلها تتسامى على عواطف الأمومة وتنظر إلى استشهادهم نظرة روحانية بعيدة عن الماديات الدنيوية كحب المال والولد، فكلها زائلة، لأن هناك نصب عينيها هدفاً أغلى وأسمى يجب أن يرخص من أجله كل شيء وهو حرمة الدين وسلامة الأمة.

٦ ـ سودة بنت عمارة الهمدانية (أم الخير):

قامت المرأة الرسالية في دولة النبوّة بتسجيل مواقف بطولية في السلم والحرب رائدها في ذلك إعلاء كلمة الحق وتثبيت حكم الله في الأرض وسلاحها الايمان بصدق عقيدتها. فخلدت تلك المواقف في تاريخ دولة النبوّة بشكل خاص وفي التاريخ البشري بشكل عام. وهناك نساء في دولة النبوّة سجّلت مواقف مشرفة لنضال المرأة في السلم وفي الحرب، وكانت وسيلة نضالها الكلمة الصادقة التي تنبعث من إيمان عميق وعقيدة صادقة ترخص من أجلها كل متع الحياة الزائلة.

سودة بنت عمارة الهمدانية الملقبة بأم الخير واحدة من هؤلاء النسوة من الكوفة، فقد كان لها موقفان أحدهما في معركة صفين، والثاني في ديوان القصر الأخضر في عهد معاوية بعد استشهاد الإمام علي (ع). إمتازت سودة بالفصاحة والخطابة إلى جانب الشجاعة والإقدام، وكانت من المؤمنات المتمسكات بحب آل رسول الله وولايتهم.

فالدور الذي لعبته في صفين حيث كانت في جيش الامام علي (ع) ويوم قتل عمار بن ياسر ذُعر جيش الإمام علي (ع) فتراجعوا أمام جيش معاوية، فما كان من أم الخير إلا أن ركبت على بعيرها وصارت تخطب فيهم بصوتها الجهوري تستنهض فيهم الحمية والشجاعة بقولها:

«يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل ونور السبيل ورفع العلم فلم يدعكم في عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمة، فإلى أين تريدون رحمكم الله، أفرار عن أمير المؤمنين؟ أم فرارا من الزحف أم رغبة عن الإسلام؟ أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾[١٠٠].

ثم رفعت رأسهـا إلى السماء وهي تقـول: «أللهم قـد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشر الرعب وبيـدك يا رب أزمة القلوب فإجمع اللهم الكلمـة على التقوى، والّف القلوب على الهدى وأردد الحق إلى أهله. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل والوصي الوفي والصدِّيق الأكبر، إنها إحنٌ[١٠١] بدرية، وأحقاد جاهليـة، وضغائن أُحُدية وثب بها معاوية حين الغفلة، ليدرك بها ثارات بني عبد شمس» ثم قالت: (**فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون**)[١٠٢].

«صبراً معشر الأنصار والمهاجرين قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم، وكأني بكم غداً وقـد لقيتم أهل الشام كحُمُرٍ مستنفرة فرت مـن قسورة لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض باعوا الآخرة بالـدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بـالعمى، وعما قليل ليصبحن نـادمين حتى تحلّ بهم النـدامـة، فيطلبـون الإقـالـة ولات حين منـاص. إنـه والله من ضلَّ عـن الحق وقع في البـاطل، ومن لم يسكن الجنة نزل النار».

«أيها الناس إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فـرفضوها، واستبطأوا مدة الآخرة فسعـوا لها، والله أيها النـاس لـولا أن تبطل الحقـوق، وتعطل الحدود، ويظهـر الظالمون، وتقـوى كلمة الشيطان لما إخترنـا ورود المنايـا على خفض العيش وطيبه. فإلى أين تريـدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله (ص)، وزوج ابنتـه، وأبي ابنيه، خُلِقَ من طينتـه، وتفـرع من نبعتـه، وخصـه بسرِّه وجعلـه بـاب مـدينتـه، وعلم المسلمين، وأبان ببغضـه المنافقين، فلم يـزل كذلك يُؤيـده الله عز وجل بمعـونته، ويمضي على سنن استقـامته لا يعـرج لراحـة الدأب[١٠٣]. وهـا هـو ذا مفلق الهام ومكسِّر الاصنام، صلى والناس مشركون، وأطاع والناس مـرتابون، فلم يزل كذلك حتى قتل مبـارزي بدر وأفنى أهل أحـد، وهزم الأحزاب، وقتل الله بـه أهل خيبر، وفرَّق جمع هوزان».

«فيا لها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً وردَّة وشقاقا، وزادت المؤمنين إيماناً، قد أجتهدت في القـول وبالغت في النصيحة وبالله التـوفيق، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»[١٠٤].

إنها خطبة عصماء ألقتهـا في معركة، كانت صفحـة سوداء في تاريخ دولـة النبوة النضالي. فقد بلغ جيش دولة النبوّة الذي يقوده الإمام علي تسعين ألف مقاتل، بينما بلغ جيش بقيـة الأحـزاب مئـة وعشرين ألف مقـاتل، يقودهـم معاويـة في محاولـة الاستيلاء على حكم دولة النبوّة بالقوة، ضمن أول حـركة انفصالية علنية عن الدولة متشبثاً بدم عثمان وقميصـه. كانت كلمات أم الخير في تلك الخطبـة كالسيـاط على مسامع المقاتلين الفـارين، حيث كانت تستنفر فيهم الرجولة والشجـاعة والحمية، وتدعوهم إلى الثبات، وفي الوقت نفسـه كانت تحتقر جبنهم، كذلك استعرضت أم الخير الخلفية التاريخية لنضال الإمام على (ع) منذ إسـلامه بالإضافة إلى فضائله التي تجعلـه ثـاني رجل بعد رسـول الله (ص) في الـدولـة النبـوية من جـانب، والخلفيـة التاريخيـة لعداء معـاوية وآله وأعـوانه ضـد هذه الدولـة منذ تأسيسهـا ولا يزال من جانب آخر.

لقـد كشفت أم الخير بفضل إيمانها وصـدق عقيـدتها الحقـائق للمقـاتلين وهم يمرون بأحرج اللحظات. كانت تعتقـد أن واجبها الديني يحتم عليها أن تلقي تلك الخطبة، علها تتمكن من إنقاذ جيش دولة النبـوّة من البلبلة، التي إجتاحته بسبب مقتل عمار بن ياسر والاشـاعات التي روجهـا معاوية، ورددهـا رجاله إن علياً هو قـاتل عمار وليس معاويـة، بغيـة التعتيم على الحديث النبـوي: «عمار تقتله الفئـة البـاغيـة» إن كلمات أم الخير قد أثـرت في أسماع ونفـوس الفـارين من جيش دولـة النبوّة، فعادوا مستثارين في حماسة عارمة فحملوا على جند معاوية بثبات. ذلك هو موقف أم الخير البطولي في معـركة صفين ودورها الرسالي الـذي لعبته من أجل حماية العقيـدة والمبـدأ، ومن أجل الحفـاظ على تماسـك جيش دولـة النبـوّة في سـاعـات الحسم.

أما موقف أم الخير في ديوان معاويـة بالقصر بدمشق. فقد رُوى أنها دخلت على معاويـة بعد استشهاد الإمام علي (ع)، فجعل يـؤنبها على خطبتها التحريضيـة يوم صفين. وآل أمره إلى أن قال: ما حاجتك؟ قـالـت: «إن الله سائلك عن أمرنا، وما افترض عليك من حقنـا، ولا يـزال يتقـدم علينـا من قبلك من يسمـو بمكـانك ويبطش بقوة سلطانك، فيحصدنـا حصيد السنبل، ويدوسنا دوس الحرمل[١٠٥]،

يسومنا الخسف[106]، ويذيقنا الحتف، هذا بسر بن أرطأة قـدم علينا فقتل رجالنا، وأخذ أمـوالنا، ولولا الطـاعة لكان فينـا عز ومنعة، فإن عـزلته عنا شكـرناك، وإلاّ كفَّرناك» فقال معاوية: «إيـاي تهددين بقومك يا سودة، لقد هممتُ أن أحملك على قتب أشوس، فأرُدَّك إليه فينفذ فيك حكمه»[107].

فأطرقت سودة ساعة ثم قالت[108].

صلى الإلـه على روح تضمَّنهـا	قبرٌ فأصبح فيـه العدلُ مـدفونـا
قد حالف الحق لا يبغـي به بدلا	فصـار بـالحق والإيمان مقـرونـا

فقال معـاوية: «من هـذا يا سـودة؟» قالت: هـو والله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والله لقـد جئته في رجل كـان قد ولاَّه صدقـاتنا فجار علينـا فصادفتـه قائماً يصلي، فلما رآني انفتل من صلاته، ثم أقبل عليَّ برحمة ورفق ورأفة وتعطّف، وقال: (ألك حاجـة؟) قلتُ: نعم، فأخبرته الخبر، فبكـى ثم قال: (اللهم أنت الشـاهد عليَّ وعليهم، وأنّي لم آمرهـم بظلم خلقك؛ ثم أخرج قطعة جلد فكتب فيه: ﴿بسم الله الرحمن الـرحيم قد جاءتكم بيِّنـةٌ من ربكم، فأوفوا الكيل والميـزان، ولا تبخسوا النـاس أشيـاءهم ولا تفسدوا في الارض بعـد إصـلاحهـا، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾[109].

(فإذا قرأت كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك، والسلام). فجئتُ بالرقعة إلى صاحبـه، فانصرف عنا معزولاً فقال معاوية: (اكتبوا لها كما تريد، واصرفوها إلى بلدها غير شاكية)[110].

إن موقف أم الخير في مجلس معاويـة هو أكثر شجاعـة وأعلى جرأة، ففي الوقت الذي امتـدحت فيه سيرة الإمام علي (ع) العـادلة في رعيته، أفصحت عن الظـلامة التي تعيشها الأمة في عهد معاوية من خـلال أمرائه على ولايات الدولة، وأن العدل قد اختفى من حيـاة الأمة، حيث قُبر مع علي لاقترانه به، فـذلك ذم فاضح لسيرة معاوية، وهي في عقر داره بالقصر الأخضر، وهو بين حاشيته وجلاوزته.

إن مـوقف أم الخير في ديـوان القصر الأخضر بـدمشق بين يـدي معـاويـة يعتبر نموذجاً فذاً لنضال المرأة الرسالية وإصرارها على كشف الحقيقة مهما كانت النتائج.

إنه درس لنساء دولة النبوّة عبر الأجيال، كيف يجب عليهن أن يواجهن الطواغيت والفساد. إنه استجابة وامتثال لأوامر الله ورسوله في مواجهة الجور والظلم لقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[١١١].

وقال رسول الله في الحث على الأمر بالمعروف وأهميته في حياة الأمة: «إن أفضل أنواع الجهاد، كلمة حق عند سلطان جائر»[١١٢]. تمكنت أم الخير أن تحرج وتفحم معاوية وهو في كامل سلطته وسطوه أمام حاشيته عن طريق إشادتها بعدل الإمام علي (ع) وفضح سيرة أُمرائه وتسلطهم على رقاب المسلمين، فلم يجد مناصاً من قضاء حاجتها.

٧ ـ فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية (أم البنين):

ويستمر البيت النبوي في تقديم نماذج للأمة من المضحين والمضحيات في سبيل الله وفي سبيل المبدأ والعقيدة. كانت كربلاء قمة العطاء النبوي، حتى لا ينطفىء نور الله، الرجال، والنساء، والأطفال حتى الرُّضَّع منهم ساهموا في ذلك العطاء. تلك رسالتهم في الحياة الدنيا، كالقناديل يزيلون دياجير الظلام عن بصيرة وأبصار عشّاق المبادىء النبوية. وكان وقع فاجعة كربلاء أليماً على نفوس المسلمين بشكل عام والهاشميين ومن تبقى من آل أبي طالب بشكل خاص. حيث أن غالبية من بقي من الطالبيين كان من النساء والأطفال. وكانت أم البنين أعظم من فجع من بين هؤلاء النسوة. فمن هي أم البنين؟ وبمن فجعت؟

كان عقيل بن أبي طالب أحد النسابة العرب البارزين على دراية تامة بأنساب القبائل العربية، فطلب منه الإمام علي (ع) ـ في مطلع عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ـ أن يبحث له عن امرأة ولدتها الفحولة من العرب يتزوجها لتلد له غلاماً. فدله عقيل على فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية التي إمتاز آباؤها بالشجاعة والفروسية[١١٣].

فتزوجها الإمام علي (ع) فولدت له أربعة أولاد وهم على التوالي العباس ثم عبد الله ثم جعفر ثم عثمان ولقبت بأم البنين لأنها لم تلد بنتاً. وكلهم استشهدوا مع الإمام الحسين (ع) في ملحمة الشهادة بكربلاء. وكان العباس أكبر أولادها، فارساً مغواراً، وبطلاً شجاعاً ويكفيه فخراً إنه خريج مدرسة أبيه الإمام علي (ع) أما

شجاعتـه فهي امتداد لشجـاعة البيتين الطـالبي والكلابي. ومع أن إخـوته الثـلاثة الآخرين كانوا شجعـاناً إلا أن شجاعته كانت أعظم لذلـك كان لواء الإمام الحسين بيده يوم كربلاء[١١٤].

في ليلة العاشر من محرم سنة إحدى وستين من الهجرة حينما خطبَ الإمام الحسين (ع) رجاله كي يختبرهم وأحلهم من بيعته، وطلب منهم الإنصراف وتركه مع الجيش الأموي كي ينجو بأنفسهم من الموت.

كان العباس بـن علي هو أولُ المتحدثين للرد على خطـاب الإمام الحسين فقال: «ولِمَ نفعل ذلك! لنبقى بعدك! لا أرانا الله ذلك أبداً»[١١٥].

وفي يوم العاشر حينما بدأت المعركة طلب العباس من إخوته لأمه أن يبرزوا للقتال قائلاً: تقدمـوا حتى أراكم قد نصحتم لله ولرسوله فـانه لا ولد لكم[١١٦]. . . وكان العبـاس آخـر من قتل من رجـال الإمام الحسين حيـث قتل بعده الأطفـال، وذكـر العباس ببطـولته وحملاته في المعركـة الجيش الأموي ببطولات أبيـه الإمام علي (ع) في ساحات القتال. لذلك قـال عنه الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع): «رحم الله العباس فلقد آثر وأبلى وفدى أخاه بنفسه»[١١٧].

كـان وقع نبأ استشهـادهم عظيماً على أمهـم أم البنين التي كـانت مع إعتـزازهـا باستشهادهم مع أخيهم الإمام الحسين إلا أنها بكتهـم حتى رق لبكائها أعداء البيت النبوي. كـانت أم البنين شاعـرة فصيحة. وكـانت تخرج كل يوم إلى البقيـع ومعها حفيدها عبيد الله ابن ولدها العباس فتندب أولادها الأربعة خصوصاً العباس الذي كانت فاجعتها به أعظم من بقية إخوتـه لجماله وعلمه وشجاعته. وقد سمعت أنباء نضال أبنائها واستماتتهم في الدفاع عن سبط رسول الله (ص) وعن الإسلام من زين العابدين والعقيلة زينب. وكان الناسُ يجتمعون حولها رجالاً ونساء يسمعون بكاءها ورثاءها لبنيهـا الأربعة فكان مروان بن الحكم على شدة عـداوته لأهل البيت النبوي يجيء مع هؤلاء النـاس فلا يزال يسمع رثـاءها فيبكي[١١٨]. فمن قولها في رثـاء ابنها العباس[١١٩]:

يـــا من رأى العبــــاس كـــر	على جماهير النقـــــــــد
ووراه من أبنـــــاء حيــــــ	در كـل ليث ذي لبــــــد
أُنبئـت أن أبني أصيــــــــ	ب بـرأسـه مقطــوع يــد

ويلي على شبلي أمـــــــــال بـــرأســـه ضرب العمـــد
لـــو كـــان سيفك في يـــديـــك لما دنـــا منـــه أحـــد

إنها تعبر عن لوعتها وثكلها بأعز الأبنـاء الأربعة الذي استعرضت في أبيات رثائه مـا تحمله في ميـدان القتـال من فضخ رأسـه بعمود من حـديـد وقطع يـديه نتيجـة لإستماتته واستبساله في مقاومة الأعداء بـوصفه حامل اللواء. وقد اقتضت العادة أن لا يعطى اللـواء إلا لأشجع الرجـال المقـاتلين. فهي تعبر في البيت الأخير أنه لـو لم تقطع يداه وبقي السيـف في يديه، لم يجرؤ أحـد على الاقتراب منه. وكـان يكنى أبا الفضل، وأبا قربة، والسقاء، لأنه كـان يقتحم صفوف الجيش الأموي بالقوة ويأتي بـالماء إلى أطفـال الإمـــام الحسين ونسـائه، وكنى أيضـاً بقمـر بني هـــاشم لجمالـه الفائق[١٢٠].

ومن رثائها لأبنائها الأربعة قولها: [١٢١].

لا تـــدعـــوني ويك أم البنين تـــذكـــريني بليـوث العـــرين
كـــانت بنـــون لي أدعى بهم واليـوم أصبحتُ ولا من بنين
أربعـــة مثل نســـور الـــرُّبى قد واصلوا الموت بقطع الوتين
تنـــازع الخرصـان أشـــلاءهم فكلهم أمسى صريعـــاً طعين
يـــا ليت شعـــري أكما اخبروا بأن عبـــاســـاً قطيع اليمين

نعم أم البنين رثت أولادها وحـزنت عليهم لا جزعاً منها ولكن لبشـاعة الجريمة التي ارتكبت في حق قتلى كـربلاء، حيث قطعت رؤسهـم، وتركـت أجسادهم دون دفن في البيداء تصهرهـا الشمس المحرقة ولم يدفنوا إلا في اليـوم الثالث عشر، كما مر ذلك في الفصل الثالث.

إن أم البنين قدمت في ملحمة الإستشهـاد بكربلاء أربعة قـرابين فداء للدين من أجل أن تفيق الأمة مـن سباتها العميق ومن أجل أن ينقشع الظـلام ويزول الصمت عن مقبرة الأحيـاء. لقد تعبت أم البنين في تـربية أولادهـا تـربية تليق بـاليوم الـذي إدخرهـم فيه الإمام علي (ع) ليقفـوا إلى جانب أخيهم الإمام الحسين الذبح العظيم ـ ليدافعوا عن سبط رسول الله (ص) ويشاركوا في انقاذ الدين بدمائهم وأرواحهم.

لقد اقتطفت أم البنين ثمرة تربيتها يوم كربلاء الخالد صفحة ناصعة في جبين التاريخ البشري. إن تضحية أبنائها خلَّدت ذكرها، وخلَّدت دورها في اعدادهم لذلك اليوم العظيم.

إن بكاء أم البنين ورثاءها لبنيها الأربعة إنما هو جزء من الرسالة الإعلامية للإستشهاد، لفضح الجريمة وكشف الحقيقة للناس، وتذكيرهم بأحاديث الرسول (ص) عن فضائل أهل بيته وكراماتهم وتوقعاته بما يلحقهم من أذى ومطاردة وتقتيل على أيدي الأمويين والمروانيين وبني المغيرة، كما مر ذلك في الفصل الثالث.

إن أم البنين واحدة من رموز العطاء لدينها وأمتها، فهي نموذج للمرأة المؤمنة الصابرة.

٨ ـ آمنة بنت السيد حيدر الصدر (بنت الهدى):

استمر صراع الحق مع الباطل مع تعاقب العصور والأجيال في دولة النبوّة، ومع تمزق هذه الدولة إلى كيانات سياسية متعددة نتيجة الأطماع الشخصية والتطلع للسلطة من جانب واشتداد ظلم الحاكمين من جانب آخر.

وتعاقب على حكم دولة النبوّة بكياناتها الجغرافية والسياسية المتعددة أنظمة سياسية كثيرة مع انتهاء الحكم الأموي. أبرزها العباسيون والفاطميون والمماليك والصفويون والعثمانيون الذين كانت نهاية حكمهم اقتسام دولة النبوّة من قبل ما عرف بالاستعمار الأوروبي. وأبرز هذه الدول الأوروبية المستعمرة بريطانيا وفرنسا. ومع ظهور حركات التحرر بالعالم في مطلع القرن الحالي حصلت الأقطار التي خضعت للإستعمار الأوروبي القديم على استقلالها بصورة شكلية وظل النفوذ الأوروبي مهيمناً على هذه الأقطار بشكل جديد شمل الجوانب السياسية والثقافية والاقتصادية. وتمكنت دول الإستعمار الجديد ممثلة في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا من السيطرة على زمام الأمور في جميع دول العالم الثالث بشكل خاص، وبصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ومن ضمن أقطار دولة النبوّة التي وقعت ضحية للنفوذ الغربي العراق الذي يمتلك تراثاً حضارياً عظيماً، فقد شهد العراق قيام حضارات السومريين والبابليين

والكلدانيين والآشوريين، إضافة إلى خضوعه للإمبراطورية الكسروية، كما شهد نشأة الحضارة الإسلامية، فكانت الكوفة حاضرة دولة النبوّة في عهد الإمام علي (ع) وبغداد حاضرة دولة النبوّة في العهد العباسي الذي دام خمسة قرون.

ومنذ ثورة العشرين بالعراق التي تولى قيادتها رجال الدين، وشاركت فيها غالبية شرائح المجتمع العراقي في مواجهتهم لجيش الإحتلال البريطاني، وإلى اليوم لا يزال العراق يعاني من ويلات التسلط الأجنبي على الرغم من الإستقلال الشكلي للعراق منذ عام ١٩٢٣. ومع تغير نظام الحكم في العراق من ملكي إلى جمهوري منذ الثورة الشعبية في ١٤ يوليو ١٩٥٨ التي قضت على الحكم الملكي وإلى اليوم لم يشهد العراق استقراراً سياسياً، وذلك لغياب الحكم البرلماني الدستوري في العهد الجمهوري، علماً بأن العراق قد عرف الحكم البرلماني الدستوري في العهد الملكي منذ عام ١٩٢٥. كما شهد قيام أحزاب سياسية موالية ومعارضة للحكومة.

وقد اتضح فيما بعد أن هدف تلك الأحزاب هو استقطاب العناصر الشابة والمثقفة بها لإلهائهم بشعارات جوفاء ظاهرها خدمة الوطن وباطنها إضاعة وقتهم من جانب وإضعاف نفوذ القيادة الدينية المخلصة من جانب آخر للنفوذ الواسع الذي كانت تتمتع به بين غالبية شرائح المجتمع آنذاك.

لقد عانى المجتمع العراقي خلال العهد الجمهوري الويلات منذ الإطاحة بحكم عبد الكريم قاسم في ٨ فبراير ١٩٦٣، حيث حكم العراق حزب البعث منذ الإطاحة بنظام قاسم إلى نوفمبر ١٩٦٣، وحيث لم يجن الشعب العراقي خلالها غير إراقة الدماء وتصفية الحسابات بين الحزبيين خصوصاً البعث والشيوعيون. ومنذ نوفمبر ١٩٦٣ إلى عام ١٩٦٨ حكم العراق الأخوان عبد السلام عارف ومن بعده عبد الرحمن عارف، لم يجن الشعب العراقي أي تغيير أو تقدم خلال فترة حكمهما، بل عم الفساد الإداري جميع مرافق الدولة. ثم سيطر البعثيون على حكم العراق منذ ٣٠ يوليه ١٩٦٨، وإلى اليوم. وقد حرص نظام الحكم الأخير في العراق على أدلجة جميع فئات الشعب بالترغيب والترهيب حتى غدا العراق سجناً كبيراً، مما اضطر عشرات الآلاف للهجرة الى جميع أنحاء العالم، خصوصاً بين صفوف المتعلمين والمثقفين والملتزمين دينياً.

ومن أبرز إنجازات نظام البعث في العراق بناء قوة عسكرية كبيرة حيث أصبحت تمثل رابع قوة في العالم. ولم تبلغ تلك القوّة ذلك المستوى إلا بعاملين أساسيين: تكنولوجيا دول أوروبا الغربية والشرقية والصين، ودولارات النفط الخليجي، حيث انهالت عليه المساعدات المالية الضخمة من دول المنطقة منذ اشتعال حرب الخليج الأولى في ٢٢ سبتمبر ١٩٨٠ وحتى قبيل حرب الخليج الثانية التي بدأها العراق باحتلال الكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠. وقد تمكنت حكومة البعث من الحصول على تلك المساعدات من دول الخليج (السعودية، الكويت) عن طريق ابتزازها وتخويفها من أطماع الجمهورية الإسلامية الايرانية التوسعية في العهد الجمهوري، خاصة وأنها دول صغيرة وثرية.

إن صراع الحق مع الباطل ظل قائماً ومستمراً بعد استشهاد الإمام الحسين (ع) وبعد موت يزيد. وإذا كان صراع هابيل وقابيل نموذجاً للبشرية في الصراع بين الحق والباطل، فإن كل محب للحق هابيل، وكل محب للباطل قابيل. كذلك الحال في دولة النبوّة، حيث مثل الإمام الحسين (ع) في ملحمة كربلاء الاستشهادية وأخته زينب (ع) حزب الله وهو حزب الحق، بينما مثل يزيد بجيشه حزب الشيطان، حزب الباطل، فأصبح كل محب للحق: عبر تعاقب الأجيال هو استمرارية للإمام الحسين (ع) وأخته العقيلة زينب، وأن كل محب ليزيد إنما هو استمرار للباطل في هذه الدولة.

وكما كان القصر الأخضر بدمشق الذي أسسه معاوية بن أبي سفيان خلال حكمه، الذي دام اثنين وأربعين عاماً وكراً لاجتثاث مبادىء الإسلام الحقة أو جوهر الإسلام أو تفريغ الإسلام من محتواه والابقاء على الإسلام الشكلي بطقوسه وشعائره التقليدية التي لا تمس جوهر الحياة، كذلك نظام البعث في العراق، الذي تمخض فولد للشعب العراقي عار العروبة والإسلام، بل عار البشرية صدّام حسين، وحّول العراق من قلعة الأحرار والحرية إلى سجن كبير لجميع أبناء الشعب العراقي. ومن مركز للإشعاع الحضاري، يرفُدُ الحضارة الإنسانية بالعطاء في جميع المجالات ويخفف من حدة التخلف في المنطقة بشكل خاص، إلى جمهورية للرعب والدمار، فأصبح أبناء العراق وبناته رجالاً ونساء وأطفالاً مشتتين في جميع أرجاء المعمورة شرقاً

وغربـاً كما انعكست ممارسـات نظام صـدام بالسلب أيضـاً على شتى مناحـي حياة مجتمع المنطقـة بشكل خاص، وعلى الإقتصـاد العالمي بشكل عـام منذ تـولى حكم العراق بشكل مباشر في ١٧ يوليو ١٩٧٩ .

لقد فقدت العـراق من أبنائها في حرب الخليج الأولى أكثـر من ثلاثمئة وخمسين الف رجل، وفي الحرب الثـانية والثورة الشعبيـة التي أعقبتها مـا يزيـد على أربعمئة الف قتيل من رجال ونساء وأطفال فأصبح إجمالي القتلى في الحربين حسب تقديرات الصحف الإقليمية والعالمية والمنظمات الدولية ما يزيد على سبعمئة وخمسين الفاً .

ونتيجة لـذلك فان عدد الأرامل حسب التقـديرات الأولية التي خلفتهـا الحربان والثورة الشعبية لا يقل عن أربعمئة ألف أرملة .

ولكن على الـرغـم من وسـائل البطـش التي يحكم بها دكتـاتـورُ العـراق المجتمع العراقي، فإن البقيـة الباقية من أحرار العـراق رفضت الصمت، وانتفضت متمردة على كل ما يمتلكه نظام العبودية من أبشع وسائل الإبادة والقمع .

فبنت الهدى نمـوذج فذ للمـرأة العراقيـة بشكل عام والمسلمـة المؤمنة الـرساليـة بشكل خاص .

فبعـد مرور ألـف وثـلاثمائة وأربعين سنـة على ملحمة الاستشهـاد بكربـلاء أدى المفكر الاسلامي الشهيد آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر الدور الإصلاحي في الأمة الذي أنجزه الإمام الحسين (ع) كما قـامت أخته الشهيدة المفكرة بنت الهدى بـدور رسالي سـالكة خطى عقيلـة الطـالبيين زينب . والصدر وأختـه كان هـدفهما خدمة الـدين عن طريق توعية الأمة ورسـم الطريق الأمثل لها للتخلص من الفساد والتحـرر من النظام المتسلِّـط على رقاب الأمـة بصـورة غير شرعيَّة، فكـان مصيرهما الإعدام .

بـالسلاح وحـده تسلط صـدام على رقاب العـراقيين وبـالسلاح وحـده يضمن بقاءه، فلغـة التحدث مع أبنـاء شعبه هي لغـة السلاح والبطش . إنـه اسلوب كل الأنظمة السياسيـة بالعالم التي تفتقر إلى الشرعيـة كما كان عليه نظام سلطنـة قريش منذ بداية تأسيسه في عهد معاوية .

بنت الهدى هـو الأسم الأدبي للشهيـدة المفكرة آمنـة بنت السيـد حيدر الصـدر

شقيقــة الشهيــد آيــة الله العظمى محمــد بــاقــر الصـــدر وهي رفيقتــه في رحلتـــه الاستشهادية. كفلهـا وأخويها الشهيد الصدر والسيـد اسماعيل أخوالها، ثم كفلها أخوها السيد إسماعيل فترة من الزمن، ثم فضلت الالتحاق بأخيها الشهيد وعاشت معه فترات صباها وشبابها وكهولتها، وقد شاء الله أن تكون شقيقته في القرابة ورفيقته في درب العقيـدة والمبـدأ، كما رافقتـه في درب الإستشهــاد وجـاور قبرهـا قبره بعـد الإستشهاد(١٢٢).

كانت بنت الهدى للشهيد الصدر كما كانت العقيلة زينب للإمام الحسين (ع)، نذرت حياتها لخدمة الدين وقضايا المرأة، وعملت على نشر الوعي الديني والسياسي في صفوف المجتمع النسـائي في العراق بشكل خـاص والمنطقة بشكل عـام، وكان الشهيـد الصـدر بالنسبـة لها الأخ والأستـاذ والمربي والصـديق. إن تفرغهـا لخدمـة العقيدة والمبدأ جعلهـا تعزف عن متاع الدنيا حتى عن الزواج على الـرغم من أنه قد تقدم لخطبتها رجال من علية القوم(١٢٣).

وقبل الإسترسال في منـاقشة الـدور الذي لعبتـه الشهيدة بنت الهدى في خـدمة قضايا المرأة والعقيـدة يلزم التعرف على لمحة مـوجزة من حياة أخيهـا الشهيد الصدر الذي صاغ شخصيتها بكل ما فيها من ملابسات.

هـو أحد كبـار مراجع ومفكـري المسلمين البارزين في العـالم. تتلمذ على يـدي الإمام الراحل آية الله الخوئي ابتـداء من ١٣٦٥ هـ إلى ١٣٧٩ هـ، حيث قضى مدة أربع عشرة سنة بـالنجف، فكان التحاقه بـالحوزة العلمية بالنجف منذ هجـرته من بغداد إلى النجف(١٢٤).

كان الشهيد الصدر فيلسوفاً وعـالماً بالاقتصاد والمنطق والتاريخ والتفسير واللغة والرجال(١٢٥) من مـؤلفاتـه التي تُـرجم بعضهـا لعدة لغـات: إقتصـادنا، فـدك في التاريخ، فلسفتنا، الأسس المنطقية لـلإستقراء، التفسير الموضوعي للقرآن، الإمام المنتظر، مشروع دستور جمهورية ايران الإسـلامية، الذي صدر في كتيب بعنوان لمحة تمهيدية في الدستور الإسلامي، الفتاوى الواضحة، ودروس في علم الأصول(١٢٦).

كما تصـدى لتجـديـد المنـاهج في مـدرســة النجف ومشروع جـامعـة الكـوفـة الكبرى(١٢٧). كـذلك أدرك الواقـع المتخلف للمرجعيـة المعـاصرة فوضـع أطروحـة

لمشروع المرجعية الرشيدة التي تتعامل بفعالية مع آلام وآمال الأمة وتعمل جاهدة على تحقيق تطلعاتها في مرحلة صراعها مع القوى الإستكبارية[١٢٨]. كذلك كانت تصدر له مواضيع تعالج هموم الأمة بشكل عام نشرها في مجلة الأضواء التي تشرف الحوزة العلمية بالنجف على إصدارها. ثم جمعت تلك المقالات ونشرت في كتاب بعنوان «رسالتنا»، قدم له المفكر الإسلامي محمد حسين فضل الله. وللشهيد الصدر مقلدون من مدرسة الإمامة يتجاوز المليون بين رجل وامرأة من داخل وخارج العراق[١٢٩]. أسس حزب الدعوة في نهاية الستينات بعد أن لاحظ فشل الأحزاب الليبرالية في تحقيق تطلعات الأمة وحماية مكتسباتها وقد تأسست لهذا الحزب فروع في جميع أنحاء العالم بين صفوف مدرسة الإمامة، وخاصة العناصر الشابة التي استقطبتها أفكار الشهيد الصدر التي نادت وعملت على حتمية التغيير في العالم الإسلامي لإعادة الحياة للدولة النبوّية بمبادئها الإلّهية[١٣٠].

هذه هي الشخصية العظيمة التي تتلمذت الشهيدة بنت الهدى على يديها، فذابت في ذات الله حيث ترفعت على كل الماديات ولعل هذا هو سر عزوفها عن الزواج، إذ اختارت أن تقضي عمرها في جوار أخيها تنهل من نمير علمه وتستضيء بأفكاره النيّرة في كفاحها من أجل توعية المرأة والنهوض بها من وحل الماديات.

هكذا نشأت الشهيدة في بيئة علمية، فتعلقت بالعلم منذ نعومة أظافرها من خلال المواظبة على القراءة وحضور الدروس في علم الفقه والعربية. وعلى الرغم من ضنك العيش الذي ألمّ بعائلتها إلا أنها كانت تحرص على توفير بعض المال لشراء الكتب حيث عملت على تبادل الكتب بينها وبين إحدى صديقاتها[١٣١].

ونقلت والدتها أنها كانت تهتم بالقراءة والتركيز كما كانت تميل إلى الانفراد والتأمل، وتهيء فكرها للعطاء على الرغم من ميلها للمجاملات الإجتماعية المألوفة[١٣٢].

نقل عنها أنها كانت، في إحدى الجلسات، مع أخيها الشهيد، وبين يديه كتاب «فلسفتنا» محاولاً شرحه وبيان بعض غوامضه، فقالت له: «سيدنا أين أنا منكم؟، إن الفلسفة معقدة وأنتم أهل لها». فأجابها الشهيد قائلاً: «لا يهمُّ، أنت أقدر مني... !» فقالت: «وكيف؟» فقال: «أنت تكتبين الشعر، وأنا مع حبي للشعر وتذوقي له وقدرتي على صياغة الأسلوب البلاغي حاولت فلم أستطع أن

أَنْظِمَ بيتاً واحداً، إنها موهبة فأنتِ أقدر مني في هذا المجال. إذن تعادلنا»[١٣٣].

إنه يحاول أن يأخذ بيدها ويعدُّها لتقوم بدور قيادي لتوجيه المرأة وتنوير الطريق لها لتلعب دور الإنسان الطبيعي في مجتمعها. فقد لمع نجم الشهيدة بنت الهدى في المجال الإجتماعي والتربوي والعلمي، وصار لها شأن كبير على صعيد العمل النسائي فعهدت اليها مسؤوليات أثبتت كفاءة عالية في انجازها. منها أنها أشرفت على المدارس الدينية التي اسستها الحوزة العلمية في كل من النجف والكاظمية، إلا أنها سرعان ما بادرت للإستقالة من عملها على أثر الحملة القمعية التي أقدمت عليها حكومة البعث في العراق والتي أدت إلى فصل تلك المدارس عن إدارة وإشراف الحوزة العلمية بالنجف وتحويلها إلى مدارس رسمية بعيدة عن الطابع الإسلامي. إنها امرأة رسالية لا يمكن أن تستسلم لمثل تلك الحركات الجبانة التي ملأتها حماساً واصراراً على مواصلة دورها الرسالي بين صفوف المجتمع النسائي بالنجف، فحولت مجلسها المتواضع في بيت أخيها الشهيد إلى مدرسة للنساء تدرسهم الأحكام الإسلامية وتفسير القرآن والثقافة الإسلامية وتنشر الوعي الديني والسياسي بينهن، فتخرج العديد من النساء المسلمات الملتزمات من ذلك البيت المتواضع الصغير بحجمه الكبير بتطلعاته لتحقيق آمال الأمة وإصلاح ما أفسده الحكم الجائر[١٣٤].

بدأت تجربتها في الكتابة بنشر مقالات في مجلة «الأضواء» التي تعالج قضايا المرأة بشكل عام[١٣٥].

كما أنها أصدرت أحد عشر كتاباً وهي مجموعةٌ من القصص ركزت فيها على قضايا المرأة المسلمة بشكل عام خصوصاً ما يتعلق بالآداب العامة للمرأة المسلمة من قضايا الحشمة والحجاب.

وحرصت في كتابتها على استخدام الأُسلوب الأدبي القصصي بتوجيه من أخيها الشهيد الصدر[١٣٦]. كما تميزت كتابتها بلغة تتماشى مع روح العصر واستخدمت عناوين جذابة لهذه القصص تتفق وميول نساء وفتيات العصر، كما يتضح من عناوين هذه الكتب وهي: صراع من واقع الحياة، الخالة الضائعة، الفضيلة

تنتصر، ذكريات على تلال مكة، المرأة مع النبي، كلمة ودعوة، ليتني كنت أعلم، امرأتان ورجل، لقاء في المستشفى، الباحثة عن الحقيقة، بطولة المرأة المسلمة[١٣٧].

ومن مختاراتها الشعرية[١٣٨]:

قسماً وان مُلِىء الطـــــريـق	بما يعيـق السير قـــــدمـــــا
قسماً وإن جهـــد الـــزمـــان	لكـي يثبط فيَّ عـــــزمـــــا
أو حـــاول الـــدهـــرُ الخؤون	بـأن يـــــريش إليَّ سهما
وتفـــاعلت شتى الظــروف	تكيـلُ آلامــــــا وهمَّا
فتراكمـت سُحُبُ الهمـــوم	بـأفـق فكــــري فـأدلهماً
لـــن أنثنــــى عما أرومُ	وإن غـدت قـدمـاي تـدمى
كـــلا، ولـن أدع الجهـــاد	فغـــــايتـي أعلى وأسمـى

وقالت أيضاً[١٣٩]:

أنــــا كنـتُ أعلـمُ أن درب	الحق بـــالأشـــواك حـــافل
خـــال من الـــريحان ينشرُ	عطـــــــره بين الجداول
لكنني أقــدمتُ اقفــو السير	في خطـــــــو الأوائل
فلطـــالما كـــان المجـــاهـد	مفـــرداً بين الجحـــافـل
فـــالحق يخلُـدُ في الـــوجـود	وكـل مـــا يعـــدوه زائل
سأظلُّ أشـدو بـاسم اسلامي	وأنكـــرُ كـل بـــاطـل

تقسم الشهيـدة بنت الهدى في الأبيـات الأولى، على المضي في الجهـاد من أجل إعلاء كلمـة الله ومن أجل إحقاق الحقِّ وإزهاق الباطل، إنها تصـوِّر الأوضاع التي تجتاح العراق فتبدو أوضاعاً مؤلمة ملأت قلوب الناس بالهموم الخانقة، وخيم الظلام الذي يعنـي الجور ومصادرة الحريات، فمهما بلغ القمـع إلا أنها ستواصل رسـالتها الجهاديـة غير عابئة بتلك العقبات وستقفـز عليها لتحقيق الغايات السـامية، فهي أغلى من حيـاتها. إنه لا يقبل بـالعيش الـذليل إلا الـذليل، فإذا استحالت الحيـاة

الكريمة عند الحر فإن وسيلته الوحيدة للحياة الأبدية هي القفز على الموت لبلوغ الشهادة التي تضمن له كرامته. قال المتنبي:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريمٌ   تحت ظل القنا وخفق البنود

أما في المجموعة الثانية من شعرها فإنها تؤكد أنها اختارت طريق الحق لمقارعة الباطل ومصارعته، مع علمها أن ذلك الطريق مليء بالشوك، لكنها عشقت طريق خديجة وفاطمة الزهراء وزينب وسمية أم عمار وأم البنين وجميع النساء الرساليات اللاتي قدَّمن النموذج للمرأة الرسالية من أجل الانتصار للدين، ومن أجل الكرامة والحرية.

إن الشهيدة بنت الهدى قد عشقت الخلود، لذلك أصرت على مواصلة إعلاء كلمة الحق واستنكار الباطل. إنها تسخر من أساليب القمع، لأنها تعلم أن تلك الأساليب جسراً سهلاً لبلوغ الشهادة والعزة والكرامة.

وقالت أيضاً متباهية بعفتها وعصمتها[١٤٠]:

بيد العفاف أصون عز حجابي   وبعصمتي أسمو على أترابي

وبفكرة وقَّادةٍ وقريحةٍ   نفاذةٍ قد كملت آدابي

ما عاقني خجلي عن العليا ولا   سد الخمارُ بلمتي ونقابي

إنها تفخر بأنَّ العفاف لا يعيق المرأة المسلمة من تأدية دورها الفعال في المجتمع في مختلف المجالات التي يمكن أن تطرقها المرأة.

ولها أيضاً[١٤١]:

«رجعية» إن قيل عنك فلا تبالي واصمُدي

قولي: أنا بنت الرسالة من هداها أهتدي

لم يثنني خجلي عن العليا ولم يغلل يدي

كلا. ولا هذا الحجاب يعيقني عن مقصدي

فغدٌ لنا، أختاه، فامضي في طريقك واصعدي

الحق يا أختاه يعلو فوق كيد المعتدي

تمكنت الشهيدة بنت الهدى من أن تلعب دوراً فعّالاً عن طريق الكلمة لنشر الوعي الديني والسياسي في الأوساط النسائية؛ ذلك الوعي الذي يقوم على مبادىء الإسلام، ويذكر المسلمات بتضحيات النماذج النسائية الرسالية من آل رسول الله(ص)، سواء كان خلال إشرافها على المدارس الدينية للحوزة العلمية أم أثناء تدريسها في بيتها، أم عند نشر المقالات في مجلة الأضواء، أم في كتبها القصصية التي تداولتها المرأة داخل وخارج العراق.

لذا يمكن القول بان انتشار الوعي الإسلامي في الوسط النسائي في العراق بشكل خاص ومنطقة الخليج بشكل عام من اتباع مدرسة الإمامة راجع إلى نشاط الشهيدة بنت الهدى وعلى الأخص بين العناصر النسائية الشابة. فلا غرابة أن تقدم سلطات العراق الظالمة على إخماد هذا الصوت الرسالي الذي يحث نساء الأمة وبناتها على أن يقتدوا بسيرة خديجة وفاطمة وزينب وكل النساء المؤمنات بدولة النبوّة السائرات على دربهن.

لقد علمت سلطة البعث بموقع الشهيدة بنت الهدى من الحركة الإسلامية التي يقودها الشهيد الصدر، في محاولته لتأسيس نظام إسلامي، فعزمت على التخلص منها ومن أخيها عن طريق التصفيات الجسدية(١٤٢).

وحينما اعتقلت السلطات العراقية الشهيد الصدر في مارس ١٩٨٠، ذهبت إلى مرقد الإمام علي (ع) تخبر الناس باعتقال الشهيد الصدر وتمخض عن ذلك خروج مظاهرة تدين النظام الحاكم في العراق وتهتف بحياة الشهيد الصدر(١٤٣). لقد كانت تعلم بردود فعل السلطات العراقية العنيفة ضدها، لكنها كانت تقوم بواجبها الرسالي تجاه الدين وتجاه الأمة لكشف أساليب ذلك الحكم الجائر أمام كل الناس ليقوموا بواجبهم الشرعي، ولإلقاء الحجة عليهم.

لذلك وقفت السلطات البعثية بالمرصاد للشهيدة المناضلة بنت الهدى، تتحين الفرصة لاعتقالها والتخلص منها إلى الأبد. فما أن القت القبض على الشهيد الصدر حتى قام جلاوزة صدام: أبو سعد مدير الأمن في النجف ومعاونه أبو شيماء باعتقال

الشهيدة البطلة بنت الهدى بحجـة أن أخاها الشهيد الصدر قـد طلبها وأنها ستعود إلى بيتهـا عاجـلاً، فما كان من زوجـة الشهيـد الصدر إلا أن تعلقت بأذيـالها حيث بقيت بدون كفيل وأبت إلا اصطحابها، لولا أن الشهيدة الصابرة بنت الهدى طلبت منها الصمـود لتتحمل رعايـة الأسرة قائلة: «أُخيَّـة، وكيف تأتين معي؟ ومن يبقى للأطفـال ووالدتي العجوز المنكوبـة؟ . . ابقِ هنا وسأذهب برعايـة الله تعالى». نعم كانـت تلك الرحلـة من النجف إلى بغداد بمثـابة رحلـة الشهادة مع أخيهـا المفكر والمناضـل العظيم الشهيد الصـدر وكان استشهادهما في التـاسع من نيسان/ ابـريل ١٩٨٠م[١٤٤].

إنها اختـارت حياة العـزة وحيـاة الخلود على العيش الـذليل الـذي لا يرضـاه إلا الصامتون في مقبرة الأحياء. نعـم، لقد تحوَّل العراق بفضل الآلة العسكرية الضخمة التي مولها حكام الاستكبار العالمي وامتلكهـا صدام، إلى مقبرة كبيرة للأجيال يلفها ظلام دامس وليل طويل.

إن صراع الحق مع الباطل قائم. كل تـابع للباطل هو يزيـد وكل تابع للحق هو حسين وزينب. فـالشهيدة بنت الهدى نمـوذج لزينب، والشهيـد الصدر نمـوذج للحسين، وصدام نموذج ليـزيد. يزيد أبـاد الرجال والأطفال في كـربلاء، كما سيَّر النساء والأطفـال من آل رسول الله (ص) في رحلـة السبي الشـاقَّة من بلـد إلى بلد، لكنـه لم يقتل النساء بعـد قتل رجـالهن كما فعل صـدام، على الرغم من أن السيـدة زينب قد قرعت ابن زياد في القصر الأبيض بالكوفة ويزيد بالقصر الأخضر بدمشق بكلماتها القاسية وبصوتها الجهوري.

يزيد سمح لآل رسول الله (ص) بـاقامة مأتم على الإمام الحسين (ع) في قصره، حينما ثـارت عليه نسـاؤه واستنكرت عملـه[١٤٥]، لكنَّ صـداماً منـع إقامـة مجالس الفاتحة على الشهيد الصدر والشهيدة أخته بنت الهدى، كما إنهما لم يحظيا بالتشييع، ودفنـا ليلاً بـواسطة جـلاوزة السلطة البعثيـة حتى إن المرجعية بـالنجف لم تجرؤ على إقامة الفاتحة على روح الشهيدين، ولا على شجب جـريمة الإعدام البشعة. إن هذا الموقف السلبي جاء امتداداً للصمت الرهيب الذي يلف مقبرة الأحياء في عراق علي

وفي عراق ملحمـة الشهادة. ولم يكتف صـدام بذلك بـل نقل أسرة الشهيد البـاقية المكـونـة من زوجتـه وأولاده الأطفال الأربعـة وأمـه العجـوز إلى بغـداد. نعم كأنهن سبـايا، كما سير يـزيد آل رسـول الله (ص) من كربـلاء إلى الكوفـة ومن الكوفـة إلى دمشق، كـذلك فعل صـدام بالثكـالى، هكـذا يكافـأ المفكرون والعظماء في عـراق صدام. وهكذا يحكم «التقـدميون» أمة الإسلام بعـد النبي محمد (ص). أمن أجل هـذا المصير استشهـد المسلمـون الأوائل في حـروب الحق مع البـاطل؟ إن صـدامـاً ورجالـه امتداداً لبقايـا الأحزاب والمنافقين. فـلا عجب من إقدامهم على مثل تلك الجرائم التي يندى لها جبين الإنسانية.

ولكن يبقى الإختيار للإنسان وحده كيف يعيش وكيف يموت. إن من يختار أن يعيش بعز يموت بعز، ومن يختار أن يعيش بذل يموت بذل كذلك.

إن الشهادة ميراث العظماء ودعاة الحق في التـاريخ، كما أن الجريمة ميراث الجناة والمجرمين ودعاة الباطل في التاريخ أيضاً. وعليك أن تختار فإما أن تكون داعية حق أو داعية باطل!

والملتقى عند الشروق ﴿... إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾(١٤٦). حينها سيفيق الناس من سباتهم ليتغنوا بشعر بنت الهدى في الحرية....

هوامش الفصل الرابع

(١) إبن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد٢، ج١ ص٥٣٧، أيضاً، الزركلي: الأعلام، المجلد الثالث، ص ١٤٠.
(٢) الزركلي: نفسه، ص ١٤٠ ـ ١٤١.
(٣) الشرقاوي: المرجع السابق، ج٢، ص٧١.
(٤) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٢، ج١٠، ص٥٣٧ ـ ٥٣٨، أيضاً الشرقاوي: نفسه، ج٢ ص ٧٢.
(٥) سورة النحل: ١٠٦
(٦) الزركلي: نفسه، ص١٤١، أيضاً، الشرقاوي: نفسه، ج٢، ص٧٠.
(٧) سورة الأنعام: ١٢٢.
(٨) نفسها.
(٩) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٢، ج١٠، ص٥٣٨.
(١٠) نفسه.
(١١) نفسه.
(١٢) نفسه.
(١٣) هجر: الاحساء.
(١٤) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٢، ج١٠، ص٥٣٨.
(١٥) الشرقاوي: المرجع نفسه، ج٢، ص٧٨.
(١٦) نفسه، ص ٨٥.
(١٧) الأمين: المرجع السابق، مجلد٨، ج٤١، ص ٣٧٥.
(١٨) نفسه، ص ٣٧٢.
(١٩) نفسه، ص ٣٧٣.
(٢٠) إبن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٢، ج١٠، ص٥٣٨.
(٢١) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ٨، ج٤١، ص ٣٧٣.
(٢٢) نفسه، مجلد٣، ج١١، ص٣٠٦.
(٢٣) نفسه، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.
(٢٤) نفسه، ص ٣٠٦.
(٢٥) نفسه.
(٢٦) نفسه، مجلد١، ج٢، ص٢٣٣.
(٢٧) نفسه، مجلد١، ج٢، ص٢٣٣، مجلد٣، ج١١، ص٣٠٦، مجلد٤، ج١٦، ص١٢٠ ـ ١٢١.
(٢٨) نفسه، مجلد١، ج٢، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤، مجلد ٤، ج١٦، ص ١٢١ ـ ١٢٣.
(٢٩) نفسه، مجلد١، ج٢، ص٢٣٢، مجلد٤، ج١٦، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.
(٣٠) نفسه، مجلد١، ج٢، ص ٢٣٤.
(٣١) يماني: المرجع السابق، ص٢١٤ ـ ٢١٥.

(٣٢) الأمين: المرجع نفسه، مجلد٣، ج١١، ص٣٠٧.
(٣٣) نفسه، مجلد٤، ج١٦، ص١٢٠.
(٣٤) نفسه.
(٣٥) نفسه.
(٣٦) نفسه، ص١٢٠، ١٢١.
(٣٧) نفسه، مجلد٣، ج١١، ص٣٠٦، أيضاً، ةابن الحديد، مجلد٣، ج١٥، ص٤٠٦.
(٣٨) الأمين: نفسه، مجلد٤، ج١٦، ص١٢٥، أيضاً، ابن أبي الحديد: نفسه، ص٤٠٦ ـ ٤٠٧.
(٣٩) ابن أبي الحديد: نفسه، مجلد٢، ج٦، ص٢١.
(٤٠) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص٢٢، أيضاً، الأمين: نفس المرجع، مجلد٣، ج١١، ص٣٠٦.
(٤١) الأمين: نفسه، مجلد٤، ج١٦، ص١١٩.
(٤٢) نفسه.
(٤٣) البخاري: المرجع السابق، مجلد٢، ج١٧، ص٢٣٦، أيضاً، الطبري: المرجع السابق، ص٢١٣ ـ ٢١٤.
(٤٤) الأمين: المرجع نفسه، مجلد٣، ج١١، ص٣٠٧.
(٤٥) نفسه، ص٣٠٨.
(٤٦) نفسه.
(٤٧) المجلسي: المرجع السابق، ج٤١، ص٣.
(٤٨) سورة آل عمران: ١٤٤
(٤٩) سورة آل عمران: ١٤٥.
(٥٠) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٣، ج١٤، ص٣٧٦ـ٣٧٧.
(٥١) نفسه، ص ٣٧٧.
(٥٢) نفسه، ص٣٧٨.
(٥٣) سورة الحجرات: ١٤.
(٥٤) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٣، ج١٤، ص٣٧٨.
(٥٥) نفسه.
(٥٦) نفسه، ص ٣٧٧.
(٥٧) نفسه، ص٣٧٨.
(٥٨) نفسه، ص٣٧٥.
(٥٩) نفسه.
(٦٠) سورة الفتح. ٧١.
(٦١) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٣، ج١٤, ٣٧٥.
(٦٢) نفسه.
(٦٣) نفسه.
(٦٤) سورة القلم: ٤.
(٦٥) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٣، ج١٤، ص٣٧٥.
(٦٦) نفسه.
(٦٧) نفسه.
(٦٨) نفسه.

(٦٩) نفسه.
(٧٠) نفسه.
(٧١) نفسه.
(٧٢) نفسه، ص٣٧٥ـ٣٧٦.
(٧٣) نفسه، ص٣٧٦.
(٧٤) نفسه.
(٧٥) نفسه.
(٧٦) نفسه.
(٧٧) نفسه، مجلد٣، ج١٥، ص٣٩٥.
(٧٨) نفسه.
(٧٩) الزَّركلي: المرجع السابق، مجلد١، ص٣٠٦.
(٨٠) نفسه.
(٨١) الأمين: المرجع السابق، مجلد٣، ج١١، ص٣٠٧.
(٨٢) الزلاكلي: المرجع نفسه، مجلد١، ص٣٠٦.
(٨٣) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٢، ج٩، ص٤٢٥.
(٨٤) نفسه.
(٨٥) نفسه.
(٨٦) نفسه.
(٨٧) نفسه.
(٨٨) نفسه.
(٨٩) نفسه، ص٤٢٦.
(٩٠) نفسه.
(٩١) الزركلي: المرجع نفسه، مجلد٢، ص٨٦، أيضاً، عوضين: ديوان الخنساء، القسم الأول، ص١١ ـ ١٥.
(٩٢) عوضين: نفس المرجع، القسم الأول، ص٤٠ ـ ٤١.
(٩٣) نفسه، القسم الثاني، ص٤٠٨ـ٤٠٩.
(٩٤) نفسه، القسم الأول، ص٦٨.
(٩٥) نفسه.
(٩٦) نفسه، ص٦٨ـ٦٩.
(٩٧) نفسه، ص٦٩.
(٩٨) نفسه.
(٩٩) نفسه.
(١٠٠) سورة محمد: ٣١.
(١٠١) أحن: ضغائن.
(١٠٢) سورة التوبة: ١٢.
(١٠٣) يعرج: يميل، الدأب: العادة.
(١٠٤) الأمين: المرجع السابق، مجلد٣، ج١٢، ص٤٧٧، أيضاً، الشرقاوي: المرجع السابق، ج٢، ص٦١.
(١٠٥) الحرمل: نبات كالسمسم.

(١٠٦) سامة خسفاً: أذلة.
(١٠٧) كشف الغمة، ص٥٠، عن المجلسي. المرجع السابق، ج٤١، ص١١٩.
(١٠٨) نفسه.
(١٠٩) سورة الأعراف: ٨٥.
(١١٠) كشف الغمة، ص٥٠ عن المجلسي: المرجع نفسه، ج٤١، ص١١٩ـ١٢٠.
(١١١) سورة آل عمران: ١١٠.
(١١٢) متفق عليه.
(١١٣) الأمين: المرجع السابق، مجلد٧، ج٣٧، ص٤٢٩، مجلد٨، ج٤١، ص٣٨٩.
(١١٤) نفسه، مجلد٧، ج٣٧، ص٤٢٩ـ٤٣٠.
(١١٥) نفسه، ص٤٣٠.
(١١٦) نفسه.
(١١٧) نفسه.
(١١٨) نفسه، مجلد٨، ج٤١، ص٣٨٩.
(١١٩) نفسه.
(١٢٠) نفسه، مجلد٧، ج٣٧، ص٤٢٩.
(١٢١) نفسه، مجلد٨، ج٤١، ص٣٨٩.
(١٢٢) الحسيني: الإمام الشهيد، محمد باقر الصدر، ص٣٢٧.
(١٢٣) مصادر خاصة.
(١٢٤) الحسيني: المرجع نفسه، ص ٦٨ـ٧٠.
(١٢٥) نفسه، ١٠٧.
(١٢٦) نفسه، ص ١٠٧ـ١٩٦.
(١٢٧) نفسه، ص٧١، ٢٠١ـ٢١٨.
(١٢٨) نفسه، ص٢٦٩ـ٢٨٩.
(١٢٩) أيضاً، مصادر خاصة.
(١٣٠) الحسيني: نفسه، ص٢٢١ـ٢٦٧، ٢٩٢ـ٣٢١.
ايضاً،

Batatu, Hanna: Iraqs Underground Shi Movements: charactervstics, causes, and prospects, a paper submitted to a symposium on "Iraq: The contemporary state" Which was held at the university of Exeter, united kingdom between 9 and 12 July 1981.

(١٣١) أم فرقان: بطلة النجف، ص١٧، عن الحسيني: المرجع نفسه، ص ٣٢٨.
(١٣٢) نـزار، جعفر: الشهيـدة زينب الهدى، عذراء العقيـدة والمبدأ، ص٢٥، عن الحسيني: المرجع نفسـه، ص ٣٢٨.
(١٣٣) أم فرقان: نفس المرجع، ص٤٢، عن الحسيني: نفسه، ص٣٢٨.
(١٣٤) الحسيني: نفسه، ص٣٢٨-٣٢٩.
(١٣٥) نفسه، ٢٣٩، ٣٣٠.
(١٣٦) نفسه، ص٣٢٩.
(١٣٧) نفسه.
(١٣٨) نفسه، ص ٣٣٠.
(١٣٩) نفسه، ص٣٣٠ـ ٣٣١.
(١٤٠) نفسه، ص ٣٣١.
(١٤١) نفسه.
(١٤٢) نفسه، ص ٣٢٩.
(١٤٣) نفسه، أيضاً، مصادر خاصة.
(١٤٤) نفسه، ص٤٠٥.
(١٤٥) العسكري: المرجع السابق، ص١٦٦.
(١٤٦) سورة هود: ٨١.

الخاتمة العامة

من خلال النماذج النسائيـة التي تناولتها هذه الـدّراسة يمكن الاستنتاج أن المرأة المؤمنة كـان لها دور مشرّف وبارز قـامت به في ظل دولـة النبوّة، سـواء كان ذلك في السلم أم في الحرب، وخاصة خلال العقود الأربعة الأولى من قيام دولة النبوّة.

أما دورها في السلم، فإن أول من استجاب للدعوة الإسلامية المحمدية امرأة هي السيدة خديجة بنت خويلـد زوجة النبي (ص)، وإن أول من استشهد في سبيل الله وقاوم كل وسائل التعذيب الـوحشي امرأة، وهي سمَّية أم عمار بن ياسر كما ضحّت المرأة بفـراق الأهل والوطن، وتحمّلت آلام الغـربـة خلال هجـرتي: الحبشة والمدينـة المنوّرة، كذلك شاركت المرأة في بيعتي العقبة الأولى والثانية، وفي غدير خم شاركت المرأة في مبايعة الرسول (ص) وعلي حينما نصبه إماماً ووصيّاً وخليفة له على أمته. هذا إلى جانب دورها الإجتماعي في إعداد جيل صالح.

كما كـانت تحضر المساجـد ـ التي كـانت عصرئذ أهم مـؤسسة تعمل على بلـورة الوعي الفكري والسياسي والإجتماعي ــ لتمارس دورها الإيجابي في التعليم، وتناقش الخليفة في إبداء رأيها حول قضايـا المرأة فيما يتعلق بحقوقها وواجباتها. أما دور المرأة الرسالية في الحرب، فقد قامت بواجبها الديني والإنساني في الدفاع عن دينها وأمتها ووطنها وفقاً لإمكـانياتها المتواضعة آنـذاك. فقد وقفت بكل شجاعة وشمـم تساند مقاتلي جيش دولة النبوّة، فكان النّسـاء يسعفن الجرحى بتضميد جراحهم، ويوفرن الماء والطعام لهم ويصطحبن الجرحى، وأحياناً القتلى إلى المدينة كما حصل في معركة أحد.

لذا، فإنه لا يستصغر دور المرأة إلا جاهل أو مكابر. وإذا حصل اضطهاد لها في

العهود اللاحقة، فإنما هو جزء من اضطهاد الكل فيصبح اضطهادها مضاعفاً، وذلك يعود إلى استبداد غالبية الحكومات الإسلامية وإنحرافها عن المبادىء التي رسمها النبي (ص) لتأسيس دولته.

لقد أراد الرسول (ص) الكمال لمجتمع دولته: رجالاً ونساءً مهما تعددت ألوانهم وأعراقهم وأديانهم، كل يخدم الدولة وفق امكانياته، سواء كان ذلك في السلم أم في الحرب، مع ضمان كافة حقوقه الإجتماعية والسياسية..

في حرب الخليج الثانية، ومنذ سيطرة القوات العراقية في أغسطس ١٩٩٠، على الأراضي الكويتية وحتى جلائها في ٢٨ فبراير ١٩٩١، حشدت دول الحلفاء جيوشاً بلغت مئات الآلاف من الجنود بينهم آلاف المقاتلات في الأسلحة الثلاثة: البرية والجوية والبحرية. لقد استغربت بعض فئات المجتمع الخليجي: رجالاً ونساء من مشاركة المرأة في هذه الحرب، علماً بأن المرأة الرسالية في دولة النبوّة قد لعبت دوراً مشرفاً في الحروب، قبل أربعة عشر قرناً من حرب الخليج الثانية، سواء كان بممارسة القتال كما فعلت نسيبة في أحد وأسماء بنت يزيد في اليرموك، أو بقيامها بأعمال الإغاثة في العديد من الحروب. فلماذا هذا الإستغراب؛ إنه جهل بالتراث والتاريخ حيث يعيش الإسلام في غربة بين أهله، إنه ناتج عن سيادة الإسلام السلطوي وغياب الإسلام النبوي.

فمنذ مطلع العقد الهجري الخامس وإلى اليوم عانى الإنسان في ظل ما يسمى بالحكم الإسلامي المتاعب والآلام نتيجة التغيير والتحريف. إنه ظلم للتاريخ وحقائقه، الإعتقاد بأن تخلف المجتمعات الإسلامية عن الركب الحضاري للإنسانية ناشىء عن قصور في تشريعات الإسلام. إن حكماً كهذا يعتبر ظلماً للحقيقية بكل المقاييس. فالدين الإسلامي، سواء كان عقيدة أم نظاماً، صار أسيراً بيد الحكام يكيّفونه وفقاً لما تقتضيه مصالحهم. ولهذا السبب بدأ هجوم المستشرقين وغيرهم على الإسلام، واعتبروه أفيوناً للشعوب.

نعم، إن الإسلام الشكلي، وهو السائد اليوم، هو أفيون للشعوب، لأنه يقتصر على المظهر ولا يمتُّ بصلة إلى الجوهر. وليس من شك في أنه لا يحق لأحد بعد

رسول الله (ص) أن يغير أو يبدل ما أحله أو حرمه، فحلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة. وكما مر سابقاً فإن سلطنة قريش التي أ، سسها الأمويون مسؤولة بشكل كامل عن كل هذه التغييرات والتحريفات التي ألمت بالتشريعات الإسلامية بشكل عام وتفسير القرآن والحديث بشكل خاص، علماً بأن رجال سلطة الخلافة هم الذين مهدوا بقصد أو غير قصد لتأسيس النفوذ الأموي.

وعلى أية حال، فمهما ارتكب رجال سلطة الخلافة من أخطاء في حق العترة والأمة، فإن صحبتهم لرسول الله (ص) في السلم والحرب يجب أن يكون لها تقديرها واحترامها عند الجميع. وكما كانت لهم سلبيات فقد كانت لهم إيجابيات، أبرزها الحفاظ على وحدة الرقعة الجغرافية لدولة النبوّة بعد وفاة المؤسس، بل وتوسيعها ونشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية، بالإضافة إلى نسخ القرآن وتوزيعه على أقاليم الدولة، المعروفة آنذاك.

إن الأجيال المتعاقبة في دولة النبوّة ليست مسؤولة عن ارتكاب أخطاء السلف، ولكن مسؤوليتها تكمنُ في إصلاح تلك الأخطاء وليس في تعميقها، بهدف الحفاظ على وحدة الأمة، وفهم التاريخ والتراث لدولة النبوّة فهماً واعياً متحرراً بعيداً عن التزييف والتشويه والعصبية. وإنّ هذا الواجب لا يناطُ فقط بالشعوب ولكنه مسؤولية الحاكمين.

إن المواقف التي سجلتها المرأة المؤمنة، خلال العقود الأربعة الأولى من الهجرة، بل ومنذ بداية الدعوة تعتبر مصدر فخر واعتزاز، لا لنساء دولة النبوّة فقط، وإنما لبنات حواء بشكل عام في كل زمان ومكان. لقد ضحت المرأة إلى جانب الرجل بكل ما تملك من أجل إبراز كيانها من جانب ونصر رسالة السماء ومؤازرة إخوتها وأخواتها في العقيدة.

كانت كل من السيدة خديجة والسيدة فاطمة الزهراء والعقيلة زينب، نموذج البيت النبوي للمرأة، مدرسة لأجيال المجتمع النسائي في دولة النبوّة. فالسيدة خديجة هي النموذج الرسالي الأول، فقد قاومت كل كبرياء قريش، وفضّلت أن تضحي بكل شيء حتى بصحتها وصمدت لدعم الحق وهي سيدة قريش وجدة الأئمة الأطهار.

وهذه السيدة فاطمة الزهراء، أم الأئمة الأطهار، وأم المصائب، تواجه اليتم منذ طفولتها كما واجهه أبوها، وتعيش مع والدها معاناته وتحمله إيذاء قريش، ثم تتحمل مسؤولية حياتها الزوجية القاسية فتكون نعم الزوجة الصابرة للإمام علي؛ حيث أفنت عمرها القصير في خدمة زوجها وأولادها وتحملت شظف العيش دون أن يكون لها ميزة على سائر نساء الأمة. وقد وقفت بكل شموخ بعد رحيل والدها(ص) معلنة استنكارها ورفضها ظلم السلطة للعترة باغتصابها حقها حتى قضت شهيدة بغصصها.

كذلك فإن عقيلة الطالبيين زينب ثمرة بيت النبوّة، وجامعة الرزايا تضرب المثل الأعلى للمرأة المناضلة المتمسكة بعقيدتها صمدت بكل شموخ متحدية السلطة الأموية بكل جبروتها وهمجيتها على الرغم من عظم المصيبة وفداحة الخطب، وقفت في القصور الأموية بالكوفة ودمشق تقرّع رجال السلطة باللغة الرسالية التي تعلمتها في بيت الوحي والطهارة والإيمان والعصمة، وتعلن في تلك القصور أن دين محمد(ص) لن يموت، وأن نور الإسلام لن ينطفِىء، وظلت تكشف في خطبها لجماهير المجتمع الإسلامي رياح التغيير والتحريف التي هبت على دولة النبوّة في محاولة لزعزعة أركان هذه الدولة التي قامت عليها، وهي مبادىء لا تتفق وأهواءهم وتطلعاتهم الشخصية. فكانت شريكاً صادقاً وأميناً لثورة أبي الأحرار الإمام الحسين(ع).

لقد أثبتت نساء البيت النبوي الثلاث بشكل خاص والنماذج العشرة لنساء دولة النبوّة: سمية، وأسماء بنت عميس ونسيبة وهند والسمداء وأسماء بنت يزيد وتُماضر وسودة وأم البنين وبنت الهدى بشكل عام أنّ جذوة النبوّة سيظل نورها مشتعلاً طالما وجد في الأمة نساء أمثالهن أو يقتدين بسيرتهن، وطالما وجد في الأمة رجال أمثال الإمام الحسين (ع) أو مسلم بن عقيل أو الحر بن يزيد الرياحي وعبد الله بن عفيف الأزدي، وزيد بن أرقم وغيرهم، إنه طالما وجد مَن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويضحي في سبيل الله والعقيدة والمبدأ من أمثال هؤلاء النساء وهؤلاء الرجال فستبقى مبادىء دولة النبوّة، وستبقى كربلاء شعلة للحرية ولكل ثورات العالم.

وقد ثبت، بعد المناقشة والتحليل، في هذه الدراسة أن السيدة زينب بنت الإمام علي (ع) قد تميزت بعطائها وتضحياتها في سبيل الدين وإعلاء كلمة الحق على جميع

هذه النماذج من النساء الرساليات، بمن فيهن جدتها خديجة وأمها فاطمة الزهراء. فقد حاربت بالكلمة في القصور والميادين، كما شهدت مصارع كفيلها وابنيها وباقي أحبتها. إنها نموذج فذ للفداء والجرأة والشجاعة، عقمت البشرية أن تلد مثلها، فكانت بحق من أعظم النساء اللواتي عرفتهن البشرية على وجه الإطلاق.

إن الدور الرسالي الذي قامت به النماذج النسائية التي تناولتها هذه الدراسة نقاشاً وتحليلاً لم ينشأ من فراغ، إنما هو ميراث تربوي. فوقوف خديجة خلف زوجها في حصار الشعب بكل آلامه وهو حامل لواء الصمود أمام غطرسة القريشيين وهمجيتهم، على الرغم من كونها سيدة قريش المترفة، إنما جاء نتيجة تشربها بالأخلاق النبوّية وذوبانها في ذات الله. وما وقوف الزهراء في مسجد أبيها وهي تقرّع الأمة بخطبتها العصماء على الرغم من المصائب التي توالت عليها إلاّ لكونها خريجة حجر النبوّة وحجر سيدة قريش وأم المؤمنين الأولى، وسيدة النساء. وما حمل العقيلة زينب لواء الحرية في رحلة السبي المزرية للإنسانية بشكل عام، ولأمة محمد(ص) بشكل خاص، بعد كل الرزايا التي حلت بها وإقدامها على كشف أبعاد المؤامرة في خطبها البلاغية بالكوفة ودمشق عبر ساحات مقابر الأحياء الصامتة وقصور الطواغيت، معلنة انتصار الثورة الإستشهادية، إلا لتخرجها من حجريّ علي وفاطمة وتشربها بأخلاقهما التي صاغت شخصيتها الفريدة.

أما الدّور الرّسالي الذي لعبته النماذج النسائية العشرة فيعود إلى عاملين: الأول تأثر هذه النماذج بتضحيات رائدات النضال في البيت النبوي واتخاذهن قدوة لهن في التضحية والفداء.

أما العامل. الثاني فيعود إلى تربيتهن الدينية الأصيلة وعمق إيمانهن.

وكذلك الحال بالنسبة للشهيدة بنت الهدى، حيث أفصحت في شعرها عن عشقها لدرب الأوائل وتعني بذلك رائدات النضال الثلاث في البيت النبوي وكذلك شهداء كربلاء، بالإضافة إلى البيئة الأسرية التي تشربت من أجوائها شذى الإيمان ونقاء العقيدة. وتعتبر الشهيدة بنت الهدى الوحيدة بين النماذج النسائية العشرة التي قضت غالبية حياتها في النضال، حتى استشهدت مظلومة على أيدي نظام لم تشهد

البشرية أسوأ منه في تاريخها عبر العصور. فكانت على خطى الرائدات الثلاث بحق سيرة ونضالا.

إن الأدوار التي لعبتها الرائدات الثلاث، والنماذج النسائية العشرة للمرأة الرسالية في دولة النبوّة إنما كان بوحي من واجبهن الديني، وإرضاء لضمائرهن أمام الله وأمام الأجيال. فليس عزيزاً على المجتمع النسائي المعاصر أن يخلق مثل تلك النماذج، إذا اتخذ منها قدوة ومناراً، وتوفرت له بيئة تربوية مماثلة.

الملاحق

(١) خطبة السيِّدة فاطمة الزهراء (ع) بالمسجد النبوي.

(٢) الكلمة العتابية التي وجهتها السيدة فاطمة الزهراء (ع) لزوجها الإمام علي(ع).

(٣) الخطبة التي ألقتها السيدة فاطمة الزهراء في نساء المهاجرين والأنصار.

(٤) كلمة الإمام علي (ع) عند دفنه السيدة فاطمة الزهراء (ع) مخاطباً رسول الله(ص).

(٥) قصيدة حجج دولة النبوّة الثلاثة عشر؛ للشاعر حسين بن شمس الحسيني.

(٦) خطاب الإمام الحسين (ع) الذي ألقاه في أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد الرياحي قائد الطليعة الأولى للجيش الأموي، في منطقة البيضة.

(٧) الخطاب الذي ألقاه الإمام الحسين (ع) في الجيش الأموي بكربلاء، يوم السادس من محرم، سنة ٦١ من الهجرة.

(٨) الخطاب الذي ألقاه الإمام الحسين (ع) في أصحابه بكربلاء ليلة العاشر من محرم سنة ٦١ من الهجرة.

(٩) الخطاب الذي وجهه الإمام الحسين (ع) للجيش الأموي بكربلاء، يوم العاشر من محرم. سنة ٦١ من الهجرة قبيل بدء القتال.

(١٠) خطبة فاطمة الصّغرى بنت الإمام الحسين (ع) في جموع أهل الكوفة المحتشدة في السكك حين دخول قافلة الأسر والسبي من آل رسول الله (ص).

(١١) الخطبة التي ألقتها السيدة زينب الصغرى المكناة أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، في جموع أهل الكوفة بالسكك.

(١٢) خطبة الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع)، في حشود أهل الكوفة بالسكك.

(١٣) خطبة الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع)، في مجلس يزيد بالقصر الأخضر بدمشق.

(١٤) خطبة الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع)، في حشود المستقبلين من أهالي المدينة بعد عودته من رحلة الإستشهاد والسبي.

ملحق رقم ١ (*)

نص خطبة السيدة فاطمة الزهراء بالمسجد النبوي بالمدينة، يوم الجمعة، ربيع الأول، السنة الحادية عشرة من الهجرة.

«أبتدئُ بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد.

الحمدُ لله على ما أنعم به، وله الشكرُ على ما ألهم، والثناء بما أقدم، من عموم نعم إبتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام نعم والاها، جُمَّ عن الإحصاء عددها، ونأي عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لإستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق بأجزالها. وثنى بالندب إلى أمثالها.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التفكير معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته ومن الأوهام كيفيته، إبتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء امثلة امتثلها، كونها بقدرته، وذرأها بمشيئته. من غير حاجة منه إلى تكوينها ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتاً لحكمته. وتنبيهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته. وتعبداً لبريته. وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادةً لعباده عن نقمته، وحياشة لهم إلى جنته، وأشهدُ أنَّ أبي محمَّداً (ص) عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، عملاً من الله تعالى بمآل الأُمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواقع المقدور، ابتعثه الله تعالى إماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقا في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأنار الله تعالى بأبي محمد (ص) ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، وأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الصراط المستقيم، ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمد (ص) عن

تعب هذه الدار في راحـة قد حف بالملائكة الأبرار. ورضـوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبـار، صلى الله على أبي نبيه ، وأمينه على وحيـه وصفيه، وخيرتـه من الخلق ورضيه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» .

ثم التفتت إلى أهل المجلس وقالت :

«أنتم عبـاد الله نصب أمره ونهيـه ، وحملة دينـه ووحيه ، وأمنـاء الله على أنفسكم وبلغـاؤه إلى الأمم ، وزعيم حق لـه فيكم ، وعهد قـدمـه إليكم ، وبقية استخلفهـا عليكم ، كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق والنور الساطع ، والضياء اللامع ، بينة بصائره ، منكشفـة سرائره ، متجلية ظواهره ، مغتبط بـه أشياعه ، قائد إلى الـرضوان أتبـاعه ، مـؤد إلى النجـاة استماعه ، بـه تنـال حجج الله المنـورة ، وعزائمـه المفسرة ، ومحارمه المحذرة ، وبيـانته الجالية ، وبراهينه الكـافية ، وفضائله المنـدوبة ، ورخصه الموهوبـة ، وشرائعه المكتـوبة ، فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم مـن الشرك ، والصلاة تنـزيهاً لكم عن الكبر، والـزكـاة تـزكيـة للنفس ، ونماء في الـرزق ، والصيـام تثبيتـاً للاخلاص ، والحج تشييداً للدين ، والعدل تنسيقاً للقلوب ، وطاعتنا نظاماً للملة ، وإمامتنا أماناً من الفرقة ، والجهاد عزاً للاسلام ، وذلاً لأهل الكفر والنفاق ، والصبر معونـة على استيجاب الأجر، والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعـامة ، وبـر الوالـدين وقايـة من السخط ، وصلـة الأرحام منماة للعـدد وزيادة في العمـر، والقصاص حقناً للدماء ، والوفاء بالنذر تعويضاً للمغفرة ، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس ، والنهي عن شرب الخمـر تنـزيهاً عن الـرجس ، وإجتنـاب القـذف حجاباً عن اللعنة ، وترك السرقة إيجاباً للعفة ، وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية **﴿فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾** وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه **﴿فإنما يخشى الله من عباده العلماء﴾**» .

ثم قالت (عليها السلام) :

«يا أيها النـاس ، اعلموا أني فاطمـة وأبي محمد (ص) . أقول ، عـوداً وبدءاً ، ولا أقول مـا أقول غلطـاً ، ولا أفعل ما أفعل شططـاً ، ولقد جاءكم رسـول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكـم وأخا ابن عمي دون رجـالكم ، ولنعم المعزّي إليـه فبلّغ الرسـالة ،

صادعاً بالنذارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم، آخذاً بكظمهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسِّر الأصنام، وينكت الهام حتى انهزم الجمع وولوا الدُّبُر حتى تفرَّى الليل عن صبحه وأسفر الحقُّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وطاح[1] وشيظ[2] النفاق، وانحلت عقدة الكفر والشقاق وفهتم بكلمة الإخلاص، في نفر من البيض الخماص، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع، وقُبسة العجلان، وموطىء الأقدام تشربون الطرْق، وتقتاتون القد أذلّة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد (ص) بعد اللتيا والتي، وبعد أن منى ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب، ﴿**كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله**﴾ أو نجم قرن للشيطان أو فغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفىء حتى يطأ صماخها بأخمصه ويخمدُ لهبها بسيفه مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله قريباً من رسول الله (ص)، سيداً في أولياء الله، مشمراً ناطحاً، مجدّاً كادحاً، وأنتم في بلهنية من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر وتتوكفون الأخبار وتنكصون عند النزال، وتفرون من القتال.

فلما اختار الله لنبيه (ص) دار أنبيائه ومأوى أصفيائه، ظهرت فيكم حسيكة النفاق وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الأقلين وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير ابلكم واوردتم غير شربكم هذا والعهد قريب، والكلم رحيب والجرحُ لما يندمل والرسول لما يقبر ابتداراً زعمتم خوف الفتنة ﴿**ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين**﴾.

فهيهات منكم وكيف بكم وأنّى تؤفكون وهذا كتاب الله بين أظهركم أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، قد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تدبرون، أم بغير تحكمون!؟ ﴿**بئس للظالمين بدلاً، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾.

«ثم لم تلبثوا إلا ريثما تسكن نفرتها، ويساس قيادها، ثم أخذتم تورون وقدتها،

وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وأطفاء نور الدين الجلي، وإهماد سنن النبي الصفي، تسرون حسوا في ارتغاء[3] وتمشون لأهله وولده في الخمر والضراء[كذا]، ونصبر منكم على مثل حز المدى ووخز السنان في الحشى، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي ﴿أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته».

وأيُّها المسلمون أأغلب على إرثي، يا إبن أبي قحافة، أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريّا، أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول: ﴿وورث سليمان داود﴾ وقال فيما إختص من خبر يحيى بن زكريا عليهما السلام إذ يقول: ﴿رب هب لي من لدنك وليّا يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ وقال: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ وقال: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ وقال: ﴿إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾. وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية أخرج منها أبي (ص)؟ أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟، أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟، أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟.

فدونكها، مخطومة، مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكمُ الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكمْ إذ تندمون ﴿لكل نبأ مستقر، وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾».

ثم رنت بطرفها نحو الأنصار، فقالت:

«يا معشر الفتية، وأعضاد الملة، وحصنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقي، والسنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله (ص) أبي يقول: «المرء يحفظ في ولده»؟ سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة[4]. ولكم طاقة بما أحاول، وقوة على ما أطلب وأزاول، أتقولون: مات محمد فخطب جليل، استوسع وهنه واستنهر فتقه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، واكتأبت خيرة الله لمصيبته، وكسفت الشمس

والقمر وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، واضيع الحريم وازيلت الحرمة عند مماته. فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى التي لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه في أفنيتكم في ممساكم ومصبحكم: هتافاً وصراخاً، وتلاوة وألحاناً ولقبله ما حلت بأنبياء الله ورسله حكم فصل وقضاء حتم **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرّسل أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾**.

ويهاً بني قيلة، أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى مني ومسمع ومنتدى ومجمع، تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة وأنتم ذوو العدد والعدة والاداء والقوة وعندكم السلاح والجنة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي إختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم وكافحتم البهم[٥] فلا نبرح وتبرحون، نأمركم فتأتمرون حتى إذا دارت بنا رحى[٦] الإسلام ودرَّ حلب الأيام وخضعت نعرة الشرك وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر وهدأت دعوة الهرج واستوسق نظام الدين، فأنّى حرتم بعد البيان وأسررتم بعد الإعلان ونكصتم بعد الإقدام وأشركتم بعد الإيمان **﴿بؤساً لقوم نكثوا إيمانهم، وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة اتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾** إلا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وركنتم إلى الدعة ونجوتم من الضيق بالسعة، فمججتم ما وعيتم ودسعتم الذي تسوغتم **﴿فإن تكفروا انتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾**.

«ألا وقد قلت ماقلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم والغدرةالتي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس وبثة الصدر ونفثة الغيض وتقدمة الحجة، فدونكموها فاستبقوها دَبِرة الظهر نقية الخف باقية العار، موسومة بغضب الله وشنار الأبد موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون، **﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾** وأنا ابنة نذير لكم بين يدي

عذاب شديد ﴿فاعملوا إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون﴾ .

فأجابها أبـو بكر عبد الله بن عثمان ـ الخليفـة الأول ـ فقال : «يا ابنـة رسول الله ، لقد كـان أبوك بالمؤمنين عطوفـاً كريماً رؤوفاً رحيماً وعلى الكـافرين عذاباً أليماً وعقـاباً عظيماً ، فإن عزونـاه وجدناه أباك دون النسـاء وأخا إلفكِ [كذا] دون الأخـلاء ، آثره على كل حميم وساعده في كل أمـر جسيم ، لا يحبكم إلا كل سعيد ولا يبغضكم إلا كل شقي ، فأنتم عترة رسـول الله (ص) الطيِّبون والخيرة المنتجبـون ، على الخير أدلتنا وإلى الجنة مسـالكنا . وأنت يـاخيرة النساء ، وابنة خير الأنبيـاء ، صادقـة في قولك سـابقة في وفـور عقلك ، غير مردودة عن حقك ولا مصـدودة عن صدقك والله مـا عدوت رأي رسـول (ص) ولا عملت إلا بإذنـه وإن الرائد[7] لا يكذب أهله ، فإني أشهـد الله وكفى بـه شهيـداً ، إنِّي سمعت رسـول الله (ص) يقـول : «نحن معشر الأنبيـاء لا نورث ذهبـاً ولا فضة ولا داراً ولا عقـاراً وإنما نـورث الكتاب والحكمـة والعلم والنبوة ومالنـا من طعمة فلولي الأمر بعدنا أن يحكم فيـه بحكمه ، وقد جعلنا ما حاولتـه في الكراع والسلاح يقاتل بها المسلمون ويجاهـدون الكفار ويجادلون المردة الفجار ، وذلك بإجماع من المسلمين لم أنفـرد به وحـدي ولم أستبد بما كان الـرأي فيه عندي وهذه حالي ومالي هي لك وبين يـديك لا تذوي عنك ولا تدخر دونك وأنت سيـدة أم أبيك والشجـرة الطيبـة لبنيك لا يـدفع مـالك من فضلك ولا يـوضع من فـرعك واصلك وحكمك نـافذ فيما ملكت يـداي فهل تـرين أني أخـالف في ذلك أباك(ص)؟ .

فقالت ، (عليها السلام) :

«سبحان الله ، ما كان أبي رسول الله (ص) عن كتاب الله الاّ صادقاً ولا لأحكامه مخالفاً ، بل كان يتبع أثره ويقتفي سوره ، أفتجمعون إلى الغدر اعتلالا عليه بالزور.

وهذا بعد وفاتـه شبيه بما بغي له من الغوائل في حياتـه هذا كتاب الله حكماً عدلاً وناطقاً فصـلاً ، يقول ﴿يـرثني ويـرث من آل يعقـوب﴾ ويقول: ﴿وورث سليمان داود﴾ فبين عـز وجل فيما وزع من الأقساط وشرع مـن الفرائض والميراث وأبـاح من حظ الذكران والإناث ، ما أزاح علـة المبطلين وأزال التظني والشبهات في الغابرين ، كلا ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ .

فقال أبو بكر:

«صدق الله، وصدق رسوله، وصدقت ابنته، أنت معدن الحكمة وموطن الهدى والرحمة وركن الدين. لا أبعد صوابك ولا أنكر خطابك. هؤلاء المسلمون بيني وبينك. قلدوني ما تقلدتُ وباتفاق منهم أخذت ما أخذت غير مكابر ولا مستبد ولا مستأثر، وهم بذلك شهود».

فالتفتت فاطمة إلى الناس وقالت:

«معاشر الناس المسرعة إلى قيل الباطل المغضية على الفعل القبيح الخاسر **﴿فلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾** كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم فأخذ بسمعكم وأبصاركم، لبئس ما تأولتم وساء ما به أشرتم، وشر ما منه اعتضتم، لتجدن والله محمله ثقيلا وغبّه وبيلا، إذا كشف لكم الغطاء وبان ما وراء الضراء، وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا تحتسبون وخسر هنالك المبطلون».

ثم عطفت على قبر النبي (ص)، وقالت متمثلة بأبيات أم مسطح هند بنت اثاثة:

كانت أمور وأنباء وهنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ... واختل قومك فاشهدها ولا تغب

وأورد بعضهم قولها بعد هذين البيتين:

أبدى رجال لنا نجوى صدورهم ... لمامضيت وحالت دونك التُّرُبُ

تجهمتنا أناس واستخف بنا ... لما فقدت، وكل الإرث مغتصبُ

وكنت بدراً ونوراً يستضاءُ به ... عليك تنزل من ذي العزة الكتبُ

وكان جبريل بالآيات يؤنسنا ... فقد فقدت وكلُّ الخير محتجبُ

فليت قبلك كان الموتُ صادفنا ... لما مضيت وحالت دونك الكتبُ

إنا رُزئنا بما لم يرز ذو شجنٍ ... من البريَّةِ لا عجم ولا عربُ

الهوامش:

* الأمين، السيد محسن: المرجع نفسه، مجلد١، ج٢، ص ٣١٥ـ٣١٨.

(١) طاح: هلك.

(٢) الوشيظ: بمعجمتين، الرذل والسفلة من الناس.

(٣) الحسو: الشراب شيئاً بعد شيء؛ والإرتغاء: شرب الرغوة؛ مثل يضربُ لمن يظهر أمراً وَهو يريد غيره. أصله الرجل يؤتى باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة، فيشربها وهو في ذلك ينال اللبن.

(٤) مثل يضرب لمن يخبر بكينونة الشيء قبل وقته. والمشهور سرعان ذا إهالة. أهاله (بكسر الهمزة): الدسم، أصله أنَّ رجلاً كانت له نعجة وكان مخاطها يسيل، فقيل له: ما هذا؟ فقال: ودكها، أي دسمها. فقال السائل: سرعان ذا إهاله، وذا إشارة إلى الودك.

(٥) جمع بهمة، وهو الشجاع.

(٦) كناية عن انتظام أمره.

(٧) هذا مثل، والرائد هو الذي يتقدم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث.

ملحق رقم٢ *

نص الكلمة العتابية التي وجهتها السيدة فاطمة الزهراء إلى زوجها الإمام علي، بعد عودتها من المسجد إلى دارها واستقرارها قالت:

«يا ابن أبي طالب اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الضنين، نقضت قادمة الأجدل فخانك ريشُ الأعزل. هذا ابنُ أبي قحافة يبتزني نحيلة أبي وبلغة إبني لقد أجهد في خصامي، وألفيته ألد في كلامي. حتى حسبتني قيلة نصرها والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع ولا ناصر ولا شافع. خرجت كاظمة وعدت راغمة، أضرعت خدك يوم أضعت جدك. افترست الذئاب وافترشت التراب. ما كففت قائلاً ولا أعنيت طائلاً ولا خيار لي. ليتني مت قبل منيتي ودون ذلتي. عذيري الله منك عادياً وفيك حامياً ويلاي في كل شارق ويلاي في كل غارب مات العمد ووهت العضد وشكواي إلى أبي، وعدواي إلى ربي اللهم إنك أشدّ قوة وحولا واحد بأسا وتنكيلاً».

فقال لها الإمام علي (عليه السلام):

«لا ويل لك بل الويل لشانئك. نهنهي عن وجدك يا ابنة الصفوة وبقية النبوّة فما ونيتُ عن ديني ولا أخطأت مقدوري فإن كنت تريدين البلغة فرزقك مضمون وكفيلك مأمون وما أعد لك أفضل مما قطع عنك فاحتسبي الله».

فقالت: «حسبي الله». وأمسكت.

الهوامش:

* الأمين، السيد محسن: المرجع نفسه، مجلد١، ج٢، ص٣١٨.

ملحق رقم ٣*

نص الخطبة التي القتها السيـدة فاطمة الزهـراء، في مرضها بمناسبـة زيارة نساء المهـاجـرين والأنصـار لها في بيتهـا، وكانت تلـك الخطبةعبـارة عن رسـالـة منهـا لأزواجهن. فحينما سألنها عن علتها قالت بعد أن حمدت الله، وصلت على أبيها:

«أصبحتُ والله عائفـة لدنياكنّ، قـالية لرجـالكن، لفظتهم بعد أن عجمتهم، وشنأتهم بعد أن سبرتهم فقبحا لفلول الحد، واللعب بعد الجد وقرع الصفاة[1] وصدع القناة وخطل الآراء وذلل الأهواء ﴿**ولبئسما قـدمت لهم أنفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون**﴾.

لا جَرم لقد قلدتهم ربقتها وحملتهم أوقتها[2] وشننت عليهم غارتها فجدعا وعقراً وبعدا للقوم الظالمين ويحهم انّى زعزعوها عن رواسي الـرسالة وقواعد النبوّة والدلالة ومهبط الروح الأمين والطّيبين[3] بأمور الدنيـا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين. وما الذي نقموا من أبي الحسن؟ نقموا منه والله نكير سيفـه وقلة مبالاته بحتفه وشدّة وطأته ونكال وقعتـه وتنمره في ذات الله عز وجل وتالله لو مالوا عـن المحجة اللائحة وزالوا عن قبول الحجة الـواضحة، لردهم إليها وحملهم عليها، وتالله لـو تكافوا عن زمام نبذه إليه رسول الله (ص) لاعتلقه ولسار بهم سُجُحاً لا يكلم خشاشة ولا يكل سائره ولا يمل راكبـه ولأوردهم منهلاً نميرا صافيـاً روياً فضفاضـاً تطفحُ ضفتاه ولا يترنق جانبـاه ولا صدرهـم بطـاناً ونصح لهم سراً واعلانـاً، ولم يكن يتحلى من الغنى بطائل ولا يحظى من الدنيا بنائل غمر ريّ الناهل وشبعة الكافل ولبان لهم الزاهد من الراغب، والصـادق من الكاذب ﴿**ولـو أن أهل القرى آمنـوا واتقوا لفتحنـا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كـذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبـون والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيّئـات ما كسبوا ومـا هم بمعجزين**﴾. ألا هلم فاستمع وما عشت أراكَ الدهرُ عجباً.

﴿**وإن تعجب فعجب قولهم**﴾.

«ليت شعري إلى أي لجأ لجأوا، وإلى أي سناد استندوا، وعلى أي عماد اعتمدوا، وبأي عروة تمسكوا، وعلى أي ذرية قدموا وإحتنكوا **﴿لبئس المولى ولبئس العشير وبئس للظالمين بدلاً﴾** .

إستبدلوا والله الذنابي بالقوادم والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً **﴿ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾** ويحهم **﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي؛ إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون﴾** .

«أما لعمري لقد لُقِحت، فنظرة ريثما تنتج ثم احتلبوا ملء العقب دما عبيطاً وذعافاً، واطمئنوا للفتنة جأشاً وابشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم وبهرج دائم شامل واستبداد من الظالمين يدع فيأكم زهيداً وجمعكم حصيداً، فيا حسرةلكم وأني بكم، وقد عميت عليكم **﴿انلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾**».

الهوامش:

* الأمين، السيد محسن: المراجع نفسه، مجلد١، ج٢، ص٣٢٠.

(١) كناية عن النيل بسوء.

(٢) ثقلها.

(٣) الفطن، الحاذق.

ملحق رقم ٤ *

نص الكلمة التي قالها الإمام علي (ع) بعد دفنه السيدة فاطمة الزهراء (ع) حيث حوّل وجهه إلى قبر رسول الله (ص) مناجياً:

«السلام عليك يا رسول الله: عني وعن ابنتك وزائرتك النـازلة في جوارك والبائتة في الثرى ببقعتك والمختـار الله لها سرعة اللحاق بك قلَّ يـا رسول الله، عن صفيتك صبري ورق عنها تجلـدي، إلا أن في التأسي بعظيم فرقتك وفـادح مصيبتك موضع تعـز فلقد وسـدتك في ملحود قبرك، وفـاضت بين نحري وصـدري نفسك بلى وفي كتاب الله لي نعم القبول إنا لله وإنا إليه راجعون.

قد استرجعـت الوديعة، وأخـذت الرهينـة واختلست الزهـراء فما أقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله أما حزني فسرمد. وأما ليلي فمسهد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت فيهـا مقيم كمـد مقيح وهم مهيج سرعـان مـا فـرق بيننـا، وإلى الله أشكـو، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها فاحفها السؤال، واستخبرها الحال فكم من غليل معتلج بصـدرهـا لم تجد إلى بثـه سبيـلاً وستقـول ويحكـم الله وهـو خير الحاكمين، والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سئم فإن انصرف فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين.

واها واهـا والصبر أيمن وأجمل ولولا غلبة المستـولين لجعلت المقام واللبث لـزاماً معكـوفاً ولأعـولت إعـوال الثكلى على جليل الـرزيَّة، فبعين الله تـدفن ابنتك سراً، وتهضم حقها وتمنع إرثها، ولم يطل العهد ولم يخلق منك الـذكر. إلى الله يا رسول الله المشتكى وفيك يـا رسـول الله أحسن العـزاء. صلى الله عليك وعليهـا السـلام والرضوان».

ولما إنتهى الإمام علي (ع) من دفنها وقف على شفير القبر، وأنشأ:

لكل اجتماع مـن خليلين فـرقـة ... وكل الـذي دون الفـراق قليل

وإن افتقـادي واحـداً بعـد واحـد ... دليـل على أن لا يـدوم خليـلُ

الهوامش:

* الأمين، السيـد محسن: نفس المرجع، مجلـد ١، جـ٢، ص٣٢٢، أيضـاً، ابن أبي الحديـد: نفس المرجع، مجلد١، جـ١٠، ص٥٩٠ـ٥٩١، ٥٩٨.

ملحق رقم ٥ *

قصيدة للشاعر حسين بن شمس الحسيني، تتضمَّن حججَ زعماء دولة النبوّة الثلاثة عشر، بدءاً بالمؤسس النبي محمد (ص) وانتهاء بالخليفة الثاني عشر للرسول (ص)، محمد المهدي، مشتملة على أماكن مولدهم ووفاتهم، وكذلك تواريخ ميلادهم ووفاتهم. صلوات الله عليهم أجمعين.

قال أبو هاشم في بيانه ... ولفظه يخبر عن جنانه
الحمدُ لله على الإيمان ... بالمصطفى والآل والقرآن
عليهم الصلاة والسلام ... ما غرَّدت بأيكة حمام
وبعد فاسمع ثم سدَّ الخللا ... فجلَّ من لا عيب فيه وعلا
لقد حداني من له أُطيع ... لنظم تاريخ له أُذيع
فهاك تاريخ النبي المصطفى ... وآله المطهرين الخلفا
فمولد النبي عام الفيل ... بمكة والحرم الجليل
وفاته حادي عشر هجرته ... بطيبة، وهي محل تربته
ومولد الوصي أيضاً في الحرم ... بكعبة الله العلي ذي الكرم
من بعد عام الفيل في الحساب ... عشر وعشرين بلا ارتياب

وفـاتــه بـالهجــرة المعـروفــة عــام أربعين قبره بــالكــوفــة

ومــولــد الــزكيِّ نجل الــزهــرة بطيبــة ثــاني عــام الهجــرة

وقبــره بهــا عــلــى يقــيــن ثم وفيهــا مــولــد الحسين

وعمـــره ثمان أربعـــونــا وصحَّ أنَّ الموت في الخمسينـــا

ومـــولـــد الحسين في ربيع لثـــالث من هجــرة التشفيع

حـــادي وستين قضى شهيـــدا بكـــربـــلا تـــزوره الـــوفــود

ومـــولــد السجـــاد في شعبـــان ثـــامن ثـــلاثين لـــذي البيـــان

ميـــلاده مـــدينـــة الـــرســول حبيـــب رب ملـــك جليـــل

وفـــاتـــه في الخمس والتسعينـــا وفي البقيـع قبره يقينـــــا

وبـــاقـــر العلم ولــــد بطيبــة وقبره بها بغير ريبـــــة

وســابع الخمسين من شهـر صفـر مـــولـــده، وفـــاتـــه الـــرابع عشر

بعــــد تمام مئـــة هجـــريـــة وهـــــذه روايـــة قـــويَّـــة

وطيبـــة مــولـــد نجل البـــاقـــر ثـــالـــث ثمانين سنـي الهاجـــر

وفـــاتـــه ثـــامـن وأربعينـــا ومـــائة معـــدودة ستينـــا

وقبره بجـــــانـب البقيـع مجاوراً لجده الشفيـــــع

ومــولــد الكـــاظـم بـــالأبـــواء ثـــامن وعشرين على استــــواء

ومئـــة مـن قبلهـــا هجـــريـــة ثـــالث ثمانين بها المنيَّـــة

وقبره بجـــانب الـــــزوراء من أرض بغــــداد بـــلا مـــراء

ومولد الرضا سليل الزهرة ... مدينة الرسول دار الهجرة
مولده ثمان وأربعينا ... ثالث وميتين الوفا يقينا
وقبره في سناباد طوسا ... حلَّ بها مقدَّسا تقديسا
ومولد الجواد بعد المائة ... لخامس التسعين في الرواية
ميلاده بأفضل البقاع ... مدينة الرسول خير داع
والقبض عشرين ومائتين ... والقبر في الزورا بغير مين
ثم علي هادي الأنام ... ميلاده مدينة التهامي
ثاني عشر مائتي سنينا ... وفاته في رابع الخمسينا
والعسكري ميلاده المدينة ... مدينة المصحوب بالسكينة
ثاني ثلاثين ومائتين ... والقبض ستين ومائتين
وسر من رأى مكان القبر ... كفاك والده عظيم الفخر
ومولد المهديِّ في شعبان ... خمس وخمسين ومائتان
في سر من رأى بدار العسكري ... ونرجس الأم يقول الأكثر
تمَّت تواريخ الهداة الطاهرة ... مشفوعة بالصلوات الفاخرة
نظم الفقير المذنب الحسنيني ... راجي عفو الله في الدارين
ثمَّ شفاعة النبي الهادي ... وآله خلاصة العباد

الهوامش:

* البياضي: نفس المرجع، جـ٢، ص٢١٥-٢١٧.

ملحق رقم ٦ *

نص خطاب الإمام الحسين الذي ألقاهُ في أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد الرّياحي قائد الطليعة الأولى للجيش الأموي بالبيضة: قال الإمام الحسين (ع) بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس، إن رسول الله (ص) قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله (ص)، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يُغيِّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمٰن وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله وحرَّموا حلاله، وأنا أحقُّ من غيَّر، وقد أتتني كُتُبكم، وقدمت عليَّ رسلكم ببيعتكم، أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله(ص)، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم فلكم فيَّ أُسوةٌ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغترَّ بكم، فحظَّكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم، من نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم، والسلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته».

* العسكري: نفس المرجع، ص ٧١ ـ ٧٢.

ملحق رقم ٧ *

نص الخطاب الذي وجهه الإمام الحسين (ع) للجيش الأموي بكربلاء يوم السادس من محرم سنة ٦١ من الهجرة.

«أنشدكم الله هل تعرفونني قالوا: اللهم نعم، أنت ابن رسول الله وسبطه. فقال: أنشدكم الله هل تعلمون أن جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن جدَّتي خديجة بنت خويلد أوّل نساء هذه الأمة إسلاماً؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن أبي علي بن أبي طالب؟ قالوا: اللهم نعم، قال أُنشدكم الله هل تعلمون أن حمزة سيِّد الشهداء عم أبي؟ قالوا: اللهم نعم. قال: أُنشدكم الله هل تعلمون أن الطيار في الجنة عمي؟ قالوا: اللهم نعم، قال أُنشدكم الله هل تعلمون أنَّ هذه عمامة رسول الله صلى الله عليه وآله أنا لابسها؟ قالوا: اللهم نعم، قال أُنشدكم الله هل تعلمون أن علياً كان أولهم إسلاماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً وأنه وليُّ كل مؤمن ومؤمنة؟ قالوا: اللهم نعم، قال فبمَ تستحلُّون دمي وأبي صلوات الله عليه هو الذائد عن الحوض يوم القيامة يذودُ عنه رجالاً كما يذود البعير الصادر عن الماء، ولواءُ الحمد في يده يوم القيامة؟ قالوا: قد علمنا ذلك كله، ونحن غير تاركيك حتى تذوق الموت عطشاً».

* الحلي: نفس المرجع، ص ٥٩ ـ ٦٠ أيضاً.
العسكري: نفس المرجع، ص ٩٠.

ملحق رقم ٨ *

نص خطاب الإمـام الحسين (ع) في أصحابـه ليلة العـاشر من محرم سنة ٦١ من الهجرة.

روي عن علي بن الحسين قال: جمع الحسين أصحابه بعدما رجع عمر بن سعد، وذلك عنـد قرب المسـاء، قـال علي بن الحسين: فدنـوتُ منـه لأسمع وأنا مـريض فسمعتُ أبي وهو يقول لأصحابه:

«أُثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء، اللهم! إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوّة وعلَّمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين، أما بعد فإني لا أعلمُ أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحـابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل مـن أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعـاً خيراً، ألا وإني أظنُّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإني قد رأيتُ لكم، فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم مني ذمام. هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً ثم ليأخذ كل رجل منكم بيـد رجل من أهل بيتي ثم تفرَّقـوا في سوادكم ومدائنكـم حتى يفرّج الله، فإن القوم إنما يطلبوني ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري».

ملحق رقم ٩ *

نص الخطاب الذي وجهه الإمام الحسين للجيش الأموي بكربلاء يوم العاشر من محرم سنة ٦١ من الهجرة.

قال الإمام الحسين (ع) بعد أن استنصت الجيش وحمد الله واثنى عليه وذكره بما هو أهله وصلى على الملائكة والأنبياء والرسل:

«تباً لكم أيّتها الجماعة وترحاً، حين استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في إيمانكم، وحشوتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّكم وعدوّنا، فاصبحتم البأ لأعدائكم على أوليائكم بغير عدلٍ أفشوه فيكم، ولا أملٍ أصبح لكم فيه، فمهلاً لكم والويلات، تركتمونا والسيف هشيم والجأش طامن، والرأي لم يستصحف، ولكن اسرعتم إليها كطيرة الدبا كتهافت الفراش، فسحقاً لكم يا عبيد الأُمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكلم، وعصبة الآثام، ونفثة الشيطان، ومطفيء نور الإسلام، أهولاً تعضدون، وعنا تخاذلون، أجل والله غدر فيكم قديم، شجت عليه أصولُكم وتأزّرت عليه فروعُكم، فكنتم أخبث ثمر شجي للناظر، وأكلة للغاصب، ألا وإنَّ الدَّعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين: بين السَّلَّةِ والذِّلة، وهيهات مِنّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وظهور طهرتْ، وأُنوفٌ حميَّة، ونفوس أبيَّة، أن نُؤثر طاعة اللِّئام على مصارع الكرام. ألا وإني زاحف بهذه الأُسرة مع قلة العدد، وكثرة العدو وخذلة الناصر». ثم تمثل عليه السلام بأبيات فروة بن مسيك المرادي:

فإن نُهزم فهزّامون قدما ... وإن نُغلب فغير مغلَّبينا
وما إن طبُّنا جبنٌ ولكن ... منايانا ودولة آخرينا
إذا ما الموت رفع عن أُناسٍ ... منازله أناخ بآخرينا
فأفنى ذلك سروات قومي ... كما أفنى القرون الأوَّلينا
فلو خلد الملوك إذاً خلدنا ... ولو بقي الكرام إذاً بقينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

ثم أيمّ الله لا تلبثون بعدها إلاّ كريت ما يركب الفرس حتى يدور بكم دور الرَّحا ويقلق بكم قلق المحور، عهد عهده إليّ أبي عن جدّي، فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم أقضوا إليَّ ولا تنظرون. إني توكلت على الله ربِّي وربّكم ما من دابَّة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربِّي على صراط مستقيم. اللهم أحبس عنهم قطر السماء وابعث عليهم سنين كسنيّ يوسف عليه السلام وسلِّط عليهم غلام ثقيف يسومُهم كأس مصبرة فإنهم كذبونا وخذلونا وأنت ربُّنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. . .».

ثم نزل صلوات الله عليه ونادى: «يا عمر بن سعد، تقتلني وتزعم أن الدعي ابن الدَّعي ولاّك الرّيّ وجرجان، والله لا تتهنَّى بذلك بعدي ابداً، عهد معهود، فاصنع ما أنت صانع فإنك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة وكأني برأسك على قصبة قد نُصبت بالكوفة، تتراماه الصبيان بالحجارة».

الهوامش:

* الحلي: نفس المرجع، ص ٦٣ ـ ٦٦، أيضاً.
* العسكري: نفس المرجع، ص١٠٠ ـ ١٠١.

ملحق رقم ١٠ *

نص خطبة فاطمة الصغرى بنت الإمام الحسين في جموع أهل الكوفة المحتشدة في السكك حين دخول قافلة الأسر والسبي من آل رسول الله .

«الحمد لله عدد الرمل والحصى ، وزنة العرش والثرى ، أحمده وآمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وأن ولده ذبحوا بشط الفرات من غير ذحل ولا ترات ، اللهم إني أعوذ بك أن أفتري عليك الكذب ، أو أن أقول عليك خلاف ما أنزلت عليه من أخذ العهود لوصيه علي بن أبي طالب ، المسلوب حقه ، المقتول من غير ذنب ، كما قتل ولده بالأمس في بيت من بيوت الله فيه معشر مسلمة بألسنتهم تعسا لرؤوسهم ما دفعت عنه ضيما في حياته ولا عند مماته حتى قبضته إليك محمود النَّقيبة ، طيِّب العريكة ، معروف المناقب ، مشهور المذاهب ، لم تأخذه فيك اللهم لومة لائم ، ولا عذل عاذل هديته يا رب بالاسلام صغيراً وحمدت مناقبه كبيراً ولم يزل ناصحاً لك ولرسولك (ص) حتى قبضته إليك زاهداً في الدنيا ، غير حريص عليها ، راغباً في الآخرة ، مجاهداً في سبيلك رضيته فهديته إلى صراطٍ مستقيم . أما بعد . . يا أهل الكوفة . يا أهل الختا والمكر والغدر والخِيَلاء ، فانّا أهل بيت ابتلانا الله بكم وابتلاكم بنا ، فعجّل بلانا حسناً ، وجعل علمه عندنا وفهمه لدينا ، فنحن عيبة علمه ، ووعاء فهمه وحكمته ، وحجته على أهل الأرض في بلاده لعباده ، وأكرمنا الله بكرامته ، وفضلنا بنبيه محمد (ص) على كثير ممن خلق تفضيلا بينا ، فكذَّبتمونا وكرهتمونا ، ورأيتم قتلنا حلالاً؛ وأموالنا نهباً ، كأنّا أولاد تركٍ أو كابل ، كما قتلتم جدَّنا بالأمس ، وسيوفكم تقطِرُ من دماتنا أهل البيت . قرّت لذاك عيونكم وفرِحتْ قلوبُكم افتراءً على الله ومكراً مكرتموه ، والله خير الماكرين ، فلا تدعونّكم أنفسكم إلى الجدل بما أصبتم من دماتنا ، ونالت أيديكم من أموالنا ، فإنّ ما أصابنا من المصائب الجليلة والرّزء

العظيم في كتاب من قبل أن نبرأهـا إنّ ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مـا فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم الله والله لا يحبُّ كلَ مختالٍ فخور [كذا].

اضربوا أمثـالكم فانتظـروا اللعنة والعـذاب، فكأن قد حلَّ بكم، وتـواترت من السماء نقمات فيسحتكم بما كسبتم، ويـذيق بعضكـم بأس بعضٍ ثم تخلـدون في العذاب الأليم يوم القيامة بما ظلمتمـونا، ألا لعنة الله على الظالمين. ويلكم أتدرون أيّة يـدٍ طاعتنا منكم وأيّة نفسٍ فـزِعت إلى قتالنا، أم بأية رجل مشت إلينـا، تبغون محاربتنـا، قست قلـوبُكم، وغلظت أكبـادكم، وطبع على أفئـدتكم، وختم على سمعكم وبصركم وسوّل لكم الشيطان وأملى لكم، وجعل على بصركم غشاوة فأنتم لا تهتدون تبّاً يـا أهل الكوفة، أي تراتٍ [كذا] لرسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبلكم ودحول له لـديكم بما عندتم بأخيه علي بن أبي طـالب (ع) جدّي وبنيه وعترة النبي(ص) الطاهرين الأخيار وافتخر بذلكم مفتخركم فقال:

قـــد قتلنـــا عليـــا وبني عليّ ... بسيـــوف هنـــديَّـــةٍ ورمـــاح

وسبينـا نســاءهـم سبي تـركٍ ... ونطحنـــــاهم فأي نطـــــاحِ

بفيْك أيُّها القـائل الكثكث والأثـالب افتخـرت بقتل قـوم زكَّـاهم الله وطهـرَّهم وأذهب عنهم الـرِّجس، فاكظم واقع كما اقعـا أبـوك وإنما لكل إمرىءٍ مـا اكتسبت يداه، وما قدّمت أوايله، أحسدتمونا ويلاً لكم على ما فضلنا الله عليكم».

ثم قالت شعراً:

فما ذنبنـا أن جـاش دهـراً لجورنـا ... وبحرك ساج ما يـواري الدعا مضى

﴿ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾.

الهوامش:

* الحلي: نفس المرجع، ص١٠٣ ـ ١٠٧.

ملحق رقم ١١ *

نص الخطبة التي ألقتها السيدة زينب الصغرى المكناة أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب في جموع أهل الكوفة حين دخول آل رسول الله في قافلة الأسر والسّبي، فقالت:

«يا أهل الكوفة سوءة لكم، ما لكم خذلتم حسيناً وقتلتموه وانتهبتم أمواله وورثتموه، وسبيتم نساءه ونكبتموه، فتبّاً لكم وسحقا، ويلكم أتدرون أيُّ داهيةٍ دهكتم، وأيُّ وزر على ظهوركم حملتم، وأيُّ دماءٍ سفكتموها، وأيُّ كريمةٍ أصبتموها، وأيُّ صبيّة سلبتموها، وأيُّ أموال انتهبتموها، قتلتم خير رجالاتٍ بعد النبي (ص) ونزعت الرحمة من قلوبكم، ألا إن حزب الله هم الفائزون، وحزبُ الشيطان هم الخاسرون، ثم قالت شعراً:

قتلتم أخي صبرا فويلا لأُمّكم	ستُجزون ناراً حدُّها يتوقدُ
سفكتم دماء حرم الله سفكَها	وحرَّمها القرآن ثم محمدُ
ألا فابشروا في النار إنكم غداً	لفي سَقرٍ حقّاً يقيناً تخلدوا
وإني لأبكي في حياتي على أخي	على خير من بعد النبي سيولدُ
بدمع غزيرٍ مستهل مكفكفٍ	على الخدّ مني ذايباً ليس يجمدُ

ملحق رقم ١٢ *

نص خطبة زين العابدين علي بن الحسين في حشود أهل الكوفة حينما دخل آل رسول الله (ص) في قافلة الأسر والسبي، في شوارع الكوفة. قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرِّفه بنفسي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحلٍ ولا ترات، أنا ابن من انتهك حريمه وسُلِبَ نعيمه، وانتهب ماله، وسبيت عياله، أنا ابن من قُتِلَ صبرا، وكفى بذلك فخرا. أيّها الناس ناشدتكم بالله هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه واعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة، وقاتلتموه وخذلتموه، فتباً لما قدَّمتم لأنفسكم، وشوهاً لرأيكم، بأية عين تنظرون إلى رسول الله(ص) إذ يقول: قتلتم عترتي وانتهكتم حُرمتي فلستم من أمتي. رحم الله امرأ قبل نصيحتي وحفظ وصيّتي في الله وفي رسوله وأهل بيته، فإنَّ لنا في رسول الله أسوة حسنة».

ولما تنادى الحاضرون لنصرته، رد عليهم قائلاً: «هيهات أيها الغدرة المكرة حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم أتريدون أن تأتوا إليّ كما أتيتم إلى أبي من قبل؟ كلا وربّ الرّاقصات، فإن الجرح لم يندمل، قتل أبي عليه السلام بالأمس وأهل بيته معه، ولم ينسني ثكل رسول الله صلى الله عليه وآله وثكل أبي وبني أبي، ووجده بين لهاتي ومرارته بين حناجري وحلقي، وغصصه تجري في فراش صدري، ومسألتي أن لا تكونوا لنا ولا علينا». ثم قال شعراً:

ولا غرو أن قتل الحسين فشيخه ... لقد كان خيراً من حسين وأكرما
فلا تفرحوا يا أهل كوفان بالذي ... أصيب حسين كان ذلك أعظما
قتيل بشاطىء النهر روحي فِداؤهُ ... جزاء الذي أرداه نار جهنما

ثم قال (ع) «رضينا منكم رأساً برأسٍ فلا يوم لنا، ولا يوم علينا».

* الحلي: نفس المرجع، ص١٠٨ ـ ١١١.

ملحق رقم ١٣ *

نص الخطبة التي ألقاها زين العابـدين، علي بن الحسين في مجلس يزيد بالقصر الأخضر بدمشق، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها النـاس، أُعطينـا ستّاً وفضّلنـا بسبع: أُعطينـا العلـم والحلم والسماحـة والفصـاحة والشجـاعـة والمحبة في قلـوب المؤمنين. وفضّلنـا بأنّ منّا النبي المختـار محمد(ص)، ومنّا الصديق، ومنّا الطيار، ومنّا أسدُ الله وأسدُ رسوله ومنّا سيّدة نساء العالمين فاطمةُ البتول، ومنّا سبطا هـذه الأُمة، وسيدا شباب أهل الجنة فمن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي:

أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابنُ زمزم والصفا، أنـا إبنُ من حمل الزكاة بأطراف الرداء، أنـا ابن خير من ائتـزر وارتـدى، أنـا ابنُ خير من انتعل واحتفى، أنـا ابنُ خير من طاف وسعى، أنا ابنُ خير من حـجَّ ولبّى، أنا ابنُ من حُمِلَ على البراق في الهواء، أنا ابنُ من أُسري به من المسجـد الحرام إلى المسجد الأقصى، فسبحـان من أسرى، أنا ابن من بلغ به جبرئيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن من دنـا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابنُ من صلّى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابنُ محمد المصطفى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قـالوا لا إله إلا الله، أنا ابنُ من بـايع البيعتين، وصلّى القبلتين، وقـاتل ببدر وحنين، ولم يكفـر بـالله طرفـة عين، يعسـوب المسلمين، وقاتل النـاكثين، والقـاسطين والمارقين، سمح سخي، بهلـول زكـي، ليث الحجـاز وكبش العـراق، مكيّ مـدني، أبطحي تهامي خيفي عقبيّ، بدريّ أحديّ، شجريّ مهاجريّ، أبو السبطين، الحسن والحسين، علي بن أبي طـالب، أنـا ابـن فـاطمـة الـزهـراء، أنـا ابن سيـدة النســاء، أنـا ابن بضعـة الرسول. . .».

وقد قطع يـزيد الخطبةعلى زين العابـدين خوف الفتنة لاستسلام النـاس للبكاء حينما عرفوا الحقيقة، فسكت عـن الكلام وهو على المنبر، فلما قال المؤذّن: الله أكبر. قال علي بن الحسين: كبَّرتُ كبيرا لا يقاس، ولا يـدرك بالحواسّ، ولا شيء أكبر من

الله، فلما قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله، قال علي: شهد بها شعري وبشري، ولحمي ودمي ومخّي وعظمي، فلما قال: أشهدُ أن محمداً رسول الله التفت علي من أعلى المنبر إلى يزيد وقال يـا يزيد: محمد هذا جدّي أم جدك فإن زعمت أنـه جدّك فقد كذبت وإن قلت إنه جدّي لم قتلت عترته؟».

وبعد فراغ المؤذن تقدم يزيد وصلى الظهر.

الهوامش:

* فتوح ابن أعثم ٥/ ٢٤٧ ــ ٢٤٩، أيضـاً، مقتل الخوارزمي ٢/ ٦٩ ــ ٧١ عـن العسكـري: نفس المرجع، ص١٦٥ ـ١٦٦ (الخطبة موجزة).

ملحق رقم ١٤ *

نص الخطبة التـي ألقاها الإمـام زين العابـدين، علي بن الحسين (ع)، في أهل المدينة حين استقبلوه خارج المدينة، بعد عودته من رحلة الإستشهاد بكربلاء:

«الحمـد لله رب العالمين، الرحمٰن الرحيم، مـالك يـوم الدين، بـارىء الخلائق أجمعين الذي بعـد فارتفـع في السموات العلى وقـرب فشهد النجـوى. نحمده على عظائم الأمور وفجـائع الدهور وألم الفجائع ومضاضـة اللّواذع وجليل الرّزء وعظيم المصائب الفاظعـة الكاظة الفادحـة الجائمة. أيها القوم، إنَّ الله وله الحمـد ابتلانا، بمصائب جليلة وثلمة في الإسلام عظيمة، قتل ابو عبد الله الحسين، عليه السلام، وعترته وسبي نسائه وصبيتـه، وداروا برأسه في البلدان من فوق عـالي السنان. وهذه الرزية التي لا مثلهـا رزيَّة. أيها الناس فأي رجالات منكم يُسرُّون بعـد قتله؟ أم أية عين منكم تحبـس دمعهـا وتضـنُّ عن انهمالها، فلقـد بكت السبع الشـداد لقتله، وبكت البحار بأمواجها، والسموات بأركانها، والأرض بأرجائها، والأشجار بأغصانها، والحيتان ولجج البحار والملائكة المقرَّبون وأهل السموات أجمعون.

يا أيُّها النـاس، أيُّ قلب لا يتصدع لقتله؟ أم أي فـؤاد لا يحنُّ إليه؟ أم أيُّ سمع يسمع هذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام.

أيُّها الناس، أصبحنـا مطرودين مشردين مذودين وشاسعين عن الأمصـار، كأنَّا أولاد تـرك وكابل من غير جـرم اجترمنـاه ولا مكروه ارتكبنـاه، ولا ثلمة في الإسـلام ثلمناهـا، ما سمعنـا بهذا في آبائنـا الأولين. إن هذا إلا اختـلاق، والله لو أن النبي تقدم إليهم في قتالنـا كما تقدم إليهم في الوصاية بنا لما زادوا على ما فعلـوا بنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون مـن مصيبة ما أعظمها وأوجعها وأفجعها وأكظَّهـا واقطعها وأمرَّها وأفدحها، فعند الله نحتسب فيما أصابنا ومابلغ بنا، فإنه عزيز ذو انتقام».

* الحلي، المرجع نفسه، ص ١٣٨ ـ ١٤٠.

فهرست المصادر

أولاً: المصادر الأولية:

أ ـ المخطوطات:

١ ـ الأبشيهي، أبوالبقا محمد بن أحمد الخطيب: المستطرف من كل شيء مستظرف.

٢ ـ الأصفهاني، آغا محمد رضا القمشاهي: بيان في خلافة النبي.

٣ ـ البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل: الجامع الصحيح، مجلدان، ثلاثون جزءاً.

٤ ـ الحائري، محمد الموسوي البوشهري: اللؤلؤة العالية في الرد على الفرقة الغالية.

٥ ـ الحلي، علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس: اللهوف على قتلى الطفوف.

٦ ـ الخوي، أحمد بن محمد بن علي: أطباق الذهب.

٧ ـ الصَّغاني: مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية.

٨ ـ العاملي، بهاء الدين محمد: زبدة الأصول.

٩ ـ العاملي، تاج الدين بن علي: التتمة في تواريخ الأئمة.

١٠ ـ الكبداتي، محمد مؤمن بن محمد سعيد: مشكاة المصابيح.

١١ ـ المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد: تصحيح اعتقاد الإمامية.

١٢ ـ ملا علي، محمد: تكفير المكفرين.

ب ـ الكتب المنشورة.

١ ـ ابراهيم، حافظ: الجزء الأول من ديوانه، الناشر محمد أمين دمج، بيروت، لبنان، ١٩٦٩م.

٢ ـ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٤ مجلدات (٢٠ جزءاً). دار الفكر، تاريخ ومكان النشر غير مدونين.

٣ ـ ابن الأثير: أبو الحسن على بن أبي الكريم، محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب بعز الدين، المتوفى سنة ٦٣٠هـ، الكامل في التاريخ، مجلد ١، تاريخ ماقبل الهجرة، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٤ ـ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (٥١٠ ـ ٥٩٧ هـ): صفة الصفوة، حققه وعلق عليه محمود فاخوري، خرَّج أحاديثه د. محمد رواس قلعة جي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٥ ـ ابن حجر، احمد الهيثمي: الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

٦ ـ ابن حنبل، احمد بن محمد: المسند، جـ ١، ٢، ط ٣، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، ١٣٦٨هـ ـ ١٩٦٥م.

٧ ـ ابن طولون، شمس الدين محمد، نوادر المخطوطات (الأئمة الإثني عشر): ٩٥٣هـ ١٥٤٦م، مؤرخ دمشق، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.

٨ ـ ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة (جزءان)، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

٩ ــ ابن هشـام : السيرة النبـويـة ، جـ ١ . حققهـا وضبطهـا وشرحهـا ووضع فهارسها مصطفى الشعار، إبـراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. ١٣٥٥ ـ ١٩٣٦ .

١٠ ـ البلاذري : انساب الأشراف، القسم الرابع، جـ ١ ، بيروت، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٧٩م . دار النشر غير مذكورة .

١١ ـ الذهبي، الحافظ المؤرخ شمس الدين بن أحمد بن عثمان : تاريخ الإسلام : السيرة النبوية ، تحقيق الـدكتور عمر عبد السلام تدمـري ، دار الكتاب العربي ، ط ٣ ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .

١٢ ـ الطبري : الحافظ محب الـدين أحمد بن عبد الله : ذخـائر العقبى في مناقب ذوي القـربى ، دار المعـرفـة للطباعـة والنشر. بيروت ــ لبنـان، تـاريخ النشر غير مذكور.

١٣ ـ العسقلاني، الحافظ أحمد بن علي بن حجـر: (٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ). صحيح البخاري، جـ ١ ، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، تاريخ النشر غير مذكور.

١٤ ـ مناظرة بين الغروي والهروي ومجادلتهما في أمر الخلافـة حال اجتماعهما بمرقد الإمام علي بن موسى الرضا ، في مدينـة مشهد بإيران، نقلاً عن نسخة طبع العراق ، ط ٣ ، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ .

١٥ ـ النسـائي ، الإمام الحافظ النقـاد أبو عبـد الرحمن أحمد بن شعيـب ، كتاب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . تصنيـف أبي إسحاق الحويني الأثري ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

١٦ ـ الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد المتوفّى سنة ٢٠٧ هـ : كتاب الردَّة، رواية أحمد بن أعثم الكوفي، المتوفى سنة ٣١٤هــ، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري، ط ١ ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠م .

ثانياً: المصادر الثانوية:

أ ـ العربية:

١ ـ الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر بن أحمد، الملل والنحل، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥.

٢ ـ الأمين، السيد محسن: أعيان الشيعة: مجلد ١، ٢، ٣، ٤، ٧، ٨ دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٣ ـ البحراني، السيد هاشم الحسيني التوبلي، المتوفى سنة ١١٠٧ هـ أو ١١٠٩هـ: الإنصاف في النص على الأئمة الاثني عشر من آل محمد (ص) الاشراف، صحّحه وترجمه فارس سيد هاشم رسولي محلاتي، جانجانه علمية، ١٩٦٦م.

٤ ـ البياضي، الشيخ زين الدين بن محمد علي بن يونس العاملي، النباطي، المتوفى عام ٨٧٧هـ، الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، صححه وحققه وعلق عليه محمد الباقر البهبودي، المكتبة المرتضوية، مطبعة الحيدري. تاريخ النشر غير مدوَّن.

٥ ـ الشرقاوي، عبد الرحمن: علي إمام المتقين، (جزءان). مؤسسة الوفاء، ط ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٦ ـ الجزائري، السيد نعمة الله الموسوي: الأنوار النعمانية، جـ ١، مطبعة شركة جان به، تبريز، إيران، تاريخ النشر غير مدوَّن.

٧ ـ الحسني، هاشم معروف: سيرة الائمة الاثني عشر، القسم الأول، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م.

٨ ـ الحسيني، محمد: الإمام الشهيد محمد باقر الصدر، دار الفارابي، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٩ ـ الـزركلي، خير الدين: الأعلام، مجلـد ١، ٣، ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٤.

١٠ ـ الشيرازي، السيـد حسن: كلمـة الإمـام الحسن، منشـورات المكتب التجاري للطباعة والتـوزيع والنشر، بيروت، لبنان، ط ١، رمضان ١٣٨٥هـ، ط ٢، شعبان ١٣٨٦هـ.

١١ ـ العسكري، العلامة السيـد مرتضى: معالم المدرستين، قيام الإمام الحسين ضـد الإنحـراف عن سنـة رسـول الله (ص)، المجلـد الثـالث، قسم الـدراسـات الاسلامية، مؤسسة البعثة، مطبعة الاتحاد، طهران، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٢ ـ القـرّماني، أبي العباس أحمد بن يـوسف بن احمد الدمشقي: كتـاب أخبار الـدول وآثـار الأول في التـاريخ، عـالم الكتب، بيروت، لبنـان، تـاريخ النشر غير مدوَّن.

١٣ ـ الكـاشي، الشيخ عبد الوهاب: مأسـاة الحسين بين السائل والمجيب، ط ١، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ١٩٧٣.

١٤ ـ المجلسي، الشيـخ محمد بـاقر: بحـار الأنوار الجامعـة لدرر أخبـار الائمة الأطهـار، ط ٢، المصحّحـة، جـ ٢١، ٢٨، ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٥، مـؤسسـة الوفاء، بيروت ـ لبنان. ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٥ ـ جـرداق، جـورج: علي وعصره، جـ ٤، منشـورات دار مكتبـةا الحيـاة، بيروت، ١٩٧٠.

١٦ ـ خالد، خالد محمد: أبناء الرسول في كربلاء، ط ٢، مطبوعات الشعب، القاهرة/ ديسمبر ١٩٧٧.

١٧ ـ عوضين، ابراهيم (الدكتور): ديوان الخنساء: تحقيق د. إبراهيم عوضين، ط ١، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٨ ـ يماني، محمـد عبده (الدكتور): علمـوا أولادكم محبة آل بيت النبي، ط ١، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١، ط ٢، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، دار القبلـة للثقافة الاسلامية، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت ـ لبنان.

ب ـ الأجنبية

١ ـ

Jihad and Shahadat: (struggle and Martyrdom in Islam), Edited by Mehdi Abedi and Gary Legenhausen, The Institue for Research and Islamic Studies (IRIS).

٢ ـ

Batatu, Hanna: Iraq's Underground shia't Movements:

characteristics, causes, and Prospects, a paper submitted to a Symposium on "Iraq contemporay state".

Which was held at the University of Exeter, United Kingdom

betwen 9 and 12 July

الفهرس

ABSTRACT

The purpose of this book is to focus on the role of " AL MARRA'A AL RESALYYA"* in the formatian of the Islamic history and how the spiritual realm of the prophethood took shape through the ages. "al-Mar'a al-Risaliyya" is not merely a believer OF ISLAM or a righteous figure; within her perspective and inspite of her varied position, she has had the power to shed the light on the spiritual continuity of the prophecy education from one historical stage to another. Thus, the research will attempt to give a presentation of the origin of the early prophecy education which characterized the individual merits of the selected examples. This, however, will clarify the women's roles in revival of the spiritual influence during any transistory period in which secular rulers violated the Islamic faith.

Undoubtedly, there were many highly but the successive led to the definition of the prominent roles which contrebute effectually to the revival of Muhammadanism spirit.

Accordingly, this study consists of preface, introduction, four chapters, conclusion, appendices and bibliography.

The introduction of this stuoy is devoted to the recognition of the social position of the pre-Islamic woman and how it has been reformed after the emergence of Islam.

The earliest educational methods, on which the beginning per-

sonality of the had been built, are discussed in the first chapter. The early merits of the prophecy by which al-Sayyida Khadija* has been recognised have also been surveyed in this chapter.

Chapter two deals with the major socio-prophetical applications which have been applied by the Prophet's daughter Fatimatu al-Zahra'. The primitive establishment of the early shapes of the spiritua realm of the prophethood are the subjects of this chapter.

Chapter three emphasizes the contributions of the Prophet's granddaughter zaynab alongside her effective attitudes after the tragedy of brother al-Husain and his companions in Karbak.

Chapter four deals with the roles of ten ideal women who contributed to the revival of the prophethood spirit through the Islamic history.

The conclusion has summarised the results and the suggestions to which the modern educationalists and the contemporary women can refer to improve the principles of the spiritual applications.

The appendices include text of a number of public speeches for the Prophet's relatives such as Fatimatu al-Zahra' , while the bibliography has categorised the primary and secondary sources, and the majority of this research depends on the primary sources.